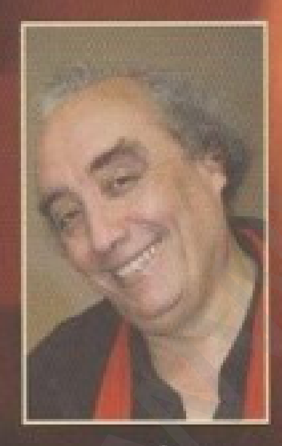
أنثى السراب

رواية

فِي شَهْوَةِ الْحِبْرِ، وَفِتْنَةِ الْوَرَقِ



واسيني الأعرج



29
أكتوبر
2009

كتاب
دبي الثقافية
يصدر عن مجلة دبي الثقافية
ويوزع مجاناً مع المجلة
الإصدار 29

أنثى السراب

(سْكرِيبْتُورْيُومْ)

روايــة

في شَهْوَةِ الْحِبْرِ، وَفِتْنَةِ الْوَرَقِ

■ الطبعة الأولى، أكتوبر ٢٠٠٩



المدير العام رئيس التحرير
سيف محمد المري

مدير التحرير
ناصر عراق

المدير الفني
أيمن رمسيس

مدير العلاقات العامة
محمد بن مسعود

مجلة دبي الثقافية تصدر عن دار



للصحافة والنشر والتوزيع

عناوين المجلة
www.alsada.ae

■ التحريـر والإدارة دبي:
الإمارات العربية المتحدة دبي
منطقة الصفا شارع الشيخ زايد
هاتف: ٣٤٢٢٢٢٤/٩٧١٤+
فاكس: ٣٤٢٢٦٦٦ ٣٤٢٢٩٢٩ / ٩٧١٤+
أبوظبي هاتف: ٦٢٦٨٨٩٢/٩٧١٢+
فاكس: ٦٢٦٨٨٨٣/٩٧١٢+

■ الإعلانات والتسويق:
دبي شارع الشيخ زايد
برج المدينة (٢) شقة ٤٠٢ ص.ب: ٢٩٠٦٦
هاتف: ٣٣١٤٣١٤/٩٧١٤+
فاكس: ٣٣٢٢٢٩٢/٩٧١٤+

■ التوزيع والاشتراكات:
هاتف: ٣٤٩٠١٠٠/٩٧١٤+
فاكس: ٣٤٩٠٦٠٠/٩٧١٤+

هذا الإصدار

بقلم: سيف المري

لُحمة الثقافة العربية واحدة على رغم ما أثير من معارك بين المشارقة والمغاربة، وكَيْل من اتهامات وسجالات حاولت أن تقسم الأمة إلى مركز وهامش.. والناظر بعين الناقد إلى ما قدمه المثقفون المغاربة إلى الأدب العربي من روائع، وإلى الثقافة العربية من زخم، يجد أن الأدب المغاربي مميزٌ في مستواه، وعربيٌّ كاملُ العروبة في هواه ورؤاه..

ولهذا؛ فإن تنوع ألوان طيف الثقافة العربية ووجود بعض الفوارق بينها، من علامات عمق ونضج هذه الثقافة التي امتزجت ببعضها منذ أمد بعيد، بل لقد ذهب التمازج إلى أبعد من ذلك، واختلط بشغاف الثقافة الشعبية مع أشهر سير التاريخ الشعبي العربي، ألا وهي السيرة الهلالية التي استمدت شخوصها وأبطالها من أفراد قبيلة نجدية هاجرت إلى تونس، وشكلت هجرتها تلك أخصب خيال شعبي عربي، بينما دارت أحداثها على أرض مغاربية.

وبالتسليم أن الرواية العربية لم تولد من الأدب الشعبي، بل جاءت نتاج تأثرنا بالأدب الإنساني، إلا أنها أنتجت على يد الرواد العرب أدباً رفيعاً تحول الكثير منه إلى العالمية، وصار خير ممثل لهذه الأمة، وهي تطل برأسها إلى خارج الشرنقة التي حاول الكثيرون نسجها حولها.

ومع أن الرواية فن عالمي سيطر على المشهد الثقافي في الفترة الممتدة من القرن الثامن عشر حتى الآن، فإنها لم تجد طريقها إلى عمق ثقافتنا قبل بدايات القرن العشرين، أي أننا لم نبتدع هذا الفن كما حصل مع الكثير من الفنون الرائعة التي أنشأناها أو أضفنا إليها..

ومع كل ما يمكن قوله، صار للرواية العربية، بدءاً من النصف الثاني من القرن العشرين، حضور لافت، وحلت محل الشعر وأبعدته عن الصدارة، وقد لمعت في سماء الإبداع الروائي أسماء عربية وصلت إلى العالمية، وكان بعضها يكتب رواياته بالفرنسية أو الإنكليزية أملاً في انتشار أوسع!.. ومع بروز أسماء كبيرة في هذا الفن؛ فإن أستاذنا الرائع واسيني الأعرج خير من يمثل الرواية المغاربية والجزائرية.

ونحن إذ نقدم هذا العمل الكبير لقرائنا الأعزاء؛ فإن جُلَّ ما نتمناه أن نكون قد وفقنا في إضافة المزيد إلى روائع الأدب العربي، وأن يحوز هذا الإصدار رضى قرائنا الكرام.

واسيني الأعرج
وفضيلة الانكباب على اللغة

بقلم: ناصر عراق

ها قد وصلنا في هذه السلسلة إلى الأدب المغاربي وتحديداً الرواية الجزائرية المكتوبة باللغة العربية، حيث يعد الروائي الكبير واسيني الأعرج أحد أبطال هذا الفن بامتياز في بلد المليون شهيد، وبالمناسبة كان والده واحداً من هؤلاء الشهداء الأبرار!

«أنثى السراب» رواية تنهض على الخوض في سراديب النفس البشرية للرجل والمرأة بعمق وحذق: الرجل حين يعمل ويعشق ويهاجر ويمرض ويموت إلا قليلاً! والمرأة حين تتلهف وتصبو وتهفو وتيأس وتغار وتخون وتقتل!

في هذه الرواية الباذخة والضخمة يطوف بنا واسيني مدناً عدة فمن باريس إلى الجزائر العاصمة، ومن وهران إلى فيينا، ومن بيروت إلى برلين ومن القدس إلى الدوحة، أي أنه يرسم لنا لوحة باتساع العالم تتفاعل فيها الشخوص وتتصارع وتتحاب وتتخاصم وتحن وتذوب ويسقط بعضها إعياء في الطريق العام!

كل ذلك من خلال تقنية الرسائل المتبادلة بين أبطال هذا العمل الضخم، وهي تقنية مراوغة وغير مأمونة قد تصيب القارئ بالضجر إذا لم يتقن المؤلف ضبط إيقاع السرد من خلالها، وأظن أن واسيني – هذا الحكّاء الكبير – قد استطاع أن يقدم لنا رواية بديعة تأسر قارئها وتجرجره جراً حتى نهاياتها!

المدهش أن الرجل يتعامل مع اللغة بافتتان يليق بها وبه فهي معشوقه الأول، وقلقه الدائم، فينكب عليها انكباباً حيث يبذل جهوداً خارقة لابتكار صياغات جديدة، وتراكيب فريدة، حتى يقدم لنا نصاً خلّابا قوامه اللغة ومكرها وألاعيبها وحنانها وانصياعها لرغباته وقدراته!

وقد لمست ذلك بنفسي، فقد كان يتصل بنا من باريس ليطلب منا أن نغيّر هذه الكلمة أو نبدّل هذه المفردة، على الرغم من أننا قد استلمنا منه الرواية وشرعنا في إجراءات الطبع.

على أي حال، يعبر هذا القلق عن رغبة حميمة في أن يصدر النص الروائي كامل الأوصاف، وهي رغبة مشروعة وضرورية للذين أدركتهم حرفة الأدب!

باختصار.. إننا في «دبي الثقافية» يسعدنا كثيراً أن نقدم في هذه السلسلة «أنثى السراب» للقارئ العربي لأنها رواية ممتعة وضاجة بالأحداث، أبدعها بإتقان كاتب جزائري مرموق يعرف أصول الصنعة ويتقن فنونها، فهنيئاً لك أيها القارئ الكريم بهذا العمل الجميل!

أنثى السراب

(سَكْرِيبْتُورْيُومْ)

فِي شَهْوَةِ الْحِبْرِ، وَفِتْنَةِ الْوَرَقِ

واسيني الأعرج



ريما، ابنتي وحبيبتي..

شكراً لك، وحدك فهمت جيداً سر هذه اللعنة وهذا الخوف الساحر الذي اسمه الأدب. مجرد لحظة ألم من امرأة ورقية معلقة في شجرة الجنة، تريد أن تنزل إلى هذه الأرض لاستعادة صراخها ولحمها وحواسها الضائعة من سطوة اللغة، ومن سلطان الكاتب نفسه. وتقسم هذه المرة، أنها لن تحاسب إبليس على سحره. ستتواطأ معه. تجلس بصحبته تحت شجرة الغواية. تطلب منه بإصرار، أن يأخذها من يدها كمن يدعو عشيقته نحو حلبة الرقص، ويقطف لها تفاحة أخرى بيديه المرتعشتين، ويضعها في فمها قطعة قطعة، مثقلة بنبيذ الشهوة، لتشعر بلذة ذوبانها الهادئ تحت لسانها، وتكتشف معه أكثر المسالك دهشة وهبلا. لقد أدركت، متأخرة قليلاً، أن دنيا واحدة عاشتها، لم تكن كافية لإشباع جوعها الأبدي للحياة.

ليست هناك حقيقة أكبر من حقيقة الأدب. حتى عندما نصر على الحقيقة، نحن لا نكتب في النهاية إلا حياة موازية سندها الخفي إشراقات وخيبات ولغة تضعنا على حواف المستحيل.

واسيني



«بالأمس القريب، إن لم تخني ذاكرتي، كانت حياتي عرساً تتفتح فيه القلوب وتُرفع فيه الأنخاب. وذات مساء، أجلست السعادة على ركبتي، وجدتها مرة، فلعنتها[1]».

آرثر رامبو:
فصل في الجحيم

«الصمت صديق أخرس وأناني، يسمع ولا يجيب أبداً».

واسيني



امرأة تشبه الحياة قليلاً

ليلى...
ليلي الحبيبة،

إرثي الثقيل، وفقداني العظيم.

هل يمكن قتل امرأة ورقية تشبه الحياة قليلاً، لا حياة لها إلا داخل الكتب والقلوب؟

أضع كل هذا الجنون المشتهى بين أيدي القرّاء، كما شئتِ، لا كما ارتضيتُ، ولا ضامن لنا في هذه المغامرة المجنونة التي يتقاسمها كاتب من لحم ودم، مع امرأة من ورق وحبر، إلا الصبر وظلّ الكتابة السخي.

عندما وصلني بريدك الأخير، بعد أن عبر المهالك والمستحيلات، كنتُ أتلمس الحياة برؤوس أصابعي من جديد، كمن استرجع بصره بشكل فجائي. كان كتابك السري محملاً بهواجس انتقامك من امرأة هي في النهاية، مرآتك ومرآتي الخفية. ليس في نيتي أن أخطِّئك، فقد كانت مريم ومازالت، أيقونة حبري البنفسجي، ولوني المستحيل، وعزائي الوحيد لمقاومة يقين الضحالة والقبح.

هل أقول لك إني شعرت بجرح عميق وأنا أقرأك؟ وإني أحسست فجأة بخواء مفجع تحت قدمي، وبدوار يتهدد توازني؟ وإني لم أفهم أبداً كيف تغادر امرأة فراش الكلمات، وعطرَ الحبر، ورائحة الورق الزكية، وترمي بنفسها في أتون حياة محكومة بالفناء والموت؟

لم تتركي لي خيارات كثيرة. ها أنا ذا أغمض عيني لكي لا أرى، وأسد أذني لكي لا أسمع هدير الضغينة من حولي، وأمنح جرحنا للعابرين، كما كتبتِه لا كما اشتهيتُه.

من حقك حبيبتي وأنت تضعين نفسك في موضع أنثى الظل، أن تحملي

مسدساً تجوبين به مدينة الكلمات وأزقتها الضيقة، بحثاً عن وَهْم اسمه مريم لاغتياله. من حقك أن تصنعي فراشاً جديداً من الرسائل واللغة، تنامين عليه كلما كانت قسوة الدنيا كبيرة. من حقك أيضاً أن تشعلي النار في كل الأوراق التي جمعتنا، وتحوليها إلى حفنة رماد ثم تبعثريها مع رياح الخريف القادمة. من حقك أن تفعلي ذلك كله، لن يتغير شيء. ستظل مريم الأنثى الظليلة التي تغطي ضعفنا وهزائمنا، ودسائسنا الصغيرة.

أتساءل اليوم، بعد كل هذا العناء، إذا لم تكن مريم التي أطلقتِ النار عليها، هي نفسها ليلى التي حين داهمها اليأس، حملت كمان والدها سي ناصر، وعزفت نشيداً عذرياً، وهي في أوج نزفها، قبل أن تنطفئ نهائياً؟

واسيني

نداء أخير...

-١-

واسيني...

أكتبك بلا ندم، باللون البنفسجي، أو حبر الشهوة، كما كنت تسميه دائماً، فقط لأملك قلبك للمرة الأخيرة.

تستحق حبيبي على الأقل أن أهديك هذا الهبل.

-٢-

كان يمكن أن تُحكى عنا أجمل القصص، ولكنك ذهبتَ قبل أن أنبهك إلى أسرار اللعبة ومخاطرها التي لم تكن تتقنها منذ لقائنا الأول. بكيتك يوم صمت قلبك كثيراً، وصممت أن أمارس الموت وفق شهوتي، وأستل حروفك من نصوصك، وأحولها إلى سيف مقدس مثل سيوف الساموراي، وأجهز على نفسي، في الركن الأيسر حيث مشيئة القلب. ولكن يداً مفاجئة لم أتمكن من رؤيتها، أعرف فقط ، أنها لم تكن يد الله، سحبتني .من غفوتيّ وجرتني نحو الحياة،، ومنحتني نفساً من روحها، ثم أوقفتني أمام مرآة جليلة اسمها الحياة، ودفعت بي داخل سحرها.

طوبى لتلك اليد التي أشعلت الهبل في كل حواسي الميتة، وأيقظت مدافني الحية، ثم انسحبت ولم تطالبني بأي شيء.

-٣-

لقد كتبتُ اشتهيتُ.

لحظة ألم من امرأة ورقية معلقة في شجرة الجنة، تريد أن تنزل إلى هذه الأرض لاستعادة صراخها ولحمها وحواسها الضائعة من سطوة اللغة، ومن سلطان الكاتب نفسه. وتقسم هذه المرة، أنها لن تحاسب إبليس على سحره. ستتواطأ معه. تجلس بصحبته تحت شجرة الغواية. تطلب منه بإصرار، أن

يأخذها من يدها كمن يدعو عشيقته نحو حلبة الرقص، ويقطف لها تفاحة أخرى. ترجوه أن يقشرها بيديه المرتعشتين، ويضعها في فمها قطعة قطعة، مثقلة بنبيذ الشهوة، لتشعر بلذة ذوبانها الهادئ تحت لسانها، وتكتشف معه أكثر المسالك دهشة وهبلاً. لقد أدركتْ، متأخرة قليلاً، أن دنيا واحدة عاشتها، لم تكن كافية لإشباع جوعها للحياة.

ليعذرني واسيني على خبلي، فنحن في النهاية نتشابه.

ليلى (ليلي)

الفصل الأول

حنين الرماد

-١-

من أنا الآن بعد كل هذا العناء؟ كل شيء... إلاّ مريم.

تمدّدت بكل طولي على الكرسي القصبي. أغمضت عيني لأسترجع أنفاسي المتقطعة قليلاً. لم أنم، ولا أشعر بأية رغبة في ذلك على الرغم من التعب الذي سكن كل مفاصلي.

تحسست جسمي والمكان الذي كنت فيه.

«امنحني حبيبي فقط فرصة قتل مريم فيك، لكي أستطيع أن أعيش معك بقية عمري حرة، مثلما أحلم. ولا تسألني لماذا؟ الإجابة لم تعد اليوم تهم كثيراً. لك الإجابات كلها، في ربع قرن من الخوف، والصمت، والأقنعة التي أستطيع اليوم أن أفتح متحفاً خاصاً بها. ربع قرن من الصبر والخوف...»

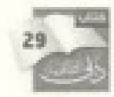
هل تدري ما معنى ربع قرن من الصبر والخوف؟

حفظت هذا المقطع عن ظهر قلب، من آخر رسالة بعثت بها لواسيني من غرناطة. لا أدري بالضبط، ماذا أصابني يومها، وهل فهمني كما يليق برجل حساس، يخاف على حبيبته؟ منذ عودتي من مدينة أجدادي الحزينة، اتخذت قراراً نهائياً بتصفية حسابي مع ظلي وسرابي، مريم.

قبل قليل اشتهيت شرب كأس قهوة مُرّة لأثبّت رأسي الذي شعرت به في حالة دوار دائم، ولكنني سرعان ما عدلت عن الفكرة. وضعت الترمس[٢] في الزاوية، ناحية رجلي اليمنى، ونسيته هناك.

الصمت الآن يتمدد على سكينة الأشياء كظل الميت. هذا القبو، أو الكهف كما يسميه ابناي وزوجي، وأسميه أنا منذ زمن بعيد السكريبتوريوم[٣]، يعطي الانطباع، بأشيائه الكثيرة والممنوعة، بقبر فرعوني تُرك تحت الأرض. حتى طنين الذبابة الزرقاء، التي لا أدري من أين جاءت، انطفأ نهائياً. ربما تكون قد تعبت هي أيضاً من كثرة الدوران الذي لا يفضي إلى أي شيء.

عليّ أن أنسى الآن كل شيء، بما في ذلك الدعوة لاستلام نتائج التحاليل



الرحمية، التي رميتها في الطرف الأيسر من المكتب ليسهل علي تذكرها. مسألة شكلية ولكن علي أن أرتب كل تفاصيلي لأتمكن من السيطرة عليها.

«- حبيـ...بي... اسمـ...عني أرجـ...وك... لنا كل الموت لننام».

جاءتني الكلمات متقطعة، من زمن بدا لي أبعد من بلاد الخوف.
قلتها له لا أدري متى.

-٢-

«هكذا إذن؟ لنا كل الموت لننام؟».

كان يجب أن يحدث ذلك. واسيني لم يقم من غيبوبته القاتلة، أو على الأقل هذا ما أقنعت نفسي به. ومريم أصبحت الآن تحت رحمتي. لن أستأذن أحداً لتصفية حسابي معها. كان علي أن أفعل ذلك قبل مدة. تأخرت كثيراً.

قبل قليل حشوت مسدس بريتا، (برابللوم[4]) ٩ ملمتر، بسبع رصاصات ووضعته بجانبي في انتظار لحظتي المناسبة. ثقيل، ولكنه قوي ومتين. المجرم والبريء الحاقد يفكران بالطريقة نفسها. الفرق بينهما في لحظة النسيان، الأسئلة الخفية، رجفة الارتباك، ثم العبور نحو التنفيذ فقط.

لبست الأسود استعداداً للحداد، فأنا مقدمة على شيء خطير، قلبته في رأسي طوال الزمن الذي أعقب سقوط واسيني في غيبوبة فجائية، ودخوله إلى مستشفى كوشان بول سان- فانسون بباريس[5].

الساعة؟ لا أدري بالضبط. أسمع فقط، حركتها الداخلية التي تشبه الساعة التقليدية، وكأنها قنبلة موقوتة تتصيد ضحيتها. أرى الآن لوحتها المواجهة لي. نقاط حمراء متتابعة ومستقيمة على خلفية سوداء ... ... كل شيء يبدو منطفئاً. لا أرقام أبداً. كأن الزمن توقف نهائياً لولا تلك الحركة الخفية للعقارب المضمرة، التي تصلني برتابة مقلقة، وتحسسني باحتمالات انفجار سيحدث في أية لحظة، وفي أي مكان، بما في ذلك جسدي أو رأسي المتعب.

كل شيء يحمل قوة الصمت العنيف التي بداخلي.

ما يزال الكمان الذي عزفت به طوال الليل مقطوعات سوزان لونديغ[6]، في مكانه حيث وضعته عندما انكفأت على الكتابة. المسدس أيضاً تمدد ظله قليلاً ببرود وكأنه مجرد لعبة نسيها طفل على المكتب بعد أن شبع لعباً بها. لم يتحرك من مكانه منذ أن حشوته بالرصاصات السبع، وأنا لا أعرف بالضبط في أية لحظة سأستعمله، لكني مقتنعة أنه ضروري للانتهاء من هذا التردد القاتل؟

تلمسته. بارداً كان، كجثة ميت. لأول مرة لا أخاف منه.

نسيت وجوده بسرعة، منذ أن انغمست في كتابة هذا النزيف على الكمبيوتر.

طبعاً لم أتساءل ماذا سأفعل بعزلتي. كل شيء صاف في ذهني ولا يوجد أي ارتباك في قراري النهائي. أعرف جيداً لماذا انزويت في السكريبتوريوم، بعد أن وصلت إلى نقطة اللارجوع. النقطة الفاصلة بين جبن الحياة وبهاء الجنون.

سأفترض أن واسيني لم يستيقظ من غيبوبته أبداً لأتمكن من تجاوز قلقي الداخلي نهائياً. وسأقنع نفسي بأن كل ما قاله الأطباء لأهله، هو مجرد لعبة طبية لإتاحة الفرصة لعائلته لترتيب ترحيله إلى أرض الوطن بلا ضجيج، كما أكد على ذلك في وصيته الأخيرة.

ليس جنوناً، بل هو عين العقل. افترضت إغفاءته الشبيهة بالموت، فقط لأختبر حواسي الدفينة على المقاومة، وقدراتي العقلية على الاتزان، واختراق عتبات الاستكانة والخوف من الفقدان والتيه، ولأروض قلبي المتعب على الصبر. وربما، أكثر من ذلك كله، لأتمكن من تصفية حسابي مع مريم التي أدخلتني الكتابة في جلدها، وأخرجتني من الحياة.

قبلت باللعبة ولكنها، قتلتني في النهاية. لست مجبرة على الاستمرار وفاء لكذبة تسحقني كل يوم عشرات المرات. فأنا لا أطلب البحر. حلمي بسيط كالماء.

«أريد أن أسترجع هويتي المسروووووووقة. هل فهمت؟ لا أريد شيئاً آخر غير استرجاع هذه الهوية المسروقة. أرفض أن تلبس مريم وجهي، وتسرق ملامحي، وتعيش بجسدي كل شهواتها وجنونها».

لست امرأة من ورق، ولكنني حقيقة واسيني المرة التي يحاول أن يتفاداها وربما إخفاءها، وهي منغرسة فيه بقوة.

قبل قليل، عندما تعبت من العزف، أدخلتُ قرص سوزان لوندينغ في عمق الكمبيوتر، ووضعته على إشارة التكرار لكي يظل يدور بلا توقف مثل المجرة.

صوت الكمان الذي يتلوى بين أنامل سوزان لوندينغ الرقيقة والأنيقة، يأتيني الآن واضحاً، وبلا صدى، في هذه الغرفة المدفونة تحت الأرض. أسمع الأنين القلق وهو ينبعث من روح متوارية باستمرار نحو الغياب، بعد أن تحولت إلى نثار من النور الذي يصعب لمسه والقبض عليه. تأتيني النداءات العميقة، متماوجة، متباعدة ومتقاربة، جافة وسلسة، عنيدة ومستسلمة، كأنها ساحل موحش، أبدي الحركة. نباهتي المتقدة الآن تجعلني أفرق بينها كلها، واحدة، واحدة. أسترجع بعض ما مضى، وألعب. أجمّع اللحظات المسروقة كما يروق لي، ثم أفككها مثل اللعبة قبل أن أطوحها في فضاء وأبعثرها عالياً مثل الفقاعات الصغيرة، وأحاول عبثاً أن أمنعها من الانفجار.

الموسيقى وذاكرتي المتقدة، هي كل ما يؤثث حضوري الآن، ويمنحني حنيناً لذيذاً نحو زمن أصبح فصوصاً صغيرة عليّ أن أجمعها وأرتقها، لأتمكن من فهمها، وربما نسيانها للمرة الأخيرة.

لا أحد غيري يدري الآن ما تفعله فيّ هذه الإيقاعات المتتالية؟

«حبيبي، أقرأ الحيرة في عينيك. كأنك أصبحت لا تعرفني؟ أيها المهبول لو فقط كنتَ تدري... أنا مشبعة بك، مثل إسفنجه، حيثما مستني يد، نضحت بك: عطراً، شوقاً، ألماً وخوفاً. هل تعلم ما معنى أن تنضح امرأة برجل؟»

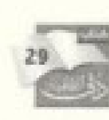
أكتب بلذة وأغرق في شيء جميل ومبهم مثل تقبيله، تحسس جسده، فلي شعره الذي ابيض بسرعة، تفتيش تفاصيله الحميمة، ثم الغوص فيه بجنون لا يضاهى، والتلاشي على تأوهات، كان دائماً يضع يده اليمنى على فمي، كي لا يسمعها الآخرون. مازلت أسمع تنبيهاته المتتالية: ششششششششش... أرجووووووك... عمري... لسنا وحدنا... أتحسس رجفاته المتتالية على صدري. ملامسها قوية وعطرها حاد. أريد عبثاً أن أخرج من جلدي لأحس أنه فيَّ بكله ولكن عبثاً. هو لا يدري أنه كان يكتم أصدق صرخة فيَّ، وأجمل رعشة فيه، صرخة التماهي المطلق؟ رنين اللحظة العشقية التي لا حدود لسلطانها. هل كان يدري ماذا سيحدث لو اندغم الجسدان في تأوه واحد، وصرخة تخرج من الأعماق بشكل بدائي؟

«لا تعرف، ولا ألومك، لأنك في هذه لا تشذ عن القاعدة. فأنتَ ككل الرجال، تنظر دائماً وراءك وخلفك وبجانبك. تسمع إلى أصوات الآخرين أكثر من استماعك للصوت الجميل الذي فيك، حتى في أدق اللحظات حميمية، حيث لا شريك لك، إلا الجسد الذي يحترق. فتضيع اللحظة القدرية التي بين يديك، وتسرق منك في أقل من رمشة هاربة، أو لمسة خفية».

وهو الذي قال يوماً في أحد حواراته الجريئة: إن لذة الكتابة مثل لذة الجنس بالضبط. لا نشعر بسحرها دائماً حينما نشاؤها، نحتاج إلى قدر من الامتلاء بكل ما يحيط بنا من تفاصيل لا نراها إلا نحن، والتماهي في المطلق، حيث لا حدود تمنعنا من المرور عبر كل الحواجز القاسية والشفافة.

السبب ذلك كله؟ غير مهم. وحده واسيني، كان يعرف سر هذا الخراب الذي يحيط بي، ويملأني إرباكاً وخوفاً.

«تخيل حبيبي، إنساناً يستيقظ ذات صباح، ويجد نفسه ليس هو؟
- تضحك؟
- اضحك. أفضل من البكاء».



أنا أيضاً أضحك، لكن بمرارة، لأننا منذ زمن ليس بالقليل، لم نعد نتذكر الشيء نفسه لنضحك ضحكة مشتركة افتقدناها بمرارة. هو يسخر من هبلي الفائت، وأنا تذكرت غريغوري سامسا[7]، المسكين، الذي أغمض عينيه إنساناً سوياً، واستيقظ حشرة بشعة. أحياناً أراني تلك الحشرة التي تدور في مربع صغير يكاد يقتلها اختناقاً. تتسلق الحيطان، تتخبأ عبثاً بين أرجل الكراسي والأسرّة والثقوب النتنة، بحثاً عن نجاة أصبحت رهينة الصدف. وعندما لا تجد الحشرة الضائعة منفذاً لها، تنزلق وراء الباب، تتكوم على نفسها بحزن شديد، وتنتظر متى تدوس قدم خشنة جسدها الهش، إلى أن تنام على عزلتها، داخل الكوابيس المرعبة.

ما الذي يجعلني الآن أختلف عن غريغوري سامسا؟ لا شيء. كلنا ننتظر تلك القدم الخشنة التي تسحقنا على الأرض بوطأتها الخشنة.

-٣-

لا رفيق إلا الصمت الموهن، وذاكرة لم تعد قادرة على تحمل أثقالها المميتة.

حالة سكينة مريبة مثل التي تسبق الموت، حيث يتسطح كل شيء، وتفقد الأجسام الصلبة أوزانها وأشكالها، وتصبح رخوة مثل قطرة زئبق.

« - كم من الوقت مر حتى الآن؟

لا أدري. لا يهم. كل شيء تحول إلى ذرات تعوم في الفضاء الواسع والرث. لا علم لي بالوقت، فأنا عندما رفعت رأسي نحو المنبه لأول مرة، لم أر إلا نقاطاً حمراء ... ... تتراقص على خلفية سوداء، وشيئاً مبهماً ظل يتوغل فيّ، ويسحبني نحو هوة الذاكرة وتمزقها الذي أصبح من الصعب عليّ ترميمه دفعة واحدة، ورتقه كما كنت أفعل مع الألبسة القديمة.

متعبة، ولكني لم أعد منشغلة بذلك، لدي في أجندتي ما هو أهم.

أكتفي الآن بهذا الامتلاء الغريب الذي سبّبه لي مرض واسيني المفاجئ، ووقوفه فجأة على حافة الموت، ثم دخوله في غيبوبة رأيته فيها ميتاً حتى بعد أن التقيت به خفية، في المستشفى. ربما لأني قبل هذا الزمن لم أفكر في موته بجدية. ربما لأني كلما رأيته قادماً من بعيد إلى مواعيدنا العديدة، بقامته المديدة التي ترى من بعيد، شعرت أنه نصف إله ضائع. لم تكن روحه في قدمه مثل آشيل، ولكن في مخبأ آخر، منفصل عنه تماماً، حيث لا يد تلمسها غيري. كنت أظن أنه مثل النجمة المسحورة التي لا تموت إلا لتعود ثانية، في شكل أكثر وضاءة وحياة. وكنت أظن أيضاً، أنه حتى لو قدر لواسيني أن ينطفئ، فلن يكون ذلك إلا مؤقتاً، إذ سرعان ما يعود مثل طائر الفينيكس[8]، محملاً بنثار الحاضر، ورماد الماضي.

مرضه أحدث فيّ زلزالاً عنيفاً غيّر نظام الأشياء في حياتي المكرورة، وأيقظ هاجس العودة إلى كل مفقوداتي التي ضيعتها، بما في ذلك اسمي الذي لا أعرف إذا ما كان عليّ أن أحقد على واسيني لأنه هو من غيّره وفككه، أم أشكره لأنه من اسم هارب وعادي، اسم لا دهشة فيه، إلا عشقه المجنون لنوار البنفسج، صنع عالماً اشتهيته بسرعة لأنه كان يشبهني، لكني كلما اقتربت منه، انزلق من بين أصابعي كحبات الرمل، ولم أتمكن أبداً من وضع وجه وملامح على اسمي.

كأني لم أكن أنا؟

«يكفيني هبلي وجنونك الذي فيّ، ورغبتي القصوى في الانتهاء من الكذبة التي سرقت حياتي. ولا يهم بعدها إن آذيتك. فأنا لا أقصد سوى أن أكون كما عرفتني في المرة الأولى، بدون وسائط. ولا حتى كذب أبيض، ولا أقنعة. حتى ولو كان القناع جميلاً، واسمه مريم».

-٤-

لم أكن أعرف درجة الخطورة، ولكني كنت أدرك أن الأمر جدي، ولهذا عندما قيل لي إن قلب واسيني توقف نهائياً، ثم عاد حتى بدون صدمات كهربائية، تهيأت فجأة لارتداء لباس الحداد الذي لم ألبسه منذ وفاة والدي.

رأيتني فجأة وراء جنازة غريبة، سي ناصر وواسيني؟

شيء قديم يسكنني منذ طفولتي الأولى، لا أفهمه جيداً. كلما تدثرت بالسواد، شعرت بلذة غامرة لا أعرف مصدرها. ولا أستطيع أن أتفادى هذا الإحساس المريك حتى وأنا في عمق الحداد. عندما تراءى لي واسيني في غيبوبته القاتلة، يعبر مسارب الموت بعيون نصف مفتوحة، لم أمنع نفسي من هذا الشعور الغريب. ربما هذا ما دفع بي إلى الزج به نهائياً في إغفاءة الموت، لكي أتمكن من العيش بعده كامرأة عادية.

علينا أن نقتل من نحب لكي نتمكن من الحياة بشكل مخالف.

أضحك أحياناً من هبلي.

«امرأة ورقية تقتل كائناً من لحم ودم؟ رهاني كله هو أن آكل رأس مريم قبل أن تأكلني. كنتَ الحقيقة الوحيدة، وكان قناعي هو الورق».

قد أبدو مجنونة؟ موته لم يكن فرضية فقط، ولكنه كان حقيقة عشتها بقوة جعلتني أستعيد كل ما خسرته: اسمي الحقيقي ليلى أو ليلي كما كان والدي يناديني، رسائلي التي أعشقها لأنها أنيني الحقيقيّ وتاريخي، ووجهي الطفولي الهارب، والانتهاء من امرأة اسمها مريم، أصبحت ثقيلة على قلبي.

لكن مرضه نبهني أيضاً إلى وجودي وانتفائي.

«ربما كانت رسالتك، عندما خرجتَ سالماً من مركز العناية المشددة، من مستشفى كوشان بول سان-فانسون، هي من أيقظ فيَّ هذا الإحساس الغريب».

« Tu me diras que c'est du cynisme? Peut etre[9]... Mon ange! C'est juste une envie folle de retrouver ce vieux rayon, fatigué par le temps, qui ne cesse de briller sur cet amas de cendre. »

قلتُ له منذ زمن بعيد إنني مريضة به، وهذا وحده يكفي لكي لا يحملني شططاً جديداً، ويجد كل أعذار الدنيا لتحمل حماقاتي وجنوني.

ربما معه حق في شيء واحد، هو أن ما أفعله اليوم، ليس صدفة طارئة، ولكني أفعله عن سبق إصرار وترصد. حاجة حيوية ووجودية.

أتساءل وأنا أعرف الإجابة، هل مرت بذهنه يوماً فكرة موتي؟ أن يستيقظ مثلاً ذات صباح ويجد مكاني فارغاً؟ وعندما يفتح الخزانة السرية، تواجهه ألبستي الشفافة التي شهدت أعراسنا الجميلة، و«المانطو» الإيطالي الأسود الذي كان يعشقه، وفساتيني التي كان يشتهي شراءها كلما سافرت معه، أو التقينا في مدينة ما تستطيع أن تحفظ أسرارنا. مدننا الجميلة هي فساتين وحماقات متتالية، ونسيان غريبٌ أننا ننتمي إلى عالم نصنعه كل يوم قليلاً، وكما نشاء. حتى ولو لم نلتق كما نريد، فكرة وجودي حية، ولو في آخر الدنيا، يعطيه نوعاً من الراحة الداخلية. هل مر بذهنه هذا الخراب؟ أستطيع أن أجزم: لا أفهم ذلك جيداً. لأننا عندما نحب، تنفتح في أوجهنا كل الأبواب الموصدة، بما في ذلك أبواب الحياة والقلب. باب واحد يظل مغلقاً لأننا نخافه، هو باب الموت.

«يومها هيأتُ نفسي، من رأسي حتى أخمص قدمي، لافتقادك. فأصبح جلدي مغطى بقشرة تمساح. لكني عندما واجهتُ المرآة، أحسستُ فجأة بمدى البياض الذي خلفتَه وراءك وأصبح يلفني، بدون أن أدرك هول الفجيعة التي كانت كل يوم تتوغل فيَّ بعنف غير مسبوق».

فتحت صندوق الرسائل الخشبي، آخر موروثاته عن جده الأندلسي. كانت رائحة شبيهة بعطر المنسيين، تخرج منه.

رسالته الأخيرة ما تزال في مكانها حيث وضعتها بعد أن أخرجتها من الصندوق. كان بها شيء غريب يصعب عليّ تحديده؛ يشبه الحياة والموت في الآن نفسه. ما تزال على الطاولة مستلقية في تعب ظاهر، غطت بجزئها العلوي، رأس فوهة المسدس. كلما أعدت قراءتها، ذكرتني بأن شيئاً جللاً قد حدث فيَّ وفيه، غيّر نظاماً جنونياً استقر في حياتنا منذ أكثر من ربع قرن.

أقرأها باستمرار، أفليها فلياً، لا لأتأكد أنه يحبني، وأنه ما يزال حياً، وأن الصدفة والأقدار الجميلة منحته فسحة ضافية للجنون، ولكن لأوقف الزمن

عند تلك اللحظة بالضبط، التي فجرت فيَّ هوية ظلت ممزقة بين أقنعة هاربة، وذاكرة أرفض أن تنمحي.

قلت له يوماً:

«أكتب لي حبيبي. يعجبني تطرف مزاجك وأنت في حالة سكر، تبحث عن كلماتك الضائعة. رسائلك، فراشي الجميل، تدفنني من رعشة الخوف الباردة».

ضحك. واسيني لم يتغير أبداً. ظل هو، هو، طفلاً يصعب ترويضه.

* * *

من سين إلى ليلي

ليلي الغالية[10].

عمر الشقي لا ينتفي.

لا أدري ما الذي يعيدني الآن إلى اسمك الأول بعد أن بدأت مريم تهرب مني؟

اسم ليلي جميل. يذكرني بوالدك الذي كان يناديك به قبل أن يموت منكسراً على كمانه. لم أسمعه مرة واحدة يناديك ليلى.

ها قد عدت حبيبتي إلى لوني الجميل. الأزرق. هو مدادي. مثلما كان البنفسجي حديقتنا الملينة بالاشتهاء المجنون.

كل شيء هادئ في هذه الصالة البيضاء التي لم تعد تخيفني. شكراً على عنوان «الإيمايل» الذي خبأته في كفي. ملعونة[11] حتى في لحظة الموت. فقد منحني فرصة لكي أراك من جديد عبر كلماتك وحروفك الهاربة. أنا لا أعرف بالضبط هل زرتني، أم أن حلماً غريباً اخترقني، ويداً سحرية وضعت في كفي تلك الورقة. لا أعرف بالضبط ماذا حدث؟ ولكني عندما استيقظت، لم أجد شيئاً إلا ورقة صغيرة كنت أكزّ عليها بأصابعي المنغلقة بإحكام، وكان علي ترويضها لأتمكن من فتحها. تذكرت بشكل ضبابي أني قلت لك اذهبي إلى البنك وخذي كل الرسائل التي تنام منذ زمن في عمق الصندوق الخشبي الصغير. خمنت أنك استرجعت كل شيء، خوف أن يسقط في دائرة الموت والنسيان. حسناً فعلت. لست نادماً أني وضعتك في عمق الألم الذي في قلبي.

ليلي الحبيبة.

الموت استعداد بطولي. ويومها لم أكن مستعداً للتخلي عن الحياة. كانت هي رهاني الأخير. لم يكن لدي شيء أخسره. فجأة نبت في دماغي

يقين غريب، وهو أن ساعتي لم تحن بعد، وربما أن كل ما حصل لم يكن في النهاية إلا «بروفة» اختبارية.

مرة أخرى تشاء الصدفة أن تضع الحياة في مسلكي الضيق. كل شيء كان يفترض أن يقودني نحو الهلاك، كما في المرات السابقة، في ظروف مختلفة. كل الحسابات التي خمنتها سلفاً كانت خاطئة. كنت أتصور مثلاً أني سأموت على يد مواطن معتوه يظن أني سرقت حبيبته من سريره؟ أو على لسان إمام أعمى وأطرش يفتي حتى في حق الملائكة التي لا تخجل من النوم مع الحوريات؟ أو ربما في طائرة ترتفع ثم تنسحب من الرادار ولن يجدوا لها أثراً؟ أو حتى بسرطان مفاجئ وغاشم؟ فلا أحد فوق الصدفة المميتة. ولكن أن يخدعني قلبي، فهذا لم أتصوره أبداً. على الأقل بالشكل الذي حدث معي. بيني وبينه علاقة مصالحة عالية وجميلة.

مع أن كل شيء بدأ في ذلك اليوم بشكل هادئ ورائق.

يوم قبل الحادث، جريت في بارك لافيلات Parc La Villette أنا وابنتي ريما. كانت سعادتي كبيرة بالركض على حافة قناة الأورك Le canal de l'Ourc الاصطناعي. ثم رأيت معها معرضاً للمنحوتات العتيقة. واتفقنا على أن نعود له بعد أسبوع، قبل أن يغلق، لشراء بعض القطع الجميلة التي سحرتنا بهاؤها وبساطتها، ولم تكن غالية.

عندما عدت إلى البيت، ذهبت شهيتي نهائياً. ثقل جسدي على غير العادة. سألتني ريما عن امتقاع لوني. قلت لا شيء، ربما تعب الجري فقط. ثم صعدت إلى مكتبي. استحممت. شعرت بارتخاء جميل في الجسد. ثم انزويت قليلاً للعمل، قبل النوم. تذكرت فجأة سلة فضلات التغليف والكرتون، التي نخرجها كل ليلة أربعاء لتُفرغ فجر الخميس. لم تكن ثقيلة لأنها، لم تكن تحوي إلا على الكراتين والزجاج والأغلفة. لكني فوجئت بانقطاع في نفسي، وهو ما لم يحدث لي أبداً في حياتي. قلت ربما نزلة برد سببها أني عرضت نفسي للهواء بعد حمامي، بعد الرياضة. مع أن باريس يومها كانت جميلة ورائقة. عدت للعمل لكي أنسى. اشتغلت قليلاً على رواية: سوناتا

لأشباح القدس، التي عذبتني كثيراً في علاقة مي مع الموت. مشكلتي أني عندما أتحدث عن أبطالي، أعيشهم بامتلاء وكأن ما يحدث على الورق حدث بالفعل. الكاتبُ مثل الممثل، إذا لم يعش دوره كحقيقة، سيبقى على هامشه. نمت. في الصباح لم أستطع أيضاً أن آكل أية لقمة. بدأت ألاحظ أن نفسي بدأ يضيق، ودقات القلب اختل نظامها. قالت لي ريما وهي تكتم بصعوبة قلقها: بابا، اعتذر عن محاضرة السوربون واذهب إلى الطبيب. قلت: لا تشغلي بالك. سيعود كل شيء إلى وضعه الطبيعي. على الساعة الثانية من اليوم نفسه، الخميس، نزلت إلى العمل. لم أصل إلى محطة الميترو، التي تبعد عن بيتي مسافة خمس دقائق مشياً، إلا بشق الأنفس. تغيرت المسافات في ذهني، وأصبح ما كان قريباً، بعيداً بآلاف الأميال. نمت في الميترو، وعندما وصلت إلى محطة السوربون، نزلت. لم تكن هناك أية صعوبة بالنسبة للدرج الميكانيكي. فقد أغمضت عينيّ وتركتني أصعد وكأني كنت ذاهباً نحو سماء طرية وسخية. لكن عندما وصلت إلى الدرج العادي، اختنقت أنفاسي من جديد.

كان المطر في الخارج يسقط بقوة. وقفت قليلاً. تأملت الدنيا بانتشاء غريب. شعرت ببعض اللذة الجميلة وأنا أتأمل تلونات الغيوم، وأشرب ماء المطر وهو يغسلني. ثم حاولت أن أمشي، شعرت بالعالم كله ينزل على صدري. تسارعت الأنفاس ودقات القلب، وشعرت بالموت يكشر. تماماً في المسافة الفاصلة بيني وبين الجامعة التي لم تكن تتعدى في الحالات العادية خمس دقائق. خطوت خطوة. خطوتين. ثم توقفت من جديد. مرة أخرى تخذلني قواي. في لحظة ذهنية خاطفة، رأيتني ساقطاً على الرصيف الحزين. بالضبط تحت عمود الإشارات الضوئية. نصف مغمى علي، والناس من حولي يتساءلون من أكون؟ ينشؤون الإجابات الأكثر جنوناً وهبلاً. لابد أن يكون مديراً في الإدارة. بلدية الدائرة الباريسية الخامسة ليست بعيدة من هنا؟ لا.. لا.. ربما يكون خورياً بهذا المانطو كاشمير الطويل، وهذه القبعة السوداء. الكنيسة ليست إلا على بعد خطوات قليلة. لا.. لا... هذه الألبسة السوداء وهذه القبعة بهذا الشكل، هي الهندام الطبيعي للحاخامات الذين

يمرون دائماً من هنا. عندما يريدون قطع شارع مونج[12]، باتجاه الكنيس اليهودي الذي يقع في الزاوية الخلفية من شارع موفتار[13] المكتظ بالناس في هذا الوقت. لا هذا ولا ذاك... هو بكل بساطة أستاذ جامعي... ربما. الشاهد في ذلك محفظته الثقيلة. الحائط الخلفي للسوربون على مرمى البصر. وتختلط الأصوات. ثم فجأة أراهم يفتشون جيوبي للعثور على ما يمكن أن يدلهم على هويتي. يفتشون في أرقام تليفوني النقال الذي كان مرمياً بالقرب مني، ليوجههم نحو شيء ما. كنت خائفاً من أن يسرق التليفون ولن يصلوا إلى إخبار ريما، الوحيدة التي كانت ترافقني في البيت. باسم كان في مونتريال، وزوجتي بالجزائر. أيقظتني من غفوتي، حركة الناس الجماعية وهم يقطعون الطريق بعد أن أصبحت الإشارة الضوئية خضراء، والأمطار القوية التي عادت إلى التساقط من جديد. فجأة شعرت أن بي طاقة مخزنة، كانت هي الأخيرة، وكان علي استعمالها بمنتهى الجرأة والمقاومة، للوصول إلى الجامعة. لا أدري ماذا حدث لي، ولكني انطلقت، لا أسأل عن نفسي الذي ضاق إلى حد الاختناق، ولا عن الاختلال الكلي لدقات القلب التي بدا لي أنها توقفت نهائياً وأني كنت أعيش فقط بقوة الدفع الخارجي. أؤمن أنه في عمق كل إنسان شيء من بقايا طاقة جسدية مشتتة، عليه تجميعها للذهاب قليلاً قبل الاستسلام النهائي. عندما دخلت إلى الجامعة شعرت براحة غريبة. ذهبت مباشرة نحو طبيب العمل، الدكتور بلانتيرو Plantureaux عرف كل شيء من الفحص الأول. قال: أنت في وضع لا يحتمل التردد. كنت قد بدأت أدخل في حالة لذيذة من الغيبوبة. فاتخذ قراراً بتحويلي إلى مستشفى الأمراض القلبية. لم أسمع إلا بعض الكلمات الهاربة تتحدث عن انسداد في الشرايين، وزحف الجلطة نحو الرئة والقلب، وهو ما سيتسبب في السكتة في أية لحظة. بعدها انغمست داخل بياضات تعددت كثيراً ولم أفكر مطلقاً في الموت. بدأت أستكين داخل رواية نشأت معي لحظتها واستمرت إلى يوم خروجي من المستشفى. كانت بطلتها شابة في غاية الجنون والصراحة والقسوة والعنف، اسمها: إيروتيكا.

بقية التفاصيل تعرفينها جيداً، ولا أريد أن أثقل عليك بها.

ليلي الغالية.

أشياء كثيرة تغيرت فيّ.

زالت بعض الموانع من ذاكرتي، وانتابتني رغبة محمومة لكتابة نفسي قبل فوات الأوان. لا أعرف بالضبط السبب الأصلي الذي أعادني إلى اسمك الأول: ليلى، أو ليلي كما اشتهى والدك أن يسميك. كنت مرتاحاً لمريم، وكان يؤثث ذاكرتي بالكثير من المحبة والطمأنينة رغم قسوة الحياة. هل هي هزة الموت تعيدنا بالقوة إلى ذاكرتنا المدفونة في الأعماق؟ ربما لأني اكتشفت بعد رحلة ربع قرن معك: أنه آن الأوان لأن أعيد لك كل ما سرقته منك نصوصي، أو أعرتني إياه. اسمك أولاً. ليلى[14].

في السنوات التي مضت، كلما كتبت عن الحب، كانت الرسائل لعبتي المفضلة في الكتابة على الرغم من كونها لعبة غير مأمونة المسالك. لم أفعل الشيء الكثير سوى أني استعملت حيلة الكتابة لأجعل من المستحيل ممكناً. في قلبي رسائل أشعر بالدهشة كلما قرأتها، ولهذا ما أنشره في الروايات هو حقيقة محاطة بأجمل كذبة هي الأدب. الحب هو أجمل اكتشاف للإنسان، وإلا لكان مجرد صخرة لا شيء يحركها سوى التآكل اليومي. الحب هو أيضاً تآكل عندما يخلو من الإبداع المستمر. هو معنى المعنى لحياة جافة لم تعد تحفل بارتجافاتنا الخفية أمام لحظة حب مسروقة، أو أمام لون وجه نكتشفه للمرة الأولى. ليست ليلى ولا حتى مريم التي سرقت كل وجداني هي امرأة واحدة، هي مرجع الحياة والحب واللذة التي ترفض أن تسقط في دائرة التكرار القاتل. ما الذي يقتل العلاقة غير الألفة والتكرار والدخول إلى الوظائفية والواجب؟ الحب كلما دخل في الوظائفية تحول إلى زواج مقنع. أشتهي لو كنت أسن القوانين، أن أغير نظام هذه الكذبة التي نعوم فيها جميعاً. أن أقبل بالحل الوسط ما دام الزواج مجرد عقد ليتفق الاثنان، المرأة والرجل معاً، على احترام الرباط الذي سيصبح مقدساً، ولكن شرط احترام كل البنود، وربما كان أهمها حرية تحديد مدة الزواج، خمس سنوات مثلاً؟ عشر؟ أو حتى خمس عشرة سنة؟ وليوضع في خاتمة العقد جملة مكتوبة بشكل نافر ومميز: عقد قابل للتجديد في حالة واحدة، تراضي الطرفين. بهذه الطريقة يستعيد الحب ألقه، إذ لا يمكنه أن ينشأ

خارج الإحساس العميق بالحرية والصدق. غياب الحرية في أية علاقة هو قتل لها.

ربما كان الزواج خسارتنا الأولى، ولكنه كان أيضاً تجربتنا العظيمة مع الحرية. لم نخسر يا عمري سوى قيود الخوف واليقين الزائف. ستقولين بأني لم أتغير كثيراً منذ أكثر من ربع قرن؟! تغيرت طبعاً. إذ زاد يقيني بأن أكبر حماقة نمارسها هي الزواج، لأننا عندما ندرك خلل العلاقة، نكون قد خسرنا أشياء كثيرة، ربما كانت الحرية أولى وأهم هذه الخسارات، حتى ولو كانت مجرد وهم. لكنه وهم يضع الحياة أمامنا في ألقها ورعشتها المليئة بالحياة. قد تبدو علاقاتنا الفوضوية والهامشية، حالات مرضية، وخيانات تستحي من ذكر اسمها، ولكنها تحديداً إصرار يائس من أجل استرداد حرية افتقدناها قبل سنوات، ونعوض الخسارة، بخسارة أفدح.

أتوقف عند هذا الحد لكي لا أواصل في الأذى.

لك قلبي.

مازلت، على الرغم من الكسر العميق ومصيدات الموت التي أصبحت متعددة، وربما لا تحصى، قادراً على حبك والانغماس في الجنون القديم نفسه. لسنا بعيدين عن بعضنا البعض، كما يتبدى لك، إلا بالقدر الذي يمنحنا فرصة لتخيل جنون جديد، نلتقي مرة أخرى من أجله.

أنتظرك على هامش أجمل وأخطر حافة في الحياة. الحب.

لم أغير توقيعي منذ بدأنا اكتشاف كتاب الأسرار[15].

بشوق كبير.
سين.
باريس، مستشفى كوشان سان- فانسون. ٣١-٣-٢٠٠٨

-١-

«اسمي، ليس مـــــريـــــم. هل يجب أن أصرخ على الأسطح لكي تسمعني؟ لستُ مريم ولن أكونها».

أشتهي تمزيق هذه الكلمة مثل الورقة المريضة، لأتخلص منها نهائياً.

مريم لم تكن إلا استعارة قاتلة لضعف خفي أخفقنا في مقاومته. أنا ليلى. أو ليلي، كما سماني سي ناصر، والدي، أو كما يشتهي واسيني أن يناديني خارج الكتابة، أو في فراش النشوة. اسمي العائلي لا يلهمني كثيراً. منذ البداية كنت أريد محوه والتخلص منه، ولهذا سأتفادى ذكره. الأسماء العائلية تضيف ثقلاً لا معنى له، وتحمّل غيرنا ما لا طاقة لهم به.

لا هدف لي من وراء هذه الحماقة التي أنا بصدد ارتكابها، ولا وراء هذا الجنون العاري المستبد بي، سوى وضع أشواقي الحزينة في مهب الأكف الناعمة التي تشتهي أن تدرك الغنى الكامن في أعماقي. أثق أنه ما يزال في الدنيا من يريد الإنصات إلى الحقيقة التي أصبح حملها ثقيلاً. حدث لي أن أصغيت طوال ربع قرن إلى صوت واسيني. هذا الرجل الذي أحبني كما لم يحبني أحد سواه، وأحببته ومازلت، لدرجة أني نسيت وجودي. أضحك منه أحياناً عندما يحتضنني بشوق، فأتلاشى بين يديه كحفنة نور: «أوشوش» في أذنه:

« – يا مهبول! ماذا بقي لك مني؟ هل تراني؟ لقد تلاشيت.
– لا أنت هنا، حيث تنتفين، وحيث لا وجود سوى للنور... »

يتفحصني بشفتيه جزءاً، جزءاً، من شعرة الرأس، حتى آخر مسام في جسدي، فقط ليثبت لي أنني مازلت بين يديه، وفي عمق كفه، وأنّي لم أتلاش أبداً. وكلما فشلت في مقاومة شهوة الجنون معه، ابتسمَ بمكر وتمتمَ في أذني بدوره:

«هل أعاود الكرة؟ كل شيء فيك يفضحك يا مجنونة.
– يكفي... أرجوك...»
أضحك، وأتمادى في غوايته.

-٢-

لست خائفة، ولا حتى متعبة.

الوقت يمر بشكل ضبابي. يقذف بي بعيداً نحو زمن لم يعد لي ولم أعد له. أشياء كثيرة فيَّ، تحركت كلها كالسيل الجارف، لتضعني أمام أقسى مرآة في الدنيا: مرآة الحياة، ولم تمنحني حتى فرصة تأملها واحدة واحدة، قليلاً، ومحاولة فهمها.

ما زلتُ في وضعي الأول نفسه. لم يتغير أي شيء في زاوية النظر التي أرى منها الأشياء. لا شيء في الخلفية السوداء للساعة الإلكترونية إلا علامات الساعة بدون ساعة، والدقائق بلا دقائق، والثواني بلا ثوانٍ ----

لا أرى الوقت جيداً، ولكنني أكتشفه. أحس أنه فيَّ مثل المبهم الذي يسكنني كلما اختلت علاقتي بالحياة أو اهتزت، منذ أن توقف العزف على الكمان ولم يبق إلا صوت سوزان لونديغ يملأ هذا الخواء المفجع.

المسدس البارد، في مكانه، وليس في مكانه؟ يظهر ويغيب. يعلن، من حين لآخر، عن وجوده الظاهر كلما حركت ورقة من الأوراق التي تحيط بي. يتخفى للحظة، ثم يقفز فجأة من تحت الأوراق وكأن هناك قوة باطنية تسحبه ثم ترميه من جديد على المكتب.

لم أكن أحلم.

لا صدفة في خياراتي.

فكرة وجودي في هذا المخبأ الذي سميته السكريبتوريوم، ليست مهمة، ولكنها ليست عبثية أيضاً. طبعاً، أنا أدرك سلفاً أن هذا المكان لن يحميني من قصف نووي محتمل، ولا حتى من نفسي التي تضخمت هواجسها، ولكنه يوفر لي حالة انفصال عن المدارات التي عشت فيها حتى الآن.

لم أكن أعرف أن واسيني كان متوغلاً فيَّ إلى هذا الحد، ولم أكن أعرف أيضاً أني قادرة على التخلي عنه للموت بسهولة غريبة. هزة افتقاده كانت عنيفة إلى درجة أنها أعادتني إلى نفسي، ولم تعدني إلى صوابي. أخرجتني من سكرة جميلة كنت فيها، ورمتني في أتون نار قاسية كان علي مواجهتها

وتحملها بصبر سيزيفي. في الحب مثلما في الشمس والأرض، نواة ملتهبة، لا ندري متى تنفجر مخلفة وراءها ما يصعب جمعه، وفهمه، وحتى رتقه.

فجأة لم أستطع كتم ضحكة حزينة شعرت بها تأتيني من بعيد.

هذا هو واسيني الذي اشتهيته، بألوانه الجميلة وبرغبته الطفولية في التسطير تحت كل شيء. هذه الورقة الصغيرة له. أعرفها من لونها الوردي وخطوطها المائلة. فيها صرخته الأولى مثل الطفل الذي خرج من رحم أمه وهو لا يعرف شيئاً عن عالم كان عليه أن ينتزع فيه حق وجوده. لم أنتبه إلا بعد زمن بعيد، أن صرخته الأولى تلك، كانت مكتومة. أتذكر جيداً حتى اللحظة التي وضع فيها تلك الورقة المرتعشة بين يدي، ثم انسحب وهو يبحث عن مهرب لعينيه الخائفتين مني... أو ربما من ردة فعلي.

يحبني، ويريد أن يبقى في ظلي حتى في حالة الخيبة.

-٣-

لم أكتب له يومها شيئاً كبيراً. كنت تحت وقع الدهشة الجميلة.

في أسفل ورقة زرقاء اللون رسمت كلمة من خمسة أحرف، داخل مربع أسود، وأربعة ألوان كما في طفولتي الأولى. لم أكن أدرك يومها أنها ستضعني بين يديه كالفاكهة الناضجة: **أحبُّكَ**. الحرف الأخير كان رماديا مثلي، لأني في لاشعوري، كنت مثل طفلة مهووسة بعشيقها، أرسم دائرة ستأسرني، وستنتهي بي إلى موتي. لم أكن بحاجة لشيء آخر سوى لأن أقول له أنا أيضاً ما كان في قلبي. لم تقنعني طريقته، لأن شجاعة ما كانت تنقصها. أعتقد أن هذا النقصان صاحبنا على مدار أكثر من ربع قرن من الجنون والهبل.

«هل تتذكر يا مهبول ماذا حدث يومها؟ وماذا كان يمكن أن يحدث لو كنت شجاعاً قليلاً؟ ربما تكون قد نسيت كل هذه التفاصيل؟!»

فجأة وجدتني ممتلئة به. مر الليل عليَّ بصعوبة. كنت خائفة من أن أموت ولا أقول له ما كان في قلبي. في الصباح جئته مباشرة بعد درس الموسيقى، على ظهري كمان والدي. كنت مثل التربادور الضائع. وقفت بمحاذاته،



عند مدخل مدرج الآداب، وكأن شيئاً لم يكن. مددت له يدي. اقتربت منه. تماسكت، على الرغم من أن كل شيء فيّ كان يرتعش بقوة. ثم وضعت وجهه بين يدي وقبلته تحت تصفيق الطلبة وكأننا كنا في مسابقة لأطول قبلة. احمر وجهه حتى كاد ينفجر، ولكنه كان سعيداً. ثم أخذته، من يده ووقفت أتأمل ردة فعل الطلبة الذين ظلوا صامتين مضمرين سعادتهم أو حقدهم. أخرجت الكمان من غمده. وضعته بالضبط في مكانه المعتاد، تماماً تحت الجهة اليسرى من الذقن، المكان الأقرب إلى القلب. مددت أناملي نحو ذراع الكمان، سحبت قليلاً في الفراغ لدوزنة الصوت، ثم بدأت أنحت شوقاً دفيناً. عزفت على إيقاعات موزارت الحزينة والمنكسرة: **موسيقى الليل الصغيرة**. كان الجميع ينظر إليّ بدهشة. لم يروني من قبل بهذا الجنون وهذه القدرة على استحضار أجمل النوتات المسروقة، من أحلى سيمفونيات العالم. ثم غنيت له ما لم يكن يشتهي سماعه لحظتها. أعرف حساسيته المفرطة تجاه فيروز. كنت قاسية على قلبه لا لشيء، سوى لكي يحبني أكثر.

«سني عن سني...
يا حلو يا حبيبي
اللي ما انبيعك بالدني،
وكل سني بحبك أكثر من سني».

تأملته «بملعنة». رأيته في الأقاصي، مغرماً كطفل يبحث عن يد تقيه من النور الحاد للحياة الذي كان يغرقه في البياضات المتماهية. أتساءل اليوم إذا لم أكن أنا أول من سرق عذرية واسيني الخجولة، وطفولته القروية البريئة والخائفة من شيء لم يكن مهيأ له بالشكل الكافي؟

في المساء أخبرته بشيء مهم بالنسبة لي، لم أشعر أنه أفرحه كثيراً!

– «سأترك الجامعة وأذهب إلى الكونسرفتوار. أنا أضيع وقتي في هذا المكان. أريد أن أتعلم العزف على الكمان، على الأصول، كما كان والدي يفعل معي، منذ أن غادر هذه الدنيا وأنا أدور في الفراغ كالساعة المجنونة.

– أنت تعزفين جيداً، ثم إنك تتعلمين في النادي الموسيقي للطلاب؟

– لا يكفي. أريد أن ألتحق بالفرقة الفيلارمونية للأوبرا، بعد سنوات. لهذا، عليّ أن أجتهد إلى أقصى الحدود، حلم سي ناصر، الله يرحمه ويوسع عليه».

أبي الذي كان مريضاً بالموسيقى، ومسحورًا بالعزف الدائم. أصر على أن يجعل مني شبيهه قبل أن تسرقه مني أزمة قلبية. هشمته قبل أن تسحبه نهائياً. كلما عزفت، بكيته. لا يمكنني إلا أن أتذكره. كان أهم عازف في البلاد، ولكن البلاد لم تأبه به حتى مات. لم يكن الوحيد في محنته. عندما تذكروه، سلموا لنا ميدالية المجاهد النحاسية، وشهادة باردة، نظير نضاله من أجل استقلال بلاده. لم نعد نتذكر، لا أنا ولا أمي، أين وضعناها. تخيل، كان عضواً في الفرقة الفيلارمونية لأوبرا غارنييه، بباريس، في ذلك الوقت المتقدم، قبل أن يغادرها إلى المغرب، ومنها إلى جبال فلاوسن، ويكوّن مع مجموعة من أصدقائه، فرقة موسيقية عزفت أول نشيد وطني في الجبال والعواصم العربية. بعد الاستقلال، نُسِيَ أنه موجود، وعندما تذكروه، وظفوه كمدير لفرقة الحرس الجمهوري المكلفة بعزف أناشيد ضيوف البلاد من الرؤساء والملوك، في المطارات. كان يحلم أن يعيد أوبرا وهران إلى الحياة. مع الزمن، تعب من هذه الوظيفة الميتة، فاستقال متنازلاً عن كل شيء، حتى عن سنوات عمله، وعاد إلى كمانه حتى مات منكفئاً عليه.

« –مَنْ مِنْ عظماء هذه البلاد أخذ حقه؟ لا أحد. كلهم ماتوا في مرارة العزلة».

قال واسيني بمرارة كبيرة تبدت على ملامحه، وهو يخفف من شجني.

ثم نظر إليّ بعينين مدورتين، مليئتين بالخيبة. تذكرت أنه كان ينتظر مني جواباً على اختياري الكونسرفتوار بدل الجامعة.

« – لمَ الحزن عمري؟ ألم تقل لي يوماً إن صوتي يصلح للأوبرا، وإنه يمكنني أن أكون سوبرانو في أرض أصبحت أبرد من قطعة ثلج؟ وإن مكاني غير هذه الجامعة المبتئسة؟ وقلتَ لي أيضاً إن عزفي ليس عادياً؟

29
الإصدار ٢٩، أكتوبر ٢٠٠٩

الكونسرفتوار ليس بعيداً من هنا، ويمكننا أن نلتقي متى شئنا. ما يزال لدينا متسع من الوقت لشتى الحماقات قبل الالتحاق النهائي!»

–٤–

اليوم، لم يتغير واسيني كثيراً. كلما قرأت رسالته الأولى التي سربها لي بخجل، وجدته طفلاً مرتبكاً يبحث عن مسلكه الصعب في جنة الحب المبهمة. كان خائفاً من فقداني، ومن كلمة صغيرة يقولها بصوت عال: أحبك. وربما كان يحتاج إلى شجاعة أكبر ليتمكن من قولها حتى ولو كلفه ذلك فقداني.

آه لو كنتَ تدري أيها الأحمق الذي لم يتعلم إلا قليلاً من خساراته؟ كان يمكنك، لو لم تكن أهبل، أن تربحنا الكثير من الوقت. ولكنك فضلت أن تكتبَ أشواقك بدل أن تقولها وتعيشها بجنون طفل لا يقدر عواقب كلامه مطلقاً.

الغريب أني اليوم أقرأ تلك الرسالة بالأحاسيس نفسها، والخوف نفسه، ولا أستطيع حتى أن أمنع نفسي من الارتعاش كالدمعات اليتيمة على وجه مراهقة.

لا شيء تغير. الإحساس نفسه والرجفة نفسها. غير أني، هذه المرة، لم أبك حباً فقط، ولكني بكيت أيضاً على فقدانه.

أحبُك

رسمتها كما في كرنفال طفولي، عرساً من الألوان.

«لو لم تقلها يا مهبول، في ذلك اليوم، لكنت سبقتك إليها».

* * *

عمري عشرون سنة

ليلى...
أختي العزيزة.

بدءاً من هذه اللحظة سأكون كاذباً إن ناديتك أختي.
لم تعودي أختي منذ أن خادعت قلبي وكشف لي عن سره الخفي.

فجأة يتدفق مدينتنا في كفي كالمياه العذبة. تغرق في الأسئلة الجميلة. ماذا لو كنتِ هنا، حيث شهوة القلب؟ ماذا كانت ستعني لك وهران؟ مدينة الملائكة والقتلة والهاربين من محاكم التفتيش المقدس، والمحتالين، والعلماء الهاربين من سلطان الحكام المرضى؟ هل أجدادي هم من بناها، أم مضطهدو أجدادي؟ من شيد إذن على أعلى قممها سانتا- كروث[16] ليقنعني بأن تاريخاً مر من هنا ومحا عذرية المدينة؟ أعرف الآن فقط لماذا حبي لهذه المدينة، هو بقدر نفوري منها.

بعد كل هذا، لا وجه في المدينة، إلا وجهك. أنت وهران! أنت سانتا - كروث! أنت المدينة الجديدة! أنت الكوريدا! أنت مقام سيدي الهواري الطيب!

بدءاً من هذه اللحظة سأكون كاذباً إن ناديتك أختي.

لستِ أختي بعد أن أصبحتِ فيَّ، ولم تتركي مساحة أخرى لغير التفكير فيك.

انتظري قليلاً أيتها العزيزة، لي سر في القلب أريدك أن تسمعيه. لا أملك أن أقوله لك بصوتٍ مسموع. سيوشوش قلبي في أذنك بعد قليل.

أحتاجُ إلى دربة كبيرة لكي أصل إلى الكلمة الصغيرة التي تتراقص فوق لساني وتخاف من أن تخرج، وأن تتنفس قليلاً هواء الطبيعة

ربما كنت خائفاً من شيء غامض فيَّ، ولكني في هذا المساء، سأتشجع أمام الحقيقة التي أخافتني دائماً ودفعتني إلى أكثر المسالك صعوبة، مع أن الحقيقة هي أخف ما يمكن للمرء أن يقوله لغيره، خصوصاً إذا كان هذا الغير أنتِ.

يمكنك الآن أن تقولي عني ما تشائين، هامل؟ ضايع؟ صايع؟ مهبول؟ لقد أقفلت اليوم السنة العشرين من عمري، وأصبحت بفعل القانون بالغاً وأستطيع أن أقول لك ما يملأ قلبي منذ زمن بعيد، وصرتِ أنت امرأة ممتلئة بالحياة وحنين الكمان.

لا أريد أن أعض على يدي كما كان يفعل أجدادي الأندلسيون لحظة الندم العميق، إني لم أتكلم في الوقت الذي كان يجب علي أن أصرخ فيه أمام الملأ: أحبك.

لا يهم، لم أعد قادراً على الاستمرار في الدوران الخفي.

بدءاً من هذه اللحظة سأكون كاذباً إن ناديتك أختي.

البارحة رأيتك في حلمي، غارقة في كتلة من الضباب البارد، مثل الندى. كنت تحتضنين كمانك، بالقرب من الشجرة التي تخترق ساحة الجامعة، وكنت تعزفين وتتلوين بقسوة. وكنتِ كمن يحفر جرحاً عنيداً في أعماقي. عندما رأيتني حزيناً، قلتِ: تعال. قلت لك إلى أين؟ قلتِ: أسوأ سؤال يطرحه رجل على امرأة تسرقه هو: إلى أين؟ لا تكن غبياً. أغمض عينيك قليلاً فقط، وبعدها افتحهما بهدوء. وتركتك تقودينني. لم أشعر بطعم قبلة مثلما شعرت به في تلك الليلة. كانت شفتاك دافئتين وشهيتين. وعندما فتحتهما، كان شعاع الصباح قد اخترق المكان وأمي تناديني من المطبخ: واسيني... قم... الشاي جاهز. جربت أن أنام فقط لأحبك أكثر ولكن عبثاً، فقد كان نور الصباح قوياً ومعمياً بعد شرعت «يمّا» الأبواب والنوافذ.

هل أجرأ الآن وأقول حبيبتي؟

حبيبتي. ها أنا ذا قد تجرأت وقلتها.

هل أمتلكُ حق اختراق طفولتي التي ظلت تعاند لكي تخبئ شوقها إليك؟ لم أعد قادراً على إغلاق القلب على كذبة الأخوة والمثل العليا التي سطرناها بغباء أنا وأنت، فقط لنتقن ربط أنفسنا بشيء كان كل يوم يزداد انغلاقاً علينا مثل الكماشة. لقد كثرت الحواجز التي وضعناها في مسالكنا، وعليَّ الآن تكسيرها واحداً واحداً إذا منحتِني بعض الحق على قلبك. حتى ولو قضيت العمر كله ضائعاً في التفاصيل الحادة، كمفكك ألغام.

سأتوقف عند هذا الحد، ولن أزيد كلمة أخرى يمكن أن تسرقك مني إلى الأبد.

أحبك. هل أخطأت؟

كل شيء فيَّ يقودني نحوك ولا سلطان لي سوى أن أقف عند رجليك، وأحني رأسي وأتمتم: أحبك ليلى. أحبك ولا شيء سوى ذلك. إذا كان لكلامي صدى في قلبك، حاولي، عندما تمرين بالقرب مني، أن تفعلي ما فعلته ودعة مشتتة سبعة، أشري لي بمنديلك الأحمر من بعيد، سأعرف أنني في قلبك، وسأركض نحوك حافي القلب والقدمين، وإذا كان العكس، اعبري ونكسي رأسك، بلا تحية، وسأعرف من تلقاء نفسي، أنك لست لي. وسأخرج من حياتك، لأني عاجز عن فعل شيء آخر غير حبك.

هذا هو أنا.

رسالة الحب الأولى قد تكون هي الرسالة الأخيرة عندما تصادفها الموانع. وقد تكون فجراً لشوق سيندفع كالبحر.

أحبك وأنتظر تلويح المنديل الأحمر، عندما تمرين بالقرب مني.

لزعر الحمصي بمودة ومحبة.
وهران شتاء-١٩٧٨

-١-

« - هي بالضبط، وكأني حسبتها بدقة مهندس معماري؟»

لم أعد أؤمن بالصدفة. كل شيء، في هذه الدنيا، مرتب سلفاً.

عندما رفعت عيني المتعبتين من كثرة الكتابة والقراءة، هذه المرة، لمعت أرقام الساعة الإلكترونية الحمراء، في استقامة. ذكرتني بشيء غامض لم أدركه جيداً؟ بتاريخ محدد؟ باحتفال ما؟ بموعد مهم؟ أو ربما بيوم فقدان؟

لا يهم. عندما تستقيم كل الأرقام، ذلك يعني أن شيئاً خفياً فيَّ قد تحرك بقوة.

الكمان غارق في جبروت الصمت والعزلة. لم أعد قادرة على العزف الآن على الرغم من رغبتي الكبيرة لفعل ذلك. أصبح الآن بعيداً عني قليلاً، لكن موسيقى سوزان لوندينغ لم تتوقف أبداً.

تحسست المسدس، كان بارداً دائماً. لم أكن أعرف تحديداً لأي سبب هو هنا، لكنه هنا، ولابد أن يصلح لشيء ما غامض في رأسي؟ سبع رصاصات في داخله، محشوة بإتقان، لا تنتظر إلا من يضغط على الزناد. حسبتها قبل قليل وتأكدت منها. سبع رصاصات نحاسية مختومة برؤوس صغيرة تشبه اللعب القاتلة. أراني رياض، زوجي، منذ عشرية التسعينيات الحارقة، مكان المسدس، وعلمني كيف أفتحه عند الضرورة لتنظيفه وأعيد تركيبه، وكيف أدافع به عن نفسي وعن أولادي. وضعه تحت تصرفي بعد أن وفر له «الكارتيل» مسدساً أوتوماتيكياً من نوع ميكرو عوزي[١٧] كان يطلبه دائماً، وحصل عليه متأخرًا قليلاً بفضل إصراره، كما يقول. الكارتيل لا يلتفت للصغار إلا نادراً.

« متأخر أحسن من لاشيء، في عالم يزداد كل يوم تعقيداً. مسدس ميكرو عوزي مفيد وأحتاجه أكثر. وضعي غير مأمون في هذه الحرب الأهلية الخفية الطاحنة، التي لا تعلن عن اسمها. قوي وسريع. طوره عوزييل غال[١٨] منذ

١٩٤٨، من سلاح تشيكي قديم نسبياً شبيه له SA 23 وSA 25 . يحمل من ٢٠ إلى ٣٢ رصاصة من عيار ٩ ملمتر برابللوم. ما يكفي لإبادة فيلق من الأعداء. يوفر ثقة كبيرة لصاحبه. به أشعر أني رجل ونصف».

يذكرني دائماً بمثله المفضل: عضة من الذئب، ولا تطلقه سالماً.

هذه المرة، وربما المرة الوحيدة، سيكون الذئب هو أنا، وربما أنت أيضاً.

أنين سوزان لوندينغ يأتيني حزيناً ومتوحداً مع العزلة. لابد أن يكون ذلك من عمق قلبي وجرحي الذي أكتشف كل يوم اتساعه مثل زلزال يخترق الأرض في عمقها، ربما كنت الوحيدة التي تسمعه. أهيئ نفسي لاستقبال جرحي وصرختي الأخيرة، وأضع أمام الجميع أسرارنا التي ليست كلها جميلة.

أليست هذه عضة حقيقية؟

-٢-

هل تدري حبيبي أني قتلتك بلا تردد؟

لم يكن ذلك للمتعة. فلا متعة لي في قتلك، لأني وقتها سأقتل نفسي أيضاً. ولكن فقط رغبة في التخلص منك لرؤيتك من جديد، ولأعثر على نفسي الضائعة في كفك الخفيفة، مثل نسمة فجرية. أحبك، ولكني أحبك أكثر عندما أجدك تماماً كما اشتهيتك. سرقك مني عملك، حروفك، أسفارك، زواجك، جنونك، نساؤك، أوهامك. ما لم أتحمله، أن تسرقك مني مريم. كلما اشتقت إليك، وجدتك في دفء هبلها وجنون أبجديتها السحرية، وحتى في فراشها. قل عني مهبولة إذا شئت؟ أنا نفسي، أتساءل أحياناً عن هذا الانقلاب الغريب في الأدوار؟ كيف يصبح الأصل فرعاً، والفرع أصلاً؟ شيء في الدنيا يسير على غير هديه المعتاد.

بإمكاني اليوم أن أعود إلى فراشنا الوحيد، المشترك والأجمل والسري للغاية: رسائلنا. هي حياتنا المخبوءة ودليلنا في ظلمة مسالك هذه الدنيا القاسية. نورنا في مسارات اليأس والاستحالات المفجعة. أسألك اليوم، وأنا

29
الإصدار ٢٩، أكتوبر ٢٠٠٩

اقرأها للمرة الألف، عن حجم الخسارات، والحماقات التي ارتكبتَها في حقنا. كان يمكنك أن تختزل علينا شقاء أكيداً. لقد أخرجتُها كلها قبل ساعات، فقط لأشعر أني مازلت موجودة على هذه الأرض التي بدأت تتخلى عني، وأني مازلت مشتهاة كأية تفاحة ممنوعة. وأني بكل بساطة، حبيبتك التي تملأ قلبك.

قد يكون ذلك بعض جنوني أو كله، فأنا لا أتذكر يوماً كنت فيه عاقلة.

أريد أن أصفي حسابي، كل حسابي مع الماضي. سأضطر إلى أن أفضح مَنْ وَضعَ ذات يوم سراً جميلاً في كفي، وفي عمق جسدي، وأمّنني عليه. وعندما فتحت كفي وعبرت جسدي، أدركت أن الحمل كان ثقيلاً. فقد حولني بلمسة لغوية سحرية، إلى أيقونة سمّاها مريم، أفرحتني وقتها ألوانها الجميلة وزخرفاتها، وأسعدت الكثير ممن صادفني في روايات واسيني بجنون لا أحسد عليه، قبل أن يتحول كل شيء إلى كابوس أكلني وأفرغني من الداخل، ثم ملأني بالهواء الساخن وطوح بي بكل قواه، نحو سماء فارغة. أعترف بمسؤوليتي الكاملة في اللعبة. قبلت بمحض إرادتي أن أنسحب من المشهد، مقتنعة بأني صرت فوق الحالة، متخلية عن اسمي لصالح امرأة ورقية أكلتني، ولم أعد اليوم قادرة على تحمل وجودها معي في الفراش نفسه.

اكتشفت فجأة أني كنت أنا المرأة الورقية الميتة، وكانت مريم هي سيدة الحياة كلها. كيف سرقت الحياة مني بدون أن أتنبه لذلك؟ تلك مشكلتي معها؟

لسنا إلا في البداية. وسأُتِمُ جنوني كما خططت له. لقد ركبتُ رأسي، ولن يقف شيء في طريقي.

-٣-

السكينة تلف السكريبتوريوم وما يحيط به.
في الطابق الأول، كلهم نيام.

حبيبتي وابنتي مايا نامت مبكرًا. اثنتا عشرة سنة، عمر النور والحبق

والبنفسج البري المعطر. كأنها كانت تعرف أني كنت بحاجة إلى الخلود إلى نفسي. تأملتها قبل ساعات، كدت أصرخ وكأني أكتشف ابنتي للمرة الأولى: سبحان الله! نفْس العينين اللوزيتين، نفس الشفتين المرسومتين بإتقان، نفس اليد بأصابعها الناعمة والطويلة. نفس الجسد المستقيم والفارع أيضاً. نفس العطر الذي ينبعث من جسدها. سنوات عمرها الهشة، لم تزدها إلا انجذاباً نحوه. كنت أعرف أنها ابنته وشبهه الصميم، ولكن ليس إلى هذا الحد المخيف! قالت لي قبل أن تنام: ماما حبيبتي، هل ستنزلين إلى الكهف؟ طمأنتها أني سأظل بجانبها، وأني سأظل بين فوق وتحت. لدي رغبة للكتابة لا أستطيع مقاومتها. قالت: **لا يا ماما حبيبتي. «خليكِ» بالكهف. أعرف أنك هناك ترتاحين كثيراً. معي خويا يونس. وإذا حكيت مع عمو واسيني، سلمي لي عليه.** كانت تعرف كل شيء. أو ربما، كانت تحس بكل ما كان يعتريني سرياً، ويبدو عميقاً في عيني. أرى ذلك كله في نظرتها، ملمسها، أحاسيسها، ولغتها الخفية التي تبقى في داخلها.

يونس، ابن أبيه، رياض يحبه كثيراً ويشعر أنه وريثه الشرعي. يشترك معه في الكثير من التصرفات الغريبة. يقلده حتى في غضبه. يعرف جيداً أنه مثار اهتمام والده. نام على جرح هو وحده كان يعرف سره. إنه في عمر الهبل. سبع عشرة سنة. لقد أصبح عاشقاً، وأشعر بشططه بقوة هذه الأيام. كان يريد أن يتخطى كل العتبات والموانع، ولكن شيئاً فيه لم يحسم بعد. نام باكراً هو أيضاً، على غير عادته. سألني فقط: بما عندك حبة دوليبران[19]؟ رأسي يكاد ينفجر. جئته بكأس ماء. شرب الحبة، ثم نام.

رياض، زوجي، سافر إلى اندونيسيا، ومنها سيسافر إلى كوريا الجنوبية من أجل صفقة سيارات. شأنه التجاري أصبح يشغله عن كل شيء آخر، وبقيت وحدي. عرف في وقت مبكر أن دكتوراه الاقتصاد السياسي، لن تفيده في الشيء الكثير. لم يتلفن لي، ولم يسأل كثيراً عني. هو يكرر عليّ اسطوانته باستمرار: Pas de nouvelles, bonnes nouvelles حسناً فعل لأنه بذلك، يمنحني بعض الراحة، والخلود إلى نفسي، والقدرة على اختزال كذبة لم أعد في حاجة إليها: كيفك عمري؟ كيفك حبيبي؟ لم أعد قادرة على قولها له حتى

من باب المسايرة.

ما زلت في هذه الزاوية التي اخترتها لنفسي. وهو مرتاح مع جماعته، أو الكارتيل [٢٠] كما يسميه، والذي أصبح كل شيء في حياته.

وحيدة وسط الفراغ الجميل الذي يمنحني السكينة للتفكير الجيد. طبعاً، لست في هذا السكريبتوريوم الذي اخترته في قبو البيت، بمحض الصدفة. أريد أن أصفي حسابي مع شيء غامض لا أعرف كيف أسميه؟ مرضي المزمن؟ حبيب العمر؟ دنياي؟ قاتلي؟ كاتبي الذي أقصاني من حقي في الحياة، ووضع في مكاني قناعاً سماه مريم ليضفي بعض القداسة على الجريمة؟
كل شيء سينتهي في هذه الليلة.
أنا متأكدة من أنه مع الفجر، سيبدأ زمن آخر.

-٤-

سيبدو للذي لا يعرفني، أنها مجرد لعبة لفظية! أو لنقل فانتازيا جميلة لا تحدث إلا في الروايات، حيث تقتل شخصية روائية كاتبها! المسألة أكثر تعقيداً من هذه اللعبة المعروفة. لا أتذكر متى رأيت ذلك، ربما في فيلم أو قرأته في كتاب! امرأة مولعة بكاتب ينتهي بها الأمر إلى محاولة قتله، غيرة من نساء رواياته اللواتي قطعن الطريق أمام جنونها.

ربما كان في أعماقي شيء من ذلك، لكن مشكلتي أكبر قليلاً، وربما أصعب.

ليس في نيتي أن أجهز على واسيني الذي افترضته منتهياً في غيبوبته الطويلة، ولكني سأمنح نفسي حق الجنون الذي منحه لنفسه، ولا يهم إذا كانت النتائج وخيمة والعواقب غير محسوبة. فأنا أدرك أنّ ما سأقوم به ليس هيناً أبداً.

سأنشر رسائلي ورسائله، وعليه أن يتحمل عسر اللعبة، لأنه هو مخترعها في الأصل، ويدرك جيداً أن السحر يمكن أن ينقلب على الساحر في أية لحظة. كان على بهلوان نيتشه أن يجد مسلكه لوحده وأن لا يجبرني على التدخل

القاسي: فهو عندما يصل إلى وسط الحبل، عليه أن لا يرجع إلى الوراء، أولاً، لأن رجوعه مستحيل، ثم أنه حتى ولو رجع، لن يضمن وصوله. ولهذا، عليه أن يتحمل شطط المسافة المتبقية له بينه وبين نهاية الحبل الذي يرقص عليه.
همست بألم ولم يسمعني واسيني.
تمتمت بصوت مكتوم، إني أتهاوى داخل الصمت! بالكاد التفتت إلى عيون المحيطين بي، قبل أن ينغمسوا في لعبة الحياة الصعبة.

أريد الآن، أن أصرخ على مسمع الجميع، بعد كل هذه السنوات الجميلة والمظلمة أيضاً، التي أمضيتها في عمق الصمت: يكفي حبيبي. تعبت يا واسيني، ليس منك فقط، ولكن من كل ما تفترضه مسألة سهلة. الموت صمتاً أكثر من الموت احتراقاً، لأنك ترى نفسك كل يوم تفقد شيئاً من جسدك وروحك ولا تستطيع حتى أن تصرخ ألماً.

أصعب الميتات حبيبي، أن ترى نفسك وأنت تموت.
أقسى النهايات، تلك التي يريدها لك من لا يحبك.

ليعذرني واسيني. ليعذرني قدر ما يستطيع. هذه المرة سأكون أنا، ليلى أو ليلي، لا يهم، بلحمي ودمي، ولن أكون مجرد قناع للتراجيدية الجميلة التي عشناها حتى الآن. لن أكون مريم التي افتكها من العدم، ونحت لها تمثالاً من نور الشمس الهاربة، ومن ندى الفجر الربيعي، ومن هسهسة أوراق الخريف، ومن ظلال العشاق المتخفين عن العيون الهمجية. سأكون باسمي الحقيقي الذي غيبه حتى لم أعد موجودة. وسألعب اللعبة نفسها التي بدأها. سأجعل من رسائلي فراشي الأخير للحياة أو للموت، لا يهم، وضالتي في هذا النوع الخطير من اللعب. رسائل حقيقية. محزنة أحياناً، جميلة في بعضها، وقاسية في أحيان أخرى، ومؤذية. سألعب بها في أصولها، كمن يلعب بمشاهب النار، لا كما حورها واسيني في رواياته وجعل منها مادة أدبية ليخفف من التصاقها بالحياة.

لست أديبة، ولست أيضاً امرأة من قش أو ورق، ولكني حقيقته التي هرب منها دائماً وآن الأوان أن يختبر جرأته وقوته أمام سلطانها.

—٥—

كل هذا يحدث في مدار شبه مغلق، يشبه السكريبتوريوم في كل شيء.

قد لا يكون المكان الذي أنا فيه رومانسياً ومناسباً، ولكنه جميل لأنه مثقل بالأسرار، وغامض لأنه يشبهني أيضاً. أؤمن أن أمكنتنا وحقائب سفرنا، تشبهنا. أجد لذة لا تقاوم في اختراق أسراره مثل امرأة تتهيأ لتنام مع رجل تعشقه لأول مرة. تتحول إلى طفلة وهي تبحث عن أكثر اللحظات حساسية وجمالاً في رجلها الذي تحبه. تختار ألبستها الجميلة. أقمشتها التحتية الخفيفة التي تعطي سحراً خاصاً لكل حركة تقوم بها، بحيث يبدو جسدها كغيمة في متناول اليد، ويصعب في الآن نفسه القبض عليه. وعندما ترمي بنفسها في جنون اللذة، يمر داخل تأوهاتها ونفسها المتقطع، كل شيء بسرعة، ولا تعرف من منهما يتوغل في الآخر ويخترقه. الارتباك الطفولي نفسه، الحرارة نفسها التي تعبر الجسد عرضاً وطولاً، وكذلك الرعشة التي تشبه رعشة الحمى في أقاصيها التي تحاذي الموت.

—٦—

قليل من الصبر. أنا لم أبدأ بعد حكايتي.

لقد امتلأ السكريبتوريوم الذي يسميه أولادي الكهف، حتى أصبح رياض نفسه يستعمل هذه الكلمة وهو لا يدري، عن غباء أو عن سوء معرفة، أنه كان يرميني في عمق الغموض الذي كان ينتهي بي دائماً في أحضان واسيني. في عمق الكهوف نشأت كل الممنوعات التي غيرت وجه العالم. القرآن في غار حراء، مقدمة بن خلدون في مغارة افرندا، مغارة سرفانتس التي خرج منها أجمل نص وأخطره ضد محاكم التفتيش المقدس. فقد سخر سرفانتس من الوثوقيين وأصحاب اليقين الفارغ، ثم وقف يتفرج على الجميع، ولم يسمع أحد قهقهاته التي كانت تنتهي دوماً إلى حالة عواء. سيدنا موسى نفسه، قضى زمناً ينتظر في مغارة، ألواحه المنقذة وكلام الله. ويبدو أن رحلة سيدنا المسيح عندما سيبعث، ستبدأ من مغارة أيضاً.

مصير البشرية كلها، معلق على مغارة بحجم الخوف.

السكريبتوريوم هو سري المتبقي، منه ستنبعث حقيقتي الأعمق

التي تخرج مني لأول مرة. لا شيء مدهش فيه. مجرد مكان صغير، مليء بالأغراض الكثيرة التي ليست إلا ظلالاً لما كانت عليه: رسائلي طبعاً. المكتب القديم الذي تخلص منه رياض ليشتري آخر أكثر حداثة وبديزاين أحلى يمكن أن يستقبل به الآخرين من أعضاء الكارتيل. طاولة الأكل التي بدلها زوجي بواحدة أكثر طولاً وأكثر تجاوباً مع الديكور الجديد للبيت. ارتبطت بها بشكل مرضي فقط لأن لي بها ذكرى واحدة جميلة. أكلت عليها أنا وواسيني في لقائنا الأول، بعد عودتي من جزيرة كريت. لا أتذكر أصلاً أننا أكلنا. كنت أسعد امرأة لأني استعدته من جديد، وكنت أظن أننا افترقنا إلى الأبد، ولم أكن أريد ذلك. أريده أن يظل الصدر الحنون الذي أسند عليه رأسي، كلما شعرت أن جسدي لم يعد لي، وأن بعض يقينياتي العميقة بدأت تُسرَق مني. وبابي الذي إذا تخطيت عتبته، شعرت بأمن كلي.

حماقة؟! ليكن.

لن أدافع عن نفسي، ولست مستعدة لفعل ذلك حتى ولو اقتادني زبانية الأديان إلى ساحة الرجم. أمر مثل هذا لم يعد يشغلني مطلقاً. لو كنت في دولة دينية لطبق علي الحد أكثر من مائة مرة. ما زلت أؤمن أن أكبر خيانة تمارسها امرأة، هي أن تنام في حضن رجل لا تحبه، وأصعب فاحشة أن يفتح رجل قلبه لامرأة هو أول العارفين بكذبته. ولا شيء بينهما إلا ورقة ذابلة مثل قلبيهما وقبلهما. زنا يمارس كل ليلة على مرأى القانون والله والبشر باسم وثيقة عاجزة عن توفير قبلة صادقة.

لقد تخطيت تلك العتبات الكاذبة، وأصبحت في مكان آخر، في منطقة أكثر حساسية وأكثر خطراً. قد لا يفرحني ذلك كثيراً. حتى عندما أمنح جسدي لرياض، فهو ليس له. الرجل الذي في رأسي هو عذري الوحيد داخل الفراش.

نسيت. هناك أيضاً الكمبيوتر القديم الذي يصاحبني في هذا القبو الساكن. لقد تخطته التكنولوجيا الحديثة، ولكن قلبي وحواسي وأصابعي ما تزال ملتصقة به. ما تزال رعشاتي الأولى، وعرق أصابعي، وخوفي، على ملامسه من أن يكتشف رياض أسراره المخبأة فيه. ذاكرته محدودة، ولكنه يقوم

بالوظائف التي أحتاج لها. الكتابة تحديداً والموسيقي. اشترى لي رياض كمبيوتر آخر موديل، بذاكرة ضخمة، ولكني لا أشعر تجاهه بأية قرابة كانت. تحول إلى أداة للعب لمايا ويونس.

ثم علبتي الوفية التي تنام عادة في البنك واستحضرها كلما اشتقت لوحدتي. رسائلي القديمة مع واسيني، من لقائنا الأول حتى عيشنا الموازي، ومرضه الذي أدخله الغيبوبة القاتلة، أو هكذا افترضت.

التراجيدية الكبرى هي أن تنام في أحضان رجل أنت لست معه أبداً!

مومس؟

أتحسس هذه الكلمة على شفاه الكثير ممن يعرفون قصتي. اللحظة الوحيدة التي لا أشعر فيها أني مومس، هي عندما أخرج عن النظام المفروض علي من فقهاء الزنا. طبعاً، لست مجنونة إلى الحد الذي يجعلني أضع هذا الصندوق في متناول رياض، لي خوفي وأوقات جبني. أخبئه في البنك، وكلما وجدتني وحيدة، سحبته نحو هذا السكريبتوريوم. على الرغم من احتياطاتي الكثيرة، أفكر من حين لآخر في الصدفة القاتلة التي قد تحدث يوماً، ويجد رياض الصندوق. عشقي الموازي بجروحه وخوفه وعطره. ماذا سيحدث؟ على الرغم من طيبته وحبه لي، سينقلب رياض، في الثانية الأولى التي تعقب الاكتشاف، إلى وحش خرافي. لا أشك في ذلك لحظة واحدة. أعمق طعنة للرجل الشرقي هي أن تنام امرأته في فراش، غير فراشه. طبعاً هو لا يكلف نفسه عناء طرح السؤال على نفسه. يستطيع أن ينام في الفراش الذي يشاء بدون أن يتحرك شيء فيه.
عاش العدل، حبيبي. عاش الشرق.

-٧-

لا شيء يكسر الآن حالة هدوئي، وألمي الجميل.

أعوم وسط هذه الرسائل التي يغلب عليها لونان: البنفسجي والأزرق. لا توجد من بينها رسالة واحدة بيضاء وكأن بياض العفة اخترقناه أصلاً

ومحوناه نهائياً من خلال هذه العلاقة الغريبة بيني وبين واسيني. بعض هذه الرسائل قديم طبعاً، والآخر حديث. البعض مكتوب باليد والقلم، ما يزال عطر الحبر البنفسجي، وحتى الصيني، يفوح منه، والبعض الآخر مسحوب من الإنترنت. وبعضه القليل رسائل نصفها مشفر، لا أحد غيرنا يستطيع فهمها.

* * * *

أين منديل الحرير؟

الغالية... كوراثون ميًا[1].

القلب والعمر.

أين أنتِ الآن وسط هذه الظلمة التي نزلت فجأة على المدينة؟ أين موسيقاك التي تملأني الآن، وتدحرجني نحو الأقاصي البعيدة؟ تعرفين جيداً، أننا كلما التقينا ووضعت الكمان على صدرك، في عفوية طفولية، لا أستطيع مقاومة حضورك.

أتمتم كعاشق فقد كل الوجهات:

- أريد أن أسمعك عمري!

- هل تريدني أن أنهيك؟ أخلص عليك؟ لقد أصبحتَ ذرات من النور، فماذا تريد أكثر؟

- أن أشعر بأني أقرب إليك من نفسك. موسيقاك ترميني في مكان لا شيء فيه يقف على قدمين، ولا شيء فيه يفكر. مكان يغرق في النور وندى الفجر، الذي تحوله أشعة الشمس إلى قطع من البلور المتلألئ على أوراق الشجر الخريفية. أريد عمري أن أرى أناملك وهي تنسحب وتعود في حركة أبدية، تعزف على روح تميد داخل الأشواق الحبيسة. أريد بأنانية العاشق، أن أراك حيث لا عين تلمحك ولا يد تلمسك.

ثم تعزفين ويندثر كل شيء يحيط بنا، ولا تبقى إلا الأنات التي تأتي من أعماق الروح.

أبحث عنك. المسك. تتبعثرين كفراشة هشة بين أصابعي. أركض وراء

ذرات النور التي تحمل أنفاسك وروحك. أقبض عليها بصعوبة، فتضيء كهوفي الدفينة.

أتذكر كل التفاصيل الحية.

أين مناديل الحرير التي نشفتُ بها صدرك، ثم دفنتها طويلاً في قلبي وغطيتُ بها أنفي لكي تظل رائحة جسدك عالقة بي؟ كلما مر عليَّ وجهك الذي لا أستطيع أن ألملم تفاصيله الهاربة، بحثت عنك في رائحة عرقك التي توقظ كل حواسي الحية، حتى المقتولة منها. بعض الحواس تموت بفعل النسيان. أراك بكل تفاصيلك تحت ألوان تلك «اللمبة» البنفسجية وأنت تتضاءلين حتى تصبحين ضوءاً أو غيمة عارية.

عندما تمددتِ على الفراش، نظرت إلى السقف قليلاً. اندهشت من اللون البنفسجي الذي كنتُ قد اخترته لوناً لغرفتي. ضحكتِ وأنت تتحسسين بحاسة شمك القوية، عطر البيت الذي كان يأتيك من كل الجهات:

- حبيبي. هل تدري أن خبراء اللون يصنفون البنفسجي كواحد من ألوان الشهوة. الغريب أني كلما رأيته عندك، أشعر أني في غابة من اللذة الموحشة والبدائية، ولا أستطيع مقاومة النداءات المتأتية من بعيد، من مهاوي الأعماق. أشعر بك الآن وأنا في هذا السرير، كأننا في حديقة الله المليئة بالبنفسج. أعتقد أن الله قبل أن يخلق البشر، أبدع الحدائق والزهور ليجعل من الحياة الصعبة أمراً مستساغاً ومقبولاً ومتحملاً. من أين لك بكل هذه الحديقة الإلهية الرائعة حبيبي؟ من أين جاءك كل هذا البهاء أيها الغالي؟

أذكر كل التفاصيل التي تأسرني الآن وتضعني في كف الشمس، وتطوح بي عالياً في الأعماق الملتهبة التي لا قرار لها.

عندما نمنا لأول مرة في الفراش المعطر نفسه ولمست جسدك وشعرت بالعالم يتحول إلى لمعة برق ثبتت طويلاً قبل أن تنطفئ وتغير لونها، لم أفكر في شيء آخر إلا فيك. كان من الصعب علي أن أصدق أنك أخيراً أصبحت

هنا. هنا بالضبط حيث يفقد اليقين وجوده، ويصبح كل شيء بلا شكل ولا لون.

كنت داخل الدهشة ولم أكن أصدق أنك كنت هنا. ههنا بين يدي. وجهي في وجهك، وصدري على صدرك وقلبي في قلبك. شفتاي على جمرة شفتيك، ونبضي وعرقي يختلطان بك. لأول مرة أدرك أنني كنت قادراً على حبك بعينين مفتوحتين خوفاً من انسياب أية رعشة لم أحس بها.

كنت تمسحين كل الحرائق التي كانت في قلبي وجسدي. وكنت خائفاً من عطبك.

تمتمتِ وأنت تبحثين عن كلماتك:

– حبيبي؟ كل هذه الألوان لي؟ ألوان الجنة، لي أنا وحدي؟ وحدي لا شريك لي؟ لابد أن تكون هذه هي بالضبط ألوان الجنة التي خطها الله من أجنحة الملائكة ومن هشاشتها... هذا السحر ليس لبشر آفلين مثلنا. من أين لك حبيبي بكل هذا البهاء؟ من أين لك بكل هذا السلطان المذهل على كل حواسي، أنا لم أعد أعرف نفسي؟

لا شيء عمري.

لا شيء. أشتهي فقط أن أركض مغمض العنين وراء أجمل الفراشات التي تملأ حديقتنا الريفية، وأقطفها مثلما أفعل مع الزهور الهشة، وأجمعها، وأحذر من إتلاف ألوانها وأجسادها الناعمة. أربطها كلها مع بعض بخيط من النور وبأشعة الشمس، وأحممها بماء الزهر الخفيف، وأضعها في عمق كفيك، وأتمتم في أذنيك: اركبي عربة الفراشات. اركبي هذه الهشاشة، واتركيها تقودك نحو الجنة. إنها محملة بألوان قوس قزح وهدايا الميلاد.

لم أنتبه كيف أقدمنا على ذلك الشيء. شعرت بألمك، ولكني سمعت تأوهك:

– عمري... لا تتوقف. أريد أن أنتقم من العشرين سنة التي سرقوها

منى اليوم. أنتقم من كل خيباتي السابقة، ومن رجال عبروا الجسد دون أن يعرفوه. لقد ظلوا على حافة لم يدركوا سحرها. أريدك كما اشتهيتك وتخيلتك. لا تتوقف.

– يا مهبولة...

– لا أريدك أن توقف هذا الهبل. لست شيئاً حبيبي خارج هذا الجنون. دعني أضحك ولو لمرة واحدة من غشاوة الغباوة التي بنوا عليها حروبهم وأمجادهم وسلطانهم. لتدرك اللواتي قتلن بسبب غشاوة غطت على عيون القتلة، وحجبت عنهم نور السعادة وسلطانها الجميل. إننا نسمع الآن نحيبهن وهن يستعطفن قاتلهن، بينما هو يرفع سكينه بلا رحمة، ويحز الرقبة الطرية التي تستسلم لقاتلها بنعومة وكأنها ترسم قدراً آخر لحياة ظلت دائماً مؤجلة.

كانت أوراق الخريف تملأ أسطح وشوارع المدينة، وكانت موسيقى الليل فينا. عندما استلقينا على الظهر. وكنت أمسح وجهك وصدرك بمنديل حرير.

هل تتذكرين ماذا فعلت عندما قلتُ لك أحبكِ وأنتِ؟ قلتِ بلا أدنى تفكير: أنا لا أحبك. ثم صمتِّ قليلاً وأنتِ تتأملين عيني بمكر. كررتِ الكلمة نفسها بميزان أثقل: أنا لا أحبك... وفي اللحظة التي التفتُّ فيها نحو البحر لأصرخ بأعلى صوتي: لماذا لم تتخلي عني يا قلبي في اللحظة التي كان يجب عليك أن تفعلي فيها ذلك؟ ثم قلتِ: أنظر يا عبيط إلى عيني جيداً. ماذا ترى؟ ثم كررت مغمضة العينين: «واش تحب نقول لك؟ لا أحبك يا مهبول، ولكني نموت عليك». اسحب سؤالك الغبي قبل أن أغير رأيي، فهو يؤذيني. إذا لم تر ذلك في عيني، فكأنك لم تر شيئاً، بل لم تفهم شيئاً من هبلنا الجميل. كل شيء في جسدي يركض نحوك، حافي القدمين، باحثاً عن المبهم الذي يهرب في عينيك. لا اسم له إلا وجهك ونورك وحبك. أحبك. نحبك ونموت عليك. ولو استطعت أن أصيح بأعلى صوتي أمام كل مخلوقات الدنيا، سأفعل الآن بكل ما أوتيت من قوة، بلا ندم. وليأتِ القتلة إذا شاءوا، لا قوة تمنعهم سوى جنوني.

- هل ترى شيئاً في عمق عيني؟

- أرى ما لا ترين؟

- متأكد؟ ألا ترى أحصنة هاربة من شيء غامض هي نفسها لا تعرفه إلا من هديره؟ ألا ترى شمساً تستدفئ ببحر يهرب منها. ليس خوفاً ولكن ذعراً من الاستسلام لها؟ ألا ترى امرأة معزولة في ساحل مهجور، تغزل أشواقها في انتظار سفينة تأخر مجيئها كثيراً؟

ارتعشت في مكاني، وتوغلت في كلامك. لم يكن كلامك نبوءة. كان أكثر. يأتي من مقبرة الروح التي اندفنت فيها كل الأشياء الجميلة والرائعة.

- كل ذلك أراه. وأرى خلفه أشواقاً مبهمة ترتعش كلما وضعت يدي على وجهك، وأصابعي على قلبك. أرى سرباً من العصافير تريد أن تطير ولكن شيئاً يحكمها إلى ذلك الخيط الرفيع من أشعة الشمس.

- أليس حباً يا عمري؟

- أشعر أن الكلمة لا تستوعبه. مثل الموجة العارمة يأتي ويحتلني حتى آخر مسام في جسدي. يملأني مثلما تغرق حديقة في أشعة صباحية تأتي من شمس ربيعية مفاجئة.

كان كل شيء فيك يناديني بلا جزع ولا خوف.

شعرت عندما دفنت رأسي بين نهديك، وجسدي في جسدك، في آخر الليل، أننا انتقمنا لمائة سنة من الذعر الخفي. ربما لقرون من الصمت والكذب والضغينة.

لك صمتي وقلقي وانتظاري.

وهران ٤-٤-١٩٨٨

-١-

لا دم في يدي غير دمي حتى الآن.

كنت منهكة عندما دخلتُ إلى السكريبتوريوم. لم تكن لدي فكرة واضحة عما يمكن أن أفعله، سوى استرجاع هويتي، ومعرفة سر تيهي الذي يعذبني.

المسدس البارد لم يبرح مكانه برصاصاته السبع، وظله الذي يتمدد بهدوء. هو الشيء الوحيد الذي كان بلا رائحة.

على الطرف الأيمن من المكتب، الكُمان بقصبته الخشبية المصنوعة من شعر أجود الأحصنة. مستلق على ظهره كأنه في غفوة المتعب. كلما رأيته، تذكرت والدي الذي قضى العمر كله يعزف نشيداً يتيماً وحزيناً، كنت الوحيدة التي كانت تفهمه وتبكي كلما سمعته. كان الكمان كل حياته. صوته يعبرني الآن ويخترقني كشعاع شمس حاد:

- «هاه! يا ليلي... تحتاجين إلى الكثير من الوقت، وقناعة صارمة بحب الكمان. الكمان لا يرضى بنصف الحب أو بربعه. لقد أمضيت العمر كله أفتش أعماقه وداخله الناعم والحزين ولمست حساسيته الكبرى تجاه النسيان. النسيان يقتل الأشياء ويركب عليها غباراً خانقاً. الكمان كالكائنات الحية، يختنق أيضاً. كما ترين، ينقسم الكمان إلى ثلاثة أقسام: جزءه المجوف **La caisse de résonnance**، أو صندوق الترديد، الذراع **Le manche**، والأوتار **Les cordes**. الكمان الكبير يسمى الكامل، وهذا للعازفين الذين وصلوا إلى درجة الاكتمال. طوله بذراعه، حوالي ٥٩ سنتمتراً. هناك مقاسات متعددة. وصناعة الكمان ليست معطاة لأي شخص. هناك أنواع كثيرة، لكن أفضلها طبعاً استراديفاريوس **Stradivarius**. هناك عائلات أخرى أتقنت هذه الصناعة كعائلة عماتي **Amati**، وغوارنيري **Guarneri**، وغيرهما. الكمان من النوع استراديفاريوس، من الخشب السويسري الكريم، ويزن ما بين ٣٥٥ غرام و٣٦٥. خيوطه الأربعة يجب أن تدوزن على مستوى رأس الذراع بواسطة المرتكزات. حِلقات التمديد تسمح بجذب كافٍ للأوتار. وضع اليد اليمنى مهم في الكثير من الحالات. فهي التي تحدد الفوارق بين الليقاتو **Legato**، حين

– هل ترى شيئاً في عمق عيني؟

– أرى ما لا ترين؟

– متأكد؟ ألا ترى أحصنة هاربة من شيء غامض هي نفسها لا تعرفه إلا من هديره؟ ألا ترى شمساً تستدفئ ببحر يهرب منها، ليس خوفاً ولكن ذعراً من الاستسلام لها؟ ألا ترى امرأة معزولة في ساحل مهجور، تغزل أشواقها في انتظار سفينة تأخر مجيئها كثيراً؟

ارتعشت في مكاني، وتوغلت في كلامك. لم يكن كلامك نبوءة. كان أكثر، يأتي من مقبرة الروح التي اندفنت فيها كل الأشياء الجميلة والرائعة.

– كل ذلك أراه. وأرى خلفه أشواقاً مبهمة ترتعش كلما وضعت يدي على وجهك، وأصابعي على قلبك. أرى سرباً من العصافير تريد أن تطير ولكن شيئاً يحكمها إلى ذلك الخيط الرفيع من أشعة الشمس.

– أليس حباً يا عمري؟

– أشعر أن الكلمة لا تستوعبه. مثل الموجة العارمة يأتي ويحتلني حتى آخر مسام في جسدي. يملأني مثلما تغرق حديقة في أشعة صباحية تأتي من شمس ربيعية مفاجئة.

كان كل شيء فيك يناديني بلا جزع ولا خوف.

شعرت عندما دفنت رأسي بين نهديك، وجسدي في جسدك، في آخر الليل، أننا انتقمنا لمائة سنة من الذعر الخفي. ربما لقرون من الصمت والكذب والضغينة.

لك صمتي وقلقي وانتظاري.

وهران ٤-٤-١٩٨٨

-١-

لا دم في يدي غير دمي حتى الآن.

كنت منهكة عندما دخلتُ إلى السكريبتوريوم. لم تكن لدي فكرة واضحة عما يمكن أن أفعله، سوى استرجاع هويتي، ومعرفة سر تيهي الذي يعذبني.

المسدس البارد لم يبرح مكانه برصاصاته السبع، وظله الذي يتمدد بهدوء. هو الشيء الوحيد الذي كان بلا رائحة.

على الطرف الأيمن من المكتب، الكُمان بقصبته الخشبية المصنوعة من شعر أجود الأحصنة، مستلق على ظهره كأنه في غفوة المتعب. كلما رأيته، تذكرت والدي الذي قضى العمر كله يعزف نشيداً يتيماً وحزيناً. كنت الوحيدة التي كانت تفهمه وتبكي كلما سمعته. كان الكمان كل حياته. صوته يعبرني الآن ويخترقني كشعاع شمس حاد:

– «هاه! يا ليلي... تحتاجين إلى الكثير من الوقت، وقناعة صارمة بحب الكمان. الكمان لا يرضى بنصف الحب أو بربعه. لقد أمضيت العمر كله أفتش أعماقه وداخله الناعم والحزين ولمست حساسيته الكبرى تجاه النسيان. النسيان يقتل الأشياء ويركب عليها غباراً خانقا. الكمان كالكائنات الحية، يختنق أيضاً. كما ترين، ينقسم الكمان إلى ثلاثة أقسام: جزءه المجوف La caisse de résonnance، أو صندوق الترديد، الذراع Le manche، والأوتار Les cordes. الكمان الكبير يسمى الكامل، وهذا للعازفين الذين وصلوا إلى درجة الاكتمال. طوله بذراعه، حوالي ٥٩ سنتمتراً. هناك مقاسات متعددة. وصناعة الكمان ليست معطاة لأي شخص. هناك أنواع كثيرة، لكن أفضلها طبعاً استراديفاريوس Stradivarius. هناك عائلات أخرى أتقنت هذه الصناعة كعائلة عماتي Amati، وغوارنيري Guarneri، وغيرهما. الكمان من النوع استراديفاريوس، من الخشب السويسري الكريم، ويزن ما بين ٣٥٥ غرام و٣٦٥. خيوطه الأربعة يجب أن تدوزن على مستوى رأس الذراع بواسطة المرتكزات. حلقات التمديد تسمح بجذب كافٍ للأوتار. وضع اليد اليمنى مهم في الكثير من الحالات. فهي التي تحدد الفوارق بين الليقاتو Legato، حين

يدع العازف القصبة تتزحلق على الأوتار بسلاسة، والستاكاتو Staccato، وهي على العكس من ذلك، الضربات الجافة والمفصولة عن بعضها البعض، التي تتم بواسطة حركات القصبة، والبيزيكاتو Pizzicato، وتتشكل عندما يعض العازف بأصابعه، بشكل خفيف، على الأوتار...»

كان مسحوراً بكل كلمة يقولها. أراه وهو يأخذ كل شيء بجدية نادرة. بإصراره الدائم، جعلني أفكر مثله بعد أن أدخلني في هوسه الموسيقي المجنون. كان سي ناصر طيباً ومليئاً بالحنان، قبل أن تسرقه مني سكتة قلبية. ظل طوال ما تبقى من عمره، يحلم ببلد آخر، بلد أجمل ميال نحو الحياة، قادر على نسيان الحروب وماضي النار، بالموسيقى والحب. كان آخر الرومانسيين القادمين من حرب دمرت كل العواطف المتبقية، التي ظلت تقاوم عواصف الأحقاد والضغائن. كان يريد لأبنائه وذويه، قليلاً من التاريخ، والكثير من الحكمة والموسيقى. لكن الورثة سرقوا منه كل شيء، حتى موسيقاه الخفية. أصعب ما فعله الورثة بعد ١٩٦٢، أنهم قتلوا بذرة الحلم الأولى، وحولوا الأرض المشبعة بالدم والخوف، إلى ريع ثابت، وعملة صعبة، وفيلات وقصور ومصانع، ثم إلى كارتيل مُحكم، يديرونه بيد من فولاذ ملتهب دوماً.

عندما أعادني خالي إلى البيت وسحبني من المدرسة يومها، كنت حزينة لأني كنت أعرف أن وراء ذلك شيئاً خطيراً. رأيته لآخر مرة منكفئاً على الكمان، والقصبة في يده اليمنى. ظننته يفكر في النشيد القادم كما تعود أن يفعل. جلست قبالته وأنا أبكي. قلت له: بابا اعزف لي نشيد البارحة، فقد أحببته لأنه يثير شيئاً غريباً وغامضاً في حواسي. لم يجبني وبقي منكفئاً. كررت مرة أخرى. كانت كل العيون مصوبة نحوي. ظننته غاضباً من شيء مبهم يحمله معه منذ زمن بعيد. لكنه لم يرد عليَّ. قلت له، كما تعودتُ أن أفعل عندما يكون حزيناً: بابا حبيبي، لقد غادرت المدرسة من أجلك، فقط لأسمع نشيجك. ظل صامتاً. قمت من مكاني. عندما اقتربت منه ورفعت رأسه قليلاً، كان غارقا في ابتسامة لم أعرف سرها سوى احتمال أنه ذهب وهو يفكر في شيء جميل.

بكيت لأني يومها شعرت أني خسرت نداء نقياً كان يحفظني من الانكسار ومن نفسي. حتى وهو في أقاصي المرض لم يمنعني من موسيقاه.

لم تلتفت لي الحياة، ولكنها كانت منشغلة بترتيب أدوار أخرى، لناس آخرين.

كل شيء كان مرتباً كما في بدء الخليقة: الخسارات الأنيقة، الخوف المبطن، الليل والعزلة، والشك في يقين الحياة نفسها.

يبدو أن الوحدة تليق بهذا العنفوان الذي لا أحد يحسه غيري.

تمتمتُ وأنا أتوقف عند رسائلي القديمة التي كانت السبب الأول في هذه العزلة. هي لغتي الخفية وعنادي تجاه حياة لم تكن دائماً طيبة معي.

عندما أخبرت واسيني يومها أن عناده لا يفيد أحداً منا، وأن زواجنا ليس سجناً جديداً ولكنه مجرد تجربة مضمونة قليلاً. لم ينتبه لخطر ما كان يفعله. لا أدري إذا كان مصيباً، ولكني أحمله كل تبعات ما حدث فيما بعد. كان مهووساً بجان بول سارتر، وسيمون دو بوفوار، والبير كامو، وكيركيغار، ونيتشه، ومجموعة أخرى من الحمقى الوجوديين والظواهريين. في لحظة ضيق صرخت: «يلعن أبو سارتر وبوفوار». هما على الأقل كانا في مجتمع يسمح لهما بالعيش مع بعض بدون ثوابت مسبقة، ولا أية ضغوط مجتمعية، ونحن؟ إذا بقيت معك علناً، سأصبح مجرد غانية في عيون أهلي، قبل أصدقائي ومحيطي. وربما حمل أحدهم سكينة ودفنها في جسدي دفاعاً عن شرف لا يتذكره إلا عندما يتعلق الأمر بجسدي، وينسى جسده الذي يمرغة يومياً فيما لا يحبه لا الله ولا البشر. لكن واسيني كان مغلقاً مثل باب بيت قديم، لم يأبه برغائبي الداخلي ونزقي. كان في قارة أخرى لا كائن فيها إلا هو.

- واسيني أرجوك، لا تكن أحمق!

هز رأسه ثم مضى نحو تيهه. كان كل يوم يصنع قليلاً حريقاً مدمراً، لم يكن يدري مخاطره ولا مزالقه.

ظل ينام قرير العين في دوائره النظرية، ونسي أن كائناً حياً كان يموت في فراشه كل يوم قليلاً. مسألة مثل هذه يعاقب عليها القانون. تسمى في الأعراف الدولية: Non assistance à personne en danger[22]. أحس باللاجدوى، فأعود إلى الانكفاء على نفسي. كان بعيداً، وكنت أبكي في كل ليلة لأنساه فقط، وأتمكن في النهاية من أن أكون لغيره.

-٢-

«ها أنا ذي، مريم، كما شاء لي واسيني في رواياته. لا كما شاءت الأقدار، ومحا بجرة حب مجنونة، اسم ليلى من الوجود. فجأة أصبحت أنتمي لاسم آخر لا أدري كيف شق صدري في البداية واستقر به، حتى في رسائله التي تكاثرت منذ أن فقدنا بعضنا البعض، بجدية قاسية لم يكن يتصور هولها».

عذراً مرة أخرى أني نطقت باسمه عارياً، وأنا التي حاولت منذ أكثر من ربع قرن أن أخفي الجريمة. لقد أوهم الجميع باسم مريم وكأنها كائن بشري، وهي ليست أكثر من امرأة ورقية جاءت على أنقاض امرأة حقيقية. بنية مبيتة أو طيبة، سرق مني واسيني اسمي الحقيقي، وطوح به في الفراغ المميت، واشتق لي اسماً أكل كل شيء في داخلي وسرق مني هويتي وحتى ألبستي.

جريمتي من هذه الناحية مبررة على الأقل. لست سادية أتلذذ بآلام الآخرين.

ليس معتاداً في العرف العام أن تقتل امرأة من لحم ودم شخصية روائية مليئة بالسحر والغواية. أنا الحقيقة وهي الوهم؟

افترضته انتهى في غيبوبته القلبية، لا لشيء، سوى لأني احتاج إلى حالة انفصال عنه لأشعر أنه عليّ أن أتحمل كل شيء وحدي، ويمكنني أن أتخذ أكثر القرارات خطورة بدون استشارته. لا خيار لي سوى الانتهاء من مريم في أقرب وقت ممكن. لقد سحقت كل شيء فيّ وحولتني إلى لاشيء. لا أدري

كيف دخلت إلى حياتي كالسوسة، ولا حتى كيف قبلتُ بها بسعادة غريبة. ربما لأني كنت عبيطة وظللت أرى فيها الشخصية الورقية الطارئة في حياة واسيني. شخصيّاته النسوية كثيرة، لم يبق منهن اليوم الشيء الكثير إلا ما تحفظه ذاكرة القراء؟ كليمونس؟ فتنة؟ زوليخة؟ مايا؟ زهور؟ دنيا؟ جينا؟ سيلفيا؟ أناطوليا؟ وغيرهن... ربما لأن واسيني أغراني وهو يتكلم عن مريمته الحقيقية، مريم الطفولة الهاربة، في قريته البعيدة. مازالت ملامح وجهه البريئة تنغرس في عمق الحكاية وكأنه أمامي يتحدث بجديته المعهودة، المبطنة بكم هائل من السخرية:

«- لقد سُرقت مثلما تسرق وردة من شعر غجرية، بعنف ولامبالاة. لا أتذكر من مريم اليوم، سوى أنها كانت جميلة وممتلئة كحبة قمح، وابنة شهيد ووحيدةُ العائلة. بيضاء كصباح ربيعي في قرية على ضفة بحر موحش. لم نكن نراها إلا في لافونتين[٢٣] أو السقّاية، التي كانت مريم ترتادها كما تفعل جميع نساء القرية من أجل غسل الحبوب، أو الألبسة قبل أن ينسحبن منها مساء، ليحتلها الرجال، عندما يعودون من الحقول المجاورة، من الدرس والحصاد، لتوريد الحيوانات والاستحمام بها. كنا نجلس على حائطها العالي قليلاً، كالغربان الصغيرة، بعدما نملأ شعورنا المجعدة بالصابون الذي يحافظ على ملاستها وثباتها. ونستحم بعطر بلوم- بلوم[٢٤] الرخيص، والقوي الرائحة الذي كان يستعمل أيضاً لتعطير جثث الموتى. ونصوب أعيننا جميعاً تجاه مريم المنكفئة على شيء تغسله. أجمل يوم كان، عندما تغسل القمح. تضع الحبوب في إناء حديدي واسع منزوع في الأصل قاع برميل. تكب الماء على القمح، ثم تدخل برجليها في طقس غريب. تبدأ في حركات متتالية، جيئة وذهابا، وكأنها ترقص. رقصة القمح كنا نسميها. تتلوى بجسدها طويلاً. تتمايل. يسعفها جسدها الغض. ترفع عباءتها حتى الركبتين. تظهر جلياً ساقاها البيضاوان كشمعتي الأولياء الصالحين. ترفع شعرها قليلاً، فيبدو واضحاً وجهها الذي يحمر كثيراً، قبل أن يتخفى ليظهر من جديد مبرزاً عن عينين واسعتين مليئتين بالغواية الشيطانية التي كانت تتقنها. ابتسامة مشرقة، بدون أن توقف حركاتها المنزلقة على القمح. كانت مريم ذكية، وتعرف كيف توزع ابتسامات الشهوة

الطفولية على كل واحد منا. ونعود إلى بيوتنا القصديرية في أقاصي السعادة، ممتلئين بنظراتها. كل واحد يروي غمزة مريم، أو ابتسامتها، أو ضحكتها، أو حركة شعرها، أو التفاتتها المليئة بالسحر والأسرار، أو تمايلها باتجاهه. كانت مريم سحر القرية، وجمالها الدفين ورغبتنا المحروقة. كنا نخاف يومياً ألاّ تأتي للسقّاية. فجأة غابت مريم، وتركت وراءها فراغاً مخيفاً. عوضنا غيابها بالحكايات التي لا تتوقف حولها. تزوجت بالقوة، من ابن عمها الذي كان وجهه قريباً من وجه الذئب. نروي مساءاتها الحزينة مع الذئب. اختلقنا قصة سميناها: مريم والذئب، وأقسمنا برؤوس كل الأولياء الصالحين أنها ليست خيالاً، ولكنها من رحم الحقيقة. تنافسنا في إظهار مقاومتها المستميتة ضد شكله، رائحته، تحولاته. ثم فجأة، كبرنا وافترق الجميع، وظلت مريم في صورتها الأولى، طفلة مليئة بالغنج والبراءة. تزوج أصدقائي وبقيت مدة طويلة أعزب. أتصيد أخبار مريم، هل مازالت مع الذئب، أم أنه أكلها، أو أنها قتلته؟

– أي حظ حبيبي لامرأة عشقها كل أطفال القرية؟

– لا ندري إذا كنا نعشقها حقيقة، أو أنها كانت استحالتنا الجميلة، وأنها كانت تختزل كل شهواتنا وتاريخنا القرويّ، وأشواقنا. كانت كل ما كنا نشتهيه، ولو طلب من أي واحد منا قتل الذئب، ما تردد؟ لكن الذئب كان ابن عمها، وكان أولى بها من غيره. أكثرنا تضرراً كان مصطفى الذي لم يقاوم غيابها طويلاً، وحاول الانتحار مرتين، قبل أن يفلح في المرة الثالثة. قال الذين رأوها في أيام الآحاد، عندما يغيب الذئب نحو الأسواق، تأتي ملفوفة في السواد، لتقف على قبر مصطفى طويلاً. تنقيه من أية عشب ضار. تضع ملايتها على الشاهدة. يبدو وجهها الناصع مليئاً بالنور، وتنعكس على شعرها الفحمي أشعة الشمس الربيعية فيصبح أزرق متلألئاً. تبكيه طويلاً، ثم ترتدي ملايتها وتنسحب في صمت. كنا في أعماقنا، نغار أيضاً من موت مصطفى ومن شجاعته على الانتحار. كان أقلنا كلاماً، وأكثرنا حباً لمريم».

وجدت قصة مريم طريفة وجميلة وحزينة. أحببت طفولتها وعنفوانها،

وحتى شجاعتها باختراق كل الموانع، والتوغل عميقاً داخل المقبرة. ولكنها لم تكن تشبه مريم الروايات في شيء. لم تكتف مريم المجنونة التي خرجت من جسدي وأوهامي، بأن أزاحتني ولكنها أرادت دفني وأنا حية ؟

يجب أن يعرف العابرون نهاية «الباخية»[٢٥]، كما كان يقول الأجداد، قبل أن يحكموا ويعودوا إلى وسائد نومهم مطمئني القلوب والعيون.

-٣-

لا هوية لي! وهل سأقبل بهذا الوضع الصعب؟

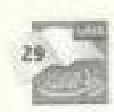
جلوسي وسط هذه الكومة من الرسائل والقصاصات، والمسدس المفتوح الشهية، وكمان والدي، لا مبرر له، سوى شيء واحد: أن أقنع نفسي بأني لست امرأة من ورق وخشخاش، ولكني كائن حي كبقية الخلق، تألم كثيراً حتى وصل إلى حافة الجنون. عشق وحزن كثيراً وخسر، ولكنه لم يُكتب له أن يفرح حتى بخساراته، ما دامت أفراحه الصغيرة قد سرقت منه في زمن مبكر.

لست مريم التي اشتهاها الجميع، ولم تشته نفسها.
لست امرأة الأنوثة والرقة الفائضة.
لست حنين الرجال التائهين، ولست مخبأ آلامهم.
لست العذراء، وحبيبي لم يكن مسيحاً منزّلاً.
لست اللاشيء عندما تندفع آلامي إلى الواجهة؟

هل يدري الذين قرؤوها في روايات واسيني، أن وراء سحر اللغة الخاطف، تختبئ مأساة تتعلق بكل بساطة بانمحاء هوية كانت قائمة؟ هوية امرأة اسمها لا يثير أية شبهة سوى شبهة الحب المستحيل: ليلى، أو ليلي كما كان يناديني والدي.

لست مجنونة، فأنا في كامل قواي العقلية، بل في أكبر حالات صفائي الذهنية، ومستعدة لكل شيء، بما في ذلك عقوبات القتلة الذين يتربصون بي وبه.

حزينة لأني أشعر أني تخطيت عتبة البراءة باتجاه الجريمة، ولكني مجبرة.



-٤-

يمكن للذي يعرفني، من الآن أن يتخلى، عن قراءة رسائلي ورسائل واسيني، وأن يرمي بهذا الكتاب الذي أضعه بين أيدي الجميع، عرض الحائط أو حتى في قلب النار، لأنه يستفز في أعمق نقطة ويرفض التواطؤ. ولأن ما سأقوله لا يسر أحدًا، لا أنتظر الشيء الكثير ممن يحيطون بي.

أنتظر فقط أن يفتح البريد المركزي، لأدفع بهذا الجنون إلى النشر.

طبعاً، ليس هذا هو المهم الآن.

المهم، هو كيف يتحول الكاتب إلى مجرم ليس فقط بقتل أبطاله، فهذه الفكرة قديمة ومعروفة ومارسها عشرات الكتاب، ولكن أن يقتل الكاتب كائناً حياً، وينشئ من نفسه الأخير امرأة ورقية؟ ثم كيف تقوم المرأة التي تتخفى وراء رماد الورق، وتنتقم لنفسها من الجميع؟ هذا هو بيت القصيد.

اليوم، عندما أعود إلى رسائله، أسترجع شيئاً فشيئاً وجهي الذي غاب وسط ضباب مبهم اسمه مريم. لم أعد أعرفه، بل إني لم أعد أريده ولا أحبه، مع أن قصتنا بدأت لطيفة. أول مرة ناداني فيها باسم مريم لم يكن يقصد نفيي، ولكن حمايتي من محيط قاتل. كان واسيني يشتهي أن يقول نشيده عني بأقصى راحة، وكانت مريم وسيلته لفعل ذلك.

إلى اليوم لا أعرف من المجرم الحقيقي، واسيني؟ أم القراء الذين لم يتنبهوا للعبة، وجعلوا من مريم امرأة الاستثناء؟ أم أنا التي تخليت عن اسمي طواعية، وقبلت باللعبة منذ البداية ولم أعرها أي انتباه، ورضيت بتحويلها إلى قناع يحميني من عيون البشر والقتلة، وربما حتى من نفسي؟

أقلب الأوراق.

رائحة الرسالة القديمة ذات الغلاف الأزرق، تأتيني غريبة وتقتحمني. كانت الليلة معطرة بشيء يشبه رائحة النباتات البرية، هي الرائحة التي تزيد من شهوتي كلما دخلت إلى فراشه.

فجأة، بدا لي ذلك الزمن قريباً من قلبي ومن عيني، وكأن يداً قوية وضعته أمامي بنبضه، وخوفه، ورعشاته المتتالية، وموسيقاه الدفينة. لم تكن هناك أيّة قوة تمنعني من الاحساس بالعبث الذي كان يؤذيني. لم أستطع أن أغفر له كل حماقته. وإلى آخر يوم من حياتي سأظل أتذكر لماذا ركب رأسه وتنازل عني لغريم لم يكن شيء يجمعني به سوى رغبته في الزواج مني. ما الذي كان يمنع واسيني من أن يغمض عينيه ويتركني أقوده نحو مرفأ كان مؤهلاً لأن يمنحنا الحياة؟ كنت اتفقت بيني وبينه أن نفترق متى شعرنا بالنفور يدخل قلبينا وسريرنا. كبار ونستطيع أن نترك بعضنا بتسامح، وبلا ضجيج. نطبق مشروعه المجنون في الزواج بعقد محدود المدة! لكنه لم يسمع إلا لأنانية متوغلة في أعماقه كسرت كل نور في عينيه وعيني، وسحبتنا شيئاً فشيئاً نحو مرفأ مظلم. كان علينا أن نكابد ونجاهد على مدار أكثر من ربع قرن، لكي نجعل الحياة مستساغة أمام خطر الإفناء الذي كان يتهددها في كل لحظة.

عندما امتلأت عيناي ظلاماً ودماً، لم أكتب له رسالة، ولكني كتبت تقريراً يشبه تقرير نيكوس كازانتزاكي إلى جده ليس بالتبني ولكن بالرغبة والجنون، غريكو[٢٦]. قلت ما كان يملأ قلبي وجسدي من نور، وحمم حارقة، وصخور بركانية ملتهبة، وهشاشة، لم أستطع المحافظة عليها كما أحببت.

هل كان واسيني يشتهي مثل الساموراي، أن يتخذ قرار موته بيده، عندما سد الأبواب كلها، ويدعوني في حفل حميمي وسري إلى حمل السيف المقدس للإجهاز عليه في لحظة تردده أمام الموت؟

هل كان كذلك؟

ربما.. ولكني سبقته إلى وضع السيف في يده، فكنت أنا المقتولة، وكان هو السياف برضاي الكامل.

***

أية فجيعة كنتَ وراءها أيها المجنون؟

-١-

أيها البعيد القريب.

حبيبي.

إضرابات الأطفال كانت عنيفة. لقد كسروا كل ما جاء بين أيديهم. مات منهم الكثير. سماهم ناس المدينة، شهداء الخريف أو ضحايا أكتوبر. لأول مرة يموت الناس على أيدي ذويهم. لم يكن القاتل من بلاد أخرى. شيء في البلاد ينكسر وكأن الناس فتحوا فجأة أعينهم على فاجعة كانت تتهيأ في الأفق. كثرت الإضرابات ولا أحد يعرف إلى أي شيء ستنتهي! بدأ الخوف يأكلني من الداخل، ليس على نفسي ولكن على هذه التربة التي لم نعد نفهمها، ولم تعد هي أيضاً تبذل أدنى جهد لتفتيش أحزاننا ودواخلنا التي شاخت بسرعة. أين البلد السعيد الذي بشروا به بعد الاستقلال؟ بدأت أرى في الشوارع فلولاً من البشر ما هم بأفغان ولا بهنود، بدؤوا يملئون الساحات الكبرى، يقال إنهم من بيشاور وكابول، جاؤوا لتعليمنا الإسلام النقي والصحيح!

لأول مرة أشعر أني خائفة على أرضي. خائفة من شيء أحس به وبالكاد أراه.

دعني من هذا الخوف الذي يكبر كل يوم قليلاً. واتركني معك أيها المجنون.

أنت لا تدري مقدار الخراب الذي أهديته لي دفعة واحدة!

هل كنت جاداً عندما طلبتَ مني أن أكتب لك ما في قلبي؟ هل وصل بك النسيان إلى هذا الحد؟ تريد رسالة أم تقريراً عن إخفاقي في نسيانك، أم موجة صاخبةً تضع بين عينيك ما تكون قد نسيته أيها الأحمق؟

كم أحبك. وكم تزداد بعداً في هذه الدنيا الظالمة. شيء ما يقودني نحوك بشكل أعمى كلما اتخذت قراراً بتركك و بعدم رؤيتك نهائياً. أريد بالفعل أن أرتاح منك وأن تتخلص مني نهائياً لكي نعرف كيف نعيش. ماذا فعلتَ لي؟ ما سرك؟ ماذا أكلتَ من يدك أو من جسدك أو من روحك؟ أشتهيك إذ أتركك. أخاف عليك من حماقاتي وارتباكاتي وأنا معك. لا أعرف لماذا أفتح أبواب الكوابيس والأحلام وأفتش عنك في أكثر الزوايا ظلمة علّني أجدك و«أوشوش» في أذنك: أحبك: ربما لأنك تشبه والدي في هشاشته وحتى في جنونه؟

ولأن رياض كان لا يشبه والدي في سخانه، فقد كرهته، وأوصدت كل الأبواب المؤدية إليه، وفتحت كل نوافذي الصغيرة نحوك لأراك وحدي عندما أشتاق إليك.

ستسألني لماذا كل هذا الحنين؟ وستقول لي إن الحنين مدمر وعبثي لأنه يسجننا في الوهم ويحرمنا من الحياة ومن إمكانات أخرى! لا أملك أجوبة سوى أني أحملك مسؤولية الخراب الذي لحق بسعادتنا. لا أنتظر أجوبة لحيرتي، فأنتَ منذ زمن بعيد اخترت أن تقتلك الفلسفة الوجودية والأسئلة التي لا تفضي إلا إلى مزيد من الخسارات والصمت. أحياناً أتمادى في خيالاتي وأقول لو كلمني رامبو الهارب من ظله، وأنا نازلة إلى السوق الشعبية، سأصفعه ولن أكلف نفسي شرح السبب، هو يعرف جيداً لماذا فعلت ذلك. إذا وجدت كافكا، وأنا أدخل المطحنة القديمة في المدينة، جالساً يتتبع ظلال أذرعتها الهوائية، سأفرغ عليه كيس الطحين لأني قضيت هناك وأنا صغيرة، يوماً بكامله أقرأ هبله الغريب: المسخ. لو صادفت سارتر في المعابر الخلفية للمدينة، لن أكلمه، ولن أحضر درسه. وسأضع المسامير في طريق نيتشه الذي يسلك كل صباح المسلك الضيق الذي يمر بالقرب من بيتنا، وسأفرغ هواء عجلتَيّ دراجته التي يمتطيها. وسأشيح بوجهي عن

لينين عندما يسألني عن محطة الباص أو القطارات. سأنتقم منهم واحداً واحداً لأني أشعر أنهم كانوا وراء خرابنا. بعدها أتعقل وأهدأ وأضحك من نفسي. «وين أنا؟ وين هم؟». أنت كذلك أحياناً تشبه والدي، ولهذا أصاب بحالة هبل كبيرة لبعدك عني. فقد قتلته ظلمة الحيرة المستعصية ومقاطعة الشمس والهواء. لن أكلمك لأحصل منك على جواب. فهناك الكثير من المآسي في الحياة تكفي لوحدها كجواب، وأي اجتهاد بعد ذلك هو كلام زائد.

لماذا تركتني أذهب نحو الحماقة مفتوحة القلب والصدر؟ ألم يكن بإمكان طولك وقامتك أن تسد في وجهي منحدرات الانزلاق؟ لماذا تركتني أذهب مغمضة العينين نحو حتفي؟ لماذا خفت سحرك عندما أخبرتك بأني سأتزوج؟ ربما لأنك كنت تريد أن تحل عقدة ضميرك نحوي وتتخلص مني وتقول: «ما عليهش» هذا خيارها، وما عليّ إلا أن أقبل به؟ كنت تكذب على نفسك، وأنت تعرف ذلك جيداً.

أحملك الخراب الذي لحق بسعادتنا. ماذا لو تزوجنا؟ ستقول لي بفلسفتك الوجودية المعهودة: لم نتفق على تقييد حرياتنا؟ ماذا يساوي الكلام أمام الخسارات الكبرى التي لا تعوض؟ لا شيء. نعم لا شيء. أنا أعرف أنك كنت تكابر، وأن قلبك كان منكسراً وأنا أخبرك بعزمي لأحرك غيرتك. كنت أشتهي أن تلعنني، أن تضرب رأسك على الحائط، أن تمزقني وتنزع أطرافي مثل الدمية، أن تأكلني إذا شئت، أن تنعتني بكل النعوت التي تشتهي، ولكن أن تقول لي كلمة واحدة فقط: أحبك وأريدك. في حاجة ماسة إليك. ابقي أرجوك. أو حتى لا ترجوني، لست في حاجة إلى الاعتذار. لو فعلت ذلك، لتركت كل شيء بدون أدنى ندم وتبعتك نحو حتفي إذا استدعى الأمر. ولكنك بقيت صامتاً تقاوم بكبرياء منكسراً، ورجولة زائفة. ركبت رأسك. اسمح لي، في هذه لم تكن مختلفاً عن غيرك أبداً. أنت الذي ظل يقدس الاختلاف. كنت تشبه كل الرجال، ولم تستثن نفسك كعادتك من الاندراج داخل المنظومة. يومها، عندما خرجت إلى الشارع رأيت كل الناس يشبهونك مع أني قبل أن أدخل إلى البيت كنت أراك متميزاً وفريداً. كم تتغير الأشياء فينا بسرعة جنونية! لا ألومك. ربما كنت على حق. في نهاية المطاف من أنا بالنسبة

لك؟ لا شيء. امرأة كسائر النساء، أقل جمالاً وذكاء ممن عرفتهن قبلي وربما بعدي. عيبي أنك أول رجل في حياتي شعرت به حقيقة على الرغم من خساراتي السابقة مع رجال آخرين. وها هي ذي صورتك كل يوم تختصر جزءاً من المسافة الفاصلة بينك وبينهم. كنت أول إنسان اخترق حميمياتي بدون أن يشعرني بعقدة الذنب أو لعن جسدي وحريتي معه. لهذا، عندما أحببتك لم يكن لدي حلم آخر سوى البقاء معك حتى الموت. الزواج! أين الخطأ يا ربي سيدي؟ أننا لم نتفق من قبل؟ ما المانع أن نتحدث حوله اليوم ونتفق؟ عفواً. أعذرني، أنا أهذي. امرأة لا تطاق ولكن لا أحد يستطيع أن ينكر عليها طفولتها وصدقها.

أعرف، بل متيقنة أنك أنت كذلك كنت تحبني ولكنك كنت جباناً، وغيوراً على مفرداتك وفلسفتك أكثر من غيرتك عليّ. الله غالب هكذا. في لحظة من اللحظات فضلت عليّ كتبك وأنانيتك الثقافية ونسيتني. ولهذا ألعنك شوقاً وزعلاً وحنيناً في كل صلواتي، وأرشقك بحبي وبحزني لأني أخفقت في كل شيء معك، حتى في الحقد عليك. «ما عليهش، أنا ما نعرفش نزعف»... ربما لأني كذلك، لم أعرف لا كيف أحافظ عليك ولا كيف أحبك.

تعاتبني حبيبي اليوم على قسوتي تجاه نفسي وتجاه الحياة وتجاهك! تلومني على رغبتي في الزواج! أريد أن أرى أبنائي وأن أذهب وأنا شبعانة منهم، هل هذا كثير عليّ؟ لا أريد أن يحصل لي ما حصل لأمي، ذهب أبي وهي لا تعرف إذا ما كان يجب عليها أن تحقد عليه إذ لم يترك لها فرصة الحلم بحياة أفضل، وظل رهين تاريخه الميت!

... ...

ياه؟ ما أقسى صمتك؟ ماذا يجب أن أفعل لأقنعك أنك تملأني، وأنني أريدك وأشتهيك، ولكني أرفض أن أكون امرأة موسمية. صحيح أني امرأة أنانية ولكنها تحبك. لا تنس هذا. لماذا تبخل عليّ بشيء يمكن أن يمنحه لي أي رجل. يكفي أن أرفع إصبعي. لكني أريد كل شيء منك لأني أحبك؟

هل يحدث لك أن تفكر أحياناً في غير ما نحن فيه؟ أن تفكر فيَّ قليلاً في لحظات سهوك؟ أتمنى ذلك. لا يكلفك الشيء الكثير. وإذا لم تفعل حتى الآن، جرب وقل لي عن حرائقك التي تنهبك من الداخل، في الرسالة القادمة.

-٢-

لا تكثر الدق حبيبي، لم أعد موجودة.

ترميني في صلب جهنم ولا تنسى أن تسألني كيف الدنيا؟

لم أعد أتذكر، وربما لا أرغب في ذلك أصلاً.

معصيتي الأولى وربما الأخيرة.

من اليوم لا تكثر الدق حبيبي، فأنا متعبة ولن أفتح الباب مرة أخرى لأني لست هنا. فعندما خرجت معك في ذلك الفجر البارد، لم أنس أبداً أن أسد ورائي كل شيء، حتى القلب المنتهك. لم يكن في نيتي أن أهز راحتك الصغيرة فأمامك عمر، وأمامك أحلام ومهالك كثيرة عليك أن تقاومها. فأنا من زمان أشعر بأني مريضة بك، بيديك وبإنهاكاتك الطفولية، وبتلك الأرض التي ترضعنا الدم والخوف وكثيراً من الأسئلة المستعصية.

في وضع لا أحسد عليه أبداً. تركت وهران وجئت إليك محمومة بك، لتجعل مني امرأة ولأمتلئ بك. ربما كان مزاجي متطرفاً، فأنا لا أريد أنصاف الحلول. إما أن أحبك بجنون أو أنساك دفعة واحدة. أصعب شيء على امرأة أن تحمل في قلبها رجلاً لم تشبع منه. في قلبي خيبة كبيرة من الناس المستكينين في كذبهم الدائم. قذفتني خيباتنا عشرين سنة إلى الوراء. انتبهت فجأة إلى هول الفاجعة، لقد مات الذين كنت أحبهم. من اغتيل، اغتيل ومن آثر الانتحار، فعل ذلك بدون أدنى تردد. حبيبي، هل تعلم هول الفاجعة؟ كم أريد أن أقنع نفسي بأن أبي مات في حادث سيارة ولم ينتحر على كمانه[27] من شدة الخيبة التي لم يعد قادراً على تحملها! لقد سرق الورثة الحلم من حضنه. أرأيت في حياتك رجلاً يتزين و يتعطر ويعدل من هندامه،

و«الكرافاته»، ويقبلني على جبهتي قبل أن أخرج إلى الكونسرفتوار، ويقول بكل هدوء ويقين كمن يستعد لأجمل موعد في حياته:

- ليلي ابنتي، أرجوك، عينك على أمك. لا أهل لها غيري وغيرك. اعطفي عليها قدر ما تستطيعين، هي أكثرنا هشاشة.

يحمل في قلبه حزن أمي كتهمة. يظن دائماً أنه كان بإمكانه إسعادها لو قبل لعبة البيع والشراء في البلاد، ولم يفعل ما فعله.

كان والدي يخادع قدراً كان ينتظره في الزاوية. وعندما مات، جاء الوالي وكل المسؤولين المحليين، وقائد الناحية العسكرية الثانية، ورئيس كتيبة الدرك الوطني الذي رأيته سابقاً في بيتنا، ووزير الثقافة، وكاميرات التليفزيون الوطني ليعزوا في الرجل الذي أسعد الناس مدة طويلة، بكمانه والذي كان له الفضل في عزف أول نشيد وطني في الجبال وفي المطارات. كنت أرى، ربما ظلماً، في وجوه المسؤولين ملامح عصابات من القتلة والمافيا. كيف يتجرؤون على أن يأتوا اليوم لزيارته وهم لم يسألوا يوما عن وضعه، وكيف كان يعيش منذ استقالته وتوقيف راتبه؟ لولا ميراث أمي من والدها لمتنا جوعاً ولنزلنا إلى الشوارع. كان قلبي مليئاً بالسواد. وعلى الرغم من إلحاح أمي، لم أمد يدي لأي منهم. كنت أراهم من وراء الستائر وهم يتبادلون أطراف الحديث ويذكرون خصال الميت. شيء بقي في رأسي، سمعته من قائد الناحية العسكرية الثانية لم يقله لي والدي: كان، الله يرحمه، رجلاً حقيقياً. كنا في أعالي جبل فلاوسن. بمناسبة مرور ثلاث سنوات على انطلاق حرب التحرير، أصر سي ناصر على عزف النشيد الوطني تحت سيل من القنابل والقصف المدمر. حمل الكمان. خرج من «الكازما»[28]. تأمل الحرائق التي كانت تخلفها الطائرات كلما نصبت أنوفها نحو الأرض. تنفس طويلاً، ثبت رجليه، وضع الكمان تحت ذقنه من الجهة اليسرى، أغمض عينيه، ثم بدأ يعزف النشيد الوطني. كنا واقفين باستقامة داخل «الكازما»، بينما ظل يعزف بلا توقف تحت القصف. كنا نسمع أنينه مصحوباً بالقنابل التي كانت تتساقط على يساره ويمينه. نطلب من الله فقط أن يحفظه من موت كان قريباً. الله يرحمه كان سبعاً.

كدت أقول له: تمنيته أن يكون ضبعاً مثلكم جميعاً ولا يعرض نفسه للهشاشة. والدي لم تقتله القنابل، ولكن قتله الذين أقنعوه بمغادرة أوبرا غارنييه[29] للالتحاق بهم، ليقتلوه فيما بعد بطرقهم السادية. ولكني عدلت عن الفكرة. ثم سمعت رأيت رئيس كتيبة الدرك الوطني يوشوش في أذن وزير الثقافة والشباب، بأن السي ناصر اتهم أنه كان في الأصل عازفاً في سهرات القادة الفرنسيين، في باريس. أوقف في بداية التحاقه بالثورة، وخضع لبحث قاس استمر طويلاً. وكاد أن يتخذ القرار بذبحه، خصوصاً عندما اعترف أنه كان يعزف في أوبرا غارنييه، في الفرقة الفيلارمونية. لم يكن أحد يفهم ما كان يقوله. كانوا كلهم فلاحين، شجاعتهم في نيران أسلحتهم فقط. ثم ذكرهم ببساطة طفل: وماذا سيحدث كل صباح عندما ترفعون العلم بلا نشيد وطني؟ لقد تركت الأوبرا وجئت بمحض إرادتي. ولولا تدخلي، قال رئيس كتيبة الدرك الوطني، لقتل سي ناصر وردم كما فعل بالكثيرين.

تمنيت لو كان والدي حياً، لسألته طويلاً عن هذه القصة، ولكنه خرج ولم يعد. الغريب هو أني أحسست بعاطفة فائضة اتجاه رئيس كتيبة الدرك الوطني، وقلت سأزوره خصوصاً وأنه ترك بطاقته لخال أمي. فقط لأسأله عما لم يقله يوماً[30]

يواصل قائد الناحية العسكرية الثانية: وبعد الاستقلال جاءني إلى المركز وقال لي: لي طلب لديك باسم الدم الذي غطى أبستنا لرفاق لفظوا أنفاسهم في أحضاننا. اندهشت وقلت له: أطلب. قال: أرجو أن تساعدني على الاستقالة من الإشراف على الفرقة النحاسية للحرس الجمهوري. حاولت أن أصده، ولكنه أصر بقوة على قراره. وتدخلت لدى الحرس الجمهوري ورئاسة الجمهورية وجئته بالاستقالة. رأيت في عينيه فرحاً غريباً. قلت له والآن؟ ماذا ستفعل؟ قال: سأعزف بحرية كل ما في داخلي. ثم خرج ولم أره أبداً.

أيها الطفل كم تحتاج من الجنون لتتفرد عن بقية الخلق وتدرك أن حبك صار لا يطاق، وأني لا أحتاج إلى فقهاء المدينة ولكن إليك أنت وحدك، لليلة واحدة. الحب الجميل هو الذي نشتاق إليه دوماً المخاطرة فيه صعبة، ولكن علينا أن نعيشه لندرك الشطط الحقيقي للمتعة؟

كم تنقصك من الروح أيتها البلاد المؤذية لتصيري بلاداً بلا منازع و بلا أقنعة. بلاداً كبقية البلدان، تحب ناسها وتكرم أحبتها من حين لآخر حتى لا تنساهم ولا ينسونها.

أيتها البلاد التي نكست كل رايات الفرح ولبست حدادها وانتعلت أحذيتها القديمة التي أذلت فرحتها. لا تكثري الدق. لم أعد هنا. فقد خرجت باكراً هذا الصباح ولم أنس أبداً أن أغلق ورائي كل النوافذ والأبراج، وأسدّ القلب للمرة الأخيرة. وأقسمت أن لا ألتفت ورائي. وقلت في خاطري ليكن. للحب ثمن وعليّ أن أدفعه لتلبية نداء غامض في داخلي اسمه الجنون.

لقد انسحبت من الدنيا مثلما يفعل الساموراي عادة عندما يخسر حروبه المقدسة كما كان يشتهي والدي أن يفعل دائماً. وها أنا ذي اليوم قد دخلت خفية القاعة المظلمة. وبدأت أتحسس رأس سكين المنفى التي سأتركها بعد قليل تنزلق من الجهة اليسرى للبطن إلى أقصى اليمين.

أيها الغالي، حبيبي، أعذرني. لقد يتّمتك وأنت صغير. لا تكثر الدق. فقد خرجت بعد أن رددت على مسامع القوم الهادئين ترتيلة الموت. ورميت كل المفاتيح في البحر الميت حتى أنساك دفعة واحدة. عندما نعشق بكلنا نصبح قاب قوسين أو أدنى من الجنون أو من الكراهية. الكراهية التي تأكل كل شيء حتى نفسها، كالنار.

أنا لا أريد أن أكره أحداً.

أنت لم تقل لي ولكني أشعر بك من عينيك تتساءل عن هذه المرأة التي تصر على أن تبقى طفلة ملتصقة بك. السن هو ما نشعر به في الأعماق وليست السنوات الزمنية. ومع ذلك كم أتمنى لو كنتَ أكبر بقليل من سنك لقلتُ أشياء أخرى لم تسعفني اللحظة المسروقة لأقولها لك كما اشتهيت أن أفعل.

- ألا يمكنك أن تكبر قليلاً؟ كم تلزمك من المسافات لتدرك أنّ شوقي لك صار مثل اليتم، أعيشه وحيدة في قربك وفي بعدك. وأنت تتلذذ بعينيك

فقط، أو وأنت تعيش خلوتك بمزيد من القسوة والألم! هل تستحق حياتنا كل هذه الأحزان وهذا التمادي في الألم؟ ألا يكفينا هذا الموت الذي يطحن كل حميمياتنا وخلواتنا المنكسرة؟

أعترف لك اليوم أيها الغالي بصحة قولك الذي يغتال ذاكرتي كلما اشتهيت أن أنساك: إذا بقيت على هذه السيرة ستضطرين إلى الموت وحيدة. و من قال لك أني أريد أن أموت بين أناس يشتهون إيصالي إلى أي قبر قريب وأنا حية؟ لقد مات هؤلاء الناس منذ زمن بعيد وشغلهم الوحيد أن يلحقوا بهم كل الأحياء مثل زمر النّحل التي بدأت تتكاثر في البلاد. والدي، هَمّ من دفع به نحو الموت صمتاً، ثم سبقونا إلى الأرصفة والمقابر والطرقات وذرفوا دموعاً كثيرة.

ها أنا ذي اليوم، وللمرة الأخيرة، أستدرج القدر ليصنع معي نهاية أشتهيها، لا كما فصّلها لي الآخرون. نهاية أنحتها بأظافري وأغزلها بأصابعي. الموت هو الحالة الاستثنائية التي نمارسها وحيدين، ونعبر دهاليزها بدون رفقة. هل تعلم بأن الهنود الحمر كانوا يدركون قسوة الرحلة ولهذا اخترعوا لعبة مرافقة المحب بالانتحار المقدس. بلادنا المنسية صارت تنجب هنودها. أبي كان هندياً أحمر في انتحاره. ليس أبعد من البارحة، فوجئت بخبر وفاة فنان شعبي شاب أطفأ شمعته مبكراً في إحدى الطرقات السريعة وانسحب. المدهش في حالته ليس موته، فالحوادث المشابهة تقع آلاف المرات يومياً، ولكن ملابسات موت صديقه هي التي استوقفتني. عندما وصله الخبر لم يكلم أحداً. لم يبك. لم يعوِ بأعلى صوته كالذئب المجروح كما فعلت أنا في لحظة القسوة واليأس عندما خسرت والدي الذي لم أرث منه إلا خيباته وكمانه. صعد إلى شرفة الطابق الرابع المطلة على الغابة البعيدة والبحر المنسي الذي يختبئ كالسارق وراء الأشجار، ثم رمى بنفسه ليلحق بالفنان الشعبي قبل أن يتخطى هذا الأخير عتبات البرزخ. يبدو لي أننا شعب يرفض الحلول الوسطى، عندما يحب يتماهى في الآخر، وعندما يكره يأكل نفسه قبل أن يأكل غيره.

و ها أنا ذي قد بدأت آكل نفسي أو ما تبقى منها.

أفتح عيني على الطفل الذي فيَّ، لماذا تتسمر هكذا؟ أما آن لك أيها الطيب أن تعبر؟ ألم تدرك بعد أن كل شيء انتهى؟ فالمرأة التي عشقتها عمراً لم تكن معك طوال هذا الوقت الميت. فقد عادت لتموت في سرها الأول الذي لعنته مراراً، سر التيه والجنون! الريح التي قادتها إليك كانت ساخنة، والأمطار التي شهدت موعدكما الأول كانت طيفاً من حنين. تتساءل الآن في قفر هذه الذاكرة، ألم يكن اليوم الذي التقيتما فيه مجرد صدفة تم تضخيمها حتى صارت حباً؟ ألم تكن تداوي بك جرح الجنون الذي اغتال جسدها؟

يا يوسفي الصغير، هذه المرة كذلك لم يحالفك حظ الصواب معي. أنت مع امرأة الشطط، لا شيء فيها يوحي أنها موجودة. مهبولة لا أحد سواك يعيرها انتباه الكائنات. الذي تبحث عنه فيّ أنت خلقته لترى فيه وجه من تحب أن ترى. لست أنا إلا ما فيك أنت. ستتعذب كثيراً مثل كل محبي المستحيل الذين يتعذبون لغياب ما تصنعه لهم الظروف وأوهامهم.

أنا؟ تسألني؟ لقد أخطأتَ في كل شيء، حتى في طريق الذين كنت أحبهم. أما كان من الأجدى لك أن تترك جسدك يحترق على نهدي امرأة أخرى وتمضي مثلما تمضي الخلائق. فلا شيء يضمن غدك ولا حب سوى ما تسرقه الروح الضالة؟ لقد أحببتك إذ اشتهيتك ولكنك فضلت الهرب والشطط، على حياة مريحة نرى من شرفاتها الحدائق التي نشاء والسواحل التي نشتهي.

يا يوسفي انزع عنك لباس الصمت والخوف والغبن، أنت لم تفعل ما يؤذيني. لقد ألبستني المتعة وألم الشوق وانتظاراً جميلاً لست أدري إلى أية حالة سيفضي. لماذا تصر دائماً على الجلوس في الكراسي الخلفية وعلى البقاء مستقيماً كخيط بليد؟ المرأة التي اشتهتك و قطعت لباسك وحدها كانت لك ومعك وفيك، وما عداها صدفة تلد الصدفة، وشوق يمحوه شوق، ومسافة تأكلها مسافة والضلالة أبقى من العقل المسجون.

يا حبيبي، يا سيد الغي والغيرة، لا تكثر الدق، فالأبواب الموصدة لن تفتح والمفاتيح اندفنت في رمل البحر الميت، وأنا انسحبت من ساحة



الخيل. لا شيء يغريني للمزيد من الركض الذي لا يوصلني إلا إلى خطوتين وراء نقطة البدء.

هي الرحلة تصل إلى منتهاها، ألم يكن هذا مشتهاك الدفين؟ لهذا عندما خرجت في هذا الفجر الضبابي، «سكّرت» كل الأبواب والمنافذ حتى لا ينفذ الهواء السخي إلى روح الموت. امش بهدوء وحاذر من أن توقظ النوار، وزهر الياسمين، والبنفسج، والنرجس اليتيم، والحبق النائم، والمعزوفات الضائعة لباخ، وموزارت!، وسان سونس! والنشيد الأندلسي المسروق الذي كان والدي يؤديه بكل عنفوان وحزن. الناس ها هنا يأتون ثم يذهبون ولا أحد يسمع أناشيدهم وأنينهم. اتركني أختار موتي فأنا متعبة من مزالق الدنيا، ودع الرياح تبعثر زرعها، وليجعل الخريف القادم من عود النوار الذي سأسكنه، متعة في فم العاشقين. ربما عرفتْ هذه البلاد بعد زمن، كم كانت مخطئة إذ أخطأت الطريق الموصل إلى عاشقيها الذين ينطفئون الآن بين يدي قاتلها الهمجي.

أشك في كل شيء، ولهذا عندما اخترتك. كنت أختبر يقيني الذي لم يخدعني مثلما خدعني الآخرون. فعندما يكون الشك مرادفاً للحب، ويكون الحب مرادفاً للصدفة، الأجدى لنا أن ننسحب قبل أن يدركنا قبح الأشياء! فالروح في حضرة الزوغان تغيب. محاربة طواحين الفراغ متعبة وقاسية. لم تعد لدي قوة أبي وأسلافي العظماء لخوض الحرب المقدسة.

أنت قبلتَ أن تلعب معي لعبة الصدفة، ومن تجرأ على عبور الصدفة عليه أن يتحمل قسوة فكّ أسرار الظلال. هكذا نحن، يوصلنا صدقنا دائماً متأخرين. وعندما نصل، يكون الخطأ حليفنا في النهاية. نحضر حياتنا لاستقبال كل شيء، حتى الموت نتعلم كيف نبتلعه جرعة جرعة، و لكن نحترس دائماً، بكل الوسائل الممكنة وغير الممكنة، من الخيبة، لتفادي خسارات الصدفة ونحن فيها.

لستَ الأول في الدنيا الذي تكسره الصدفة ولا الأخير أيضاً. لكنك الأول الذي رأى الصدفة في شكل امرأة عاشقة من شعرة الرأس إلى أخمص القدم.

وعندما لامس عمقها، صارت رماداً وغباراً قبل أن تصبح بياضاً في وضح الفجر البحري، ثم ظلاً أبيض سرعان ما ذاب في الفراغ.

هل نحب إذ نعلن للآخر أننا نحبه؟ أم نمتحن النفس إذا كانت قادرة على أن تكون؟ سنوات يا ابن أمي انقضت وبعض الغبار. ماذا بقي فيك أيها القلب المفتون من مخابئ لم تفتش؟ لم تتعلم بعد يا هذا الولد الضائع في قفار الدنيا أنك لم تعد طفلاً ولكن خبلاً وسحراً وجدباً! اتبعني إذا استطعت. فقد تركت لك ليلة وعرساً ودعت به طفولة منكسرة، وتركت لي زرعاً في الأحشاء وتمزقاً كلما أحببت غيرك تذكرته. لا تتخيل أنني أصبحت عاقلة! أبداً. إذا جئت وعثرت علي في المدينة، سأرتكب معك حماقة اليوم نفسها، وسأشتهيك بالقدر نفسه. وإذا وجدتني تربة، فضع على بقايا القبر بعض الزهر الذي تشتهي، والنوار الذي تحب. و إذا لم تجد قبري، اخترع لي قبراً وضع عليه بنفسجاً وحبقاً يحفظني من العين الكريهة.

حبيبي الغالي، لا تكثر الدق، فأنت تتعب يديك. كل الأبواب موصدة. بي الآن رغبة عارمة لغلق كل ما تبقى من نوافذي، ومنافذي الصغيرة، والنوم داخل سكينة بلا نهاية مثل إزميرالدا التي هرب من يديها حبها الجميل. وعندما أستفيق، تكون ذاكرتي مساحة من الضوء، قد خلت من كل ظلام غبار السنوات الهاربة التي انسحبت داخل كذبة عالية وعظيمة، اسمها الحياة.

بي رغبة للصراخ بأعلى صوتي في وجه الاستحالات الكبرى، وأكل كل تراب الأرض وشرب مياه هذا البحر الأعزل، لمعرفة مخابئ اليقين. لكن من يتحمل صراخي؟ حتى الأقربون وأقرب الأقربين لم يلتمسوا عذراً عندما صمتوا وخرجوا من الأبواب المفتوحة، ومن زوايا الصدفة.

أية صدفة ملعونة تسرقنا الآن أيها الحبيب الغالي؟

أي جنون وأي حب يسجننا في لغته الآن؟

قبل قليل فقط كان والدي وعشاقه الأوفياء، هنا، هنا بالضبط، جالسين. يشربون القهوة ويتبادلون بكل يقين كلمات العسل والحب، ويعزفون أندلساً



هاربة، وباخ وموزارت، ويتقاسمون «السوناتات» المتعددة ويتراشقون بالأحلام، فجأة، تشتتوا ورجع كل واحد إلى جرحه الأوّل، يبحث عن مسقط رأس كلمات الحب الأولى.

لقد ماتت أرضنا الأولى يا حبيبي وعمري.

مات مطرنا الأول.

ماتت ابتساماتنا الأولى.

وانكسرت ضحكاتنا الطفولية، ولم يبقَ إلاّ خراب الحقيقة الأولى.

ها قد بدأت انحداراتي القصوى نحو شطط انكشافات الروح. وها أنا ذي أتجزأ اليوم وأعبر الخيبة والصدفة معاً، مفتوحة العينين هذه المرة، عارية القلب والذاكرة.

كم يلزمنا من الألم والانكسارات لندرك أننا طوال السنوات التي مضت، كنا نركض حفاة عراة وراء غيمة جافة مثل رحم يابس لا ينجب إلا رعشة الفراغ، مخطئين في كل التفاصيل الدقيقة للحياة، وأن ما كنا نظنه مطلقاً لم يكن إلا وهماً لأشواق نريدها أن تكون حقيقة ولمْ نصل لها. وأنّ بيني وبين نارسيس شبه الدم والنجوم والخوف. ماذا حدث لنارسيس عندما اكتشف الجرح الذي كان ينزل من القلب كالخط المستقيم؟ لم يتألم للجرح، هو يعرف مسبقاً أن لكل جرح خاتمة، لكن وهمه باستقامته، وضلال الطريق، آذياه كثيراً.

اليوم، بعد كل الذي حدث مما عرفت، مما كان يمكن أن أعرف، ومما لم ولن أعرفه أبداً، يحق لي أن أرى ما يختبئ وراء مختلف الغلالات وأحجبة الفتنة الوهمية. في حاجة إلى الفتنة، فتنة الروح والجسد، ولكن الدنيا لم يعد فيها ما يثير شهية الانتحار وما يهزّ الافتتان ويخرج الإنسان عن جبروت العقل.

هل كان من الضروري أن أرتهن للصدفة القاتلة لأرى صفاء الخيط. إني

الآن أراه بمطلق الراحة، وبمطلق العذاب الذي لا يطاق. الألم عندما يصل إلى منتهاه يموت الجسد، ويتضاءل الخوف من الموت، بل الموت يصير أمنية مستحيلة.

أستطيع اليوم بعدما هدأت قليلاً، وربما لوقت قصير ليسترجع القاتل والضحية أنفاسهما قليلاً. أصوات الرصاص وعواصف الخوف وصراخ المقتولين على منحدرات البلاد البعيدة، ولملم القاتل والمقتول جثثهم، أن أعود إلى الصدفة التي لاقتني بك في ذلك الشتاء البارد ومنحتني الكثير من الحياة، والكثير من الحزن والنسيان. لقد كنت فرحي وخرابي الكبير. كان الهواء رطباً في ذلك المساء العاشق. الليلة نفسها كانت مرصعة بالنجوم حينما قرأت الدهشة في عينيك.

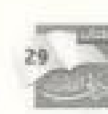
قلتُ لك:

– لماذا الناس هكذا؟ كلما أحببناهم ازدادوا ضراوة وتنكراً. هل هو القانون الخفي للكراهية المغطاة بالأغلفة الخرافية؟ هل علي أن أكره لأزداد قرباً من الآخرين؟

يبدو أن في الناس قدراً من العصيان يسير مع الدم. لن يرتاحوا إلا إذا قتلوا الروح التي فيهم بكثير من الحيلة و الأنانية.

التقينا قلبين منكسرين يبحثان عن ظل صغير يختبئان فيه. كان هبلي كبيراً، وطفولتك مقلقة. و طوال السنوات ونحن نحاول عبثاً أن نجعل الفوضى ترتهن للنظام، والنظام يقبل بصدق الفوضى. ونراهن على كذبة حب الناس البيضاء التي أفقدتها السنوات المتعاقبة لونها الأول.

أشهد لك اليوم بالصبر وطاقة التخفي. لقد كنتَ دائماً أجانب الصواب وأحزن من شيء لم يكن هو في الحقيقة ما يدعو إلى الحزن. عندما تظهر امرأة الصدفة بعض خفانها، تخبئ الأكثر هولاً لأنها تعرف مسبقاً أنّ غباوة الرجل لم تعلمه إلا هدهدات اليقين الوهمي.



يا يوسفي الصغير! ألم تعرف بعد أنْ لا يقين في الدنيا سوى الموت. حتى الحياة ليست سوى لحظة عابرة تكسرها النهايات الحتمية. ألم تدرك بعد أن الذين يريدون رأسك كثيرون. احذر. لقد أصبحوا اليوم فيك يا ابن أمي وأبي. فأنا ذاهبة. تاركة لك أبوابي الموصدة وشططي الكبير.

رجالنا مبتئسون، والرائعون فيهم يموتون مبكراً. أنت لست منهم. أنت طفل جميل، حاذر أن تصير رجلاً. أترك لهم فتوحاتهم ورجولاتهم الوهمية. فلست في حاجة إليها مطلقاً. أعرف صديقة، بعد خيبات متعددة، تأملت عشاقها في العينين، وعندما عرفت أنهم لا يستأهلون أن تحزن من أجلهم، تركتهم و تفرغت للدنيا مرة واحدة.

- Les hommes sont toujours comme ça, ils frappent eternellement à la mauvaise porte. Ils arrivent, le plus souvent, du plus mauvais côté[31].

يحاذون دائماً الحقيقة ولا يلمسونها أبداً. حيث يظنون الصواب، يخطئون في كل التفاصيل الممكنة. وحدها المرأة تدرك سر اللعبة وتتقن لمسها، وتحريكها بلباقة تصل حتى الجرح العميق.

هل يصلك الآن في خلوتك صوت التكسرات الشاقة التي تمزقني؟ النحيب الذي تسمعه يأتي من عمق الروح، هو نحيبي. أنحدر الآن وحيدة نحو تربة الموت والخوف، في كفي بقايا قصص قديمة لم تعد صالحة، وموجات لم تسعفها الرياح لتصل إلى القلب كاملة، وخيبات لا تحصى. العمر لم يعد يسعفه الوقت للعودة لها وتصحيح مساراتها.

ما الذي يحزن امرأة بنَتْ طوال العمر خلاءها بفرح لا يُضاهى؟ أنها ظلت وفية لخرافة هي أسستها؟ أنها تستطيع أن تقسم برأس كل الصالحين بأن خرافتها التي بنت عليها أشواقها كانت هي الدنيا وهي الآخرة؟

أستطيع اليوم أن أقول بلا تردد، منكسة الرأس، أمام الله عندما يسألني عن باطن جرحي: إلهي لماذا لم تتخلَّ عني في وقت مبكر عندما نفرتك؟ أو عندما وضعتك وأنا صغيرة داخل غلاف رسالة، ورميتك في أقرب شط لأنك

لم تجعل الطفل الذي أحببت يقاسمني كلمات الشوق؟ قلت لك أغرقها. فقد أعطيتها كل شيء ولم تعطني إلا هبة الفراغ. عندما هدأت الرياح، سمعت قعقعة ضحكاتك وهي تتكسر في الخلوة. كنتَ فقط تسخر من هبلي.

أغفر لي، فقد أخطأت في يقيني. في الدنيا شيء آخر لا علاقة له بالعطاء. الحب، يا الله، أكبر حالة التباس. قد نحب رجلاً لا يلتفت نحونا مطلقاً، قد ننتحر لآخر، وهو لا يعلم مطلقاً بوجودنا. وقد ييبس آخر ليصير كالحطب من أجلنا ونحن لا نعرف، بل قد نرتمي في أحضان قاتلنا، ونحن نعرف أنه جلادنا الأبدي. يبدو لي أنّ وراء ذلك كله يختبئ عطش الروح. كل شيء لم يُشبع بالشكل الكافي، تبقى شهوته معلقة إلى يوم تستفيق كبركان الميت. عندما تنطفئ الرغبات المدفونة، يخرج إلى النور ما يمكن أن نسميه حباً مثل ماء صاف بين الصخور الزرقاء. لكنه عندما يخرج تكون الدنيا قد ماتت في أعيننا، والزمن قد مر، والجسد قد كلّ، والبصر قد زاغ عن غيه، والعمر قد راح، وتحمّل الصدمة يصبح قاسياً وثقيلاً.

كذب الذين لم يصدقوا أبداً.

نكذب على أنفسنا كثيراً إذ نظن بأننا نحب كثيراً من النساء وكثيراً من الرجال. الدنيا عودات مستمرة إلى البدايات الأولى. باستمرار نلتصق بالذين تركناهم عراة ولم نشف منهم. وأنا جئتك لأشفى منك. ولا أدري إذا كانت ليلة جميلة كهذه كافية للشفاء منك؟

فالميت، والميت المؤقت، والبعيد منذ زمن، والقريب قليلاً، والقريب أكثر، يزدادون تألقاً عندما يُصرَفون في ضمائر الغياب.

أيها الغالي، حبيبي الذي صنعته من دفء الروح ومن خبايا القلب المرتبك. إلهي الصغير الذي شيدته من الخيبة والصدفة والقلق. اغفر لي. لم يبقَ أمامي إلا البحر، أضع فشلي بين يديك، وأقول لك أعرني بعض الشجاعة لأعبر هذا الهول. الرجال فاشلون وقساة. امنحني أنا المرأة المجنونة، زوليخة يوماً واحداً، وسأركب جنون الافتتان في قلب يوسف حتى يفتح

عينيه ويصير رجلاً. لم تعد لي القدرة الكافية لممارسة كذبة نارسيس الجميلة. نحب رجلاً لا وجود له إلا فينا، يشبهنا في كل شيء، وعندما نكتشف هول الفداحة يكون الزمن قد دار دورته.

مرآة النرجسي عمياء، وعماها لا يداوى.

لا تكلف نفسك حبيبي، مشقة البحث في الأسباب، فلن تجد ما يشفي غليلك. لذة الدنيا أنها خُلقت ببعض غموضها، وإلا لكانت لا تساوي جناحي بعوضة.

ما يزال في العمر متسع لشفاء الروح، أعرني بعض الوقت فقط. وعندما تكبر، اعبر البحر الذي سلكتَه، ولا يهم إن استحالت عليك الدنيا، أو خسرت العمر.

ألم تقل إنك تحبني أنت كذلك، وإنك لن تُشفى مني؟ إذن لا تكثر الدق حبيبي، فلا أحد وراء الباب، لقد ذهب الذين كنتَ تحبهم. انسحبوا باكراً على رؤوس أقدامهم لكي لا يزعجوا أحداً. عندما خرجوا في ذلك الصباح البارد، كانوا يعرفون أنهم لن يعودوا إلى هذه الأرض مرة أخرى، ولهذا أفهم لماذا رفض والدي، سي ناصر، الخروج عندما أظلمت الدنيا في عينيه. ليس لأنه كبر كثيراً، ولكن لأن الدنيا صغرت في عينيه.

اليوم كلما خطوت خطوة جديدة نحو حتفي الجميل، تذكرت كلماته التي تطن في رأسي كضربة سيف جافة، أو كناقوس كاتدرائية قديمة:

«ليلي، حبيبتي، لا تشغلي بالك. نحن هكذا. لا نترك وطناً إلاَّ لنتزوج قبراً في المنفى».

-٣-

حبيبي،

أشتهي أن أنساك لأرتاح منك دفعة واحدة.

فهمت كل شيء، ولكني لا أعذرك على حماقة قتلنا.

أيها الأهبل، أرجوك توقف قليلاً. لقد تعبت[32].

ولأنك تخليت عني، انتحرت، تزوجت.

ارتبطت بك مثل الذي يرتبط بقشة نجاة. أشهد لك أني الآن منهكة ولم أعد قادرة على التحمل. أشعر كأنك جررتني نحوك ثم تخليت عني. لم أعد أرى لزعر الحمصي الطيب والجميل والساذج أحياناً بعفويته حتى في كذبه الصغير. وأصبحت أواجه مثقفاً صعباً في رأسه عشرين ألف حساب. يلعن دين كل أفكار الدنيا التي تقف ضد سعادتنا. فلا تقل لي إنك ترفض الزواج لأن شيئاً فيك مناف لذلك؟ كيف تريدني أن أكون لك كما أشتهي، وأنت تراني كسارق؟ أريد أن أحضنك، أن أقبلك في الوقت الذي أشاء ولا أخجل، أريد أن أقول للجميع: «اللي ما عجبوش الحال، ينطح رأسه مع حيط! ولكن ساعدني فقط لأكون لك».

أقبل أن أدفع الثمن في صمت ووحدة، لكن أرجوك لا تحملني شقاوة الدنيا كلها! لا أستطيع. لقد أصبحت هشة كجناحي فراشة مريضة، ويمكنني أن أصاب بالعطب المزمن بسهولة. أنا لم أطلب منك سوى أن نجمع مصائرنا الصغيرة، ولكنك اخترت طريقك مثلما اخترت أنا داخل الضيق والعبث الذي لا معنى له على الإطلاق، أكثر المسالك يأساً.

عتابك يقتلني ويعذبني. يا ربي كم أحبك وكم تبدو بعيداً... ماذا يحدث فيك؟ ألم تكن أنت من اختار هذا القدر؟ تختار قدراً وتستدرجني فيه لتسهل محاكمتي؟ ألم تكن أنت من فضل ارتكاب هذه الحماقة ضد نفسه وضدي؟ كلامك يقتلني. يعذبني وسأجن إذا استمرت الحال على ما هي عليه. فأنا لا أملك حيالك إلا الحب والجنون. ولكن خياراتي الآن صارت معدومة. فقد وضعت نفسي داخل موت محتوم علي أن أقاومه أو أنسحق فيه. أنت غادرت المدينة منذ الإعلان عن زواجنا أنا و رياض، صديقنا المشترك الذي أغرته التجارة الكبرى على الجامعة البائسة. رياض يريد أن ننسى حياة العزوبية وأن نتفرغ لحياتنا الزوجية. ربما كان محقاً. أريد أن أنساك أنا أيضاً، لأرتاح منك دفعةً واحدة. تقسيط النسيان والحب إلى أجزاء، جنون واستحالة.

كان يفترض أن لا أعود لك ولكنك أعدتني بجنونك.

هربت مني داخل فراغات المدينة ولكني وجدتك. وجدتك بواسطة عائشة صديقتي في الكونسرفتوار، التي كانت وسيطنا في الأيام الصعبة. مهبولة أكثر مني. كانت دائماً تقول وهي محقة في ذلك: لن نعيش حياتين. لست أدري كيف سلمت لها الورقة الأولى لتوصلها إليك. كان يجب أن لا أفعل ذلك. وها أنا ذي قد انغمست في دوامتك من جديد. قالت لي عائشة إنها تعرف مكان إقامتك في العاصمة. لكني لا أريد أن أعرف لأني أدرك سلفاً أني إذا رأيتك لن أستطيع مقاومتك. عائشة تحبك كثيراً، ولهذا لا تترك فرصة إلا وذكرتك بإعجاب. لو لم أعرفك، لقلت أنك أنت من كلفها لكي تقول ذلك الكلام. «مليح» أني أبذل جهوداً مضاعفة لكي أتفاداك. فلا تطلب مني المستحيل، وإلا ستضطر إلى دفني حية. غيابك يقتلني والحماقة التي أنا فيها تجهز على ما تبقى من عقلي.

حبيبي. أقولها لأني لا أملك غير ذلك. حبك يشلني ويقهرني. أنا كذلك اليوم أشعر بالقرف، من نفسي أولاً، ومن كل ما يحيط بي. هل يعقل؟ علي أن أتحايل على نفسي لكي لا أراك وأنا أتحرق داخلياً فقط لأثبت لمحيط معتوه ومنكسر أني الزوجة المثالية؟ لست الزوجة المثالية، ولا أريد أن أكونها. هذه المثالية السخيفة تقتلني. لكن وحياتك، فأنا أريد أن أنساك. ما جدوى هذا الشطط الذي لا معنى له؟ أشعر باضطراب كبير. في هذه الفترة أمر بظروف صعبة يطول شرحها. رياض أصبح صعباً معي، وضيق كل حدودي، ولا يمكنني أن أعيش في هذا الضيق. لا أطيق كل هذه القيود. الله غالب. هذه هي أنا. أعذره أحياناً لأنه يعيش مع امرأة لا تستطيع حتى أن تبادله شيئاً من النفاق العام المتفق عليه.

لا تعتب عليّ إن لم أكتب لك. سودت كلمات كثيرة ولكني فشلت في تبييضها. وكلما تذكرت حماقتك، وأنت تردد عليّ أسطوانة كم صرت أكرهها: لا أتزوج لأني غير صالح لأن أكون زوجاً... أكاد أصاب بالجنون. يا أحمق! وهل أنا أحب الزواج، هذه الكذبة المتفق عليها من طرف الجميع؟ روحي لك.

ولكن قل لي إذن ما هو الحل لكي أستمر معك بجسدي؟ هل لديك مؤسسة أخرى أجمل وأحلى؟[33] هل يمكنك أن تثبت لي أنك تحبني بغير ذلك؟ لقد أدخلتني في دائرة أخشى أن تكون أنت أيضاً ضحية لها، ولن تملك أية وسيلة لتبريرها[34]؟ أتمنى أن أحرق كل شيء بما في ذلك قلبي وقلبك. لماذا تصر دائماً على إيقاظ جروحي؟ أنت مجنون. الوقت، بل الحياة نفسها لم تعد ملكي. أن تمسك قلماً وتخط جرحاً على الورقة، معناه أن تملك قدراً كبيراً من العزلة والجرأة. أنا اليوم يا حبيبي خسرت أهم شيء فيّ. جرأتي. قلبي الذي ينبض على وقعك لم يعد يتيح لي فرصة الكتابة. إنه يغار منك عليّ.

حتى وجهك لم يعد ينصاع لي كلما احتجت إليه. في مرة من المرات فكرت أن أكسر نهائياً كماني الذي ورثته عن والدي، وأنهي علاقتي بالحياة. عندما رفعته إلى السماء وكنت في حالة هستيريا، مد سي ناصر يده نحوي. ربما كنت أهذي. ولكن والدي الله يرحمه، قبض على معصمي بحنان خفف من يأسي وغضبي، ومسح على رأسي كما تعود أن يفعل. استسلمت له بكلي. ثم أخذ مني الكمان بهدوء، ووضعه على الطاولة، وعاد نحوي وضم رأسي إلى صدره الواسع والطيب وقال لي: ابك. ابك. ابك... لا تتركي هذا الرماد كله في قلبك. فأنت لا تتحملينه. وبكيت مثلما لم أبك أبداً في حياتي. وعندما فتحت عيني، وجدت بعض الراحة. عزفت كثيراً في ذلك المساء كل ميلوديات الحنين والحب والعزلة والليل. منذ ذلك اليوم لم تغادرني صورة والدي.

الشريط الذي بعثته لي مع عائشة كان مدهشاً. أنت تعرف أن أنين الكمان يأسرني بقوة. يا بختك ما أصفى بالك؟ ما أقسى قلبك علي وعلى نفسك؟ أنت تؤذيني بحماقاتك التي لن أغفرها لك أبداً.

أرجوك لا تزعل من ردي البارد. فأنا حزينة ومنكسرة. عندما أروق، سأكتب لك عن كل هذه التفاصيل. لا أقول لك شكراً فأنا أعرف عواطفك وأعرف ما أعانيه من أجلك وبسببك. لا تسألني عن حبي لك. فأنا دفعت نفسي نحو الموت والحقد والضغينة من أجل ذلك. أفكاري مشتتة. مجرد عاصفة و ستمر.

كن كما أشتهيك أن تكون، رجلاً جميلاً لا تتعبه متاعب الضباب والظلمة. في الأفق دائماً شيء آخر. ألم تقل هذا يوماً وأنا أضع رجلي على العتبة للمرة الأخيرة وأنتظر أن تقول لي عودي... أرجوك ابقيْ قليلاً ربما وجدنا حلاً؟ ولكنك لم تفعل. خرجت من صمتك بجرح سيستمر في النزف طويلاً.

تمنيت أن لا أكتب شيئاً لأني في حالة لا تسمح بذلك، وها أنا ذي أكتب ولست راضية عما كتبت. أغفر لي هذا الأسلوب المرتبك الذي يشبهني في كل تفاصيلي، ليست هذه لغتي ولكني لم أجد سبيلاً آخر للصراخ في وجه صمتك إلا هذه الكلمات القليلة التي قالت ما لم أشته قوله.

هل تدري حبيبي أني بدأت أقنع نفسي بأنك لم تعد لي، وربما كنت لامرأة أخرى غيري. ثم لماذا الإصرار على العبث والموت؟ ألم يختر كل واحد منا مسالكه وأقداره؟ أو لنقل أني اخترت انتحاري بعد أن أغلقتَ كل الأبواب في وجهي. أنا مرتبكة وشديدة الشكوك في قدراتي الخاصة، وربما قلت حماقات لا أقدر عواقبها.

كل شيء ينتفض فيَّ وكأنه يحدث الآن. أراك منحنياً على ركبتيك تفتح معبراً للمرور نحو الخوف وأنا أتساءل في خاطري: أي سحر يقوده نحو كل هذا العذاب؟ ألم يكن من الأجدى لنا أن ندخل من البوابات العادية لمصبات نهر الحب والعشق المدهش؟ رأيت في المنام رجلاً طيباً يلبس الأبيض، يمتطي صهوة حصان مرقط، يفتح في وجهي بوابات غريبة. ثم يسحبني وراءه وسط خلجان النباتات الاستوائية، ويدفعني إلى التزام الصمت والصبر. أي باب يملك كل هذه المغاليق الطبيعية التي تطوقه وتجعل منه حصناً منيعاً؟ ثم... فجأة... يطير من أمام أعيننا سرب من النوارس التي تَدفن الواحد تلو الآخر في مساحات الضباب المتصاعد. نخطو خطوات أخرى إلى الأمام. يتمتم: أششششت... لم نعد بعيدين عن النبع. فجأة تجتاحنا دهشة الخلعة وكأننا نكتشف المدينة للمرة الأولى. يندفع النور متدفقاً مختلطاً بصفحة الماء وبنعومة الأشياء المحيطة. نتمتم من جديد تحت وطأة الدهشة. الرؤية السحرية فتحت في وجهي صورة أمي كليلة القدر. أمي كانت امرأة من نور وماء، وجهها صاف كمرآة قبل أن يكسرها ذهاب والدي المحزن.

يا ليتك خرجتَ من قلبي ولم تعد، لأعطيتني كل مبررات نسيانك، وحرق كل ما يجمعني بك، وسد كل البوابات لأتفرغ بعدها لبيتي وزوجي وأقبل بقدري. ولكنك جئت بدون أدنى تردد، وكان يجب أن لا أراك لنتمكن أنا وأنت، كل في فراغه، من رتق جراحاتنا المنفتحة على الذاكرة، ونعيش حياتنا بحد أدنى من السكينة. وهل كنا نستطيع؟ فلا أنت تركتني، ولا أنا استطعت أن أتفاداك. كنتَ كالقدر، بل القدر بعينه. قلت لك في الرسالة التي بعثتها مع عائشة لاختبارك، عندما عدت من سفرة جزيرة كريت:

- متعبة جداً. أريد أن أراك. إذا لم تأت سأنتحر[٣٥].

الجملة السحرية الوحيدة التي كانت كافية لإخراجك من صمتك وهروبك وخوفك مني أو علي، لا أدري. هكذا إذن سأتمكن من رؤيتك بعد كل هذا الفراغ؟ فجأة وجدتك أمامي، بعد أن أكلني اليأس والخوف. هكذا إذن مازلت أعني لك الشيء الكثير؟ أمازلتَ تحبني إلى هذه الدرجة بعد الحماقة القاتلة التي ارتكبتها في حقك وفي حقي؟ لابد أن نكون قد أصبنا بمرض لم نعد قادرين على تحديده! مازلنا سجناء غربتنا وخوفنا.

عدت متأخرة من شهر العسل الذي لم أدر كيف مر، ولا أعلم أصلاً جدواه. رياض كان أسعد إنسان. كل مساء عندما يستحم ويأتي نحوي، كان علي أن أغمض عيني قليلاً وأنام داخل الموسيقى لأجدك فيَّ. وفي لحظة التعالي والدخول في شهقة الجنون، كنت أخاف أن أصرخ باسمك كما تعودت أن أفعل. تلك الشفافية الوحيدة التي ظل عقلي فيها متيقظاً. وعندما أعود إلى وضعي الطبيعي وأفتح عيني، أرى السعادة ترقص على محيا رياض لأني كنت له ولو للحظة جميلة، ويشعر أنه أسعدني في فراش كان يشبه كل مساء مجزرة عليَّ أن أتفاداها بالكثير من الحيلة. أسوأ من شهرزاد. هي على الأقل اختارت كفنها. لو استطاع رياض أن يفتش قلبي من الداخل كلما اشتهاني، لما وجد غير جنونك الذي ورّثته لي، ولعرف أني لم أكن معه أكثر من غانية وجَدت نفسها بين يديه بالصدفة وهي ليست له. أو لنقل له ولغيره[٣٦]. ولا أدري ماذا كان يمكن أن يحدث لي يوماً لو لم تجدك صديقتنا المشتركة، وحاملة سرنا العظيم، عائشة. في مدينتك التي شهدت بعض

جنون حبنا و مقتله؟

هل من حقي اليوم أن أخرجك من عزلتك وأكلمك قليلاً؟ أنا اخترت طريقاً لا يشبهني ولا يشبهك، ومع ذلك سلكته. وأنت بعيد عني تعبر مسلكاً آخر. شيء ما فينا ينفلت من بين الأصابع كالماء. الكل ينهض ضدي، حتى نفسي، كلما تعلق الأمر برؤيتك، مع أني لا أجد نفسي إلا معك. منذ مدة لم أرك ولن أتمكن من رؤيتك قريباً.

كل شيء مر بسرعة.

لم أكن أعلم أنك تحتلني بكل هذه القوة.

لأول مرة تأتيني وأنا على أهبة الانتحار. لم أعد قادرة على الكذب على نفسي. طوال هذا الزمن لم أكن إلا مع رجل واحد هو أنت. أشرب بك. أنام بك. أدخل الفراش مع زوجي وأنت معي. ولا شيء غير ذلك. والآن أشهد أني أصبحت مريضة بك. سيغني قتلة الروح عني كثيراً: مجرد فاجرة؟ محظية محترفة؟ تركت فراش العفة وذهبت نحو فراش الدعارة! مساكين لا يدرون أن أكبر دعارة نمارسها هي عندما ننام مع إنسان ونحن نفكر في غيره. فأنا لست عفيفة إلا معك و بين ذراعيك.

استرجع لحظات لقائنا الهارب الذي جاء بعد كسر عنيف حدث في الأعماق. كان الظلام شديد السواد، والجو بارداً كان، ونسمات ندية تلفح وجهي. قلت لي إنك ستأتي الليلة مثل المجنون. منذ زمن بعيد لم أرك. العاشرة والنصف ليلاً عند مدخل البيت، وقفت أنتظرك. كنت متأكدة من أنك ستأتي ولن تتخلف ثانية واحدة. العتمة تظلل البنايات والفيلات التي تتمدد في خط مستقيم ولا تظهر إلا بعض الشجيرات التي تخترقها أضواء الشوارع البعيدة قليلاً عن بيتنا. لا أحد في الخارج. السكان نيام في أقفاصهم الحجرية. تساءلت كيف سألقاك بعد كل هذا الغياب؟ وأنا التي قمعت حبي وأسكنته صدري حتى لا أؤذيك وأحرقك معي. فجأة رأيت نور السيارة وهي تصطف بعيداً قليلاً عن البيت. لا أحد غيرك يأتي في مثل هذا

الوقت. رأيتك تنزل، ترفع رأسك قليلاً ثم تنحني بعض الشيء، لدفع ثمن التاكسي. تتمتم ثم تحيي السائق وتغادره. أنتَ مثلما أشتهي رؤيتك دائماً، بمعطف الكاشمير الطويل الذي يشبه معطف والدك الذي كان يرتديه يوم اعتقاله قبل أن يغتال تحت التعذيب. لا أحد غيرك. لا يوجد مجنون يأتي في عمق هذا الليل لرؤية معشوقته. قصدت الباب الخارجي مسرعة. فتحته. كنتَ ورائي تصعد الأدراج باستقامة وهدوء وكأن كل الأمور عادية. البيت هادئ والغرفة مظلمة. أشعلت نوراً باهتاً خفيفاً. اخترت أن يكون بنفسجياً كما اشتهيناه دائماً. التفت نحوك مبتسمة. خرجت مني هذه الجملة التي لا أعرف ما إذا كان لها معنى: يا مهبول! أخيرًا جئت؟ كم مر من زمن لم نر فيه بعضنا؟ أهون عليك إلى هذا الحد؟ كنت سأنتحر بالفعل لو لم تأت. قلت هذا لعائشة: أريد أن أراه، أو سيضطر إلى حملي في ضميره طوال عمره. لم أعد قادرة على تحمل هذا البؤس.

رأيت وميضاً في عينيك هو نفسه الذي كان يملأني، نظرات حالمة ويدين عاشقتين. لم أصدق نفسي. أهو الرجل نفسه الذي استدرجته الحماقة لافتقادي في منتصف الطريق؟

تسمرت في مكاني. لم أفهم نفسي جيداً، كنت جد مرتبكة كمراهقة.

سحبتني من ذراعي وأجلستني قبالتك. وقتها تأكدت من أنك هنا. وأني كنت بين يديك.

أخيراً التقينا بعد أن أكلتنا متاهات الدنيا. تذكرت كلماتك. مازالت تطن في رأسي كطبول الحرب: لا شيء في الدنيا يمنع قلبين من أن يتعانقا في الدنيا. في الأفق دائماً شيء آخر. تعاتبنا ثم التفتنا في اللحظة نفسها إلى الساعة الحائطية وكأنك كنت تعرف تفاصيل البيت، زاوية زاوية. الوقت قصير، ومن العبث تضييع هذا الحب في الانكسارات الداخلية. الجروح كانت كبيرة وغائرة. بعض الجروح من الأفضل تركها نائمة مثل البراكين.

فجأة نسيت كل شيء. بحنان دافئ كانت يداك تتحسسان وجهي. ياه!

كم اشتقت إلى هاتين اليدين! هل تفعل الغربة كل هذا في الإنسان؟ لم أكن مستعدة أن أفتح جرحي أمامك. هذه الليلة أريد فقط أن أشبع من وجهك بالطريقة التي أشتهيها. استحلنا إلى عصفورين متعانقين. انتابتنا رعشة الحنين. تاريخ من الشوق المستبد. شلال من النور. كنت كل شيء. لو قلت لي في تلك الليلة طلقي رياض و تنصلي عن كل شيء، وتعالي معي إلى جهنم، لما ترددت لحظة واحدة. ولكنك لم تفعل وظللت تنظر إلى عيني بحنان وجوع ظاهرين.

أنت الآن أودع من طفل. لم تمس جسدي. تقبلني. تتمتم. أخشى أن أموت من فرط السعادة لو لمست هذا الجسد الذي تعذب كثيراً وصار بارداً كجثة. أمامنا الدنيا ومتسع من الفرح. اليوم أستطيع أن أقول أني وجدتك. وهذا هو المهم. عندما خرجت، شعرت بسعادة كبيرة وحزن عميق ووحشة مفجعة. أمام المرآة، كنت أتحسس عنقي والقبلات الطويلة التي تمنيت أن لا تتوقف، وأن تنزل نحو بقية الجسد كما كنت تفعل قبل هذا الزمن. أحاول أن أتأكد من أن ما كان يحدث، لم يكن مجرد حلم. كان حقيقة ولو كانت محدودة. إنها ذاكرتي المعطوبة. ما الفائدة الآن؟ كم تمنيت أن ألحق بك وأنت تستعد للمغادرة والخروج من البيت مثلما دخلت، في صمت، واستسلام كبيرين، وأصرخ: ابق قليلاً. بت هنا ولا تذهب. رياض سافر إلى فرنسا. فهو يشتغل مع أخيه في شركة استيراد السيارات، ولن يعود إلا بعد أسبوع! مستعدة أن أمارس معك كل الخيانات الصغيرة والكبيرة، وكل المعصيات، بدون أدنى تردد أو ندم. امنحني فقط فرصة البقاء معك أكثر لأتأكد من أنك هنا ولست غيمة هاربة ومتلاشية بشكل دائم. لم يكن بيدي أن أجبرك على فعل ذلك كله. كان صوت محرك سيارة الأجرة التي تلفتَّ لها، قد سرقتك مني. عندما فتحت عيني المتعبتين، رأيت السيارة وهي تعبر المنعطفات الضيقة داخل هذه المدينة المضاءة بعض الشيء.

لم يبق معي في البيت إلا عطرك الذي كنت تنتقيه بأناقة وظللت وفياً له كل هذا الزمن: Pour un homme وجملتك الأخيرة وأنت تقبلني وتضمني بحنان إلى صدرك:

– عذراً، ربما كنت لا أستحقك.

وعندما أردت أن أقول لك اصمت، وضعت أصابعك بلطف على شفتي وتمتمت: ششششت... فهمتك. فصمت.

كم تمنيت أن أنساك حبيبي دفعة واحدة، ولكنك لم تمنحني أية فرصة لفعل ذلك. حبك لي يزيدني اشتعالاً أكثر من ذي قبل. الآن تأكدت أن موضعي في قلبك لم يتغير كثيراً وأنه سيكون بإمكاننا أن نتوغل أكثر في مدارات الحب المسكرة، وأن أرى الحلم المجنون نفسه، أبي مرة أخرى وهو يخرج من عمق الماء مستنداً إلى كمانه.

حبيبي،
نسيتُ أن أقول لك قبل أن تغادرني، إنك كنتَ رائعاً في صمتك وحزنك، وإني وجدتك قريباً مني أكثر من أي زمن مضى، وكنت حقاً حبيبتك الحزينة. أعذرني، ليس أمامي سوى أن أظل معلقة فيك حتى النهاية.

الفسحة التي أعطيت لنا للنسيان لم تكن كافية، فقد زادت من حرائقنا. أنت لك الحروف والجمل تقاسمها حزنك، وأنا لا شيء لي إلا الصمت والتفكير فيك بشكل دائم، وكلما وجدت فسحة، انسحبت نحو كمان والدي وأخرجت كل أنينه المخبوء. أكبر مشكلة في الصمت هي أنه صديق أخرس وأناني، يسمع ولا يجيب.

حبيبي وتيهي،
أنا ضائعة، وفي حاجة ماسة لصوتك ولصرخاتي المكتومة. أريد أن أصرخ لكن شيئاً ما لا يسعفني. أبحث عبثاً عن وجهك وسط هذا الخواء الذي يزداد كل يوم اتساعاً.

قلتَ لي قبل أن نفترق ونحن نقف على العتبة قبل أن تسرقك سيارة الأجرة. أحبك. اكتبي لي. أريد أن أسمع صوتك الداخلي لا الواجهات الكاذبة. وإذا تيقنت أنك نسيتني، سأتركك، بل سأهجر المدينة التي أنا فيها إلى مدينة أبعد، حفاظاً على سعادتك. وها أنا ذي اليوم أكتب لك وأنا في كامل

جنوني، أدفع ثمن الحماقة التي تنافسنا في ارتكابها. أحبك وأنا حزينة لدرجة الموت. اليوم الذي يذهب لن يعود أبداً. ضيقة هي المراكب يا حبيبي، ضيقة حياتنا. ضيق شوقنا وحبنا رغم كبره وعظمته. أنت تقتلني بكلماتك وأشواقك وأحزانك. أتدري أن نفس الفكرة راودتني و أنا أقرأك؟ قلت في ذلك الصباح لماذا لا أكتب له باسمه؟ لماذا لا ألفظه بشفتي؟ نخبئ أسماءنا لتفادي الحماقات القاتلة. خوفاً من أن تسقط الرسائل بين يدي رياض إذ يمكن لأي رجل في مثل هذه الحالات أن يتحول من ملاك إلى شيطان، ومن عاشق إلى قاتل من الزمر الأكثر حقدا. أقول في خاطري: أحبه و أريده. «راح يصير إيه يعني؟ يقتلونني؟» لقد فعلوها قبل هذا التاريخ، بل فعلتها بنفسي عندما انتحرت. و إلا كيف أسمي هذه الحالة؟

أنت دائماً تباغتني في الأماكن التي لا أنتظرك فيها إلا قليلاً.

وحيدة مع موسيقى الصمت والخوف الغريب من الموت. يكفيني حبيبي أني رأيتك. أرجوك فقط لا تحاكمني وقلل من يقينك. إذا لم أكتب لك لا تزعل مني. فأنا لن أكون إلا لك. الرجل في بلادنا العربية يستطيع أن يتمتع بحريته كما يشتهي، لكن المرأة التي هي في مثل وضعي، عليها أن توقظ كل مكامن حيلها لتستطيع الوقوف على قدميها والذهابَ نحو حبيبها على رؤوس أصابعها حتى لا توقظ حساسية المأزومين.

أشهد أنني فشلت في أن أكون زوجتك التي حلمت أن تمنحك طفلين. جميلين مثلما اشتهيناهما: مايا ويونس. ولا أريد منك الشيء الكثير سوى أن تستمع إلى ذعري الداخلي من حين لآخر.

ولا تنسَ أبداً أني مصابة بك. ولهذا أتشبث بك، حتى برائحتك، أو بعطرك الذي يملأني، لكي لا أختنق في وقت مبكر وأنا لم أعش الحياة إلا قليلاً.

-٤-

أكتب لك أيضاً لكي لا أموت اختناقاً.
أدرب نفسي على نسيانك.

لقد أشعلتَ حرائقي وهربتَ؟ يا بختك على راحتك وقدرتك على الصمت.

لو فقط تدري كم أشعر باليتم في غيابك؟

كنت أظن أن الزواج سيفتح كل أبوابي المغلقة، ولكن يبدو أنه مؤسسة لا تختلف عن بقية المؤسسات الأخرى التي لا تعمل إلا على تغريب عواطفنا وتعليبها والتصديق بالكذبة الجميلة التي نبتدعها باستمرار حتى لا نموت قهراً. أعذرني. منذ زمن لم أرك، ربما لأنني أحاول عبثاً أن أدرب نفسي على نسيانك، وأحاول أن أقتنع بأني أصبحت في بيت رجل آخر، وعلي أن أظل وفية له، وأخادع باستمرار عواطفي الداخلية. أنت تعرف أن ما كنت تحذرني من خطره صار حقيقة. القدر أحياناً يحول سخرياتنا إلى حقائق. في حياتي لم أكن أتصور أني سأصبح زوجة لرياض. كان يبدو لي بليداً ومقرفاً بحبه للمال. ركض ورائي حتى سحبني نحوه. عرف الفجوة التي تركها فيَّ غيابك وجعلني أصدق أنا المجنونة بك، أنه في النهاية رجل، والرجال لا يختلفون كثيراً. لا أريد أن أقول لك إني أخطأت في تقييمي، فتلك مسؤوليتي، ولكني أشهد لك اليوم أني عاجزة عن مقاومة غيابك. هل تدري كم أحبك، وأني كلما تذكرتك رابطت عند النافذة علني أراك. أنا منكسرة وميتة، وربما حاقدة عليك أيضاً. أنت تعرف السبب جيداً.

لا تلمني إذ منذ ذلك الصيف الفارغ خرجتَ و لم تعد. قلت لي بغباوة باردة:

أبارك زواجكما. رياض إنسان طيب، وسيسعدك.
كنتَ تكذب على نفسك وعلي. كنتَ منكسراً أكثر مني. قلتُ لك:
هل أنت مقتنع بما تقول؟ لا تغادر المدينة إذن؟
صمتَّ وأكلتَ لسانك. عرفت كل شيء من عينيك المتعبتين اللتين ظلتا تدوران في الفراغ، قبل أن تقول بألم كنت الوحيدة التي شعرت بثقل معناه.

تريدينني أن أبقى وأنت بين يدي رجل آخر؟ فوق طاقتي. لا أملك الشجاعة الكافية للقيام بذلك. أعتقد أني لم أستطع أن أمنحك ما منحه لك رياض. كل الخير أتمناه لك.

- أنت تعرف جيداً أن رياض كان العجلة الخامسة لتصليح الأعطال التي تسببتَ فيها.

خرجتَ و لم تعد. ذهبتَ نحو مدينة أخرى. قلت: سأجرب. العاصمة، ليست مدينة سيئة. هربنا نحوها العديد من المرات في القطارات الليلية عندما كنا طلبة، واختبأنا في فنادقها الصغيرة التي كانت ممتلئة بشكل دائم.

هل نقاطع من نحب هكذا؟ نظن. لا أجد شيئاً واحداً يكرهني فيك، بل كل شيء يقودني نحوك. مع ذلك كنت أتحاشاك مثلما كنت تتحاشاني، و افترقنا. أنا ذهبت نحو أثينا، ثم باريس لقضاء شهر العسل، وأنت سكنت مدينة لم تكن تحبها. كان قلبك ممتلئاً وكنت حزينة عليك وعلى نفسي. في باريس لم أر شيئاً سوى ما رأيته أنا وأنت في رحلاتنا المسروقة. رياض يتبعني وهو لا يعرف أني في نهاية المطاف كنت عبثاً، أقتفي خطاك كالمجنونة. في شوارع باريس، وكلما مررت على زاوية تعاشقنا فيها، خنته بعيني.

حين عدتُ متأخرة جداً من رحلتي، كنتَ قد احتللتنيْ عن آخري، ولم يعد الزواج إلا جزءاً من الخطيئة الكبرى التي وضعتني في طريق رياض، أو وضعته في طريقي. أول شخص فكرت في لقائه هو أنت. أنتَ فقط ولا أحد غيرك.

لم يبق أمامي إلا الاتصال بك عن طريق صديقتنا عائشة التي تطوعت للربط بيننا. كانت متأكدة من أن ما حدث بيننا لم يكن إلا خطأ طارئاً، علينا تصحيحه بأي شكل من الأشكال. يومياً تؤنبني، حتى رياض صار يكرهها.

مجنونة أنتِ! الله أعطاك كل خير وأنت تضيعينه بحماقة. لا تدفني حالك حية.

لا أجد لها أجوبة إلا تحميل الأقدار شططي، ومزيداً من الكذب والسخافات التي لم تعد تقنعني أنا نفسي فكيف أقنع بها غيري.

ياه... كم كنتَ دافئاً في تلك الليلة عندما زرتني في غفلة من الكل. لم تمسسني ولكني شعرت بحرارتك.

عندما تنتهي غفوتي وأعود إلى رشدي، لا أجد سبيلاً سوى مقاطعتك. ولكني سرعان ما يعاودني مرضي، وأجدني فجأة أركض وراءك. أبحث عنك في المدينة. وكالمجنونة، أعثر عليك داخل الحرائق نفسها، تبحث عني.

ركبت رأسي يوماً وتخطيت عتبة الخوف مرة واحدة. قادتني نحوك عائشة. في الصباح الباكر، سافرت أنا وإياها إلى العاصمة، في رحلة طيران استغرقت ٤٥ دقيقة مرت كدهر. أرتني شقتك، على حافة البحر، ثم انسحبت:

- لا تنسي أن نلتقي في المطار الساعة السادسة مساء.

- وإذا لم أجده.

- ينتظرك يا مهبولة. لن يخرج اليوم.

فتحتَ الباب حتى قبل أن أدق. لم أسألك كثيراً وكأنك شممت رائحتي. كنتُ أريد أن أقول لك بصوت عال: خذني إلى صدرك، أو فراشك، كما تشاء. لم تسألني. قرأت كل شيء في عيني. أخذتني بين ذراعيك. عريتني عن آخري مثل برتقالة، وعريتك بشغف. كنت ارتجف مخافة أن يسرقني الوقت. اشتقت إلى كل شيء فيك. عطرك. رائحة جسدك. عرقك. أنينك وأنت تبحث عني في أقاصي اللذة. بكيتَ على صدري طويلاً، وبكيتُ أنا أيضاً شيئاً مبهماً. اليوم كله قضيته بين ذراعيك أستحم فيك بشره لم ألحظه في نفسي من قبل. في البداية كنت أخاف من الحمل منك، ولكن مع تكرار الجنون لم يعد شيء يهمني، بل صار يهمّني أن أحمل منك. اشتهيتك أن تبقى فيّ وأن لا تنسحب. ولم أشعر أبداً بالندم تجاه ما فعلته معك. لأول مرة أشعر أني كنت صادقة

في حبي ولم أكن أمثل مطلقاً. كنت أريد أن ألومك، لكني لم أكن أريد مطلقاً أن أضيع هذه الفرصة.

موجوعة بك أيها المجنون الذي لا تستطيع امرأة فهمه مثلي.

موجوعة بحبك. أما زلت تتلقى رسائلي بشوق كما كنت تفعل دائماً؛ العادة قاتلة ومع ذلك نحن أحياناً في حاجة ماسة إليها. في حاجة لأن أمارس معك أبسط الأشياء اليومية، كأن أقول لك صباح الخير. صباح الخير يا روحي. لم أتوقع أنني سأجدك هنا.

ياه... لا أدري إذا ما كان عليّ أن أزعل منك أم أعضك، أو آكلك، أو ماذا أفعل معك وبك؟ كم كنت غبياً يوم وقعتَ تحت وطأة فلسفة فارغة وحدك كنت تعرف جدواها وحماقة سرقتني منك وسرقتك مني. ستقول لي هفوة! مزلق غير محسوب! أقول لك وأنا أضع الأملاح على جراحاتي لكي أتمكن من تحمل قسوتها ليلاً عندما ينفتح كل شيء نحو المبهم، وحتى لا تصير واسعة وعفنة وتصبح مداواتها مستحيلة: لم يكن من حقك خسراني بتلك البساطة، ولم يكن من حقي توريطك في نفق عظيم أدركتَ سخافته قبلي.

ياه... ما أقصر حيلتنا! علينا أن نخادع العالم كله لنحصل على شيء كان يمكن أن نحصل عليه كما نشتهيه لو عرفنا كيف نتصرف. شيء ما في الإنسان يقوده دوماً نحو حتفه وتلاشيه. ومع ذلك، ما زلتُ هنا، على هذه العتبة التي لم أردها، أواجه رياح اليأس وأحلم أن أراك كلما أشرقت الشمسُ وكلما غربت.

حبيبي الغالي،

و كل يوم تزداد بعداً وتوغلاً فيّ مثل المدية الحادة.

و كم أنا مرهقة وحزينة من أجل نفسي وللوضع الذي آلت إليه حالنا. وحزينة جداً من أجلك، لأن رأسك يابسة كالحجرة. الحب ليس فقط ما نشتهي، هو كذلك ديمومة. ربما هذه قوته ومقتله. الذي علمك كيف تحب، لم

يعلمك كثيراً كيف تحافظ على أشواقك حتى النهاية. ستقول لي، الحب مثل الكائنات الحية، له بداية وله نهاية. المشكل ليس هنا، ولكن فيمن يصنع هذه النهاية. لماذا نزاحم الأقدار في حماقاتها؟ لماذا نقتل شيئاً بإمكاننا أن نحافظ عليه ما دمنا نحب بعضنا بعضاً؟ هل كثير علينا أن نكون مع بعض؟

يحدث معي أحياناً أن أسقط في التهويمات وحب الركض وراء غيوم هاربة كانت تركبها الأميرة الجميلة في أحجيات جدتي الكثيرة. وحين أفشل في تحقيق شيء، أحزن بعمق وينتاب قلبي الإحساس بأني فقدت شيئاً ثميناً قد لا يعوض أبداً. لقد صرت في حاجة ماسة إلى الارتباط بأي شيء يمنحني فرصة التعلق بك والتفاؤل، وعدم التنازل للأقدار التي أصبحت تنافسها فيّ سلطانها القاسي.

الإدمان على الحزن يا حبيبي صعب في هذه المدينة الريفية التي جعلت من السعادة والبؤس ميادينها الأساسية. غريبة الأطوار هي هذه المدينة. كم أشتهي أن أخرج من هذه الدائرة التي تأسرني. شقاؤك صعب، وأسئلتي بدأت تزداد تعقيداً كلما استحضرت أوضاعنا الخاصة. لم أعد أرى لها أفقاً. أنت مثلي، تؤمن بما تحدثه تفاصيل الحياة فينا، من معجزات. لكن يبدو أن الله والملائكة قد غضبوا على المدينة وعلينا، ولن ينزل أي نور أو أية حياة على أسوارها. فقد انسحبت الملائكة والناس الطيبون منها. أحبك ولكني لم أجد بعد أجوبتي عمّا يعذبني ويتوغل في قلبي بعنف كبير.

نحن لا نحزن شهوة في ذلك و لكننا نحزن لأننا لا نملك أجوبة لأسئلتنا المستعصية.

كلما كنت معك نسيت همومي الصغيرة، ورأيت حبات المطر التي تملأ قلبك. لكني كلما غادرتك، عاودني الخوف من الآتي الذي لم أعد متيقنة من ملامحه. هل تعلم أيها الحبيب الغالي أن لحظاتنا المسروقة تأسرني.

أراك الآن ونحن نندفع بشوق مجنون تجاه بعضنا البعض، داخل الخوف

والشهوة المسروقة، ولا نسأل كثيراً عما ينتظرنا في الزوايا المظلمة. غرفتك الصغيرة في العاصمة كانت كافية ولم تكن في حاجة إلى قصر بارد مثل الذي أسكنه ويشبه قبراً. غرفة حميمية، مليئة باللوحات والألوان والأنوار والستائر البنفسجية التي تتبعك في كل مكان، توفر لنا فرصة تعاطي كل حماقات الدنيا، لعب الورق، الشطرنج، وممارسة الحب والجنس بالشكل الذي نشتهي، وفي الوقت الذي نحب. في النهاية نتضاحك عالياً كالسكارى، بشكل هستيري ونتساءل كيف وصلنا إلى جرأة التعري في أعين بعضنا البعض. من أين جاءتنا تلك الشجاعة النادرة؟

وعندما نفطن بأن الجيران يمكن أن يسمعوا جنوننا، نتكتم قليلاً ثم نحاول عبثاً أن ننام. شيء فينا يستعصي على النوم. عفواً، يستعصي على الموت.

هل أنت هنا؟ أم خرجت بدون أن تودعني؟
هل تسمعني الآن أم مازلت غائباً؟
مريمتك الضائعة، التي لا تغمض عينيها إلا لتراك.

وهران خريف ١٩٨٨

-١-

على الرغم من التعب، لا أشعر بأية رغبة في النوم.

غاب الكمان عن نظري، لكن أنين سوزان لوندينغ يصلني خفيفاً وناعماً.

لم يعد المسدس يثير انتباهي الآن، وبدأ شيئاً فشيئاً يدخل ضمن الأشياء الأليفة، كالأقلام الملونة الكثيرة، المسطرة، الممحاة، الكمبيوتر، الرسائل والمزق الصغيرة التي خبأتها في الصندوق منذ زمن بعيد... وغيرها من الأشياء الصغيرة والدقيقة التي تنام على حواف المكتب.

أبحث عن واسيني في كل حرف، ليسهل علي أمر نسيانه.

صعب أن ترهن عمراً بكامله لحساب رجل هو مجرد غيمة هاربة. تمنحك إحساساً قوياً بالحياة، ولكنك بمجرد أن تلمسها، تنزلق من بين يديك لتصبح مجرد سراب لا يقر على قرار.

أكدت لي السنوات التي مضت أن واسيني مثل قطرة ماء، تبلل ولكنها لا تروي عطشاً كبيراً. سماه أصدقاؤه المقربون، الرحالة الذي لا يتعب. وآخرون أطلقوا عليه تسمية الحمام المسافر. كان دائماً يجيب بحيرة مضمرة: حمام يطير بأجنحة من حديد؟ حتى عندما تعب قلبه، ونهته الطبيبة عن كثرة السفر، ابتسم وهو يغادر المستشفى، فهمت الطبيبة جيداً قصده. ضحكت وهي تقول له: قلل على الأقل من حماقاتك. السفر ليس كل شيء في هذه الدنيا.. استمر في غيه وجنونه، ولم يغير شيئاً من عاداته القاتلة.

قفزت الرسالة كالقنبلة الموقوتة أمام عيني. لم أكن أريدها أبداً، على الأقل الآن. كانت رائحتها غريبة مليئة بالخوف والدم وبعض الفرح المسروق خفية. قذفت بي بعيداً نحو خراب ظننته مات وتحول إلى نثار طائر في الفراغات العالية.

رأيتني يومها خارجة من الكونسرفتوار، في عالم كان يعج بالرماد.

كانَ كل شيء في البلاد قد تغير بقوة وكثرت الثقوب في جسد أرض مزقها الغزاة، وأنهكها حكامها وورثة دم شهدائها، حتى أصبح من المستحيل رتق جروحها النازفة.

كانت الحرب الأهلية تأكل الأخضر واليابس، الصاحي والنائم، الحي والميت، العالم والأمي، البريء والمجرم، ولكنها لم تمنع الناس من ممارسة جنون العيش.

يومها لم أر خياراً.

قلت له وأنا أضمه إلى صدري، وأتأمل وجهه الذي شعرت فجأة بأنه سيغيب عني وإلى الأبد، وأن الزمن لن يمنحني أية مهلة لإنقاذه من نفسه أولاً، ومن القتلة ثانياً.

– **أخرج أرجوك. إذا بقيتَ هنا لن تعيش طويلاً. أفضلك حياً، على قبر مغطى بالأكاليل وميداليات الشهادة. أتحمل افتقادك المؤقت، على إصرارك المجنون لاستدراج القدر نحوك. اخرج ولا تلتفت وراءك... اخرج من أرض الموت...**

–٢–

كان القتلة يحتلون كل شيء في المدينة، حتى دواخلنا الطفولية. دخلوا إلى البيوت، وفناجين القهوة الصباحية، وساحات العشاق، والسهرات الخفية. سمموا القلب والذاكرة. كل الناس أصبحوا يحسبون حسابهم.

اخرج. قلتُ له وأنا التصق للمرة الأخيرة بجسده المتعب. قال لي وهو يصطنع مزحة لم تضحكني كثيراً:

– وماذا سيقول عنا الذين ينتظروننا في أكثر المعابر ضيقاً؟

– لا عليك منهم ومن أشكالهم. ماذا سيقولون؟ سينبحون ويصمتون. خرجتَ أم لم تخرج، فهم تحت وصاية «البيغ بروذرز»[37]. فعندما تُقتل

لن تبكيك إلا أمك ومن يحبك، أو يحس بك. لستَ أول من يفعل ذلك. لم يكن نابوكوف أهبل عندما خرج وكتب لوليتا، وما كان شارلي شابلن أقل وطنية، عندما اضطرّ لمغادرة أرضه الأولى باتجاه أمريكا. عندما عاد لها، في سنة ١٩٣١، قادماً من نيويورك، بكاها بحرارة: **أشعر بنفسي كالميت الذي عاد إلى الحياة. الروائح، رائحة المطعم. أتذكر المكان الذي كنت أرتاح فيه، ولكني الآن لست ذلك الشخص. فأنا إنسان آخر، يعيش حياة أخرى. فجأة تشعر كأنك مثل الثعبان الذي يتخلص من جلده الميت ويلبس جلداً آخر مع احتفاظه بروائح الأول. لم أشعر بشيء كهذا من قبل ولم أتذكر إلى أني كنت مريضاً بحدة، بعواطفي.** ولا نيكوس كزانتزاكي، عندما بحث عن فجوة حياة في باريس وغيرها من مدن العالم. اذهب عمري ولا تسأل، فالبلاد منحها الورثة للقتلة، وسيكوّنون حلفاً شنيعاً، يغلق عيون كل من يرى أكثر مما يجب له أن يرى. اذهب، يمكنك أن تحب وطنك من الأرض التي أنت فيها. الحب ليس رهين الأمكنة. هل رأيت عاشقاً ينسى معشوقة بمجرد خروجه من إقامته؟ بل يزداد الحب تأججاً كلما افتقدنا أرضنا الأولى.

لم أضف شيئاً عما قاله له صديقه المسرحي، عبد القادر علولة عندما صادفه يعبر أحد شوارع العاصمة، في عز المقتلة.

– أخرج يا خويا من هذا الخراب. تظن أنك تمشي متنكراً! أي تنكر؟ عليك أن تقص قليلاً من رجليك لكي لا يعرفك الآخرون. ستقول لي وأنتَ لماذا لم تخرج؟ لو استطعت أن أنقل معي مسرح وهران على ظهري، لما ترددت لحظة واحدة. أنتم الكتاب أخف الكائنات الهشة. لا شيء يثقل ظهوركم المتعبة. مخ حي، وقلب ينبض لكل الأشياء الجميلة، وقلم يكفي لزرع النور في الظلام، وفي الليل الذي هربت منه النجوم. لن يمنعك المنفى المؤقت من الكتابة.

لا أدري كيف استمعتَ إلى نصائحي ونصائح عمي عبد القادر، وخرجت. بينما دخلتُ أنا في غفوة الموت. لم يعد شيء يعنيني إلا ما تبقى من موسيقى كانت تملأ قلبي وعيني وجسدي، فاحتميت وراءها. كانت حائطي الأخير الذي حمى والدي زمناً طويلاً من الانتحار. فارتبطت أكثر بما تبقى من الفرقة الفيلارمونية لكونسرفتوار مدينة وهران، التي هجر أغلب أعضائها

المكان خوفاً ورعباً. وعندما أغلق الكونسرفتوار، أصبحت أذهب نحو الأوبرا أو المسرح الجهوي، الذي وضع عماله تحت تصرفي كل ما كنت أحتاج إليه.

فجأة أصبحت وحيدة وسط أوبرا خالية من كل نفس. كان عمي عبد القادر علولة يقول لي دائماً، قبل اغتياله: شوفي يا ليلى، أنت صاحبة الفضاء. ازرعي فيه الحياة التي تشائين. يجب أن لا ينجح القتلة في إسكات صوت الموسيقى والحب. عندما ينغلق عليك الكونسرفتوار، تعالي إلى هنا، المسرح كله تحت تصرفك.

كنت أعزف ساعات طويلة، في مسرح خال من كل شيء، وأنا أفكر في عمي علولة الذي كان يملأ المكان بصوته الذي يشبه زئير أسد مجروح. لم أعد أسمع شيئاً إلا صدى موسيقى القلب الحزينة.

ارتبكت كل يقينياتي في الحياة نفسها.

-٣-

أجمل شيء في رياض، هو كرهه للقتلة الجدد. كان يراهم أكبر بلية يمكن أن تصيب أرضاً طيبة خضراء، أكثر من الجراد. إذ تتصحّر التربة، وتموت الحياة فيها، فتصبح قاحلة لا ينبت فيها زرع ولا ينضح فيها ضرع. أسوأ من قنبلة نووية.

- «اللي أصابه ربي، يسلط عليه هذه الأقوام المصابة بالعمى الكلي».

حصوله على مسدس الحماية، لم يكن أمراً صعباً، فقد كانت علاقاته كبيرة ومتشعبة، في الوسط التجاري والعسكري. لم يكن الأمر يهمني كثيراً. لا أتدخل في شأنه أبداً، على الرغم من أني أصبحت أعرف عنه الكثير. علمني كيف أفكك المسدس لتنظيفه، وكيف أركبه. حتى أنه اقترح عليّ ذات مرة، أن أرافقه إلى مركز الشرطة للتدرب على الرمي. رفضت في البداية لأن خوفاً غريباً انتابني، ولكني انصعت لأمره لأنه كان أكثر براغماتية مني.

«تعلمي على الأقل كيف تدافعين عن نفسك وعن أبنائك. هم جبناء. لن يتمادوا في فروسيتهم؟ إذا قوبلوا بحد أدنى من الدفاع».

أنا لا أحمل حقداً ضد أي إنسان، وليست بي رغبة للقتل، ولكن بي جرحاً كبيراً، على كل من يقرأني، أن ينصت إليه. أن يحس به، أحسن مما يرويه عني يوماً الرواة الكذبة، القتلة، السفلة، وما أكثرهم.

كم تبدو هذه الرسالة الحزينة والمملوءة بالحياة، التي كتبتها له بعد لقائي به في باريس بعد غياب شعرت به عمراً وليس سنوات. كأن الزمن كله ضغط، وتحول إلى لغة هاربة التصق بها عطر اللحظة، أنوارها، حنينها الغامر، لذة إعادة اكتشافها باستمرار، شطط الجسد الذي يستيقظ بصعوبة... أية لحظة جميلة صنعها القدر، وقدمها لي على طبق من ذهب، في عمق الخوف والقنوط ويأس الموت المتربص بنا في كل الزوايا؟

-٤-

لست نادمة على ما فعلت.

فقد اتخذت قراراً صارماً وربما خطيراً لأنه يمس غيري أيضاً. صممت أن أكتب هشاشتي المفرطة، ولا يهم إذا سماها الآخرون فضائح. أكبر فضيحة هي الصمت. قد يكون الصمت هو سلاح الضعيف، ولكنه سلاح أخرس. لا أنتظر الشيء الكثير من محيط قُتِل قبل قرن على الأقل.

مازلت إلى اليوم، على الرغم من كل الخسارات التي لحقت بي، أعتبر لقائي بواسيني من أجمل مكاسبي في الحياة وأكثرها أناقة وقسوة في الآن نفسه. لا يمكن لأحد، مهما أوتي من قوة داخلية، أن يتخيل مقدار الحزن الذي يأكلني من الداخل ويحرقني بدون أن أستطيع فعل أي شيء حياله. كما لا يمكن تخيل مقدار الحرية التي منحتها لي هذه التجربة المجنونة وهي تزحف نحو عمر بدأ ينكس راياته.

ما زلت أصر على أنه كان يمكن تفادي هذا الشطط بقليل من التعقل. لكن حيث يحل الجنون، يحل الخراب أيضاً مشفوعاً بشيء واحد جميل، هو الحرية. الحرية فقط. ما عداها، حالة خراب متواصل.

أشتهي أحياناً أن أوقف الزمن حيث كان يجب عليه أن يتوقف ولم يفعل، بلا خوف ولا تردد. لقد عشت زمناً قاسياً في الظل لأني اخترت الطريق الأكثر



صعوبة. ولهذا، كلما تذكرت أن مريم سرقت جزءاً من حياتي، سرقت مني واسيني نفسه، بحثت عن جنون آخر لأسترجع كل ممتلكاتي المنهوبة. مريم لغة. غيمة. ضباب في ساحل مهجور، ولكن ليلى دم ولحم، فرح وخوف، عقل وجنون، شيء يُحس ويذاق ويلمس. ليلى هي التي تعيش معه السعادات الصغيرة والانتكاسات المتكررة. مريم تنتظر دائماً عند المداخل، حيث ترى الجميع ولا يراها أحد. هي التي تسرق اللغة والنص مني، مستعملة حياتي الخفية. ولهذا عندما أقول أصفي حسابي معها، ليس الأمر نزوة كتابة عابرة، ولكنها تصفية قاسية لحساب قديم وتمزيق لقناع لم أعد قادرة على تحمله.

كان على مريم أن تحس أولاً ما معنى أن تفتقد رجلاً تحبه في عز موجة الموت، لتعرف معنى الكلام الذي أقوله. لكنها لا تستطيع، لأنها من اللغة فقط وفيها.

مريم لا تعرف أن رسالتي اليائسة، من عمق النار، لم تكن مجرد صرخة ومفردات مرصوصة، ولكنها كانت نداء يتأتى من الأعماق المعزولة في غربتها.

كثر القتلة، وكنا المؤهلين الأوائل للموت، وكانت مريمَ تدخل أنفها في جسدي لتتنفس جرحي قبل أن تلبسه، وتفتش خزانتي، وتتمدد في حمامي، لتلبسني كما تشتهي، وأصبح أنا الغريبة، الوحيدة مع نزفي الحقيقي.

ياه! لو كنتُ أنا أيضاً مجرد لغة! كم سأكون سعيدة!

لو فقط كانت الحرب الأهلية التي أكلت أعز من أحب، مجرد جمل وكلمات منكسرة! وكنت أنا مجرد دمية، تهز رأسها وعينيها عندما يحركونها، وتبكي عندما يهزون جسدها قليلاً.

لو فقط كانت البلاد وهي تذبح نفسها بنصل صدئ وتذبحنا في أثرها، مجرد لعبة روائية معقدة، لوضعت حداً نهائياً للعبة وأيقظتك من جبروت الخوف، وقلت لك: تعال عمري، ما يزال لدينا متسع من الوقت للجنون والحب.

ولكن الحياة كانت شيئاً آخر. الحرب لم تكن لعبة يمكن تبديلها بغيرها

متى شئنا. كانت موتاً حقيقياً، والموت لم يكن مجرد حالة عابرة، كان فاجعة فينا وليس في اللغة، ومريم لم تكن استعارتها الجميلة.

ولهذا كنت عاقلة إلى أقصى حد ولم ألعب اللعبة التي أتقنها غيري، أن أعيش معك وكأن شيئاً لم يكن، وأن السحابة التي تدمي سعادتنا ليست إلا غيمة هاربة. أقنعتك بأن تختار المنافي لأني كنت أنانية: أريدك حياً وبعيداً، على أن أراك ميتاً وقريباً مني، داخل قبر أزوره كلما سمحت لي ظروفي الصعبة، وأطلب منك عذراً أني رأيتك في عمق النار ولم أفعل شيئاً من أجلك.

* * *

ليلى إلى سين.

سيني الحبيب.

عمري وتيهي الجميل.

أطفأت البارحة شمعة يونس الثانية، كان سعيداً، تمنيته أن يكون منك ولكنك كنت دائماً أعقل مني بكلماتك التي لم أعد أحبها: سيأتي وقتنا، ليس الآن، متى إذن؟ عندما يصبح عمري قرناً؟ تضحك ولا تسأل عن الحريق الذي يكبر كل يوم أكثر بداخلي. سيكبر يونس وسيعرف، طال الزمن أم قصر، أن أمه لم تكن لوالده، ولكنها كانت لرجل منحها كل شيء إلا الفراش الدائم الذي حاولت بكل ما أوتيت من قوة لإقناعه به ولكن... جعلني يونس أكتشف أشياء غريبة حدثت لي دفعة واحدة، ربما حدثتك عنها يوماً.

أنا اليوم رائقة على الرغم من رائحة الموت التي تحيط بي في كل مكان. بلادنا لا تخرج من حزن إلا لتدخل في نكسة جديدة. سرقوا الطفولة من عيون أطفال أكتوبر. يخافون الأطفال. خرجوا. كسروا. لتحكمهم فلول القتلة الذين بدؤوا يسرقون ألق المدينة. لقد تسلحوا بإسلام يشبه الإسمنت، لا روح فيه ولا ماء، واشترطوه مسلكاً للجميع.

خرجت الآن من دار الأوبرا ممتلئة بك ولا شيء غيرك. لقد أصبحت أعزف طويلاً أمام الأصدقاء بعد أن تمزقت الفرقة الفيلارمونية، وكثيراً ما أفعل ذلك وحدي أو أمام المرآة الكبيرة التي تتوسط إحدى قاعات الأوبرا، فقط لأصدق أن الحياة ما تزال مستمرة، وأن شيئاً فينا لايزال حياً.

كلما عدت إلى نفسي ووضعت الكمان على متكأ كتفي الأيسر، وعزفت بيدي اليمنى، تذكرت أنه ربما، حسناً فعلنا أننا لم نتزوج، وإلا لمات كل هذا الألق الذي فينا.

ليس افتقادك سهلاً، ولكنك على الأقل مازلتَ حياً.

سأعزف لك حبيبي هذا المساء، وأراك في داخلي كالنور الهارب.

هل تذكرها؟ تلك الطفلة المشاغبة التي سكنتها الموسيقى في وقت مبكر وأصابتك بعدواها؟ هل تذكر أني كنت أقسو عليك فقط بالحب وبالأغاني التي تعيدك إلّي قلبي؟ حتى اسمك مزقته بسببها ودفعتك إلى التوقيع به ونسيان عذرية لزغر الحمصي، الذي دخل أول مرة إلى وهران وهو يقرأ بدهشة العيون العابرة من أمامه، ولا يفهم ما كان يدور حوله. كان طفلاً بريئاً إلى أقصى الحدود.

سيني حبيبي،

كم اشتهيت أن أشبهك في غيك وهبلك وامتهن حرفة الكتابة بلون الشهوة، اللون البنفسجي. ولكن كل شيء هنا صار رمادياً ومراً، لا غيم يكفنه إلا السواد المستشري.

لا تبحث عني حبيبي، فأنا منغرسة فيك مثل الحلم الشقي، الذي لا يتوقف ولا يعرف نهاية.

شتاء آخر يمضي بأسئلته المرة وبرده، ولحظاته المسروقة. شتاء آخر يأتي مليئاً بالأشواق التي لم يعد شيء يوقفها أبداً. لا أدري لماذا يتنامى خوفي من فقدانك بقوة. أنت مهبول وأخاف أن تسرقك الحياة مني على حين غفلة.

أيها الهارب الأبدي من ظله ومن خوفه الضامر، هل تدري بأني سيدة الظل منذ أكثر من عشر سنوات؟ وهل تعلم ما معنى أن ينتظر الإنسان عاشقاً طوال هذه المدة؟ لا أعتقد أن بنيلوب عرفت لذة الانتظار وشقاوتها مثلما أفعل. كانت ربما ملت ووجدت كل الأسباب لنسيان عوليس والبحث عن حياة أقل ألماً وأكثر اختصاراً. أنا لا أرقب السفن القادمة من بعيد، كل يوم، ولكني في كل صباح أسأل قلبي، هل مازلتَ فيه، ومازلتَ أحبك؟ فيحمر خجلاً من حماقتي لأنه يعرف سلفاً الإجابة التي أشتهي. عشقتك وعمري أقل من عقدين، والهوم يزحف العمر نحو مدارات الخوف. فهل سألت نفسك كيف صبرت حبيبتك كل هذا الزمن لتعيش في الظل، وتنسج في السر شوقها المستحيل؟

لهذا المساء رائحة الذكريات المنزلقة في تدفق كحفنة ماء صافية شربتها يوماً من كفك، في شلالات «لوريط» الأندلسية التي جفت اليوم ولم يبق منها شيء يذكر. هل تذكر أيها الأهبل المينوس منه، عندما كنا نقترب منها، وننصت طويلاً إلى هديرها الجميل، قبل أن تفاجئنا بتشتتها ورذاذ مائها المتساقط من أعالي الجبل إلى الوادي الذي يستقبلها؟ كنتَ تضمني وتقول لي: أغمضي عينيك فقط واتركي نفسك تنسابين مع الماء وستشعرين بإحساس غريب وكأنك أصبحت ريشة فوق السيول. أغمض عيني، وأسد كل حواسي إلا حاستي السمع والشم. يدخل الهدير الجميل إلى قلبي في شكل همهمات، ممزوجاً برائحة جسدك الطفولية كما اكتشفتها أول مرة. عندما كنتَ لزعر الحمصي ولم تصبح سيني الملعون الذي يؤذي حبيبته من حيث لا يدري. يأتيني كل شيء جميلاً وهادئاً. أشعر بخفة وزني، قبل أن أدخل في دوار عميق، إلى أن توقظني من غفوتي الجميلة بقبلة. لا أسأل عن المسافة التي تفصلني عنك، كنت فيك ولم يكن يهمني أي شيء آخر.

ها أنا ذي على حواف بحرنا الجميل الذي شيدناه من جنون الفوضى والحب، وحدنا كنا نعرف أسراره. أنزلق على الموجات الهاربة باتجاه عمق لم أكن أقدر مخاطره، بل لم تكن تهمني مطلقاً. تنزلق الرمال من تحت قدمي، لكن صورتك ترتسم في كل شيء: على صفحة الماء، بين تفاصيل الرمال المنزلقة، على الصخرة اليتيمة التي يتمزق عليها الموج الهارب من نفسه إليه. تدعوني لجنون آخر كنت أشتهيه وأخافه. لم نعد نشتهي تغيير العالم. لحظة فقط نسرقها من العمر المنفلت منا إلى تخوم الذاكرة. كان البحر لغتنا المشتركة ومهربنا الجميل بعد أن جفت مياه «لوريط» الرائع.

سيني حبيبي،

هل تدري أني منذ سنوات وأنا أقاوم هديرك ونداءاتك الداخلية التي أغرقت كل سفني وبحاري. لا حدود حبيبي لغيك. لا حدود لزرقتك الداخلية. كان عوليس يربط نفسه إلى عمود طويل في سفينته، يصم أذنيه كي لا يسمع نداء عروس البحر التي كان يمكن أن تسرقه. أنا أفتح قلبي... مسمعي... كل حواسي اليقظة والنائمة لأسمع نداءك فقط ولا تهمني النهايات أبداً. كنت

بحري. فكيف يمكنني أن أتفاداك يا عمري؟ لا يهم... وحده موجك المنكسر كل مساء على صدري يأخذني إلى عمق الاستثناء لأنتفي فيك. ولا شيء آخر سوى صوت اللذة المكتوم وأنين يأتي من مدافننا الداخلية. بربك، لماذا كنت تكتمه؟ لماذا لم تتركني أصرخ بأعلى ما أملك من قوة. أنا بحاجة لأن أصرخ. كتمت صرخة ولادتي، هكذا قالت لي أمي خوفاً من العسكر المرابط على حدود البيت، وكتمتُ صرختي خوفاً من أن يسمعنا الجيران؟ ليذهب كل جيران الدنيا إلى الجحيم. ربما حقدت عليك في أعماقي، إذ لم يكن من الضروري أن تروض صراخي وجسدي وحتى اسمي؟ هل يمكننا أن نسكت هدير البحر الذي كان فينا؟ أنت تعرف عمري أو لا تعرف، لا أدري؟ لكل امرأة ميزانها في لحظة الرعشة، لحظة واحدة قبل التلاشي: هناك من تقول كل البذاءات الجميلة المخبأة في الأعماق، وهناك من تكتفي بالإصغاء إلى تقطع أنفاسها، وهناك من تشتهي أن تصرخ وأن تسمع أنينها قبل أن تتهاوى كغيمة ممزقة يصعب جمعها ورتقها. شيء من التوحش الجميل المبطن فينا يحتاج إلى الإعلان عن نفسه بقوة. جربتَ معي ذلك عندما ننام بعيداً على حواف جزيرة منسية أو بحر لا أحد يوجد به إلا نحن. لماذا حبيبي نحاول دائماً أن نروض أجمل حماقاتنا؟ سأحاسبك يوماً على كل هذا العقل الذي يأتي في الوقت الذي يجب فيه أن يغيب، ولا يسأل.

هل تذكر أول لقاء بيننا؟ كنتَ طفلاً خجولاً خرج من حضن قريته وأمه، وكنت أيضاً صغيرة، أبدأ خطواتي الأولى مع الحرف، وكنت أنت الحرف كله لأنك كنت تصنعني، وكنت من حيث لا أريد، أشكلك وفق جنوني بحيث لن يمكنك التخلص مني أبداً حتى ولو شئت ذلك. كنت تكتب لي أجمل الرسائل، وأقرأ أحلى ما كنت تكتبه. عشقت كل نسائك اللواتي صنعتهن من أحرف النار كالكيميائي. لقد أصبحن يؤثثن ذاكرة هذه البلاد الواسعة. كنت تارة في مريم، وتارة في دنيا زاد، وأخرى في فتنة، وأحياناً في كليمونس، أو ربما أناطوليا. كلهن يشكلن عقداً في عنقي لأن بهن شيئاً من عطري، رائحتي، غمزتي، الخال الذي على خدي، مخالبي لحظة جنون اللذة... حين أقرأك أقرأني فيك وأنفي كل حبيباتك المنسيات على الصفحات القديمة التي كتبتها. ثم ها أنت تضع يدك على كتفي وتسألني: لماذا نمضي كل

هذا الوقت في الاستماع إلى محاضرة ميتة عن اللغة السانسكريتية؟ لم أكن أعرف بماذا أجيبك لأن مخي ليس دائماً معي، إما فيك كلياً وإما في الكونسرفتوار الذي كنت أنتظر بفارغ الصبر الالتحاق به! ربما كنت أنتظر أنا أيضاً من يأخذ بيدي ويخرجني من هذا اليقين الغريب الذي لا معنى له. المدرج كان يمنحني راحة غريبة، نزعة امتلاكك وتأملك مثلما أشتهي! لم يكن يغريني الدرس أبداً! كنت فقط أتأمل وجهك الطفولي وأريد أن أشبع منك. في المدرج كنت أشعر أنك لي وحدي دون الآخرين، أتأملك قبل أن أهرب منك إليك. في عمق الدرس أتخيل أصابعك الرقيقة وهي تنسج خيوطاً من الغيوم على جسدي. هل كنت أحلم؟ هاهي أصابعك الرائعة الرقيقة وهي تنسج من خيوط الغيم لباساً شفافاً على كل جسدي. حظي أني لم أكن حبيبة ورقية ولكني كنت حقيقتك الوحيدة. كنت حبيبتك التي لا يمكن أن تقولها إلا على قصاصات امرأة مبعثرة في شخوص رواياتك. أتساءل أحياناً من كان منا أحلى وأجمل، أنا أم مريم؟ من حيث لا تدري حبيبي خلقت مع الزمن، بيني وبينها، عراكاً غريباً كأني أصارع نفسي في مرآة مواجهة لي! أتساءل بخوف ماذا لو كانت مريم حقيقة أخرى غيري؟ سرك الآخر؟ ربما كانت مثلي، امرأة عشقتها ثم تماهت مع اللغة ولم يبقَ منها إلا عطر هو أقرب إلى اللغة منه إلى الحقيقة! أنا مازلت هنا. هنا حيث لا انفصال لك عني. لغتك ورعشتك الخفية. شوق حقيقي تلمسه كل صباح وفي المساءات المسروقة. تحتضن رعشاته وهي تتأوه من لذة لا تستكين على بر. لا مكان لشيء آخر فيَّ ولهذا فإن قتلك، عندما تتخلى عني، يصبح أكثر من مشروع. تضحك يا أحمق؟ أنت لا تعرف جنوني المكتوم. تصور امرأة كتمت جنونها منذ صرخة الولادة التي لم تخرج من فمها. ماذا سيحدث عندما تنفجر بقوة؟ موسيقى الصمت la musique du silence التي فينا مثل الموج الهادر، لا بحر لها إلا جسدينا المنهكين من الجري وراء حقنا في حياة معلقة على خيط. كلما لمع ركضنا نحوه قبل أن ينسحب بعيداً وينظر إلينا بسخرية لا نحسد عليها. ونعاود الكرة قبل أن نتيقن أن كل ما حدث كان مجرد سراب قلق. ربما كان ذلك بفعل الكأس التي لا أرفع نخبها إلا معك، ورجفة جسد لا يحيا إلا على وقع أناملك الناعمة وهي تخط حروف العشق على صدري البكر الذي انتظرك

زمناً طويلاً، الذين سبقوك إليه حبيبي لم ينطقوه، ولهذا اندهشتَ عندما وجدتني عذراء بامتياز، وكنت قد حكيتُ لك عن كل الحمقى الذين عرفوني قبلك؟ الكثيراتُ منا تمتن عذراوات على الرغم من سرقة بكارتهن. العذرية حبيبي ليست غشاء فقط، هي عذرية جسد يغتصب كل مساء بدون أن ينطق بكل مخزوناته الجميلة والرائعة.

سيني حبيبي.

كيف أتفاداك الآن وعطرك يملؤني؟ مزيج من رائحة أنفاسك وعطر Pour un homme الذي كنت تحبه، وتشتهيه أكثر عندما يصلك مني.

فجأة صمت كل شيء، وأصبحنا نمارس حبنا بحزن.

قلت لي يوماً: لماذا البلاد تذبح نفسها بنصل حاد؟ ألم يكن أمامها شيء أجمل تقوم به؟ كانت رائحة الدم المنسكبة على الطرقات تملأ أنفينا. ماذا حدث لينقلب الجنون الجميل إلى جنون بدائي، ويصبح الحب أكبر إدانة يمكن أن يمارسها إنسان؟ المدينة التي كانت تنام بين أحضانها أحلامنا استيقظت ذات فجر على دوي الرصاص وأشلاء المثقفين والكوابيس التي قضت مضاجعنا. أصبحت شوارع مدينتنا الجميلة ثعابين تتصيد حركاتك! ماذا فعلت أيها الرجل الطيب لعالم كان ينهار ويموت بدونك؟ كنت تثير الضحك، وأحياناً الشفقة، وسط كومة من الفجائع، وأنت تتخفى وراء قبعة سوداء ونظارات، بطولك الفارع الذي كان دائماً يفضحك لم يكن أمامك إلا مغادرة المكان. ولكن ماذا أفعل أنا في غيابك؟ كنا نخاطر بحياتنا من أجل لحظات حب نخطفها من الموت اليومي. نركض نحو البحر، وهناك نتأمل تكسر الموج والزرقة طويلاً، قبل أن نغيب في غيمة كانت تصنعها قطرات الويسكي التي كنت تسكبها في فمي وعلى جسدي. يا مجنون ما أكثر خبلك وهبلك الجميل؟ أتعبتك المدينة حبيبي، يئست من حكمتها. قلت لك ارحل. لا أريد أن أحملك في قلبي جنازة دائمة. في أعماقي لم أكن متحمسة لخروجك لكن قلبي كان صامتاً أمام عقلي. أرجوك لا تركب رأسك. أخرج. أنت مدعو من المعهد العالي للأساتذة. اذهب ولا تلتفت وراءك. ابق هناك قليلاً وسأزورك عندما تشتاق لي. قلت لي: كيف تبررين غيابك أمام زوجك؟



قلت وأنا استل ضحكة من جرحي، وأتهاوى على صدرك: لا شيء. فقط ما تقوله أنت لزوجتك؟ كذب جميل له طعم الصدق المستحيل. صمتَّ ولم تقل أية كلمة أخرى.

يوم رحلت، مشينا طويلاً على حافة البحر، ولم أرافقك إلى المطار. قلت لي يومها أشياء كثيرة لا أريد أن أتذكرها كلها حتى لا أجن بك. أكبر الأحزان هي تلك التي نسكنها وليست تلك التي تسكننا. أكبر الأفراح هي تلك التي تشتهي عيشنا وليست تلك التي نتمنى عيشها. أكبر الأشواق هي التي تهرب من عيني عاشقين سريين.

لم نكن نسأل كثيراً عن المخاطر حتى يوم مغادرتك البلاد باتجاه باريس، كان الموت يطاردنا بقوة ومع ذلك كنا نصر دائماً على اقتناص الحياة من عمقها وداخلها.

«اسالني شو بني
بأول هالسنة
يا حلو يا حبيبي
مامبيعك بالديني».

سيني، عمري.
كم كان فراقك قاسياً. لو سألتني يومها أن أترك كل شيء ورائي وأتشبث فيك حتى التهلكة، ما ترددت لحظة واحدة. أصبحت المدينة موحشة. أدركت فجأة أن حبك وحده كان يمنحني القوة الكبيرة لمواجهة عبثية الموت المتربص بكل شيء والأقدار القاسية. فجأة انحسر موجك عني، وأصبح يسكن موانئ أخرى وشواطئ الضفة الغربية. كنت أسير وحيدة وسط صور الجثث في المدينة. لقد سرق القتلة أفراحنا الصغيرة. لم يقتلوك ولكنهم سرقوك مني. على الرغم من ألمي وحزني وخوفي المرضي عليك، كنت سعيدة لأنك كنتَ هناك في مأمن. في منأى عن فوهة مسدس أعمى أو ضربة سكين.

لم أكن أتصورني يوماً أني سأكون حزينة وسعيدة لبعدك حبيبي.

هرب البحر من عيني ولم يبق إلا صوتك الذي كان يخترق غربتي من حين لآخر عبر التليفون وأنت تبحث عن كلماتك مثل لزغر الحمصي في أولى خطواته: عمري مشتاق إليك ولم أعد قادراً على التحمل. أختنق. أنوي أن أجيء أو تأتين إلى هنا؟ أفتقد سنوات البحر والشلالات الجميلة التي جففها القتلة.

كان صوتك يأتيني دافئاً ومتواطئاً مع جسدي وأسراري الصغيرة.

حبيبي سيني.
كنت أريد أن أهزك بقوة أختصر فيها سنوات الألم.
قلت لك بخبث كنت أتقنه جيداً:
- سيني حبيبي كيفك.
- يا مجنونة تسألينني عن حالي، في أقصى درجات الانتظار اليائس؟

- طيب... تعال، نلتقي في حديقة لوكسمبورغ، في مواجهة قصر الملكة الحزينة، بجانب البحيرة. سأستحم وأحلم بك، في انتظار وصولك. هل هناك فصل أجمل من هذا الربيع.

- لو فقط كان ذلك صحيحاً؟
- قلت لك أنا أنتظرك على حافة بحيرة حديقة لوكسمبورغ.
- أرجوك عمري، أنا متعب ولا أحبذ هذه السخرية الضارة.
- تعال فقط إلى الحديقة وستراني كما تشتهي.
- أنت في باريس؟
- لم أقل هذا الكلام.
- «راح تهبليني»...

عندما رأيتك، كنت تلبس معطفاً أسود، وعلى رأسك «بيريه باسكي» أسود أيضاً. كنتَ طويلاً، وجميلاً. نحفت قليلاً. كنت تبحث عني بعينيك بشغف. كُنت منهمكة في رمي الخبز إلى الحمام الذي كان يغطيني. لم ترني.

عندما قمت وقام معي سرب الحمام الذي كان يحيط بي، رأيتني. تسمرت في مكانك وأحسست بزلزال تحت قدمي. عندما التصقت بك، بكيت ولم أستطع السكوت. هذه المرة لم تمد يدك التي ارتجفت طويلاً إلى فمي لكتم صوتي، وكانت دمعاتك تنزل في صمت وقسوة. تمتمتَ فقط ولا أدري ماذا قلتَ لي. لم أتكلم ولم تتكلم. كان الحمام ينظر إلينا بعيون مشرقة وبغرابة قبل أن ينسحب.

شددتني من يدي. درنا طويلاً في الحديقة قبل أن ينتهي بنا المطاف في نزل صغير في لوكسمبورغ ولم نستيقظ من جنوننا إلا بصعوبة. بكينا وشربنا وتزاعلنا وتعانقنا. لم يكن شيء يقف في طريقنا. لأول مرة أشعر أن للحرية طعماً يشبه اللذة. كأن القدر القاسي يختبر حبنا الهارب، ويضعه أمام واجهة الفقدان المبكر. ما معنى أن يعيش بلد حرباً أهلية؟

قلتَ لي:

– عمري... لا تهتمي. اتركيهم يحكون أننا هربنا. لهم البلاد التي صنعوها، ولنا الوطن الجميل الذي لا أحد يملكه لأنه داخل لغتنا. لا تسألي عني. ليكتبوا مرضهم، فهم لا يعبرون عن أي شيء سوى عن حاسة فاسدة قتلتها الضغينة والحسد. أريد أن أبقى خارج نظامهم. ليست لي أية يد فيها. وسأدافع عن وطن آخر، فيَّ، ولن يتمكن منه أحد مهما كان مجرماً ومرعباً. وطن يشبه وطن الهنود الحمر، وطن الأقلية الناطقة، ولكنها أقلية الحق.

لم تكن غرفة النزل كافية لاحتضان جنوننا. نزلنا ليلاً إلى الحي اللاتيني، وسهرنا في بار جميل حتى آخر الليل. أردت أن أسألك: كيف تبرر غيابك كل هذه المدة عن زوجتك؟ ولكني رفضت أن أفسد لحظتنا بأسئلة لم تكن تهمني أصلاً. كنت ممتلئة بك وبحفيف الأشجار والأوراق المبللة المتناثرة في حديقة لكسمبورغ التي كانت تحتفي بعاشقيها الغريبين. لم يكن للحب وطن إلا القلب وساحات كانت تكتسب معانيها من خلالنا. لم نكن سائحين مولعين بالصور والذكريات الهاربة. كنا عاشقين ينام في قلبيهما حنين إلى الأشياء الصغيرة التي سرقت منهما على حين غفلة.

كنا نمشي تحت الأنوار المتلألئة من غبش المطر الليلي الخفيف الذي كان يغسل أوجاعنا ووجهينا المندهشين بأن شيئاً مذهلاً قد حصل بعد أن فقدنا كل أمل في اللقاء.

هل تدري حبيبي...

يوم جئتك ركبت جنوني ووضعت كل شيء ورائي ولم أسأل عن النتائج الوخيمة التي كان يمكن أن تحصل لي. وهل تعلم فيمَ كنت أفكر؟ في شيء قد يبدو لك تافهاً. لم أكن خائفة من الإرهاب، ولا حتى من تحويل الطائرة أو تفجيرها. كنت مذعورة من أن تسقط الطائرة ولا أراك. الأقدار أحياناً مريضة، تبلغ بها درجة القسوة والتشفي حداً لا يتصور.

كلما ثبتّ عيني في وجهك، وجدتك جميلاً وحزيناً بعد أن أفقدتك الهموم قليلاً من وزنك. أحبك هكذا تماماً مثلما التقينا أول مرة وأنت تبحث عن الوسيلة التي توصل لي بها حبك. ولم أكن أنتظر إلا ذلك. قبلتك حتى قبل أن تقولها سماعياً. كنت كفاكهة ناضجة، سقطت بين يديك قبل أن تستدرجني بلغتك المجنونة نحو قلبك.

أنا أيضاً كنت مسكونة بك.

كنا نشرب كأساً مسروقة وهادئة. سألتك عن حالك. رفضت أن أتوقف طويلاً عند المنفى الذي بدأ يخط مسالكه على وجهك الطيب.

– كيف حالك حبيبي في هذه المدينة؟

– لا أدري بماذا أجيبك؟ مرتاح، وقلق وحزين، ومنكسر، وحي إلى أقصى الحدود. أعمل في المعهد العالي للأساتذة بشارع دولم[٣٨]، وهو أهم معهد تخرجت منه كبار الشخصيات التاريخية. أعتبر نفسي محظوظاً إلى أقصى حد.

لأول مرة أشعر ونحن بباريس أننا تحررنا من العسس والجلادين. لم نكن في حاجة إلى وقت كبير لنستعيد أشواقنا القديمة. الغريب أني في كل



الليالي التي تلت لقاءنا لم أشعر بأي خجل نحوك. على الرغم من خوفي من ذلك. وجدت الوجه، والنظرة، والجسد، والحركات، والجنون، والعبث الذي عشقته فيك. المرة الوحيدة التي شعرت فيها بغيرة قاسية، هي عندما زارتك طالبتك آنيا، في مقهاك المفضل: Le Départ. روسية ممشوقة باستقامة، بعينين خضراوين قاتلتين، وأنوثة فائضة، وطراوة استثنائية. جاءتك، وعانقتك بحنان مثير، قبل أن تقدمني لها. اقترحت عليها أن تشرب كأساً معنا ولكنها اعتذرت بلباقة. سلمتها بعض الوثائق وأنت تؤكد لها أن لقاءكما قد تأجل وأن الملاحظات حول رسالتها الجامعية ستجدها في الملف. كنتَ تحادثها، بينما كانت تنظر إليك بشهية، ولم تكن قادراً على إقناعي ليلتها بأن لا شيء بينكما. قلت لك:

– لو كنتُ رجلاً في مكانك، سأكون غبياً أن أترك جمالها يذهب أدراج الرياح.

ضحكتَ كعادتك في المواقف المهبولة التي أفاجئك بها:

– ولكنك لستِ رجلاً، فأنت أجمل من ذلك كله، أحلى امرأة، وألذ أنثى، وأحر سيدة في الدنيا. ماذا تريدين أكثر. من المثير للأسى أن يبرر رجل وضعاً لا يستحق أي تبرير.

– أنت تعاملني على «قد عقلي». تحبها.

– آنيا شابة ذكية ومليئة بالحياة، ولكني أحبك.

في الليلة نفسها استعدتك كما اشتهيتك، وتركت كل شيء يمضي وينسحب. لم أكن مستعدة أن أضيع أجمل الليالي التي منحتها لي الحياة. وبدا لي أحياناً أن حياة واحدة بكل هذا الألق لا تكفي، وأحتاج إلى حياة ثانية لكي أستدرك كل الحماقات التي ضيعت لي حياة كان يمكن أن تكون كما اشتهيتها. الغريب أن آنيا التي تتكلم الفرنسية بلكنة مغربية، انطفأت من ذهني فجأة. كنت أعرف أنها كانت مزيجاً من أم روسية وأب إيطالي، ولكن كان يكفيني أنك كنت تحبني. ثم لا شطط. فقد كنتَ سخياً وجميلاً ورائعاً،

ومن حقها أن تحبك. وجدت الحل السحري الذي يمكنني من ربح أي نفس صغير من لحظاتنا المسروقة.

كنت كمن يعيش يومه الأخير قبل الاندثار.

كان النزل جميلاً وبسيطاً وحميمياً؛ في عمق سان ميشال. ربما تكون قد التقيت فيه بطالبتك الروسية أيضاً؟ رفضت أن أسألك هذا السؤال. كانت غرفتنا تقع في الطابق الثالث. كان دافئاً. لم أسألك كيف تبرر غيابك عن زوجتك وأنت معها في المدينة نفسها لأني كنت أعرف الإجابات، وكنت في أعماقي غاضبة منك. على الرغم من أن الزمن علمني أنك لم تكن مخطئاً بالقدر الذي تصورته في البداية، برفضك الزواج مني. ربما كان البعد الذي بيننا هو صمام الأمان الذي جعلنا نحافظ على هذه الشعلة متقدة بالجنون فلا تخفت أبداً. نقضي الليل في المراقص. ألتصق بك لدرجة الرغبة في تعريتك أمام الجميع. كانت موسيقى فوستو تمنحنا هذه الشهوة الكبيرة للذهاب إلى أبعد من رقصة سلو جميلة وهادئة كأننا كنا نخاف من أن تسرق الحياة منا. وقد نقضي وقتاً طويلاً في أجمل بارات المدينة. كنت تشتهي الويسكي، وكان الليمونشيللو الإيطالي الذي فتحت عيني عليه يجللني بالخراب الجميل. أستلذه مثلما أستلذ قبلة، أو بشرة جسدك الناعمة. وينتهي بنا الفجر في فندقنا الباريسي الصغير. كنا نحس أنه بيتنا المسروق من القتلة. ثم ننام طويلاً قبل أن أستيقظ وأنا لا أصدق أنني هنا. أنام داخل ذراعيك، وعلى صدرك. هنا بالضبط حيث يجب أن أكون. أتحسسك برؤوس أصابعي. ألمس بحذر ظهرك المخربش بأظافري لكي لا أوقظك من غفوتك الجميلة. أتساءل بيني وبين نفسي: ماذا سيقول حبيبي لزوجته الذكية جداً؟ كيف سيبرر هذا العطش الجسدي؟ أعرف توحشي الجميل كما كنتَ تسميه. لا أدري إذا ما كان الإرهاب قد حرر صرخاتنا، ولكنك لم تعد تضع أصابعك كلما شهقت من سحر اللذة، على فمي وتقول كما تعودت: «ششششششششششت»... دخلت بين ذراعيك ثم نمت على صدرك من جديد. لا شيء يؤثث الغرفة إلا أنفاسنا المتقطعة وأنيننا الحاد الذي يخرج من أعمق نقطة في القلب والجسد.



هدوء كامل يخيف أحياناً. لا رصاص، ولا قنابل، لا موت ولا وجوهاً كريهة ولا قتلة.

يوم عدت إلى أرضي التي ظلت تميد بي، لم أصدق. لم يكن ممكناً أن نبقى مع بعض أكثر من أسبوع. صحيح أني بكيت في المطار مثل طفل صغير بفصل عن أمه، وشعرت بشيء من العبث في حياة كنا نريدها صعبة لكي نتمكن من عيشها، ولكني كنت مشبعة بك بشكل لم أتصوره من قبل. كيف يؤثث جسد امرأة وكيانها وأنفاسها المتقطعة برجل. برجل واحد على الرغم من أنه لم يكن هو الأول في حياتها. بعده يبدو لي أني أصبحت عاجزة أن أكون أنا كما أشتهي نفسي أن تكون.

عدت بكآبات صغيرة. عندما ودعتك في المطار، كنت متكسرة.

فجأة عندما تمددت برأسي على كرسي الطائرة، وبدأت أستحضر لحظاتنا الجميلة، استيقظ فيّ وجه أنيا، الطالبة الروسية الجميلة. قلت في خاطري، يجب أن أنساها لأتمكن من العيش. ثم غرقت في كل تفاصيلنا المجنونة. وكنت سعيدة لأن الحاجز الوحيد الذي كان يفصل بيني وبينك كان هو البحر، مجرد بحر لا أكثر وساعتان من الطيران.

لم يستطع بُعدك أن ينسيك المدينة ووجهي. وعلى الرغم من أنك رتبت حياتك في باريس من دوني، تقول لي إنني من يشدك إلى هذه المدينة. ولا أطلب سوى أن أصدقك.

سأغيب عنك حبيبي، وسأتدفأ طويلاً بظلك. أحياناً أسأل نفسي لماذا تأخرت كل هذا الزمن لنلتقي، ثم كنجمتين هاربتين، نفترق بسرعة غريبة في سماء لم تعد قادرة على تحمل جنوننا. كنتَ فيك كبذرة شمس، وكنتَ في كنفس الله. كلما تذكرتك عدت إلى الكمان بلا كلل، وعزفتُ حنيني البعيد عنك.

هل تدري أن ما يحصل لنا هو أجمل شيء يمكن أن يحصل بين كاتب مجنون وعازفة كمان تعيش على متن سحابة هاربة؟ هل تدري يا عمري

كم نحتاج إلى بعض؟ ربما يكون أصعب شيء في الحياة وأكثره قسوة، أن تحب رجلاً ليس لك، وأن تعيش إلى الأبد في الظل، وأن تتناثر لغة ونوتات موسيقية هاربةً، وتتماهى مع الكلمات والإيقاعات التي بقيت من لقائك الأخير به. لكنك هنا في القلب حيث كل شيء يتحول إلى نثار من النور الهارب.

أحبك ولست في حاجة إلى شيء آخر. يكفيني أني في قلبك.

في انتظار ابتسامتك وإشراق وجهك الهارب دوماً.

الجزائر، صيف ١٩٩٤

أيها المجنون، أريد لك قدراً أجمل... [39]

شوقي الذي فيَّ
نشوتي البعيدة.

حبيبي،

أنا في بيروت. وصلتها البارحة محملة بلقائنا الأخير في باريس. كان يجب أن نلتقي كي لا نموت شوقاً. لو لم أرك ولو في ليالٍ خاطفة وساحرة، لاشتعلت الحرائق فيَّ. أنا جد ممتنة لقدر يمنحنا صدفاً نصنع بها عرساً من النور، وعرشاً من الفرح المؤقت، وننسى أن موتاً ينتظرنا في الطرقات وفي المسالك العصية.

تمنيتك هذه المرة أيضاً أن تكون معي، ولكن سفرك مع وفد البرلمان العالمي للكتاب إلى مدينة استراسبورغ مع بول سوينكا، وسلمان رشدي، ومحمد ديب، ودريدا، للدفاع عن حق الكاتب في الحياة، سيَحرمني منك مرة أخرى. ضحكتُ عندما أضفت إلى القائمة الثقيلة، الشيخة الرميتي! قلتُ لك يومها: بالسخرية القدر؟ قلتَ: لا. تأملي جيداً لماذا غادرت الشيخة الرميتي أرضها التي أحبتها حتى الموت؟ نحن لا نحب أنفسنا كثيراً، ولا نحب من هو منا لأن به جزءاً من صورتنا الخفية. لماذا لم تعد الرميتي إلى أرضها البربرية التي أنجبتها؟ لقد سرقوا منها حقها في التعبير الحر، التعبير عن الحب، وعبث الحياة، واللذة المسروقة والسخرية من النفاق الاجتماعي المستشري! وجدت نفسها فجأة على حدود مدينة لم تكن تعرف لغتها ولا كتابة حرف من أبجديتها. لن تقول شيئاً ولكن الرميتي مستضافة لتغني ألمها العميق وسنعرف كم ما تزال تلك النخلة العظيمة حية على الرغم من سنواتها السبعين. ولدت في ١٩٢٣. ستملأ قلوبنا حنيناً، وستكشف عن كل جبننا وساديتنا المتوغلة فينا. لو بقيت هناك لقتلها المعتوهون

والجهلة الذين استباحوا مدينتنا. مازلت إلى اليوم أتذكر أغنيتها المجنونة: شرك.. قطع.. التي غنتها في ١٩٥٤. ضد وهم غشاوة العذرية التي كانت الشغل الشاغل لأعراس المدن والقرى. وأتذكر اسطواناتها المعروفة بباتي-ماركوني [40] التي رسم عليها كلب ينصت إلى مكبر للصوت. كنا نسمعها على الفونوغراف القديم ذي اليد المحركة للأسطوانات.

تمنيت أنا أيضاً أن أهرب نحوك مرة أخرى، ولكني في لبنان مع الفرقة الفيلارمونية التي أعيد تركيبها، بدعوة من أوبرا بيروت. إنهم يريدون أن يبدؤوا حربهم بالنور واللون واللغة والمسرح. ينسى الجميع أن حرباً أخرى تأكلنا اليوم وتسحق ذاكرتنا وأبناءنا. حروب يموت فيها من لا علاقة له بها. حروبهم، ودمنا ولحمنا.

كانت الفرصة جميلة لأتنفس هواء آخر، وأحلم بك خارج نار الحرب الأهلية الطاحنة التي أبادت كل شيء. أصرخ. فيتشتت جسمي رماداً. ماذا ربحوا من قتل رجل مثل عمي عبد القادر علولة. كان يحب الشمس والفقراء، ويمسح كل صباح بيديه الناعمتين، على وجوه الأطفال المرضى بالسرطان الذين لم ينتظروا كثيراً بعد موته، فقد لحقوا به الواحد تلو الآخر في صمت لم يشعر به أحد إلا ذويهم.

أريد أن أنسى كل هذا الرماد الذي يلفني، ولا أتذكر شيئاً غيرك.

عمري وحبيبي،

منذ زمن بعيد لم نتراسل. وصار تواصلنا شبه مستحيل. أنت اخترت أن تنتحر بطريقتك، وأنا اخترت انتحاراً موازياً لا أريد أن أندم عليه مطلقاً. زيارتي الأخيرة إلى باريس، تركت في حلقي مرارة. Un goût amer d?inachevé. قبلت خروجك على مضض، لأني كأية امرأة عاشقة، كنت أريدك أن تكون معي، نعيش ونموت في الفراش نفسه، لكن القتلة شاءوا لنا مصيراً آخر. ولأن الخيارات كانت ضئيلة، ومحدودة جداً. ماذا كان بإمكاني أن أفعل غير الدفع بك نحو أنفاق المنافي المظلمة؟ في أعماقي كنت واثقة من قدرتك على صنع حياة أجمل من فراغات الخوف. وأنا أستعد يوماً للدخول إلى

وطن مجروح، تساءلت في سري الخفي، هل وطننا معنا أم ضدنا؟ فنحن، حتى عندما نتفادى الموت، نموت مبكراً بالأمراض التي تنام فينا طويلاً قبل أن تفاجئنا وهي تقهقه من سذاجتنا، وحتى لا نسبب لها ازدحاماً كبيراً بوجودنا المؤقت. نحلم دائماً أن نظل صغاراً ولا نؤذي، في أسوأ الأحوال، إلاّ أنفسنا، لأننا عندما نتعدى عتبة الطفولة، نموت.

أيها العزيز على القلب والذاكرة.

أحسدك على لغتك المجنونة. على الصحو الذي تكتب به رسائلك. فأنا منذ زمن بعيد لم أعد صاحية، بين عيني أنت ومايا التي لا تنام إلا في حجري. فقد التصقت بك كأنفاسك ودمك. أفتقدك كثيراً داخل هذا الفراغ المهول بحجم وطن. أحبك، ولا أدري لماذا عليك أن تتحمّل حماقاتي الكثيرة. أنا أعرف أخطائي جداً. أحبك، وعندما نحبّ نصبح أنانيين جداً. إنك تقتحم عليّ بقوة كبيرة، كل رسائلي اليائسة التي أكتبها.

كنتَ تقول لي دائماً عندما نشرب كثيراً وتتألق كعادتك: حمّلتني مسؤولية الخراب. ها أنا ذا أحملك مسؤولية الحياة.

ها أنا ذي اليوم أيضاً، أقول لك الكلمات القاسية ذاتها، إنني أحملك مسؤولية الخراب الكلّي. فأنت تدفعني بقوة صمتك إلى ملامسة النار كالكاهنة وسط أدخنتها المقدسة، وقطف تيجانها، ووضع شعلتها داخل كفّي أو قلبي.

الحياة هنا صعبة ولكنها ليست مستحيلة.

هل أخفي عنك أحزاني وآلامي؟ بعدك يقتلني. أعطني المفاتيح ودعني أمضي نحو حتفي. فأنا متعبة وأريد أن أنام قليلاً. سأخرج، ولا داعي لأن أغلق الباب ورائي. قيامتك لا تملك باباً. مشرعة داخل فراغات الخوف والجنون. عصياني الكبير أن أحبك. وعصيانك الأكبر أن لا تسمع إلاّ إلى انتحارك. من حقي أن أحبك للحياة والدنيا. ومن حقك أن تكون مسكوناً بشيء شفاف اسمه اليأس. ولكني متعبة ولهذا أقول لك، أعطني مفاتيح

القلب لأرميها للمرة الأخيرة في البحر، ودعني أخرج. هذه النار التي أشربها يومياً، صارت تؤذيني كثيراً ولم أعد أملك طاقة إضافية لتحمّلها.

أعذرني. أنا أهذي كثيراً ولا أملك غير ذلك في الوقت الحالي.

اكتب. اكتب لي أي شيء تراه جميلاً. أريد أحاسيسك في الكتابة وليس واجباتك. أعرف أنك تكره فعل الأشياء من باب الواجب. ألم تقل لي ذات مرة، إن الحب عندما يصبح واجباً، من الأحسن التخلّي عنه نهائياً؟ اكتب. أوَ ليست الكتابة مغامرة داخل الحقيقة والوهم وضد كلّ المستحيلات؟ ها أنا ذي أركب معك الجنون والمستحيلات نفسها كلما شعرت بالحاجة الماسة إلى وجودك بجانبي داخل هذا الخوف.

في الماضي القريب، كنّا نتحدّث بشوق وحزن كبيرين عن أصدقائنا الفلسطينيين الذين سُرق منهم وطنهم وحقهم في الحياة. كنّا نتحدّث عن أصدقائنا العراقيين الذين شردوا قبل الحرب ودُمّرت أشواقهم وأحلامهم، وها هم اليوم يعبرون صحاري التيه القاسية، من مات قهراً مات، من رجع إلى وطنه بعد الإعفاءات الوهمية، رجع، لينتحر هناك بعد أن نخرته سنوات المنفى. كنّا نتحدّث عن الشيليين، والمغاربة، واليمنيين والكوبيين وغيرهم، ولم نكن نعرف أننا كنا في قائمة الانتظار. اليوم، يبدو أن كلّ الجبهات صمتت. ونسينا الجميع في زحمة الأحداث المتسارعة. عندما جاء دورنا في المأساة، وجدنا أنفسنا وحيدين، معزولين، مقتولين في دواخلنا. كلما اشتقت إليك، ولم أستطع مقاومة شوقي، أنزل إلى المقهى الإسباني، السينترا بوهران، فقط لأرى ابتسامتك ووجهك وضحكاتك وأشم بعض رائحتك. تسألني عائشة عنك، وتجلس قبالتي على كرسيك بالضبط، وهي تصر علي بلكنتها الطفولية: هنا كان يجلس واسيني إذن؟ أتمتم: هنا كان يجلس الرجل الذي منحني الحياة بيد والجنون باليد الأخرى. لقد تغير المقهى كثيراً. أحياناً يكون فارغاً، وفي أحيان أخرى يصير مزدحماً بالبشر. بشرنا نحن تحديداً. أراهم مكدودين منكسرين على طاولات قديمة مثل أواني رخامية عتيقة. صحفيّون. سينمائيون. كتّاب. مسرحيون. أساتذة الجامعات. بسطاء... يتحدثون عن المشاريع المكسورة، عن وضعياتهم الادارية، عن البطالة، عن

تذكرت، صديقك الشاعر بوبكر، التقيت به في بيروت وهو يستعد للمجيء إلى باريس. رجل طيب جداً، ومجنون مثلك، ولكن تنقصه بعض النباهة. الأحداث والخوف والحذر الزائد، ضيّعوا له بعض ردود فعله التي كنّا نعرفها فيه. توقّعت أن أراه قبل سفره، ولكنه سافر بدون أن يخبرني. كنت أريد أن أرسل معه بعض الأشياء لك ولربما، ولكن يبدو أنه نسيني ثم، إنه مهبول بعض الشيء ويصطدم وهو يمشي بكل شيء من حوله بما في ذلك السيارات وأعمدة الكهرباء. فكيف أحمّله رسالة مثلاً، مثقلة بشوقي إليك؟ يدهس الناس ويعتذر في كلّ خطوة يخطوها. وعندما يريد تفادي هذا الحرج، يفضل أن يجلس في أقرب مقهى حتى تقلّ حركة المارة، ولكنه بمجرّد جلوسه، يُسقط، بحركة لا إرادية، كلّ ما على الطاولة. فيحمّر ويعتذر. مسكين بوبكر. يبدو أنه أصبح شخصية ضرورية لهذه المدينة المقتولة بالحرب الطاحنة الأخيرة.

حبيبي، قلّل من خطايا النّبيذ والويسكي قدر الإمكان. اكتب لي دائماً وأنت سكران فتطرّف مزاج حبرك في مثل هذه الحالات يغريني بالكتابة إليك.

أتساءل مثلك داخل هذه العزلة القاسية عن خراب ما يحدث لنا ولأرضنا. لا شيء، سوى أن أصدقاءنا ما يزالون يموتون بالرصاص والذبح، ويقتلهم هناك، المنفى وقسوته. لم نتهيأ لمواجهة هذه الحالة الفجائية ربما لأن المثقف مثل الحاكم تماماً، كانا ينامان في فقاعة وطنية ملونة، ويبقين لا يحسدان عليه.

هذه الليلة لم أنم مطلقاً. لا أدري لماذا، ربّما لأنّي انتظرت تليفونك الذي لم يأتِ على غير عادته على الرغم من وعدك.

وأنا أكتب، أسمع الآن نقرات الأمطار على الزجاج الخلفي المطلّ على شارع صغير في المدينة. اسمه شارع المتنبي، الذي كانت تعيش فيه فنانة يونانية اسمها ماريكا لم نعرف عنها إلا أنها كانت غانية، بينما يقول العارفون عنها أنها ناصرت الثورة العربية ضد الأتراك عندما كانت في بداياتها. لا يعبره النّاس كثيراً ولا السيارات، وهو بذلك يوفر متعة الصمت

والعزلة. الغرفة التي أنا فيها دافئة، والنزل قريب من الأوبرا، لكن برودة ما تملأني. هل هي الوحدة القاسية، وحدة العاشق الذي تعوّد على عينيك وقلبك وسماحتك، وحدة التوحيدي الذي نفره الأصدقاء والأقرباء الصغار والكبار، كما يقول أخوك عزيز.

تسألني ماذا أفعل الآن؟ لا شيء. أو على الأقلّ لا شيء يستحق الذكر. أقرأ بعض الكتب في غيابك أملأ هذا الخواء الذي يقهرني دائماً. ومن قال إن الخواء سهل؟ إنه الفترة الوحيدة التي نسمع فيها تكسر كلّ الأشياء الثمينة في دواخلنا. أحياناً أقفز من نومي كالمذعورة أبحث عنك. أينك؟ أين تختبئ الآن؟ قبل قليل كنتَ هاهنا في الفراش نفسه. ثم أهدئ عصفور قلبي. أصمت وأنا أتأمل سقف هذه الغرفة الصغيرة. أستحضرك بكاملك. لا أستطيع تحمّل كلّ ذلك وحدي.

تصور! كلما سمعت خبراً يأتي من وراء البحر، كلما رنّ التلفون، أتخيّل أبشع الصور، مع ذلك أظلّ أرفض هذا المصير وأخاف عليك. لم نُصنع لهذا القدر. أنت وحيد الآن كبقية الأصدقاء هناك. في عالم يشتهي أن يكون على غير ما هو عليه، يريد أن يتغيّر، ولكن هل سيسعفه القتلة والذين يقفون عند العتبات، ينتظرون الفرصة المناسبة لفتح قلوبنا الممتلئة بالنور، لملئها بالظلّمة والقسوة. أرفض معك هذا القدر. فهو ليس لنا.

حبيبي،

ماذا تفعل الآن؟ تذكرت؟ هل لي أن أسألك بدون أن أربكك؟ كيف هي آنيا، طالبتك الروسية الجميلة؟ لا تزعل مني! هي جميلة وأنا أخافها وأخافك عندما تتدحرج في أجمل غيمة بنفسجية بعد رشفات الويسكي! لا تهتم عمري. أحبك وأعرفك. ولهذا لغيرتي ألف مبرر. هل لي أن أطرح عليك هذا السؤال الكسول؟ كيف تعيش هذه القسوة؟ كيف تخرج؟ كيف تدخل؟ كيف هو طعم الخوف في حلقك الآن؟ بماذا تشعر وأنت تغادر البيت صباحاً؟ هل مازلت تخرج كما كنتَ تفعل هنا، واضعاً يدك على قلبك أو في جيبك، موهماً كلّ من يراك بأنك مسلّح؟ رأيتك في باريس، كل حركاتك ما تزال كما كانت، تجلس مواجهاً الباب في المقاهي، تتأمل الوجوه التي تدخل وتخرج!

الخوف، الموت المجاني، محوّطين بالجرائد الوطنية ذات العناوين العريضة السوداء، وأخبار الموت اليومية. يعيشون بتوقيت الشوارع ووطن يأكل نفسه. يحزنون. يحتسون البيرات الرديئة والرخيصة. يدخنون السجائر الوطنية لأنها ما تزال رخيصة. يتناوشون، ثم ينسحبون باتجاه ما، هم أنفسهم لا يعرفون وجهتهم أحياناً. أبحث عنك. أبحث عن شعرك وقامتك التي ترفض أن تنحني أو تكسر. فلا أجدك. أشتاق إليك. أعشقك وأشتهيك. غيابك يؤذيني. لا شيء فيَّ سواك. سوى لغتك ودهشتك الطفولية. وها أنت تنسحب مخلفاً وراءك إنهاكات وجراحات من الصعب ترتيبها الآن. سن الخوف وبداية الانحدار نحو النهايات الفجائعية. لقد انسحب كلّ الذين كنّا نحبّهم، وانطفأت كلّ العيون الطيّبة. لقد بدأت رحلة اليأس الكبير بكل مخاوفها.

أيها العزيز على القلب والذاكرة.

هل تصدق أني من فرط خوفي عليك، لم أعد أتقن الكتابة إليك. ربّما لأنّي لم أعد أجدُ ما أقوله لك سوى أنني أذكرك كثيراً، كثيراً لدرجة أنّني أحياناً أجد نفسي أعيش بتوقيت كلّ هواجسك اليومية الصغيرة. من يوصل ريما إلى المدرسة؟ من يأتي بها من هناك؟ أما تزال تتدرّب على الرقص والموسيقى كما كانت تفعل؟ هل تجد وقتاً للتفكير في هذه الأشياء. من يقوم بإحضار حاجاتك في مدافن الغربة؟ من يُحضر لك بريدك؟ بمن تلتقي؟ كيف تعيش وتنام وتتلقى أخبار الموت الأحمق؟ وجودك خارج الوطن يشعرني بعقدة السعادة، وربّما عقدة العيش بهناء بعيداً عن الخطر، بينما اخترت أنت هذه الحياة المجنونة. لماذا أعود في كلّ مرّة وأطرح عليك هذه الأسئلة الساذجة التي استهلكناها بدون أن نصل إلى نتيجة؟ سبق أن أجبت عن ذلك كلّه في مقال قديم كتبْتَه عن زميلة شاعرة انتحرت في ظروف غامضة. قرأته مرّة ثانية بالمصادفة وأنا أفتش عن كلماتك هنا، وهناك، وكأنك تكتبه اليوم، لكن دون أن تعي ما كنتَ تقوله من فرط عنادك المجنون، وتماديك في استدراج القدر إلى حماقة لن أغفرها لك في نهاية الأمر.

ربما كان ذلك وهماً. ربما كانت اللغة ذاتها وهماً، ولكن من قال إن بقية القيم التي نتوازن من خلالها ونعطي بها لحياتنا معنى من المعاني، ليست

أوهاماً بدورها؟ ما معنى الحب؟ الكراهية؟ النضال؟ الخلود؟ المقاومة؟ الكتابة؟ العدالة؟ الشيء الوحيد المؤكد في مغامرة الإنسان، هو الموت. الموت فقط. الباقي مجرد احتمالات طارئة.

وها نحن نموت داخل العزلة والكلمات.

أيها المجنون، أريد لك مغامرة أجمل وأريد لأطفالنا قدراً غير هذا. سمعت اليوم، بالصدفة، من صديقة مشتركة تقيم في بيروت، أنك ستُعيَّن وزيراً للثقافة في الحكومة القادمة! أنا لا أمزح. الخبر نزل في أغلبية الجرائد العربية. وسمعت كذلك أنك رفضت، وكنت على يقين أنك ستفعل ذلك وأنك لم تحدثني في الموضوع لأنه بالنسبة لك محسوم. أنت والإدارة اثنان. كما كنت تقول دائماً. قد يضغطون عليك ويصورون قبولك نضالاً وطنياً. لا ترتكب حماقة كهذه. ليذهب جميع سياسيي الجزائر إلى الجحيم، وليبحثوا لهم عن آخرين غيرك يُهدونهم وجاهة هذا الموت المجّاني. من كلّ قلبي أتمنى أن ترفض هذا القدر الذي يريدون زجّك فيه. أنت أكبر، ولا أريد لبراءتك الطفولية الكبيرة أن تقهر وتختطف وتختصر في ربطة عنق، وبدلة رسمية. أعرف أنك في الحقيقة لا تملك إلاّ أن تضحك عندما تسمع مثل هذه الأخبار المضخمة أكثر من حقيقتها. أتذكر كل كلمة قلتها لي: يا عمري، أنا فاشل في إدارة نفسي وشؤوني الصغيرة، فكيف أفلح في إدارة مؤسسة كالوزارة، هي أكبر منّي. ثم إن طموحي الكبير أن أظلّ عاشقاً حرّاً، أكتب الكتب، وأسافر، وأنزل إلى البحر كلما رغبتُ في ذلك، بدون أن أضطر كلما تحركت، إلى أن أبحث عن حرسي وعسسي. المسألة إذن منذ البداية كانت محسومة ولا أدري كيف نزلت في الصحافة؟

لك وجاهة التاريخ حبيبي، والأدب وكرسي شاغر في قلبي ينتظر مجيئك.

أيها الغالي،

ليس هذا ما أردت كتابته إليك، ولكننا، نجلس أحياناً لنكتب شيئاً، فنكتب غيره. إنها حماقة الكتابة. أمنيتي الكبيرة أن أقرأك دائماً وقريباً. هاه!

تضع يدك في جيبك الأيمن وتتفرس الوجوه الغامضة! يبدو أنك نقلتَ خوفك معك. كيف حالك وأنت تواجه الموت كلما نزلتَ إلى المدينة؟ أنا بدأت أنسى هذه الحالات التي كانت مشتركة بيننا. نوع من التبلّد يثقل رأسي. فأنا لم أُخلق لهذه الراحة القاسية والفتّاكة. هذا الخوف الذي كنت أعيشه معك كلما دخلنا عمق المدينة أو غادرناها. صرت هنا لا أتذكره إلاّ عندما أكون وحيدة في شارع خالٍ، فتستيقظ فيّ كلّ حساسياتي القديمة. أشتاق، أتدحرج معك نحو كلّ الأماكن التي كنّا نحبّها، حتى ولو كان ذلك بخوف كبير. أقبل أن أختصر المدينة داخل سيارة حتى لا يرانا القتلة، لكن شرط أن نكون مع بعض.

فيما تفكر الآن ؟ هل ما تزال في قلبك تلك المرأة التي عبرت ذات يوم جهنّم بكاملها لتصل إليك وهي لا تحمل شيئاً مهمّاً سوى بعض الأحرف وأوراقاً بيضاء ومداداً أسود؟ هكذا نحن دائماً. عندما نلتقي في حاضرنا، نحرقه بالأسئلة عن الماضي ونرهقه، وعندما يصير هذا الحاضر ماضياً نتشوّق له ولأصغر لحظاته، بحنان كبير.

هل هو قدر العاشق أم قدر الكتابة ذاتها، التي لا تستقرّ إلاّ على الخوف والنار والرهبة؟

حبيبي...
ثم ماذا حبيبي لو تحدثنا قليلاً؟
أنا مشتاقة لصوتك وللحزن المتخفي في كلماتك .
متعبة ولا أريد أن أرهقك.

لا شيء بعد كلّ هذا، سوى أنّي تمنّيتُ أن أكون معك في عزلتك لنصدق ولو لأيام قليلة، أننا عاشقان شجاعان، ولكن هذه المرة كذلك، ستكون وحدك الكبير، وأكون أنا أثناء ذلك أحضّر مقاطعي الموسيقية الأخيرة التي سأعزفها اليوم على مرأى أكثر من ألفي شخص مشتاقين لشيء من الموسيقى بعد سنوات الجفاف، في أوبرا بيروت. وعندما أعود إلى أرض الحرائق سأدخل في رتابتي: تدريس الموسيقى، التي لم أعد أجد فيها أية رغبة ولا متعة، مثل الدواء تماماً، والتفرّغ قليلاً ليونس الذي بدأ يكبر بسرعة

ويرتبط بقوة بوالدتي التي وجدت فيه تعويضاً عن مفقوداتها الكبيرة في الحياة. وتحضير البيت، وتنظيفه، وغسل الصحون الصغيرة، ثم الانزواء نحو النافذة الخلفية لتأمّل الشارع الواسع، والتمتع باسترجاع وجهك، ومدينتنا والكتابة.. الكتابة دائماً. والتفكير فيك وعزف آخر الألحان التي كان والدي ينام عليها.

أرأيت؟ الكتابة كالمتعة، نهب دائم وحيلة. فالحياة تعلمنا أن نكون قراصنة الخوف.

قبلاتي.. قبلاتي.. قبلاتي..

مريم التي تتمنّى لو أنها لا تحبك جداً .. جداً .. جداً... ولكن...

بيروت خريف ١٩٩٤

-١-

تأملت أصابعي، فقد شعرت بنوع من الوجع. لا شيء.

المهم، لا دم في كفي.

كلما رفعت رأسي ارتسم الوقت أمامي جلياً. أرقام حمراء على أرضية سوداء. كل شيء أصبح الآن واضحاً.

كل شيء في موقعه على الرغم من الزلزال الذي كان يحرك كل داخلي. الكمان ابتعد قليلاً إلى زاوية المكتب وكأني دفعته بمرفقي من دون أن ألحظ ذلك إلا الآن. المسدس غير موقعه قليلاً، وأصبحتْ فوهته موجهة نحو أوراقي، وكأنه يترقب اللحظة المناسبة ليمنح الموت بسخاء لكل ما لا يروق له. ما أكثر الكلمات والأوضاع التي لا تعجبه.

ربما كان الغبن الكبير الذي يحتل كامل جسدي، هو الأساس في هذه الوضعية الشاذة والغريبة، والتي قد لا يصدقها عاقل.

أريد أن أقف على واجهة الطريق الخالية في هذا الوقت، وأصرخ بأعلى صوتي:

- «لست مريم كما أرادني واسيني، ولا حتى كوراثون ميا التي ابتدعها من عطر أجداده الأندلسيين، ولا مادري ميا، التي ناداني بها في زمن ما، عندما اشتاق لرغوة حليب أمه. ولا حتى ليلى كما كان يناديني والدي كلما اشتاق لسماع صوتي أو عزفي على كمانه الجميل. وكما اعتاد واسيني أيضاً، أن يناديني. قد لا يثير اسمي الشيء الكثير في من يسمعه مثلما حدث لمريم التي سرقت كل شيء مني، ولكن هذه هي أنا على صورتي الحقيقية، ليس كما ارتسمت في اللغة والأوراق».

نسمة من البرد تسربت من مكان ما. الوقت يزحف بثقل. مازال لدي متسع من الوقت للحديث إليه وهو يضع قلبه وذاكرته المتعبة بين يديه، لغتي الوحيدة، صراحتي القاسية، ورسائلي وقلبي الذي يرفض أن يستسلم لغي الأوهام.

- «لا أدري إذا ما كنت قد بدأت، أم مازلت في المقدمات المبهمة؟... طيب».

شعرت مرة أخرى ببرودة المسدس ولكني لم أعره أي انتباه. حتى أني بدأت أشك في أني أنا من وضعه في هذا المكان. قد تكون الصدفة الملعونة التي عودتني على أكثر الهزات غرابة. في كل مرة ألاحظ أن فوهته قد غيرت وجهتها. المؤكد هو أنه الآن بدأ يغرق شيئاً فشيئاً تحت ركام الأوراق والرسائل، والقصاصات الصحفية الكثيرة التي أخبئها مع وثائقي الخاصة.

كيف نشأت هذه الفكرة الملعونة التي أغرق فيها الآن، فكرة استرجاع اسمي وافتراضك في غيبوبة غير رحيمة.

أسترجع تفاصيلك، فترتعش فرائسي بقوة.

كل شيء بدأ بخبر صغير في جريدة الخبر اليومية، لينتهي إلى شيء غريب مازلت أشم رائحته التي تشبه الزعفران ورائحة الكافور، قلب حياتي رأساً على عقب ودفعني بقوة نحو نفسي.

-٢-

قبل سنة بالضبط، انتابني هذا الإحساس الغريب. لقد تركت كل شيء ورائي لأكون قريبة من أنينك الأخير. خفت أن تموت ولا أراك. اشتهيتك أن تموت في حضني وليس بين ذراعي زوجتك أو أية امرأة أخرى، أو وحيداً، في عزلة قاتلة.

مرضك كان يمكن أن يسرقك أو يشلك. تخيلتك فاقداً اللغة!.. المشي!..؟ عاجزاً عن تثبيت عينيك في شخص! واجماً في الفراغ، في اللاشيء، وكل ما يحيط بك مجرد ضباب. كان أقسى شيء فكرت فيه، هو أن تظل في كامل قواك العقلية، ولكن بلا حراك ولا قدرة على الكلام.

قلت لي آخر مرة، عندما زرتك في باريس، ونحن نخرج من فيلم يتحدث عن الموضوع نفسه: Le scaphandre et le papillon[41] المقتبس من سيرة

ذاتية لجون دومنيك بوبي، الذي وجد نفسه مسجوناً داخل جسد لم يعد يستجيب لأي من أوامره على الرغم من أن عقله ظل في كامل صحوه. أصيب بما سمي في اللغة الطبية بـ Locked-in syndromeالتي تعني حرفياً: السجين داخل نفسه، الذي يخسر فيه المصاب ملكة الحركة والتكلم، وحتى التنفس، إلا بأجهزة مساعدة. ويضطر إلى حفظ أبجدية بترتيب غريب وجديد، من الأكثر استعمالاً إلى أقلها: E S A R I N T U L O M D P C F B V H J Q Z Y X K W ويركب جمله بعينيه. تقرأ المدربة عليه الأحرف، وعندما يأتي الحرف المطلوب لتركيب الكلمة يؤشر بعينه اليسرى، الوحيدة التي كان يستطيع تحريكها، وعندما يريد تصحيح الغلط، يفعل ذلك برمشتين. وهكذا حتى يركب الكلمة فالجملة. الغريب أنه عندما أصيب بالإغماءة الخطيرة، كان في عزّ ارتباطه بالحياة. كان يستمع إلى أغاني البيتلز، The day in the life.

- «صعب، عمري، أن أعيش هكذا في اللاشيء. شجاعة خارقة كان يملكها بوبي لا أملكها ولا أريدها. ولست في حاجة إلى حياة يائسة».

كان واسيني يسخر من نفسه ويضحك. قال لي يومها ورأيت في عينيه جدية غريبة: لو يحصل لي ذلك، لا تترددي في قتلي. قدر غريب كان بجانبه، وربما فيه، يصغي إليه بانتباه ويضع كلامه على حافة الاختبار.

كل شيء يومها مر بذهني بسرعة غريبة.

لا أدري بالضبط من أين جاءني المثل. ولا أدري ماذا حدث في تلك اللحظة بالذات التي سبقت رنة التليفون بثانية واحدة، وانتقال يوم الخميس نحو الجمعة. رفعت رأسي نحو الرزنامة: الخميس ٢٧ مارس ٢٠٠٨. التفت نحو الساعة. لمعت شاشة المنبه بأرقامها الستة الحمراء مثلما تفعل الآن. المنبه الذي لم يعد له مكان في البيت بعدما احتلت مكانه منبهات أخرى موجودة في عمق الموبايلات الفردية لكل منا. لكني أحب هذا المنبه، لأنه هو من كان يذكرني في زمن مضى، بكل مواعيدي الجميلة مع واسيني. أقوم باكراً. أمشط شعري الذي كان يحب غزارته الغجرية، ورائحة الحناء التي

تخترقه. حتى عندما تعطل المنبه، طلب مني رياض، بعفوية الرجل الطبيعي والغني، أن أرميه، وأن اشتري غيره. كدت أصرخ في وجهه: من يجرأ على رمي ذاكرته؟ حتى «المصلّح» نفسه، نصحني بشراء منبه جديد أحسن من تصليح القديم لأنه سيكلفني غالياً. لكني أكدت له أني مصممة على دفع أي ثمن مقابل تصليحه. وهو ما فعله بعد أن رضخ لطلبي. كانت يومها الأرقام تشير إلى 00h 59mn 00s. الواحدة إلا دقيقة بالضبط. طنّ في رأسي، فجأة، مَثل غريب؟ Jamais deux sans trois لا أعرف حتى من أين جاءني، ولا السبب الذي أيقظه فيّ. طبعاً عرفت فيما بعد، سرّ كل النداءات الآسرة التي كانت تتذابح في داخلي الهش والمنكسر دوماً.

لست أدري ما الذي قادني نحو الانترنت. فتحت على يومية جريدة الخبر.

كانت عيناي المتعبتين مثبتتين على شيء غامض في الجريدة، في الصفحة الثقافية، في الزاوية الجانبية المظللة بأخبار كثيفة، فجأة شعرت بقلبي ينتقل إلى فمي.

«دخل اليوم، إلى غرفة الإنعاش، الروائي الجزائري المعروف واسيني، في غيبوبة، إثر أزمة قلبية حادة ألمت به، وهو الآن تحت العناية المشددة».

قرأت الخبر العديد من المرات، متمنية أن لا يكون المعني بالمرض هو. نتصور دائماً أن الأعطاب لا تصيب إلا الآخرين، وننسى أننا نحن أيضاً آخرون بالنسبة لغيرنا. زاد خوفي عندما بدأت أفكك الكلمات. أزمة قلبية حادة. غيبوبة. العناية الفائقة! على الرغم من هروبي بعيداً عن الحالة، لم أستطع تفادي تذكر فيلم السكافوندر والفراشة. لابد أن يكون الأمر خطيراً، قلت في خاطري وأنا أحاول أن أتوازن. يعني أن الموت أصبح عند العتبة ينتظر أية غفوة!

استعدت آخر صورة عندما التقينا. كان وجهه متعباً، علته بعض الزرقة التي لم أرها أبداً على محياه، حتى في أقصى درجات انكساره ومرضه. كان شاحباً جداً. عندما سألته:

– حبيبي، عليك أن ترتاح. إنك تتعب نفسك كثيراً بالأسفار التي لا تتوقف.

ضحك كعادته. رأيت فجأة لزعر الحمصي، الطفل المشاغب، ينسحب تاركاً وراءه مساحة من الظلال المبهمة.

– وماذا يمكنني أن أفعل بدل الأسفار؟ أن أثبت في مكان كالحجرة؟ أنتظر متى يجرفني هدير الوديان؟

– قليلاً ريثما تسترجع باقي قواك الداخلية.

– يبدو أن قدري خط بشكل نهائي. ورثني أجدادي الأسفار وانسحبوا. يصعب على من هو مثلي، أن يعيش نصف حياة.

لم أطمئن على الرغم من أنه أكد لي أن أتعابه ناتجة عن قلة الراحة وكثرة العمل في مشروعه الروائي الكبير عن العرب في ظل اتفاقية سايكس-بيكو. لقد اشتغل على مدار ثلاث سنوات بلا توقف.

أعرف أن للعمل دوراً كبيراً في إرهاقه، لكن العلامات التي ارتسمت على وجهه كانت تنذر بشيء أكبر، وربما أخطر.

لم أفكر في شيء آخر. سوى كيف أرحل نحوه في أول طائرة.

–٣–

لا يمكن.

لم أجد فرصة للاحتجاج ضد شيء غامض فيه رائحة الموت، ولكني تمتمت في محاولة يائسة لكتم صرختي الحادة وعوائي الباطني.

«ليس من حقه أن يموت بهذه الطريقة..».

الأقدار أحياناً لا ترحم لأنها كثيراً ما تأخذ مزاحنا مأخذ الجدية.

كنت أسخر طبعاً، عندما قلت له في آخر مرة، وأنا أنام على صدره كما ولدتني أمي، وكان يبدو حزيناً ومنكسراً، وقال وهو لا يدري ماذا كان يقول:

– ماذا تفعلين عندما أموت؟

ضحكتُ من كثرة المرارة، ولم أدر من أين جاءتني الإجابة:

– أسترجع اسمي فقط، ليلى، لكي أمارس غربتي براحة. مريمتك هذه لا تشبهني. كارثة، محت كل ملامحي وامتصت كل فرحي.

– غريب؟ ألم يكن يعجبك اسم مريم؟

– كان. أصبح اليوم يقتلني لأنك منحتها حرية أكبر منها. تقلدني في كل شيء، وتتفرد بكل الاستثناءات الجميلة التي لا أستطيع القيام بها.

– مثلنا الأعلى دائماً هو أكبر منا!

وكأنه كان يستدرجني نحو شيء كان يريده:

– تريد أكثر من هذا؟ طيب حبيبي، عندما تموت سأكتب عنك أجمل كتاب... لا... لا... سأفضح كل الحقيقة المتخفية وأقول إن وراء مريم امرأة حقيقية اسمها ليلى، أو ليلي. أنا. وأنشر كل رسائلنا ليتأكد الناس أني لا أقول كلاماً فارغاً. أنشر رسائلنا بكل تفاصيلها، لا مثلما فعلتَ أنت في رواياتك بعد أن مارست عليها سلطان الرقابة، وذوبتها في فعل الكتابة. لن أنقص منها كلمة واحدة. هل يرضيك هذا؟ طريقتي في إثبات هويتي الحقيقية.

استل ضحكة جميلة لمعت تحت النور الوردي المنبعث من وراء زجاجة الويسكي التي كانت في منتصفها:

– «شوفي غيرها عمري. نكتة بايخة».

كان يظنني أسخر.

– كيف لامرأة من ورق، خلقتها على مدار ربع قرن برفقتك وبرضاك، أن تكتب كتاباً، وهي مجرد لغة هاربة يصعب القبض عليها؟ من هي مريم إذا لم تكن مجرد لغة ورموز مجنونة، كل من أراد أن يمنطقها، أصيب بعدواها.

قلت له وأنا أشعر بجديته، في مزحة قلتها عابرة وغير محسوبة:

– هذا ما تظنه حبيبي. لم أعد مريم التي خلقتها من أوراق هاربة. التي ستتحدث هذه المرة، هي ليلى. الطفلة الصغيرة التي بليت بك في وهران، وغنت لك أم كلثوم وفيروز على عتبات مدرج قسم الآداب، وعزفت لك بكمان والدها القديم أجمل الألحان، ورافقتك في أماسيك الشعرية، عندما كنت تكتب لها شعراً قبل أن تهرب نحو الرواية. امرأة من لحم ودم ضاق عليها أن تظل حبيسة الورق ورائحة الحبر البنفسجي الذي تحب عطره، ولكنها تحب الحياة أكثر، ولا أحد يعرف أنها امرأة حقيقية، تحب وتكره، وتحقد أحياناً على من يدخل مساحتها المقدسة، ويحاول أن يسرق أشواقها. لها أظافر حادة لا تغرزها فقط لحظة اللذة القصوى في ظهرك، وقد جربتَ ذلك في لحمك، لكنها تدافع بها أيضاً عن نفسها عند الضرورة. تريد أكثر من هذا؟ لقد وضعتني في جسد أثقل مني كلباس الغواصين مثل جون دومنيك بوبي المسكين، أحتاج إلى كثير من الماء لكي أطفو على السطح بكلي.

– يبدو أنك فكرت في الموضوع طويلاً؟ مهبولة. لم أر يوماً مريم خارجك أبداً. بل أنت من سجنني داخل شخصية أحبها الناس كثيراً حتى أثاروا غيرتي، وما أخاف، هو أن يصبح تكرارها مملاً فيّ النصوص. يا عمري أين أنتِ؟ أين مريم؟ ألف امرأة من حبر، لا تساوي همسة واحدة من شفتيك.

قبلني لكي أسكت، ولكني واصلت في غيي الذي استهويته.

– سترى عندما تموت ماذا سأفعل؟ قد أقتلك فقط لأفعل ذلك.

– الموت بين يديك موسيقى. هرب من يقين الخوف الذي تبطن فينا طويلاً.

– سأقتلك فقط لأشعر كم أنا بحاجة ماسة إليك يا أحمق.

لم أكن جادة أبداً. مجرد مزحة هاربة لا شيء من ورائها، فلماذا تنصت الأقدار لكل حماقاتنا التي لا نعني من ورائها إلا الحب؟

أريد في هذه اللحظة، من هذا الهدير القاسي الذي في داخلي، أن يصمت، وأن يسمع فقط لدقات قلب لم يعد كما كان.

«اهدأ حبيبي، واترك كل الخبل الذي في قلبك ينام قليلاً واسمع لنشيدي الخفي: أحبك يا أكبر مهبول في الدنيا.أدرك حبيبي اليوم، أن المرض أعادك إليّ أكثر بعد أن شعرت بك تفلت من بين أناملي كحفنة ماء، ولكنه أعادني أنا أيضاً إلى نفسي التي نسيت دائماً الإصغاء إليها».

–٤–

أستعيد اللحظات وكأنها تنشأ الآن في قلبي، جارفة في أثرها كل شيء.

الكمان غاب من مشهد البيت نهائياً. ربما اندفن تحت كومة الرسائل وروائحها التي تملأ المكان. حتى المسدس غاب تحت أغلفة بعض الرسائل الخشنة والمزق الصغيرة ولم تبق إلا فوهته ظاهرة للعيان، موجهة هذه المرة صوب الكمبيوتر.

كل شيء بدأ يتضح عندما تجاوزت الساعة الرابعة والربع صباحاً.

–٥–

قبل سنة بالضبط، يوم بيوم، عندما رن التليفون من باريس، عرفت الصوت من بحته. سفيان صديق واسيني، وناشره المقيم بفرانكفورت. التقينا به العديد من المرات، وأعارنا بيته لنقيم فيه في لحظات هروبنا. كنت مولعة بالمتاحف وليس فقط المعرض السنوي الضخم للكتب. كنا نقيم يوماً في «الماريتيم»، الواقع في ٣ ممر تودور هاوس[٤٢]. بينما ننزوي بقية الأسبوع، في بيته الواقع في الطابق العاشر من بناية جديدة. بيته يحررنا من ثقل الفندق، ويمنح حركتنا بعض الحرية للذهاب نحو متاحف المدينة التي أحبها كثيراً.

– عندك خبر؟

قال وهو ينطق جمله بصعوبة على الرغم من سرعته المعهودة في الكلام.

– نعم يا سفيان. حائرة وخائفة، ولا أعرف كيف أتصرف الآن. الساعة الواحدة ليلاً. ثم أني لا أعرف المستشفى الذي يوجد فيه، ولا درجة الخطر الذي يعانيه.

– هو بمستشفى كوشان بول– سان فانسون الباريسي. على كل، لن تستطيعي رؤيته، فهو في غرفة الإنعاش، في العناية المشددة، وتحت رحمة أجهزة معقدة جداً، ولا يمكن زيارته إلا بعد أيام عندما تتضح حالته التي أتمنى أن لا تكون قد تركت آثاراً سيئة على جسده وفكره.

لم أكن أريده أن يعطيني تفاصيل عما يمكن أن يحصل له، فقد كانت صورة الفيلم الذي رأيته مع واسيني، كافية لأن تجعلني أصاب بالرعب الكبير.

– هل كان وحده أثناء الأزمة؟

سألت سفيان وأنا أصطنع هدوءاً لم يكن كافياً لإخراجي من حيرتي.

– كل شيء حدث في الجامعة مما سهل نقله بسرعة إلى المستشفى. ابنته ريما التحقت به لتكون قريبة منه، وهي لا تعرف أكثر مما نعرف، لكنها طمأنتني. زوجته في الجزائر وستصل غداً إلى باريس، وابنه باسم في كندا، وهو في طريقه إلى باريس. تخيلي مشقة الحالة! في لحظة واحدة يمكن أن يتغير كل شيء.

– غير مهم. أعطني تلیفون ريما، ابنته.

تمنيت أن لا يعطيني كل تلك التفاصيل المتعلقة بزوجته، لأني كنت منكسرة ولم أكن في حاجة إلى انكسار عميق. هي لا تحبني كثيراً، ولكن أتمنى فقط أن لا تكون قد ورَّثت ذلك للأولاد، فأنا أحبهم أيضاً. لا أحسدها على شيء، سوى على شرعيتها، والأكيد أنها تحسدني على حريتي وجنوني.

ريما، عندما سألتها، لم تضف شيئاً جديداً عما كنت أعرفه من سفيان، سوى أنها أعطتني بدقة اسم الجناح ورقم الغرفة.

كان صوتها حزيناً.

– حبيبتي. أنا «تانت» ليلى. كيفك؟

– الحمدُ لله، «تانت».

لم تتمالك، سرعان ما غاب صوتها في نوبة بكاء. ندمت أني أيقظتها فيها، على الرغم من أن واسيني كلمني كثيراً عن شجاعتها العالية. أمام الخوف الحقيقي كل الشجاعات تسقط ويتعرى الإنسان أمام هشاشته التي يقضي العمر كله في تخبئتها.

– خير إن شاء الله عمري. كيفه بابا الآن؟

– في وضع صعب. على كل حال إنهم يقومون بكل شيء لإخراجه من هذه المحنة. قالوا له إنه محظوظ بدرجة عالية، لأنه أخذ إلى المستشفى في الوقت المناسب تماماً، وبسرعة كبيرة.

– طيّب حبيبتي... طيّب... سأكلمك غداً. ما رقم غرفته؟

– هو ممنوع من الكلام والزيارات ما عدا عائلته الصغيرة!

عائلته الصغيرة! شعرت بألم عميق وبرجفة داخلية، وكأن ريما رمتني بعيداً عن كل حياة ممكنة، أو كأنها ذكرتني بوضعي الاعتباري الذي كنت أشتهيه وأرفضه! لو كانت ريما تعلم ما في القلب، لما قالت هذا الكلام الذي عذبني. أعرف أنها لا تقصد ذلك، ولكنها الحقيقة المرئية على الأقل.

– لا عليك. رقم الغرفة!

– في الطابق الثاني، غرفة رقم ٥٠.

– تسلمي حبيبتي. خلِّ بالك من نفسك ومن بابا.

–٦–

في تلك الليلة بدأت أكتب له يوميات، وأنا أعرف أنه ربما لن يقرأ رسائلي أبداً.

لم أفكر في أي شيء آخر إلا في الرحلة الجوية الصباحية الأولى التي تنطلق عند الساعة السابعة صباحاً نحو باريس. قلت في خاطري الوقت مناسب. سأكون في باريس الساعة العاشرة، وأصل عنده الساعة الحادية عشرة. ليكن. ولكن في هذه المسافة الفاصلة، بين الواحدة ليلاً والسابعة صباحاً، كان علي أن أحل مشكلة مايا ويونس. وأن أتصل بأمي لكي تبقى في مكاني ليومين، وأتصل بزوجي الموجود في إفريقيا الجنوبية لأبرر له سفري إلى باريس. ليست لدي أية فكرة! أكره الكذب ولهذا عندما أصنع الكذبة، أحاول قدر المستطاع، أن أظل في عمق الحقيقة، حتى ولو كانت جزئية. تعطيني نوعاً من الراحة الداخلية بأني كنت على حواف الحقيقة، ولكني كنت أيضاً في عمق الكذبة. لا يوجد كذب أبيض وكذب أسود، يوجد كذب مجاني ومضر، وكذب دفاعي، لا يضر في النهاية أحداً. هو حقيقة أخرى. لن أقول لرياض عما حدث لواسيني، فهو على يقين وهمي بأننا لم نلتق، منذ أن افترقنا، منذ قرابة العشرين!
لو كان يدري ماذا حدث في هذه العشرين سنة؟
طبعاً هذا غير صحيح. أعرف. ليكن.

اسم واسيني وحده يثير فيه حساسية مفرطة لا ينتهي مفعولها إلا بعد أسبوع. أو شهر. يتصور أنه لولا وجوده لكانت حياتنا العاطفية أفضل. في كل مرة أريد أن أقول له جملة كررها واسيني كثيراً على لساني في كتاباته. طبعاً قناعي، مريم، هو الذي يتكلم دائماً. لا أتحمل أن أتحول إلى أثاث قديم يوضع في الركن:

نستطيع أن نركع كل شيء، أن نسرق نبضه وحياته، إلا القلوب فهي لأصحابها. ثم أصمت لأن التعب يكون قد أرهقني، ثم أني أفهم أحاسيسه ولا أريد أن أزيده. **رياض ضحيتي، مثلما أنا ضحية قناعي، مريم.**

-٧-

لم أفعل شيئاً سوى أني رجعت إلى مخبئي لكي أكتب له فقط.
وأتساءل دائماً مثلما يفعل غيري: كيف يمكن لرجل أن يتواجد في كل مكان، أن يدرس في جامعة الجزائر وفي السوربون، وفي الإمارات، وجنيف، وفينسيا، وكوبنهاجن، نيويورك واستوكهلم، أن يكتب روايات طويلة النفس،

أن يتحصل على الجوائز، أن يتعامل مع الصحف وينتج برامج في التلفزيون و..و..و..هل هو جني أم رجل مسحور، أو يملك وقتاً لا يملكه الآخرون؟ ربما كان له جيشٌ من الطلبة تحت وصايته، يستفيد من جهودهم! لابد لرجل مثل هذا أن يكتفي بقصر العمر، لأنه يعيش زمنه على عكس ما يعيشه الآخرون. بسرعة مجنونة لا قوة تقف في وجهها، ولابد أن يصطدم يوماً بمجرته القاتلة. هذه المرة كادت المجرة الضائعة في الفضاء، أن تأخذه وتتركني معلقة في الفراغ.

اكتشفت فجأة كم أنا وحيدة في هذه الدنيا. قد لا يكون ذهاب شخص مهماً، كلنا نذهب يوماً، لكن ما يتركه من فراغ مهول، يحتاج إلى زمن طويل لترميمه، هل العمر يسعف بعد كل هذا الزمن؟
أعتقدُ أن الحب أيضاً مجرم. قد يقتل أحياناً بلا سببٍ مسبق ولا عقل؟ الحب يقتل حينما يريد. يدفن حيثما يريد أيضاً. ويترك العاشقين المقتولين على حافة الحياة بمشيئته، ويصنع لهم نهايات تراجيدية ليدخلهم في ذاكرة العابرين في هذه الحياة، وهم لا يعرفون أن ذلك يمكن أن يحدث لهم يوماً، أيضاً.

بدأت يداي ترتجفان، ولا أعرف إذا ما كان علي أن أشكر القدر الذي لم يأخذه، أم أشكر قوة واسيني التي منعته من الإغفاءة القاتلة وإغماض عينيه؟

أحياناً في خلوتي، أتساءل إذا لم يكن واسيني قد تعب وأصبح يستدرج الموت بطريقته المجنونة؟ كل شيء في عينيه المتعبتين، في كلامه، في حركاته، يقود نحو ذلك. ربما كان يريد أن يذهب على رؤوس أصابعه لكي لا يثير أي ضجيج وراءه، ولا يزعج أحداً. عادة واسيني التي لم تتغير منذ طفولته الأولى. لا يريد أن يزعج أو يحرج الآخرين. لقد تعود على الصمت الذي يصنعه من حوله، ويعيش فيه الزمن الذي يريد.
- «**قلتُ لكَ حبيبي، إن الحب قد يقتل أحياناً!**».
التفتَ نحوي ابتسمتَ قليلاً، ثم انسحبتَ، وكأن الأمر لم يكن يعنيك أبداً.

* * *

الحب قد يقتل أحياناً!

سيني الحبيب.

قلتُ لك حبيبي، إن الحب قد يقتل أحياناً، ويبدو أنك لم تصدقني؟

التفتَ نحوي وانسحبت، وكأن الأمر لم يكن يعنيك.

أرجوك تريث قليلاً قبل أن تنام. لا تذهب الآن. مازلتُ في حاجة ماسة إليك. أتنفسك مثل الهواء وأشربك كل صباح مع أنداء الفجر. لك كل الموت لتنام حبيبي. لا تذهب الآن.

عثرت على هذه الرسالة في شكل قصاصة صحفية من جريدة الخبر وقد كتبتها طالبة لا أحد يعرفها، ولكنها مليئة بالعرفان. شعرت بسعادة عندما قرأتها وأنك لست وحيداً في دنيا ليست دائماً عادلة معنا. احتفظت بها لأن صاحبتها كانت تشبهني ولكنها لم تكن أنا. بها قلبي وليس لغتي. أشتهي أن ألتقي يوماً بهذه الطالبة لا لألومها على حبها لك، ولكن فقط لأنحني أمام قلبها الطيب الذي تحرك في وقت كان يعبر فيه الناس الشوارع منشغلين بحياتهم اليومية، غير معنيين بما كان يحصل لك.

«ربما يتساءل الكثيرون: كيف يمكن لرجل أن يتواجد في كل مكان، أن يدرس في جامعة الجزائر، وفي السوربون أيضاً، أن يكتب روايات طويلة النفس، أن يحصل على الجوائز الكثيرة، أن يتعامل مع الصحف العربية والأجنبية والتلفزيون و..و..و..هل هو جني أم رجل مسحور، أو أنه يملك وقتاً لا يملكه الآخرون؟

سيكفي جواباً أن واسيني ينام الآن في المستشفى بباريس، بكل بساطة لأن قلبه قرر في لحظة من اللحظات أن يتخلى عنه لفرط ما أتعبه، وسرق من نبضه الكثير ليمنحه للآخرين. أتساءل في الغفوات الصادقة إذا كانوا كلهم، بالفعل يستحقون ذلك؟ أجزم أن الكثيرين منهم يتشفون الآن وينتظرون خبر

الموت ليركضوا نحو المقبرة لتأدية واجباتهم الأخيرة. واجب التخلص من صوت مقلق لراحتهم. قد يكون كلامي قاسياً، ولكنه في صلب الحقيقة التي لا تلعب باللغة وسحر العواطف الخبيئة. كلما رأيت رجلاً ذكياً سلّم أمره للموت، رأيت الغزلان المذبوحة في عيونهم. نبتوا في ظلمة الضغينة ولا شيء يغيرهم، حتى البراكين تتحول أمامهم إلى نثار من غبار، وتهرب بعيداً.

ما زال واسيني يظن الخير في كل البشر. أليس هو صاحب شعار: كل الناس طيبون حتى إشعار آخر. وهو لا يدري أن الضغائن تولد معهم في شكل نظرات مريبة، وأحقاد صغيرة تكاد لا ترى، وحسد غير مبرر، وغيرات شديدة لكل ما لا يشبههم قبل أن يتحول ذلك إلى قنبلة موقوتة في دواخلهم.

واسيني... رجل يأتي كل صباح بعينين منكسرتين، وجسد يحاول ما استطاع أن يجعله نشيطاً وحيوياً. ينزل من السيارة قبل أن تدب الحياة في الجامعة لأنه يستيقظ باكراً؟ ما معنى ذلك إذا كان أصلاً لا ينام مثل باقي البشر؟ يكتفي بساعات قليلة يسرقها من نهايات الليل وبدايات الفجر قبل أن يقف وراء لوحة خشبية طيبة مازالت بها رائحة الزيتون الذي صنعت منه ويكتب عن كل ما يملأ قلبه. نصف حياته مرهون لشخصيات يصنعها من البنفسج وورق الحلفاء، وعطر المواسم، ثم يصدق أنها موجودة، فيحبها، يضعها في قلبه وعينيه، ويخاف عليها. يقول إنها هشة ولا نصير لها في الحياة غيره. ثم يحكي عنها طويلاً، عن مشقة العيش، وعن تفاصيل حياتها الدقيقة كما كان يفعل أجداده الأندلسيون عندما يجلسون وراء براد الشاي ويبدؤون سرد الخفايا وقصص العشاق. جده الذي شق البحر إلى نصفين كسيدنا موسى، ومشى على الماء من المارية حتى سيدي بوشع، كان يفعل ذلك بحماس. تماماً كمن كذب كذبة جميلة استلذها العابرون، فصدقها بلا تردد.

أراه الآن بشموخ العابر نحو الجنة. يأتي صباحاً حتى حين لا يكون مرتبطاً بالتدريس لأن الجامعة محطة ضرورية ويومية تشبه الأكل والنوم، ومقهى تنشأ فيه أجمل الأحاديث وأكثرها صدقاً. يبدأ يومه بلا مواعيد، ولا قرارات معينة، ولكنه لا ينتهي إلا بعد أن ينصرف الجميع لأنه سيجد دائماً من يحتاج إليه وهو لا يستطيع أن يصم أذنيه ويدير ظهره. أمه الطيبة، المليئة

بالأشواق الدفينة، التي لم تشبع من وجهه، لم تعلمه كيف يدير ظهره. ولذلك اكتسب احترام الجميع حتى لا نقول حبهم، لأن للقلوب أسرارها وأسبابها أيضاً حين يتعلق الأمر بالحب والكراهية. كانت علاقته بالآخرين استثنائية. الجميع يشهد على ذلك. لم ير أبداً في طلبته ولا في درسه كشفاً مرتباً في نهاية الشهر، بل علاقة حميمة واندماجاً كلياً.

واسيني الذي يأتي إليه الطلبة ممتلئين بحقدهم الذي نبت في الزوايا من أحاديث أنصاف الأصدقاء الذين يبتسمون في الوجه، ويطعنون في الظهر. كان يعلم الناس أن يحبوا كل ما يقومون به، ويتجاوز بروح سخية كل ما يُقال ضده، ويتصرف مع الجميع بالتساوي، حتى حين يعرف أن الخديعة موجودة خلف الوجوه المبتسمة.

لن أجعل منه ملاكاً ولكنه ليس شيطاناً. رقدته في المستشفى، وقلبه الذي قد يتوقف في أية لحظة، يحتاج إلى وقفة أمام إنسانيته ومحبته. كيف؟ حين يطلب من طالبته أن تكمل رسالتها، ويرجوها أن تفعل ذلك بسرعة لأنه لا خيار لها كامرأة سوى أن تنجح في مجتمع ذكوري اختلت فيه كل الموازين، ما غايته يا ترى؟، أصحاب النوايا الحسنة سيقولون فعل خير. الآخرون، القتلة المتخفون، والحاقدون المرضى: سيقولون إن شيئاً غريباً في الأمر مبطن داخل هذا الرجاء. معذورون، لأنهم تعودوا التفكير بنصفهم السفلي الذي يتباهى ويتفاخر بالهزائم المتتالية ويخبئها في الفراش الذي سرعان ما يفضحه. كانت الطالبة تعمل عملاً بسيطاً لا يوفر لها إلا مصروف المواصلات وتصوير الكتب. كان يأخذ منها كل الوقت الذي يمكن أن تكمل فيه رسالتها. متأزمة نفسياً كانت، لأنها تشعر بضيق الوقت الذي يفرض عليها قانونياً المناقشة. فيطلب منها أن تتوقف عن العمل مقابل أن يدفع لها راتبها الشهري لمدة معينة إلى أن تنتهي من بحثها. تستغربون؟ لقد حدث ذلك هنا، في جامعتنا الموقرة وفي بلدنا الذي يتقاتل فيه الناس على البطاطا، والبصل وينسون أن الإنسان ليس معدة ولكن رأساً يفكر أيضاً. ما الذي سيستفيد منه أستاذ وكاتب كبير، يرى طالبته تنجح؟ لقد ناقشت الطالبة، وتحصلت على علامة جيدة، وأصبحت أستاذة، وعاد إليها بريق

عينيها وثقتها في نفسها. لم تكن جميلة بالقدر الذي يهز العابرين أمامها، ولم تكن غنية حتى نتهمه، ولم تكن متسيبة حتى نتهمها، كانت طالبة، ولم يكن أكثر من أستاذ. عفواً، كان أكثر من ذلك. كان إنساناً. هل سأحكي أيضاً، وأفضح أسراراً أعرفها؟ عن طالبه المسكين – وكل الطلبة مساكين – الذي لم يكن يملك ثمن الانتقال من مدينته إلى الجامعة، ولم يكن يملك ثمن العصير الذي يقدمه للحضور بعد المناقشة. لم يشتك الطالب يوماً، ولكن واسيني كان يحس بآلامنا الصغيرة ومآزقنا. لم يقل شيئاً. أعطى لإحدى الطالبات مبلغاً مالياً كبيراً، وطلب أن يقام للطالب الاحتفال الذي يليق به ويجعله سعيداً. وألح ألا يعرف طالبه شيئاً عن مصدر المال. ماذا أقول؟ هل كان واجباً ما يفعله مع طلبته ومع كل الناس؟ أبداً. لماذا لم يفعل الآخرون مثله؟

هو ذا يدفع اليوم ثمناً غالياً، في عزلة لا شيء فيها إلا ابتساماته التي تنكسر على بياض المستشفى والأطباء الذين يتوقفون عند رأسه قليلاً، يطمئنون، ثم يمضون نحو مريض آخر.

أعرف الآن ما كان يقوله واسيني دائماً، بدون أن يدري أنه سيكون أول ضحايا كلامه: الحب قد يقتل أحياناً.

هو الآن ينام في المستشفى الباريسي لأن قلبه لم يتحمل قانون حياته الغريب. عليه أن يشفى ليس من أجل عائلته الصغيرة التي تقلق عليه، فقط، ولا من أجل قرائه في كل أراضي الدنيا، أولئك الذين يعرفونه ولا يعرفهم. ولا من أجل طلبته الذين يحزنون اليوم من أجله، ولا من أجل كتبه ومشاريعه المقبلة. ليس لكل هؤلاء فقط، بل، لأن الحياة نفسها تحتاج إنسانيته التي تذيب الصدأ عن النفوس، والبرودة التي تسللت إلى الأعماق. من أجله هو فقط الذي كان يقول: الحياة ليست هبة فقط، ولكنها استحقاق أيضاً، وهو يستحقها، لكي نرى ما يخبئه لنا داخل كتبه القادمة.

وحده يعاني اليوم، ويغيب عن الوعي، ويقف على تلك الحافة المخيفة بين الحياة والموت. لو كلفني، سأطبق أمنية نيكوس كازانتزاكي، وأتسول على الأرصفة بعض العمر من المارة، من هذا ساعة، من ذاك يوماً، من آخر

شاب مليء بالحياة، شهراً كاملاً. وعندما أعود في المساء إلى البيت، متأكدة من أني عندما أجمع الثواني والساعات والأيام والشهور وربما السنوات، سأجد عمراً طيباً يسمح له بكتابة نص آخر، على الأقل.

من أجل هذا الرجل الذي يكفي يوم واحد من حياته ليملأ حياتنا الفارغة. أكتب الآن أنا التي لست شخصاً قريباً ولا مهماً في حياته، فقط لأدعو له بالشفاء والعودة.

من أجل هذا الرجل الذي ينام تحت الرقابة الطبية الصارمة، هو الذي سخر دائماً من الرقابة ولعنها ورفضها بعناد شديد، أكتب وربما لن يعرفني أبداً لأن اللواتي تشبهنني كثيرات[43]».

أرأيت حبيبي؟ الدنيا ليست بكل تلك الظلمة التي تلفنا أحياناً داخل غطاءاتها الشرسة. مازالت فيها فسحة لعشاق لا أحد يعرف قلوبهم المليئة بالنور.

أراك الآن تبتسم شوقاً وحنيناً. وتغازل الممرضة التي تقف في كل وقت عند رأسك منذ أن بدأت تعود إلى الحياة شيئاً فشيئاً.

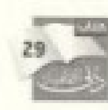
هل تعلم أيها المجنون أن وراء البحر قلباً ينبض لك ويشتغل على توقيتك؟ هل تعلم أن هناك امرأة، على بعد أكثر من ألفي كيلومتر، تفتح عينيها كل صباح على حوافي البحر وتدعو لك ليس فقط أن تعود، ولكن أن تعود كاملاً لكي تستطيع أن تجعل من الحياة إمكانية ضافية للحماقات الجميلة التي تحرر الدواخل وتمنح السعادة الخفية؟

لقد أردت أن أبتعد عنك قليلاً، بل كثيراً ما تخيلتك انسحبت بهدوء داخل غيبوبتك، وأرى إمكانية العيش من دونك! كان عليّ أن أروض نفسي لفعل ذلك لكي لا أموت بشهقة الدهشة. كنت فقط أريد أن أجرب، ولكنك لم تترك لي فرصة لذلك، لأنني تأكدت أني لا أملك إمكانيات الصبر، لأن الهواء لم يدخل رئتي. أحاول أن أعتصر قلبي ليضخ قليلاً من الدم ولكنه يتضاءل كنثار الخوف.

لم يعد هناك برد يوقظ الحواس. لم يعد هناك حر يعمق شهية الجنون. لم يعد للعطر رائحة الغواية، ولا للجسد رغبة حتى في أبسط الأشياء. لم يعد المطر الذي ينزل الآن مغرياً، ولا جميلاً كما كان.

لم يعد للدنيا معنى حبيبي، وعلي أن أنحته من خوفي عليك وخيبتي وذعري الخفي من ذهابك الأخير. لن تذهب لأنك كما قلت لي ساخراً: لست مستعداً لذلك وكأنك أنت من يحدد الساعة. ثم إنك لم تمنحني هذه المرة سعادة تنظيم حقيبتك الأخيرة، وترتيب أشيائك الصغيرة. منذ زمن بعيد لم أفعل ذلك.

عندما تخرج من هذه المحنة، أخرج أنا من باريس التي دخلتها كسارقة. لا تأت إلى هنا أيضاً ولو أني سأحملك في قلبي. يكفي أني رأيتك كما اشتهيت رؤيتك في المستشفى. ويكفي أنك وضعتني أمام أسئلتي الهاربة التي تفاديتها طويلاً قبل أن أعود لها مجبرة. سافر حبيبي، إلى مكان جميل وهادئ للنقاهة. أنت تريد نيويورك لأني أعرف أنك تحبها لسبب غامض، وهذا الغموض والصخب يؤذي صحتك. عد إلى عافيتك ثم اهرب نحوها. وإذا كانت هناك امرأة، ربما كانت عازفة البيانو والرسامة التي حدثتني عنها، قبلها من عندي وقل لها: هناك في الضفة الأخرى امرأة انتظرتني طويلاً وما زالت ترفض أن تسلم أمرها للأقدار القاسية. امرأة استيقظت فجأة لتجد نفسها في مواجهة كائن آخر من ورق وحرير، سرق منها عفويتها وحياتها. تفاد حبيبي نيويورك، ربما كانت في سري العميق حسرة الغيرة هي التي تحركني، لأني أريد أن أضعك في عيني بعد أن منحك الموت عمراً جديداً، وأكون أول امرأة تحتفي بعودتك من فراغ البياض. نيويورك حبيبي صاخبة وأنت تحتاج إلى بعض الراحة. سافر إلى مكان ترتاح إليه، أمستردام، مثلاً... لا... لا. أمستردام مدينة بريئة ولكنها لا تكفي لراحتك. أعرف مغامراتك فيها. لن تقنعني أنك كتبت شرفات بحر الشمال من مجرد الخيال. ذات يوم سأفضحك مع نسائك. لقد بحثت عنهن بالإبرة وعرفت حنين، وعرفت أنها، لم تعد تعني لك الشيء الكثير. لكن لن تقنعني بأن كليمونس هي أنا فقط لأنها مشدودة إلى الكمان! أو مجرد شخصية ورقية. لا ورق حبيبي



بدون حياة مبطنة وخفية. من هنا يتحول الأدب إلى أجمل كذبة تمر عبرها الحقيقة الخفية. كليمونس أشواقك الدفينة، وقد تكون امرأة منحتك ليلة أو ليال، حركت فيك مدافن السعادة المعلقة على نبض القلب. فتنة، كانت حبك الأول، أو لحظة الاغتصاب الجميلة التي مارستها معك امرأة ممتلئة وأنت مازلت في دفء الطفولة. قلت لي يوماً وأنت تتحدث عنها: كانت جميلة. عيناها خضراوان مثل حدائق الجنة. لقد رأيتها وهي تضعك بين فخذيها، ثم ضمتك إلى صدرها بقوة وقالت لك: أحبك. سمعتها كما تعودت أن تسمعها من أختك زوليخا، أو أمك ولم تتساءل كثيراً. ولكنها كانت أول امرأة حركت شيئاً فيك يشبه البراكين الصغيرة. وظللت تستعيد كل حركاتها، وشهقتها، وصرختها. ربما إلى اليوم مازالت تلك الصرخة تحاصرك. ولهذا كلما شعرت بالرعشة تحتل جسدي بكامله وارتعدت بين يديك وصرخت، وضعت يدك على فمي وأنت تتمتم: ششششششت عمري. المكان ليس لنا وحدنا؟ لا أدري إذا ما كان السبب هو الناس الذين يحيطون بنا، ويفعلون الشيء نفسه، أو تلك الصرخة التي رأيتها تتراقص في عينيها الخضراوين اللتين استسلمتا لك في وقت مبكر؟ لا أنصحك بأمستردام حبيبي. ليست لأنها صاخبة. فهي ليست كذلك، ولكنها مدينة تخبئ كل جنون الدنيا، وبها ما يهزك بعنف، وأنا أريدك أن ترتاح. ترتاح فقط من الشطط اليومي.

اخرج حبيبي نحو قريتك الصغيرة. اشبع من وجه أمك التي كلما تحدثت عنها غلبتك حسرة أنك لم تبق معها، طوال هذا العمر إلا شهوراً قليلة. احك معها؟ اسمع أنينها الداخلي. لديها أشياء كثيرة لم تقلها لك. امنحها القليل من لحظاتك الهاربة. لها أحزانها وخوفها الدائم عليك. اترك الهاتف النقال وراءك ولا تأخذه معك، فلست في حاجة إلى أصوات الغير الثقيلة. اقطع صلتك بالدنيا، وارتح قليلاً لتتمكن من استعادة نفسك وترميم الكسورات الخفية. خذ معك جهاز الكمبيوتر النقال الذي أعرف أنه صديقك الكبير، واحمل كتبك التي تملأ مخيلتك: ألف ليلة وليلة، الأكيد، هناك ليال لم تكتشف بعد أسرارها. دون كيشوت. هناك بعض أسرار أجدادك الأندلسيين المخبوءة داخل جمل سرفانتس. قلت لي ذات مرة وأنت جاد في حماسك: سأقوم يوماً بدراسة هذه الرواية العظيمة، وأظهر للعالم ما يتخفى وراء

سخريتها. هناك موقف عظيم لسرفانتس من محاكم التفتيش المقدس احتفظ بها لنفسه خوفاً من تبديده. فقد ظل يحمل حباً خفياً لهذه الأرض وناسها. تذكر روايات كازانتزاكي وسيرته العظيمة. أعد قراءتها. الرجل كان نبياً عظيماً مملوءاً بالسحر الذي كلما شعرنا بسهولة تقليده، وجدنا أنفسنا أمام مغاليق ومستحيلات كثيرة. خذ عرشك الأدبي الجميل وارحل صوب بحرك الأول، وشمسك الأولى، وتربتك الأولى ولا تسأل عن البقية. عندما يقف الموت على العتبات لن نتذكر ما عشناه، ولا ما لم نعشه. ولكن ما كان يمكن أن نعيشه وتركناه لبلادة اليومي والمتكرر. اذهب إلى بيتك البحري، ولا تخبر أحداً. سيساعدك البحر، ووجه ماما ميزار المتعب من كثرة الهزات المتكررة التي لم تعد قادرة على تحملها كلها. أنا متأكدة من أنك تستطيع أن تستعيد ما هرب من طفولتك هناك.

حبيبي... سيني.

هل تدري أني اكتشفت اليوم سراً خطيراً؟ تريد أن تعرفه؟ لا أحبك... قلت لك لا أحبك؟ الحب شيء عادي يعيشه البشر بشكل يومي ومكرر حتى أصبحت الكلمة لا تعني الشيء الكثير. ربما تكون قد مارسته أو قلته على الأقل لأكثر من امرأة.

أنا يا مهبولي الغالي، سأموت بكل بساطة من دونك. سأتلاشى وأصبح شيئاً آخر بلا حياة ولا روح. لو كانت الأعمار تستعار أو تمنح، أتنازل لك عن عمري. أنسحب من دائرتك لتحريرك مني ومن المشكلات التي يسببها وجودي لك، مقابل أن تكون سليماً معافى. قد يكون هذا إحساس أمّ وليس إحساس حبيبة. الأم، يا سيني، هي الكائن الوحيد الذي يتعذب، ويعطي بلا مقابل. لقد انقلبت الأقدار عليّ، وحولتني إلى أم، وأصبحتَ فجأة ابني؟ ربيت عليك الكبدة، كما تقول أمك وأمي. ليس كلاماً جميلاً أقوله لأقويك وأدفع بك لنسيان نيويورك وأضواءها، وأمستردام وحليب نسائها، بل إحساس عميق لم يتضح سره إلا الآن، بعد هذه القسوة المرة.

إن كان كازانتزاكي يتمنى أن يستجدي بعض العمر من الناس العابرين، ليعيش أياماً أخر ويكتب أحلامه التي لم يسعفه الوقت لكتابتها. فأنا



مستعدة لأن أمنحك كل عمري، لتعيش عمراً آخر، وتحلم وتكتب. لن أندم إلا على شيء واحد، إذا ضيعت العمر في الفراغ الذي يأكلنا أحياناً.

حبيبي... سيني الغالي. أرجوك لا تنس وعدك. لقد أكدتَ لي يوماً أنك ستكون بخير، وستبقى في كامل عافيتك. أحملك نتائج وعدك. أرجوك لا تخنّي، لأني سأكون أحزن امرأة في الدنيا. تستطيع أن تنفذ ما قلته لي. لقد رأيت يومها في عينيك إصراراً جميلاً على الحياة، وأعرف أنك ستفي بوعدك لي لأنه لا خيار لك؟ لأنك لستَ شخصاً آخر غير الكائن الدافئ الذي أعرفه. صحيح أنك تخليتَ عن لزعر الحمصي، لكن بقاياه الجميلة ما تزال فيك. لن أنام الليلة. أعرف أنك متعب قليلاً، ولكني سأنتظرك حبيبي. أريد أن أبقى مفتوحة العينين، حتى أتلقى جوابك الذي تقول لي فيه أنك عدتَ إلى الحياة العادية، ولم يكن ما حدث إلا هزة ذكرتك قليلاً أنه عليك أن تهتم بصحتك قليلاً. أنتظر أن تكتب لي جواباً فيه ما أشتهي أن أسمع.

سأتركك الآن وأعود إلى البيت، أحب الموسيقى. لقد أعدنا فرقتنا الفيلارمونية إلى الحياة، وأنا سعيدة بذلك. وقتي مقسم بين المدرسة العليا للفنون أو الكونسرفتوار الذي أعيد فتحه، وأوبرا مسرح وهران التي أتدرب فيها يومياً مع الفرقة. نحن بصدد إنجاز أشواق المدينة على يد المايسترو الإيطالي جيوفاني جوليانو، الذي سيقضي معنا مدة طويلة لانجاز سيمفونيا فيفالدي: الفصول الأربعة. رجل أنيق ويحب فنه بقوة. منذ زمن بعيد لم نر هذه الجدية. أشتغل كثيراً، لأن السيمفونية تعتمد عليَّ كثيراً. رياض استسلم لرغباتي، وكلما كان لديه وقت، مر على المسرح قليلاً، وحضر معنا بعض التدريبات قبل أن يغيب في شرايين المدينة لشؤونه اليومية المتعلقة بسوق السيارات التي أصبح المورد الأساسي للنموذج الياباني والأمريكي، هو وبعض أعضاء الكارتيل.

سيني...حياتي وموتي...سمائي. أرضي...شمسي وبحري. ظلي وغيمي. هل أعود إلى تأنيبك كما تعودت؟ لمَ تتركني بلا وطن وتؤثر سريراً في المستشفى؟ هل تعرف أني لم أكتب اليوم، لسبب بسيط هو أني حمقاء وأقنع نفسي أن كل ما حدث لك لم يكن إلا كابوساً. لم يكن حقيقة. وبأنك ستقوم غداً، وتقرأ رسالتي وتبتسم من جديد من هبلي وجنوني.

ماذا فعلتَ بي أيها الغالي؟ كنت أعرف سلفاً أنك سترتكب هذه الحماقة يوماً أو ترتكبك هي. صدقني، كنت على يقين أن لغماً، صغيراً، سينفجر في أعماقك وسيُغير شيئاً فيك، فقط لتلتفت نحو نفسك المنهكة. مجرد إنذار، ولكني لم أكن أعرف درجة خطورته. هل تدري ما فعلته بجسدك؟ لقد جعلته يعيش عمره بسرعة لم يتعود عليها. إذا كان البشر يقضون أربعاً وعشرين ساعة وهم يركضون في مدارات الحياة، فقد منحته أنت، بسخائك القاتل، ستاً وتسعين ساعة! يعني أربع مرات عن العادي. وإذا كان متوسط العيش في بلداننا المتخلفة خمسين سنة، هنيئاً لك، فقد عشت داخل هذه السرعة أكثر من مائتي سنة. قرنان بالتمام والكمال! هل تدري ذلك؟ طبعاً أنت لا تطرح على نفسك كل هذه الأسئلة المرتبكة. الذي يحبك ويخاف عليك هو من يطرحها. لذلك أخاف ليس فقط من العيون المدورة المليئة بالحقد، بل من نفسك أيضاً. كلما وضعت رأسي على صدرك، وسمعت دقات قلبك، شعرت بحزن كبير لأني لا أستطيع فعل الشيء الكثير لأمنح هذا القلب الراكض دوماً، بعض الراحة. لا أعرف ماذا أقول؟ فأنا بلا روح. لا شيء يتسع ليستوعب حزني وخرابي الخفي. لقد صليت من أجلك كثيراً، وعدت إلى الله الذي نسيت وجوده. لم أطلب منه شيئاً خاصاً لي ولهذا كنت متأكدة من استجابته لي. قاوم حبيبي ولا تستسلم للموت القاسي. الموت هو حالة خواء حيث تفقد الأجسام أشكالها وأوزانها، وأنت جزء حي مثل التراب، ومثل النبتة المنغرسة فيه. ليس من أجل ماما ميزار التي وضعت رجلاً في القبر، ولن تتحمل أن تسبقها إليه. وليس من أجل عيني ريما وشقاوتها، وليس من أجل وجه باسم الملائكي، وليس من أجلي أنا التي لم تعد شيئاً مهماً في حياتها فقط، بل صرت كل حياتها. وليس من أجل مايا التي ستعثر عليك يوماً ضمن أسرارنا الدفينة. ولا من أجل طلبتك الذين ربيت في عيونهم ذاك البريق الجميل وعلمتهم الاستثنائية وحب الحياة. ليس من أجل أصدقائك الذين يحزنون اليوم من أجلك ويفكرون فيك كثيراً. لا، ولكن من أجل مريم التي صنعت من أوهامها حياة موازية ومن ضعفها قوة منحتها لكل النساء حتى ولو أغضبني ذلك كثيراً. من أجل فتنة التي جابت قفار الدنيا هرباً من حب أصبح يخيفها. من أجل كنزة التي انتحرت على واجهة بحر أمستردام

فقط لتظل وفية لأميرها المعشوق. من أجل أكاريا الذي ما يزال ينتظرك لتطلق قيده ولا تتركه معلقاً بين الحياة واللاشيء. كليمونس التي وضعت كمانها عند العتبة وأقسمت أن لا تعود له إلا إذا عدت من جديد إلى الحياة. هؤلاء هم صدقك الكبير، من أجلهم أمكث قليلاً حبيبي، ما يزال لدينا متسع من الوقت للحلم والجنون والكتابة. امنحهم وعداً صغيراً بأنك ستعود لهم، لا تيتمهم قبل الأوان. ما زال العمر بين يديك حبيبي. من أجل سيني الغالي، أيضاً. المجنون الذي وضع حياته على كف عفريت، وراهن عليها، ولم يكترث لما يمكن أن يصيبها من أذى، من أجل حبيبي الذي يصبح كل يوم أكثر طفولة، مفعماً بارتكاب المعاصي والحماقات. من أجل سيني الذي يستحق أن يقف أمام المرآة، ويستقبل يوماً سعيداً لأنه يستحقه. لحبيبي الذي علمني أن أحب الحياة وألاّ أستسلم أبداً لقسوتها لأنها في النهاية تختبرنا قبل أن تمنح لنا استحقاقاتها. تعرفني، أني لن أطلب منك أن تغير نظام حياتك المجنون، ولن أطلب منك مثلما يفعل الأطباء معك: أن تحفظ جدولاً لمواعيد الأكل، والنوم، والدواء. فأنت أكثر جنوناً وتسيباً وحماقة من أن أؤثر فيك بطلباتي الغبية، ولكني سأطلب منك فقط، أن تقف مرة أخرى بقامتك العالية، وتصر على حقك في الحياة، وتنتزعها انتزاعاً كمتسلقي الجبال الذين كانوا مثلك الأعلى في الصبر ضد العبث، والإصرار على الحياة حتى في أكثر الحالات يأساً.

حبيبي. انتظرني على حوافك العشقية الجميلة. أدخلني بين ذراعيك وأغصانك. مدني بما تبقى من شوقك الخفي. امنحني بركة شوقك وامسح على رأسي مثل أي قديس صوته قريب من الله، وقل لي فقط أنك ستعود لأنتظرك عمراً آخر، وربما قرناً. لا يهم حبيبي. سأشبك قلبي بقلبك، وسيتدفق فيهما الدم نفسه بعد قليل. سأزرع فيهما وروداً وألواناً من طفولتك. خيبتك أنك وقتها لن تتمكن من خيانتي مرة أخرى، لأن دمي الذي فيك سيفضحك! وإذا أردت الهرب مني، ستضطر إلى أنْ تسحبني وراءك. وستقرأ هذه الرسالة، وأنت تضحك، وستلعنني على كل حماقاتي التعبيرية، وستقول « الله يخرب بيتك، جميلة وملعونة حتى في قمة شجنك.» ولن تكون مخطئاً أبداً في تعبيرك.

حبيبتك التي تنام معك على السرير نفسه، وتحس بالألم نفسه. وكل صباح، عندما تخترق أولى الأشعة مدارات السواد، تصبح على يقين جميل: أنك ستخرج منْ غفوتك التي تشبه غفوة الأنبياء، وستعود ممتلئاً بالأبجديات السحرية وبالشوق المجنون للحياة.

اهدأ حبيبي، فأنا قريبة من نبضك. أنا فيك.

مريم التي تنتظرك على أجمل حافة للحياة معك، أو الذهاب معاً.

الجزائر العاصمة في ٣٠-٠٣-٢٠٠٨

-١-

مازلت أقاوم التفتت ونثار الذاكرة المعمي للبصر.

هل أكذب؟ لست في وضعية المرتاحة لأتسلى بخيالاتي، وأقنع نفسي بأن ما حدث ويحدث هو مجرد حالة طارئة. لقد هدني مرضه ونزل عليّ كالشهب الحارق، فكاد أن يحولني إلى رماد. لكني، بفضل قوة داخلية استعدت كل قواي، بل ذهبت إلى أكثر من ذلك، أدركت شرطي الصعب الذي كان عليّ تجاوزه. مرضه كان كإنذار الخطر المصحوب بإضاءة فجائية قوية، كشفت من حولي حقل القنابل الموقوتة الذي كنت أمشي فيه بالصدفة.

هذه الكومة من الرسائل، لا تنسيني ما أنا هنا من أجله. مصممة على الذهاب وراء الحماقة حتى النهاية. أجمل الحماقات هي تلك التي لا نسأل أبداً عن نتائجها الوخيمة، إلا عندما تحصل.

ليس في نيتي أن أتمرد على واسيني كما تفعل عادة الشخصيات الكتابية عندما تصاب بالخيبة في الصميم. لست منها، ولا أشبهها. قرأتها في الكثير من الكتب، ولم تعد تغريني مطلقاً. رأيتها عند أحد أصدقائه من الكتاب الأمريكيين: بول أوستر[44] الذي خلع عليها كل سبل الحياة، وجعلها تخرج من الكتب وتغادر كاتبها. أنا أتحدث عن امرأة حقيقية تتخفى وراء امرأة من ورق. الأولى تعيش موتاً مفروضاً عليها، والثانية تجني كل ما يمكن أن يُمنح لامرأة جميلة. أجدني اشترك معها في كل شيء، حتى في أدق الكلمات الحميمة، إلى درجة أنها سحقتني وغطت علي ولم أعد إلا ظلاً لها، بينما العكس هو الذي كان يفترض أن يكون. صرخت مع نفسي عندما اكتسحني وجودها: يكفي. ولم أكن مخطئة في قراري أبداً. هذه المرة، ليلى تتمرد على مريم. فقط ليعرف الناس الذين أحبوا مريم أو عشقوها أو حتى كرهوها، لست هي وإن كانت مني. من لحم ودم أنا. قد يبدو في ذلك نوع من الغرابة؟ أنا نفسي في حالة امتعاض وإنشداد أعصاب تمنعني من الدفاع الجدي عن رأيي وتوضيحه لمن يريد فهمه. كان يفترض أن أحب مريم لأنها اشتقت من أكثر الأحاسيس عمقاً فيّ. لكن انقلاباً ما حدث في الأشياء المحيطة بي وتلك التي فيّ، لم يدفعني فقط إلى كراهيتها، ولكن انتظار الفرصة المناسبة لقتلها

والانتهاء من وجودها الذي أصبح ينغص عليّ كل شيء، حتى في سرير الحميمية مع واسيني. كلما وضعت رأسي على صدره، انتابتني أحاسيس غريبة منها أن مريم سبقتني إلى هذا المكان، وكانت أفضل مني في جنونها معه. الغريب أني لم أعرف وجهها، ولكني يوم رأيت آنيا، طالبة واسيني الروسية، شعرت أنهما تشتركان في أشياء كثيرة: الوجه الطفولي الموشى بنمش الغواية، العيون المليئة بالسحر والأسرار الخفية.

مريم هي التي بدأت هذه الحرب غير العادلة. جاء بها واسيني من العدم، ومني. احتلتني في البداية، وقبلت. قلت في خاطري: مجرد همسة. شخصية روائية لا أكثر. سيأتي زمن وتأتي شخصية أخرى تأكل رأسها. ثم ألغتني بتواطؤ غريب من واسيني الذي سكنها نهائياً وسكنته. حتى أصبح يناديني مريم، فاختزلت المسافة نهائياً بيني وبينها.

أعرف أن حربي ليست مقدسة، وليست حتى عادية، ولكنها عادلة.

لست مثلما يتصورني الناس من خلال أقنعتها، أبداً. لست ملاكاً؛ وربما كانت حماقاتي أقرب إلى غوايات الشيطان منها إلى هدأة الملكوت. ربما كانت الغيرة من حريتها، هاجسي الذي يأكلني، ولكني أظن أني أكبر من ذلك كله.

أريد فقط أن أصرخ بأعلى صوتي: لقد تعبت من ظلام مريم.

مريم أصبحت الظلام الذي يقتل حقيقتي بإخفائها. أشتهي أن أخرج إلى النور مثلما يخرج جميع الناس، أن أتدحرج فقط في الطرقات كبقية البشر. لا أريد أن أمشي على الماء كالأنبياء والسحرة والملائكة، كما أرادني واسيني في نصوصه الكثيرة، وفي غيّه المجنون والخفي، وهو يدفنني في أعماق مريم. مجرد امرأة تعشق الحياة وتريد أن تحب في العلن.

ياه... لولا تلك الحماقة التي ارتكبها قبل أكثر من ربع قرن لما حدث الذي حدث. ربما لحرم القراء من اشتعالات مريم، ولكن أنا؟ ألم يقل لي وهو في قمة صفائه: ألف رواية مسبوكة بإحكام، لن تساوي لحظة سعادة واحدة نعيشها مع بعض بحرية تامة؛ أية امرأة سوية لا تريد في النهاية شيئاً آخر

إلا تصديق ذلك. لا أشكك في أية كلمة من كلماته، ولكنه لم يفعل الشيء الكثير لكسر جبروت مريم واستعادة ليلي أو ليلي الصغيرة، التي ظل قلبها دائماً يخفق لحزنه وخوفه ومرضه. ماذا يمكن لسيدة الورق أن تفعل غير الاستسلام لليد التي تصنعها؟

لست سيدة الورق ولكني حقيقته الأكثر تخفياً. نَفَسُ الله فيه.

-٢-

لقد تعبت وخذلتني طاقة التحمل

أنا أبسط كثيراً مما يتصوره الناس الذين صادفوني في روايات واسيني. حفنة ماء لا أكثر. كأس شاي على حافة قفر من الرمل. أشتهي أن أعود إلى هويتي، وإلى يومياتي البسيطة والصغيرة التي تجعل مني إنسانة عادية، لا تستثير انتباه أحد. تماماً كما كنت، قبل أن يسجنني واسيني في كتاب العمر الذي يَكتُبُ في كل مرة منه فصلاً واحداً، يضع على غلافه اسم رواية. حياة بسيطة جداً. أشتهي أن أعيش طقوسي الجميلة التي لا تكلف شيئاً أبداً. أن أشتري الصحيفة اليومية التي تعودت على إدمانها، بدون أن أثير انتباه أحد. أن أقف في الطابور الذي يشبه ثعباناً خرافياً لأشتري الخبز والحليب، بدون أن يحرجني الناس بعيونهم وأسئلتهم المقلقة. أن أدخل إلى أقرب حانة، أشرب بيرة باردة ثم أنسحب على رؤوس أصابعي قبل ذهاب آخر باص نحو مرتفعات المدينة. أن أدخل المكتبة البلدية، وأواصل قراءة آخر رواية بدأتها، لأن إمكاناتي المادية لا تسمح لي باقتنائها. فأنا في النهاية، لست أكثر من امرأة عادية تملأ شوارع المدينة بدون أن ينتبه لها أحد. لا أملك ما يؤهلني بأن أكون استثنائية وخارقة. امرأة كل الأيام، وربما أقل من ذلك، في مجتمع حائر بين دينه ودنياه، بين ما هو، وما يريده. يعيش الاثنين في الوقت نفسه، في نفاق لا يحسد عليه أبداً. يشبه الطاحونة التي عندما لا تجد ما تطحنه، تأكل نساء البلاد، وأنا إحداهن.

أشهد اليوم، وللمرة الألف، أني لست امرأة من ورق. فهل من يسمع؟ ودمي ليس حبراً صينياً أسود ولا حتى بنفسجياً رشيقاً. دمي ككل المخلوقات

أحمر، أتألم عندما أُجرح، وأبكي عندما يصيبني الفقدان وشطط العزلة.

أنا امرأة من أحاسيس مرتبكة ومحروقة. من لحم ودم وبعض الجنون الذي لا يقاوم، ولم تعمل السنوات التي مضت إلا على تأجيجه.

أقسم بالله، وبكل أوليائه الصالحين، أن اسمي الحقيقي ليس مريم، ولا تنويعاتها التي اخترعها واسيني وأقنع بها قراءه الكثيرين: لا ميرا، ولا ماريوشا، ولا ماريانا، ولا مي، ولا ماري، ولا ياما، ولا ماريا، ولا حتى مايا، ابنتنا الجميلة، التي أحبها واشتركنا في إنجابها في أجمل غابات الدنيا وأكثرها صفاء.

اسمي، ليلى بكل بساطة. أربع حروف مكررة، لا إثارة فيها. ليلى، ولا شيء غير ذلك. اسم لا يعني الكثير خارج القصص العربي القديم. ولا توجد له أية دلالة استثنائية في تاريخي الشخصي. لكنه اسمي الذي منحه لي جدي الطيب الذي كان يعشق هذا الاسم ربما لسر دُفِنَ معه.

عشت أسراري الخفية مع واسيني، قبل أن ينقلها محورة ومقنعة، نحو نصوصه. غيَّر اسمي الأصلي، برضاي ولكن على مضض. قال: مريم هي أنت، ولكنها أيضاً قناعنا المشترك في الحياة الظالمة. كدت أقول له: كنتَ أظلم من الحياة عندما رفضت زواجنا بحجج واهية؟ يا مجنون، ألم يكن من الأسهل عليك وعليَّ لو فعلنا ما يفعله جميع البشر وربحنا وقتاً جميلاً لهبلنا وجنوننا؟ ولكن الفكرة بدت لي قديمة وغير مفيدة، بل ومكرورة لدرجة الغثيان. هناك حياة حاضرة، كان علي أن لا أخسرها في زمن لم يعد ينتظر المتأخرين. قال: بمريم، سنكون في مأمن من العيون الهمجية، وستكون مريم شخصية روائية لا أكثر، وسيقرؤنا الناس على هذا الأساس. بهذه الطريقة السرية سنكتب قصتنا الجميلة، ونمررها كما نشتهي.

بدت لي الفكرة مغرية في البداية لأنها كانت تمنحني فسحة أن أكون، وأن أظل في دائرة واسيني ولا أفتقده، وأعيش داخل لغته. كانت الغواية كبيرة، لكن معَ الوقت، ابتلعتني مريم نهائياً، ولم تترك لي حتى مساحة المناورة.

ولم يبق في العمر ما يمكن أن أخسره. قلت في خاطري يجب أن يوقف هذا العدوان لأقول ملء صوتي المبحوح:

«لست امرأة من حروف وجمل مرصوصة، ولكني امرأة تتألم، وتتلوى عندما تشعر أن سم الحياة سرى بين مفاصلها».

قد أكون مارست اللعبة المجنونة نفسها، ولكني لم أكن محترفة، حتى في اسمه الذي أعطيته له في مدارات حياتنا الصغيرة. أسميته ياسين تيمنا باسم صبي كان يمكن أن يكون ثمرة حبنا لو شاء واسيني. فاجتزأها: سين. ولم يحتفظ في رسائله، من الاسم، إلا بجزئه الأخير الذي كان في النهاية قريباً من اسمه الأصلي. لم يكن الأمر عسيراً. فقد اخترت له هذا الاسم لأنه كان يحب كاتب ياسين، الذي عرفه قبل أن يموت، والتقى به في مسرح سيدي بلعباس وبلدة تنيرا. وتكونت بينهما صداقة جميلة لم تنته إلا بموت ياسين. هذا وحده كان يثير فيَّ جملة من الاهتزازات الداخلية. حتى في انتقامي من واسيني، كنت امرأة عاشقة. فقد منحته اسماً أحبه وقدره وأحزنه. فهو يرى أن كاتب ياسين قتله ورثة البلاد الجدد. فقد ظل يحمل تهمة ظل يضحك منها، ولم يكلف نفسه مشقة الدفاع عن نفسه. كان عندما يحكي عنه، يصفر وجهه، ويخفي بصعوبة خيبته وانكساره.

– الأقدار حادة أحياناً يا ليلي. تتصرف فينا كمن يتصرف في أملاك خاصة. تصوري ماذا حدث؟ عندما مرض كاتب ياسين، سافر نحو صديقته الباحثة جاكلين آرنو[٤٥] في فرنسا. بعد أيام من وصوله، ماتت. كانت منهكة من السنوات الصعبة. حاول أن ينتحر. شرب حتى العمى، ثم فتح وريده، ومن حظه، وجد صديقة ذهبت به نحو أقرب مستشفى. كان مرضه قد سحبه بقوة نحو الهوة. بعد أيام ألحقته بها، لوكيميا قاهرة. سمعت بمرضه وأنا بموسكو. عرفت أنه كان في أيامه الأخيرة. وصلت ليلاً إلى غرونوبل، وكنت أنوي أن نحتفل بعيد ميلادي في المدينة نفسها. لكنه مات في خريف حزين من سنة ١٩٨٩. قيل لي بأنه سينقل في الغد إلى الجزائر، وهو في مركز الشحن بالمطار. ركضت فجراً ودخلت مكان تحويل البضائع والحاويات بإذن مسبق. اقتادني الحارس حتى المكان الذي تجمعت فيه الكثير من التوابيت

المرقمة والمسماة، وأشار لي باتجاه المرأة الواقفة في صمت. كانت ملفوفة في معطف كشمير أسود، درءاً لبرد الخريف القاسي. عندما رفعت رأسي عالياً، رأيت أشعة تتزلق من سطح مركز الشحن ذات الأسقف الزنكية العالية، تشع على وجه المرأة التي التفتت نحوي عندما تحسست ظلي. قلت لها لأطمئنها: أنا صديق ياسين، وجئت من موسكو، فقط لتوديعه. من موسكو! فقط لتوديعه! شكراً لك، تمتمت. ثم التفتت نحو التابوت وقالت بصوت مسموع هذه المرة: أنا أيضاً هنا لتوديع ياسين. اسمي زوليخة كاتب. ابنة عمه. التابوت الثاني لأخي، مصطفى كاتب. فرقت بينهما الحياة والسياسة، ولاقى بينهما الموت. تخيل! أي قدر مجنون! أصبت بالفعل برعشة باطنية غريبة. وبدأت رجلاي ترتجفان ولم أعد قادراً على تحمل جسدي. كيف يكشف القدر عن حقده الدفين بكل هذا القدر من الضغينة؟ أغمضت عيني، لا أكاد أصدق أن المرأة التي كانت تقف على بعد خطوتين مني، هي زوليخة كاتب. نجمة ياسين الهاربة. فقد صنع منها أسراره الغامضة، وعوالمه الأدبية. انتابني شعور غريب. أحسست كأن نجمة خرجت من كتاب ورقي، لتواجهني بلحمها ودمها. بقيت واقفاً وراءها، مغمض العينين، أقرأ الفاتحة، وأتساءل حول ما كنت أراه. عندما فتحت عيني لم أر شيئاً. قلت ربما كنت أحلم. عندما التفت نحو المخرج، رأيت، تحت شلالات الضوء المتسرب من الأسقف، امرأة ترتدي معطفاً من الكشمير ذي اللون الغامق، تغادر المكان بخطوات ثقيلة وثابتة.

– أرأيت كيف تتقاطع المصائر بهذا الشكل الغريب؟ زوليخة كانت ضحية نجمة. ابتلعتها. من يعرف هذه القصة غير الصدفة التي قادتك نحوها؟ أليس فيَّ شيء من زوليخة؟ هل سألتها يومها عن أحزانها التي كانت تشق ظهرها، وتكسر ما تبقى من قلبها؟ أم بقيت على الحواف، تحت شطط الدهشة الأدبية؟

– لا أدري. لكني، بكل بساطة، رأيت نجمة تخرج من كتاب.

– ولماذا لم تر زوليخة، وهي أمامك بلحمها ودمها، تموت بسبب كتاب؟ من يعرفها اليوم غيرك، وغير حفنة من المثقفين؟ من يسأل عن مأساتها؟

ونسيان كل الكدر الذي كنا نعيشه في يومياتنا. كنا مقيمين في الباس-تير[47] ولكننا تجولنا في كل المنطقة بسيارة اكتريناها. باس تير، البونتابيتر[48]، قبل أن ننام لمدة أسبوعين في جزيرة القديسات[49]. اعتقد أن مايا نبتت في تلك الأراضي المذهلة والساحرة. عندما جاءت مايا إلى الدنيا، رأيت فيها كل الماء الدافئ الذي كان يتدفق من أعالي جبل الكبريت[50]، وشلالات العشاق التي استحممنا فيها مع بنات أحد أصدقاء واسيني. في أدغال الكاريبي التي لا تعيش فيها الثعابين، كنا نسرق أجمل اللحظات محملة بطعم النباتات البرية البدائية، والفواكه الغرائبية التي كنت أكتشفها وأتذوق طعمها، للمرة الأولى.

قد يبدو ما أقصه غريباً، ولا أخلاقياً، لا يهمُّ، فقد صممت أن أحكي عن كل شيء لأتخلص من رماد شخصية ورقية سحقت تحتها امرأة لم تكن متفردة في شيء إلا في عشقها لكمانها، ولرجل عندما ظنت أنها تخلصت منه بالزواج من غيره، وجدت نفسها فيه حتى الغيبوبة. كنتُ كل شيء إلا امرأة مثالية؟ كجميع الناس، كنتُ أحتفي بجنوني الخفي، وعبثيتي التي تصل أحياناً حد الهبل. فعلت ذلك عن سبق إصرار وترصد. ولهذا، لا أريد من مريم، حتى ولو كنتها في بعض تفاصيلها الجسمانية والحياتية، أن تسرق مني طفلة مذهلة أنجبتها بقسوة لا شبيه لها إلا الموت، الذي لا يزال إلى اليوم يقف على رأسي، وحباً مجنوناً، يقع خارج كل المدارات، تقاسمته أجمل سماء في الدنيا، وأكثر الغابات عذرية ودفئاً. في مايا سحر الكاريبي وكثافة خلجانها ودفئها، وصفاء سماء لوس أنجلس التي لم يخطئ من رأى فيها أجمل سماء في الدنيا.

لا يزال ذلك كله يضج في رأسي بقوة، ويهزني بعنف كلما تذكرته. ولو أن واسيني لم يتوقف أبداً عن حماقاته التي تراكمت حتى أصبحت لا تحصى. فقد غير كل شيء في رواياته، حتى إسم ابنتنا مايا، وحياتنا، ولم يحافظ إلا على ظلال الأشياء التي يصعب القبض عليها. هو يعلم جيداً أننا لم نربح من حماقات الدنيا إلا هذه الطفلة الشقية ولحظات. كلما تذكرتها في تفاصيلها، ازددت حنقاً عليه. ماذا كان يضره لو أن مايا الآن بين يديه، «يفلّي» شعرها

كما تعود أن يفعل معي، يدندن في أذنيها أجمل الأغاني القادمة من بعيد مثقلة بالأساطير الأندلسية، يملك صوتاً مليئاً بالحنان يورث الكثير من الأمان. ماذا لو حكى لها عن جدها الموريسكي، لها حق كبير في قصته، وورثها بعضاً من جنونياته الكتابية؟ ماذا لو أوقفني عند الباب وضمني إلى صدره وقال: أرجوك لا تخرجي، في حاجة ماسة إليك. كنت رميت كل وعودي لرياض، ولأمي، عرض الحائط، وبقيت معلقة على صدره حتى الموت. ماذا لو كان واسيني عاقلاً قليلاً قليلاً ونسي وجوديته المخبولة؟

كنت أولى قرائه، ولهذا أشهد أني كنت أولى ضحاياه أيضاً.

اليوم، كل شيء تغير، حتى النظر للخيبات الكثيرة.

كلما قرأت عن مريم، شممت رائحة الدم الحادة، في يديها، وبين أصابعها. رأيتها، عندما كنت حاملاً بمايا، في الكثير من الكوابيس وهي تحمل سكيناً، تريد أن تولدني قبل الوقت. كانت تفتح فمها عن آخره كالذئب، وتقول لي: سأفعل ذلك قبل أن يصل قتلة الأمهات والأطفال. تتلمس بطني. تتحسس سرّتي التي انفتحت كبرتقالة. تحاول أن تقنعني بأن الولادة من الصرة أفضل، أكثر راحة وأقل ألماً، وجمالية أحسن. يكفي توسيع الفجوة قليلاً بالسكين الساخنة، ليخرج الجنين سالما معافى. تلمع السكينة تحت مصباح الضوء الخافت. ينتابني خوف كبير. تمد يديها نحوي. تبرق عيناها بشرر غريب. أوقفها عند حد الصرة. تحاول ثانية وثالثة. أرفض أن تلمس بطني. تزعق في وجهي بأعلى صوتها فاتحة فمها عن آخره، تكشف عن وجهها الحاقد. تظهر أسنانها المخرمة السوداء، ويعلو صوتها الذي هو مزيج من عواء الذئاب، وزعيق الشياطين:

- يجب أن يخرج هذا «الكبُول»[51] قبل فوات الأوان. لا أريده أن يحتل فراشاً ليس له ولكن لغيره. يجب أن يموت.

أصرخ بكل ما أوتيت من قوة. أشعر بانسداد في حلقي. تمد يدها مرة أخرى نحو بطني، أحاول أن أعضها، ولكنها تبعدها:

- أنت حقودة وحسودة وأكثر من هذا كله. غيُورة. مايا أجمل زهرة حب. مايا عمري. ليست «كبول». أجمل مخلوقة في صورة بهاء الآلهة.

الكاريبي الدافئة. في أعماقي شهوة مجنونة كانت تجرفني نحوك. ثم احتضنتني بجنون. كانت الساعة التي لمعت أرقامها في يدي تشير إلى الخامسة فجراً، وكل شيء خال من الحياة إلا أنا وأنت وزقزقة الضفادع الخضراء والصغيرة التي تملأ الأمكنة ويتفاءل بها الناس خيراً. كنا في البداية نظنها عصافير ليلية، ولكن مع الوقت تأكدنا من أنها تلك الكائنات الخضراء، ذات العيون الواسعة. كنت أعرف أنك تركت كل شيء من أجلي، تركت أصدقاءك وأهلك، وحتى لوس أنجلس الجميلة التي قضينا فيها وقتاً جميلاً. لا أتصور أن جنوناً مثل ذلك سيتكرر يوماً، ليس لأن الليالي تلك أثمرت حبيبتي الرائعة مايا، ولكن لأننا كنا خارج كل منطق مستقر للحياة. كنت سعيدة. يبدو أن ليلة البدايات تبقى عالقة في الذاكرة كاللمعة الجميلة التي تستمر معنا حتى الموت. جمال تلك الليالي وأساها العميق، أنها لن تتكرر أبداً حتى ولو شحذنا لها كل حواس الدنيا. أحسن. لأنها لو عادت مرة أخرى بالقوة نفسها، ستقتلنا من فرط عذوبتها.

ليكن. لا أطلب منك الشيء الكثير بعدما خربتني حادثة فقدانك في المنافي، تذكرني فقط وقل إن امرأة أحبتني بعد أن وضعت حياتها كلها على حافة المخاطر الكبرى. تذكرني بقلبك، بجسدك، بلمسك، ببصرك، بلسانك، بأصابعك الناعمة، بكل حواسك الخفية، وبعدها إذا لم نلتق، ليس مهماً. لنا مشترك جميل اسمه مايا سيأتي قريباً، مليئاً بالحب والحياة، سيظل حياً فينا ويذكرنا دوماً باحتمالات حياة جميلة، أتمناها أن تدوم طويلاً لأنها الأصدق.

سيني الحبيب،

لا تؤاخذني على كلامي السابق، كنت فقط أريد تذكيرك أني مازلت هاهنا، بالضبط بالقرب من نبض القلب حيث لا يمكننا الكذب على عواطفنا. فقد منحت قلبي كل الضمانات التي كان ينتظرها، وهذا وحده كان كافياً لكي أسقط بين يديك كقطرة المطر الأولى المليئة بالصفاء والعفوية والشوق.

هل تدري أن غيابك متعب، مثل الفجوة العميقة التي لا يمكن ترميمها؟ صوتك انطفأ وأبوابك مغلقة! لقد جربت فتحها ولكني لم أفلح. فزاد إحساسي

بالاختناق والوحشة. وأخشى من الزلل القاتل، لأنه كلما زاد شعورنا بالضيق، توافرت بقوة، إمكانات الخطأ والانزلاق المميت.

هل تدري حبيبي؟ قد تكون هذه آخر رسائلي التي تصلك من أرضنا المشتركة. سأغيب شهراً بكامله في أوروبا مع رياض. سأكون بين فيينا وبرلين. لا أنصحك بالمجيء لأني أخاف أن أنسى نفسي وأرمي بكل توازني عرض الحائط، وآتيك مستسلمة كسجين يسلم نفسه بخياره. أخاف عليك كثيراً من هبلي، ومع ذلك، إذا أردت أن تترك تربتك ومنفاك، وتقطع أحبالك، وتأتي، فأنا أنتظرك هناك، وسأخبرك ريثما أصل بمكاني. أشعر أحياناً كأني بمجرد خروجي من وهران، وعبوري الحدود، سأختنق قبل أن أنتهي من الكيلومتر الأول المفضي إلى العدم. ولم أعد أنتظر الآن الفرصة للخروج من هذا الضيق الخانق، بعد أن قضيت زمناً طويلاً في انتظارك. كل يوم أستحضرك وأسمع خطواتك بلا جدوى.

أليس جنوناً؟ أنتظرك وأعرف سلفاً أنك لن تأتي...

ربما في أعماقي لا أريدك أن تأتي حفاظاً على سرنا الجميل.

....

سينو، حبيبي،

رفضت أن أبعث لك برسالة مبتورة بدأتها في وهران. ها أنا ذي أجرها ورائي كمن يسحب قدراً جميلاً لا يعرف أبداً إلى أي جنون سيقوده.

أنت في ذاكرتي دوماً، خيط من نور مفتول بأشعة الشمس التي لا تطل على غرفتي الصغيرة، إلا قليلاً. أشعر الآن بالهدوء بعدما تخلصت من شقاوة يونس ومتاعب مايا التي تذكرني في كل مرة أنها أصبحت كائناً حياً، تستعد للخروج. مايا لم تكن مثل يونس، الذي جاء بهدوء كبير. حمله لم أحس به أبداً. فوضاها قاسية، ولا تتركني أنام أبداً. تتحرك وفق مزاجي. عندما أكون سعيدة، أشعر بها ترقص وتطير في بطني كالفراشة، وعندما أكون منكسرة، أشعر بها تنتبذ مكاناً قصياً في رحمي، وتنكفئ على نفسها

وتظل تنظر إلى كل حركاتي. متأكدة أنها ستكون أجمل من النسمة لأنها أحلى هدايا العمر التي توصلني بك حتى الموت.

يبدو أن مهالك الدنيا سرقت منك ذاكرة الأشياء الصغيرة. هل نسيت يوم ميلادي؟ في مثل هذا اليوم الربيعي انزلقت من رحم أمي شهرين قبل الوقت وكأني كنت مستعجلة للوصول إليك. تخيل؟ لم أمكث في بطن أمي سوى سبعة أشهر وسرقتُ الشهرين من زمن لم يكن لي، ومن فضاء لم يكن من الممكن المكوث فيه طويلاً.

قلت لك عندما تريد أن ترحل إلى هنا تعال ولا تسأل. ستجد امرأة تنتظرك بشغف عندما تستقيم الأمور ويصبح البشر بشراً والناس ناساً والدنيا دنيا.

تخيل! أشعر بالعالم كله يناصبني العداء، بكنائسه وجوامعه اليهودية ومساجده، ورجاله ونسائه، وعساكره ومدنييه، ملائكته وشياطينه، مومساته ونبياته، مؤمنيه وكافريه... ألتفت صوبي فلا أسمع إلا الصرخات المتتالية وضجيج تكسر الأشياء والارتطامات المتتالية وكأن بنايات عالية تتهاوى عند رجلي. لا أدري لماذا كل هذا العمى الكليّ. الحروب عمياء ويرتكب فيها الناس أبشع الجرائم. لست أنا من سن قوانين الدنيا الظالمة. ولست من أباد شعوب الهنود الحمر في جبالهم الآمنة قبل أن يدخلها اليانكي الحضاري! ولست من محا بشر تاسمانيا من الأراضي البكر، ولا من قاد اليهود إلى المحرقة، ولا من اقتفى آثارهم ومخابئهم ليمحوهم. الذين اخترعوا المحرقة هم من يشغلها اليوم في أماكن أخرى. وهل يكفي الاعتذار عندما تكون ملايين الأرواح تتساءل فقط لماذا قتلت؟ لا مسؤولية لدي فيما حدث على هذه الأرض فلماذا هذه الروائح الكريهة من الضغينة والعداء المستشري؟ وحياتك، وحياة مايا الغالية، لو يقدر لي أن أعود ثانية إلى مدينتي، سأرتكب الحماقات نفسها. وسأحبك كل يوم أكثر. وسأنجب منك في خواتم الشهوة، أجمل الأطفال وأحلامهم.

حبيبي...

أول ما وصلت إلى فيينا، طلبت من رياض أن يرافقني إلى الأوبرا القديمة، أوبرا الدولة[٥٢] لمدينة فيينا، ولكنه رفض. ذهبت وحدي. كنت سعيدة بعزلة داخل قاعة واسعة لا ترى فيها إلا ألوانها الزاهية وجمالها. أشتهيها فقط لأن عظيماً مثل المايسترو كارايان[٥٣] كان وراء تجديد نظامها. هو الذي عمم الأوبرا باللغة الأصلية لأنه كان يرى في ذلك عطراً خاصاً يأتي من بعيد. وهو من ربطها بأوبرا لاسكالا لمدينة ميلانو الإيطالية ليهويها من ثقل القرن التاسع عشر. تخيل! في كل فصل تقدم أوبرا الدولة خمسين أوبرا وقرابة العشرين باليه؟ شيء مدهش ولا يصدق. أية مسافة تفصلنا عن هؤلاء من حيث الرهافة ونحت الداخل؟ كنت كلما اشتهيتك، استحضرتك بالاستماع إلى موسيقى فاغنر. وأدفن خوفي وعزلتي في ملاحمه المذهلة. فأجدني عالقة بيدك اليمنى، أدخل المدينة الساحرة، وأهيم في شوارعها وباراتها قبل أن أدفن نفسي بلذة، في مسارحها التي يهدأ فيها كل شيء إلا الروح العالية التي تنسحب من الأجساد وتبدأ في الطوفان بخفة على جميع الرؤوس. أشتهي، في غفوتي، أن أدفن كل شيء إلا ملامح وجهك، فهي تمنحني الرغبة العالية في الحياة والاستمرار. عندما ينغلق كل شيء عليّ في غيابك، كنت أستنجد في عزلتي، في المخبأ، بالكتب التي لم تبرحني أبداً. كنت أدرك بعمق أن أكبر واق من الجنون والموت المجاني هو الكتاب. قرأت جنون نيتشه وهيدجر، وقصائد شيلر المذهلة التي جعلتني أزداد هشاشة. وليس غريباً أن بيتهوفن الذي غنى له نشيد الفرح في سيمفونيته التاسعة. فرديي غويسبي، كان يحبه أيضاً لرشاقة كلماته. وقرأت صديقه غوتيه الذي كتب معه كزينيس[٥٤]، التي تضعني قاب قوسين أو أدنى من الجنون الجميل. يبدو أن فيّ شيئاً قوياً قد تضامن مع الموسيقى والشعر، ويرفض أن يموت أو يستسلم للخوف الذي يحيط بي من كل جانب.

لا أدري إذا ما كنت سأتمكن من الانتهاء من هذه الرسالة. فقد تركت ورائي مدينة حزينة تفرش يومياً جنائزها في الساحات العامة، في الكنائس المتخفية والمساجد العتيقة. ينزل الليل بسرعة على جراحات المدينة وأنينها. لقد صارت المدينة تغلق أبوابها مبكراً بينما الأمطار التي تنقر نافذتي المعزولة، لا تتوقف عن النزول. حتى رياض أصبح يخاف من

المستقبل. لقد تغير كل شيء. أراك يتيماً داخل كل هذه الوحشة. يا... لو فقط كنت تدري أن حبك يكلفني عمري، لأنه مثل كل الأشياء الجميلة، كثير الدفق، وقصير العمر.

أضع رأسي على الوسادة وأحاول عبثاً أن أنام وأضغط كثيراً كي لا أحس بكل هذه الشجون الطاغية. لا شيء يسعفني الآن، حتى وجهك صار يهرب مني وينزلق كالماء. أحاول أن أضع ملامحه بين كفي ولكنه بسرعة يتسرب من فجوة ما، ويلتبس مع النور الآتي من النوافذ الممطرة. أراك تحكي لي عن أشياء لم أكن قادرة على فهمها ولكني عندما فهمتها صار من الصعب علي اللقاء بك فقط لأقول لك كم كنتَ على حق، حبيبي. لقد دافعتَ عن حريتك، مثلما دافعتُ عن حقي في أن أكون إنسانة عادية، تحب وتتزوج وتنجب أولاداً.

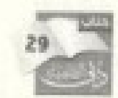
سيني حبيبي،

لا أدري إذا ما كان فعل الموسيقى هو الذي يسرقك نحو الأقاصي؟ بي شهوة غريبة لاستعادة تلك الليلة التي جمعتنا في الغابات العذراء. أيعقل أن تلتبس اللحظة المعاشة بالحلم؟ أفكر فيك وأنا الآن تحت سحر المدينة، وفي كل ما يجعلك قريباً مني. كيف أصبح كل شيء موحشاً في غيابك؟ المدن هكذا حبيبي، مثل البشر، لا تؤتمن. لا أدري لماذا؟ كان هتلر وطنياً حد الخراب. حتى أني أتساءل أحياناً كيف يمكن لمدينة هشة وجميلة أن تنجب قاتلاً محترفاً بحجمه؟ لكن... ماذا فعل المنتصرون ببرلين التي استباحوها، سوى حرقها وإبادة سكانها؟ كان الأمريكان يقولون عن اليابانيين إنه لا يوجد نساء بريئات، ولا أطفال ولا شيوخ، مادام الكل يتدرب على حمل السلاح للدفاع عن مدنهم. لا يوجد نازيون وغير نازيين ما دام كل الألمان والنمساويين، ساروا في ركب هتلر. أعطى المنتصرون لأنفسهم كل مبررات الإبادة. وعندما اندفع الروس والإنجليز نحو برلين، لم يكونوا أكرم ولا أفضل من غيرهم. أية كذبة تلك التي ينشئونها لتخبئ التقتيل المنظم؟ الذين احتلوا برلين، تحولوا بفعل القوة إلى نازيين جدد، فسرقوا أموال الألمان ومدخراتهم البنكية بعد أن أهانوهم، وفتحوا الملاجئ، وقتلوا الناس

بالعشرات ظلماً. في ملجأ بوزن[55] ببولونيا، طلبوا من السجناء حفر قبورهم ثم دفنوهم أحياء. في أمكنة أخرى، في ملجأ دارمشتادت[56]، الضخم الذي لا يختلف في أي شيء عن الملاجئ النازية، شنقوا المئات لأنهم رفضوا أن يلصقوا بأنفسهم تهمة لم يرتكبوها. أنا متأكدة من أن الألمان سيتكلمون يوماً، عندما تهدأ مآسي الحرب والخوف من التبعات القاسية. أشم ذلك في كل الناس الذين تعرفت عليهم في هذه المدينة الجميلة.

حبيبي... سيني الغالي،

أية امرأة ستصادفك في تلك الأرض اليابسة، في غيابي، وتعيد لك ألق كل ما افتقدته. قل لها أحبك إذا أحسست بذلك، وقل لها أيضاً أنك تعيش بتوقيت امرأة لا حياة لها إلا النور الذي يدخل من النافذة محملاً بعطرك وأشواقك! قل لها ثمة امرأة مصابة بجنون رجل لم تعش معه إلا ليال معدودات، في غابات مهجورة من كل نفس بشري، تساوي اليوم عمراً بكامله. وهل سيكون علي أن أشكرها لأنها أعادت لك الحياة، أم أكرهها لأنها ستسرق جزءاً من ذاكرتك الحية؟ هل أخفيك غيرتي؟ أشعر بمرارة قاتلة كلما أحسست بظل امرأة يعبر جسدك الذي لم يكتب له أن يرتاح قليلاً من هموم الأشواق المسروقة. لقد اخترتَ حبيبي أصعب المسالك وأقساها. أراك تحكي عن شيء لا أفهمه، لكن صداه العميق يصلني قوياً لأنه يدخل في المسامات بلا استئذان. أفكر فيك كثيراً وبالمدينة التي تحتضنك الآن، وبموسيقى الجاز التي تسرقك مني متسللة عبر الأدخنة الكثيفة للمقاهي الشعبية. من هي تلك المرأة القوية التي أعادت إلى أصابعك الحياة وسمحت لك أن تعزف لحناً هارباً على كل تفاصيل جسدها المضيء؟ لو تعلم كم هو قاس أن تفتح عينيك على عالم لا يرحم طفولتك! أنا عاشقة لك، مجنونة بك مع وقف التنفيذ، ليس لأني لا أملك الجرأة، بل لأن في داخلي الصعب، عالم يتناحر بلا رحمة. قاسية هي الدنيا حبيبي، قاسية جداً. ألا تظن أنه ليس من العدل أبداً أن أكون بكل هذا البؤس وهذه القسوة الخانقة؟ ولأنني لا أريد أن أحقد على حماقات أحد، أشتهي أن تعرف كل شيء عني وسط هذا العالم الذي يتماوج ظلماً. أريد فقط أن أحبك. وأن أقبل بحماقة اللذة الجميلة التي حملت فيها منك بطفلة مذهلة سأسميها مايا كما اتفقنا. لأني أعرف أنك تحب هذا



الاسم! ستنمو كزيتونة قوية في البطن وستنزل في وقتها الذي تشاؤه. لا تخف عليها، فهي ستكون جميلة وصلبة وتشبهك. لست يائسة من لقائنا القريب. إن لحظة جنوننا التي أثمرت مايا، كانت أصدق شيء في علاقتنا، وأن الله الذي أخلى المدينة بجبروت أوامره، لم يتخل عنا. ستسألني من أين لي بهذا اليقين كله بأن القادمة ستكون صبية. لقد ذهبت عند الطبيب وأكد لي للمرة الثانية أنها صبية. مايا.

أيها الشقي الذي نسي أن جزءاً منه ينبض دائماً بالحياة في غيابه. أشعر أحياناً بأني عبرت مغمضة العينين بمحاذاة كل ما هو مهم! ولكن أجمل لحظة مهمة تستحق أن تذكر، عندما أبدأ في تعداد فتوحاتي في الدنيا، هي وجهك الذي لا يموت أبداً في ذاكرتي ودهشتي وأنا أكتشف أسرار مايا في بطني. أدفع حياتي حبيبي كلها مقابل أن أراك سعيداً، وأراك تأخذ مايا للمدرسة وتعود بها. تنزلها بالضبط عند الباب وتنسحب قبل أن يراك قتلة الروح. أشتهي أن أمنحك كل ما يعطي لحياتك معنى، وأن أكون أمامك دوماً، ثمينة كقطرة مطر، وشهية كتفاحة. أحلم أن ألتصق بذراعك، وأغمض عيني بحيث لا أسمع إلا صوت البحر الميت وهو يداعب قدميك وأنامل رجلي، ويهدهد غفواتي المسروقة.

المطر ينزل في الخارج، بارداً وقاسياً وشجياً، لكني أشعر بدفء خاص كلما اجتاحني وجهك الجميل الذي لم يتخلص بعد من دهشة الطفولة والطيبة العفوية. كم أنت دافئ عندما تصوب نظرك نحو المبهم الذي لا يأكلك ولا يبعدك عني إلا ليدخلك فيَّ بِهَبل المشتاق.

ها أنا ذي الآن أشعر بكل أغاني المدينة المسروقة تأتيني دفعة واحدة. في فيينا مثل يقول: إذا أحببتَ، لا تضيع وقتك في تعداد الخسارات الهامشية، لأنك ستضيع الأهم: ممتع أن تحيا أولا وتحسب فيما بعد. وأنا أحببتك ولهذا ليس في نيتي، أن أخسر ما تبقى.

اعذرني حبيبي، على ثرثرة ليس هذا وقتها، وعلى كلام قد لا يبدو لك مهماً، ولكني أريدك فقط أن تعرفني جيداً، وأن تدرك أن حبي لك كان صادقاً

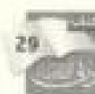
ولم أكن معنية بأن أريح بحبك وهشاشتك نحوي، رجلاً منكسراً، ولكن حبيباً يملأ قلبي حتى وهو بعيد، يدور داخل دوامة شبيهة بتلك التي أعيشها.

أحبك ولا أطلب منك شيئاً يخل بنظامك الحياتي. أعرف أن جنونك عادل، لأنه جنون كاتب، وأعرف أنك لن تستطيع إنقاذ نفسك بسهولة من الشوق المتغطرس. فقد أصبحتَ مثلي، مثبتاً في لحظة سحرتنا ثم سجنتنا في عمقها. أملي أن تتوصل إلى الخروج من هذه المحنة بالشكل الذي تراه مناسباً. أمام الموت نبتدع كل حيل البقاء الممكنة. أتمنى لك فقط أن تظل حياً ومقاوماً لا تكسره المنافي. ربما التقينا في مكان ما في هذه الدنيا التي ضاقت على ذويها؟ أنتظرك غداً، بعد شهر أو بعد مائة سنة، لا يهم، في أي أرض، وباتجاه أي بقعة أخرى أرحم، لأن العيون الهمجية لن تتسامح مع حماقاتنا. المعتوهون، وسدنة الأخلاق، وفقهاء الزور، والأزواج المغدورون، والساسة الفاشلون، سيجدون لذة كبيرة في شنقنا في الساحات العامة. لقد استولوا على كل شيء، حتى على الهواء والماء وقطرة الحياة الأخيرة.

أقف معك في جنونك المستحيل، لا لأني مجنونة مثلك فقط، ولكن لأني أحبك وأشعر بالظلم الذي سُلِّطَ علينا وسلطناه على أنفسنا. هل تدري الفداحة التي لا ترمم؟ لن أصمت عن حماقتك حتى تضعني تحت التراب. الله غالب. أشعر دائماً بحرقة وبعبثية مفرطة تأكلني من الأعماق. ألم يكن من الأجدى أن تكون الآن معي، في هذه المدينة الجميلة، تضع يدك على بطني وتتحسس نبض ابنتك التي ستأتي؟

سيني، عمري وحبيبي.

ما زلتُ أنتظرك. أنت لست بعيداً عني، باريس على بعد قبلة. تعالَ! أو لمسة! أو همسة! ربما استطعتُ فقط أن أنام على صدرك قليلاً عندما يصير قلبك خالياً من امرأة أخرى ولو للحظة واحدة. ولا تنس أبداً أن هناك في الظلمة القاسية، ثمة امرأة تحبك، تنسج كالفراشة، من خيط الظلام الأسود والطويل جداً، ونار الشعلة المتقدة، حداداً هادئاً وأملاً صغيراً للقاء بك ذات يوم. أخاف فقط من الصدفة القاتلة التي تخلط كل الأوراق الأكثر ترتيباً وتعريني وتعريك معي.



أنتظرك حتى ولو كان ذلك على أكثر الحواف خطورة وجنوناً.

ساعدني حبيبي فقط لكي لا تأكلني الصدفة القاتلة وأظل كاللمعة في قلبك الجميل.

حبيبتك ليلي التي تنام دوماً على أمل عودتك.
وهران، فيينا، برلين ٤- ٤- ١٩٩٦.

هل يكتب لي أن أراك؟

أعود لك ثالثة لأني لم أشبع بعد من سماع صوتك وخوفي.
«يبدو أن الأمور مطولة كثيراً».
«الكتكوتة» العظيمة التي صنعناها في أجمل مكان في الدنيا، لا تريد أن تأتي الآن.

منذ يومين و أنا أنتظر مجيء مايا[57] ولكنها تتعنت وترفض الخروج. قتلتني آلام الطلق. رياض مسافر، ولا أريد أن أزعجه. سعيدة أن أعطي الحياة لمخلوقة من نور، أنجزناها في أجمل غابات الدنيا، وأكثرها هدوءاً وسكينة، بين جزيرة القديسات وتحت شلالات جبل الكبريت الدافئة التي تشبه السحر عندما دخلنا تحتها، لا أدري أي سحر أخذني. استسلمت لك كلياً. كان الماء ينزل من الأعالي وأنت تسندني إلى صخرة كانت في شكل سرير جميل. كنت أشربك مع الماء ورغوة اللذة، وأتدفق فيك كالينابيع البكر. كنا من وراء غلالة الشلالات التي كانت تفصلنا عن كل شيء إلا عن تساقط المياه وزقزقة الضفادع الخضراء الصغيرة التي كثيراً ما وجدناها ملتصقة بأدوات الطبخ، في عيونها المدورة براءة غريبة. السكان الأصليون تآلفوا معها بقوة. عندما صرخت من شدة النشوة، لم تضع أصابعك على فمي، ولم تقل شيئاً. حسناً فعلت، لأنك لو قلت لي لا تصرخي، سأهجر سريرك طوال حياتي. عادتك البائسة، التي لا تستيقظ إلا في الجزائر أو في البلاد العربية؟

الطبيب قال لي عندما زرته اليوم، ننتظر قليلاً. قلت لك لا تأتي خوفاً عليك مني ومن القتلة الذين صاروا يملأون المكان. سأدعوك في الوقت المناسب. لا تزعل مني حبيبي، أرجوك. أعرف أنك بالعاصمة من أجل «سمينيرك» الشهري. لكني لا أريد أن تؤذي نفسك وتؤذيني معك. ما زال لدينا متّسع من الوقت للحب والحياة. يا مجنون أنا أحبك فلماذا تؤذي

نفسكِ وتؤذيني معك. ليس في نيتي تعذيبك ولكني مخنوقة ولا أستطيع رد أي شيء. أنت قريب مني. أنت فيَّ. أكلمك و أتمنى أن أعطيك كل ما في القلب وأستشيرك في كل ما يشغلني،لكن عالمي صار مغلقاً.

حبيبي. هذه الرسالة كتبتها البارحة فقط و أنا ممددة على الفراش، و كان علي أن أتخيل سقف الغرفة سماء واسعة لكي أستطيع الكتابة. أتأمل الأنجم علني أعثر على الطريق الذي ضيعته بالصدفة المجنونة. الصدفة المجنونة شاءت أن أحمل مايا في بطني. لو لم تكن منك لتخلصت منها. اليوم صار بطني مدوراً مثل التفاحة، وابنتك أصبحت حقيقة. كم أتمنى أن أراك يوم الولادة، لكني خائفة من المفاجآت الكثيرة. سأخبرك. أمي معي دوماً وعائشة بجانبي، تقوم بكل شيء، حتى بوظيفة ساعي البريد. الله يكثر خيرها. تصبرني وأصبرها. كل مرة أشعر فيها بالسعادة، تأتي الحالة التي تنغص علي حياتي. لدي شعور دائم بأني كلما رأيتك، سيكون ذلك هو المرة الأخيرة، ولهذا أريد أن أشبع منك. أن لا آخذك على ظهري كشوق محموم. أن أحبك فقط. لا أدري لماذا أشعر أن هذه الولادة ليست كالولادة السابقة. يونس لم يعذبني كثيراً. لقد جاء بشكل يكاد يكون طبيعياً. لكن هذه المهبولة تتدلع كما تشاء.

سيني جبيبي...

ياه... كم تتغير الدنيا؟ وأنا صغيرة، وضعت للحب تصوراً جعلته في ذهني. وها أنت تأتي اليوم و بمسحة يد واحدة، تكسر كل يقينياتي وأوهامي. معك أحيا. بدونك أموت، ومعاً ننهب كل ما رفضت الأقدار منحه لنا بسهولة، ونشعر أنه حقنا الطبيعي. عندما فشلت قلت أنا أبالغ. سأنتظرك حبيبي مهما بعدت المسافات. ستكون لي بقلبك وروحك. لن يخدعني أحد فيك. فأنا أعرفك من داخلك. رجل زاخر بالعطاء. ستبقى فرحي الذي لا يموت أبداً. نخب لقائنا ونخب الذين نحبهم، ونكاية في القتلة والعسس والعيون الباردة كالمسدسات. كنا نعيش لحظة الاستثناءات الكبرى. وكم كنت أود أن أسألك من علمك كل هذا الدلال؟ هل هي امرأة مثلي، أم أنه ولد معك؟ أم تراك رضعته من حليب القرية؟ فيك شيء غريب ينبع بعفوية. تنازلت عن كل حقوقي

مقابل وجهك. وها أنا ذي داخل الأرض الخراب، أرمي بالبذرة لأرى شوقها وترعرعها وانبثاقها. ستزهر ورداً وبنفسجاً كما تشتهيها. سنرويها من فيض عطاءاتنا. لن أخاف من شيء، ففيك كل ما اشتهيت في حياتي.

لا يهمني أنك اليوم لم تعد لي، ولا غداً عندما تضعك امرأة أخرى على صدرها، وتحاول أن تزيل عنك وحدتك، وحزنك، ووحشة المكان، والخيبات. كل هذا لا يهم، فأنا لا أطلب منك ما ليس لي. يبدو لي أن الحياة لم تمنحنا الكثير، ولكنها منحتنا سعادة اللقاء العابر، وجمعتنا في سرير واحد، ولو كان ذلك لزمن مسروق، ولكنه كافٍ لأن تجعلني أجن بك كلما تذكرتك. تكفيني مايا. ستكون حالة اختزال لكل هذا الحب المستحيل، وهذا الشوق القاتل.

النزيف لم يعد يزعجني، لكني أشعر بتعب في القلب. «ابن الكلب» هذا القلب، كلما نسيته، ذكرني بهشاشته. البارحة رأيت شريطاً علمياً عن القلب في التليفزيون، ذكرني بحالتي وحالتك. رأيتهم كيف يفتحون الصدر، ويعوضون القلب بجهاز آلي، ثم يملأون القفص الصدري بالماء البارد، ويعزلون القلب عن أي عمل حتى يتوقف، و يبدؤون بعدها عملهم مثل أي مصلح للسيارات. لكن مزاج القلب صعب، إذ يمكن أن يظل نائماً حتى بعد ربطه من جديد بالدورة الدموية ومحاولة إيقاظه. يعوضون الشرايين المسدودة بشرايين ينزعونها من الساقين، يوصلون من خلالها القلب مباشرة بالشريان المركزي. شيء مخيف ومذهل. لأن الشخص الذي كان مجهداً ومتعباً، بعد مدة قصيرة أصبح إنساناً عادياً وممتلئاً حيوية. أفكر أحياناً إذا لم يكن من الأجدى التفكير في عملية من هذا النوع لحسم مشكلة القلب هذه.

مايا لا ترحمني لحظة واحدة. صارت متعبة. إنها ترهقني وكأنها تريد أن تثبت لي ارتباطها بي وحبها لي. لا تشبه في شيء يونس المسالم. سأحاول أن أنسى قسوة الحياة وأني لن أموت، وأني سأعيش لك ولمايا، ولحبيبيَّ يونس الذي كثيراً ما أنساه.

لا تشغل بالك حبيبي. أنا في مستشفى جميل، وعائشة تملأ حضوري، كلما حاولت الابتعاد عنك، رمتني بين ذراعيك وهي تضحك: «لو كان جيت في مكانك، والله ما نخليه يرقد دقيقة واحدة. ماذا ربحت من زيجة سخيفة؟ ثم.. كم ستعيشين؟ كل يوم يذهب، يحسب من رصيدك وليس من رصيد غيرك. جماعة الكارتيل لا تربي الكبدة على النساء. يشترون نساء جاهزات للمتعة، في كل الأمكنة التي يزورونها».

لا شيء ينقصني حبيبي. أنتظر فقط اللحظة الآمنة التي سأدعوك فيها لتأتي، وأراك. مشتاقة إليك، لكن حياتك عزيزة عليَّ، ولا أريدك أن تكون ضحية لأنانيتي. لست في حاجة لاختبار حبك. أعرف أنك تحبني، وهذا يكفيني. أريدك أن تظل حياً لترى ابنتك وتحملها بين يديك. لا أريد أن أكلفك مزيداً من الشقاء. في الوقت الحالي الوضع صعب جداً. وقت رياض أصبح مرتبكاً. يعاني من صعوبات مالية لا أعرفها بدقة، ولا أريد أن أعرفها أبداً. يخرج ويدخل، يسافر ويتحرك، بلا نظام مسبق. أنا أيضاً تعبت من الكذب. جفت ذاكرتي. لا شيء يعطيني مبرراً للحياة إلا أنت. وإلا ما جدوى ما يحدث من حولي؟ أرأيت لماذا أتشبث بك باستماتة؟ حتى عندما أريد أن أتخلى عن أنانيتي، أجدني في عمقها.

أشتهيك أن تكون بجانبي، ولكني أرجوك لا تركب رأسك و تأتي. لا تهتم كثيراً، سأدبر أمري. لقد تعودت أن أدير شؤوني في غياب سلطة رياض. هذه المرة أسامحك. ستتركني ألد وحدي داخل الألم والصعوبات والخوف من الموت، أجمل نجمة! لكن في المرات القادمة سأطالب بحضورك معي على طاولة التوليد، وأعط يدك لحظة الألم حتى أدميها، لتعرف فقط ما معنى أن نعطي الحياة لكائن هو جزء من لحمنا الذي يقطع منا. أتذكر كلامك اليوم بمزيد من الحب والصبر:

«العلاقة الحقيقية هي ما ينشأ بين الجنين وأمه. تحمله، تكلمه، تتألم له وبه، وبعدها تقبل حالة التمزق في جسدها!؟ والأب أثناء ذلك ماذا يفعل؟ لا شيء. ينتظر كأي شخص أجنبي، لا يهمه الأمر إلا قليلاً، يترقب دوره في عيادة. كل رجل يستطيع أن يكون أباً لأن العلاقة اكتسابية، لكن امرأة واحدة،

وحيدة فقط تستطيع أن تكون أماً، لأن العلاقة طبيعية».

كم كنتَ محقاً.

أحبك. أحبك بجنون، وأخاف عليك من أنانيتي. لكن هذه المرة أسعى لأن أكون متعقلة حفاظاً عليك. علينا جميعاً. ولا أطلب منك الشيء الكثير سوى أن تمنحني ما تستطيعه من قلبك ودفئك وأشواقك ودعواتك. أضع يدي على وجهي، أغمض عيني، وأحاول أن أسترجع صفاء وجهك: ياه؟ ما أبعدك وما أقربك إليَّ؟

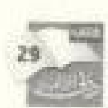
كلما وجدت وقتاً لنسيان الألم، أهرب نحو رواياتك. ما أرق قلمك، وما أقساه! روايتك الأخيرة قرأتها أكثر من مرة، لكنها المرة الأولى التي أقرأها بحرية ولذة، وأنا في فراشي وليس في الحمام. كلما قلبت صفحة ارتعش قلبي خوفاً من أن يكون رياض أو أحد زبانيته، قد سمعوني و كشفوا سري. من أعطاك كل هذه الأناقة في الكلام وهذا العنف؟ لقد وضعت قصتنا بين أيدي كل الناس! هل هو الألم الذي جننك وهبلك؟ هل هو سحر الكتابة الذي لا يقاوم؟ هل كنت مثلي، ضحية أبجديات الكلام؟ سعيدة بهذا الموت، فقد منحتني أجمل هدية: حبك. حولتني إلى لغة، وهل هناك حلم أجمل بالنسبة لامرأة من تحويلها إلى أبجدية مشتركة؟ لا يمكن أن نكتب هكذا إذا لم يكن من وراء ذلك شعلة حارقة. أنا التي كنت أظن أن كل شيء انتهى، أجدني اليوم معلقة على كلماتك وأشواقك وجنونك الذي لا حد له.

حبيبي، كم أشتاق إليك.

رسالتي هذه المرة تشبهني كثيراً. مرتبكة، وحروفها هشة جداً. ربما لأنها الأخيرة. يبدو لي أني هذه المرة سأتركك. الطبيب لم يكن متفائلاً لوضعي. لم يقل شيئاً، ولكن تعابيره لم تعجبني. وهو يقرأ نتائج التحاليل الطبية. طالبني بمجرد استعادة راحتي إجراء فحوصات رحمية للتأكد من أن لا شيء في عنق الرحم.

«عينك على مايا حبيبي، إنها أجمل هداياك».

عندما تكبر مايا، خذها إلى صدرك. أدخلها في أسرارك، كما فعلتَ معي،



اتركها ترى النوارس وهي تقفز من أمام رجليها الصغيرتين قبل أن تدفن في الضباب، وبعدها عمدها في مصبات أنهار الغابات العذراء. عندما يملأ النور لأول مرة عينيها الطريتين، ستصيبها غشاوة، وبعدها غفوة قبل أن ينفتح أمامها الشوق بكل قدسيته وعظمته. ساعدها على امتطاء عوامة الحياة، وسيرا مع بعض، ستريانني في الأفق. قل لها إن أمك هناك وسنصل إليها ذات يوم، ولكن اخبرها بأنك والدها واكشف لها سراً سيوجعها في البداية، وستقاطعك زمناً، ثم تعود إليك لتسأل عن قصة أمها معك.

لا أدري من أين يأتيني كل هذا الخوف؟ الله بدأ يسمع دعواي. أريد أن أغادر هذه الأرض وأنا قادرة على المشي، والحب، والتمييز بين الخير والشر، حتى أستطيع أن أقف أمامه بكبرياء وحب. لا أريد أن أدخل عرشه مهدمة. كنت دائماً أحسد عائشة التي تركت سعادتها الزوجية الوهمية، وركضت إلى بيروت، وراء صديقها الفلسطيني الطيب، لتنام على ذراعيه أيام الاجتياح الإسرائيلي، ووزعت معه جريدة المعركة، قبل أن يستشهد في محيط ملعب بيروت. الحب هو سيد الكرامات الكبرى.

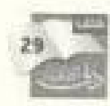
أستطيع اليوم أن أموت بدون تردد.

لا شيء لي سوى حبك والموت فيك. من هذه الناحية، صممت أن لا أعادي قدري حتى ولو قادني ذلك إلى حتفي. لا أريد أن أزيدك شقاء على ما ستعانيه. أعرف أن حبك لي كبير ولهذا، عندما ألد سأكون أقوى من عاصفة. وعندما أرحل، سأرحل بوجهك وقد أترك لك ما تقاسمناه بعشق كبير. وإذا حدث و أن ذهبت معي مايا، لا تحزن كثيراً. حافظ على نفسك. سننتظرك هناك. ستكون وحيداً داخل العزلة، وسأكون بصحبة هذه الدلوعة التي لا شيء يرضيها إلا إذا سحبتني معها. الأطباء لم يقولوا شيئاً، ولكني أعرف من عيونهم أن الولادة ستكون عسيرة. والقلب المريض والهش، سيكون تحت رحمة مزاجه الخاص. يمكن أن يتخلى عني في أية لحظة. قلبي غير وفي معي، ولهذا فأنا لا أثق فيه، وأخاف أن يخادعني ويأخذني على حين غرة.

هل تعرف أنك أهبل رجل عرفته في حياتي؟ صحيح أني لم أعرف الكثير ما عدا سلسلة المجانين الذين تحدثت لك عنهم، ولكن مع ذلك، أنت

وحدك. وحق ربي وحدك، ولا أحد يضاهيك حبيبي؟ شيء فيك يستعصى على مقاومة أية امرأة مهما كانت. أيها المهبول، ألا تخاف علي وعليك؟ ترميني هكذا في جحيم الموت كأية أضحية فرعونية توضع في قارب خال من الحياة، وتُترك وحدها، في مواجهة الموت، أمام إله قليلاً ما يرحم؟ اليوم فقط انتهيت من قراءة روايتك، ووضعتها جانباً. بقيت مع دهشتي، هل هذا الرجل يحبني إلى هذه الدرجة ولهذا يورطني إلى درجة قصوى؟ بقيت في دوامة وحيرة وكل أجوبتي انكسرت. هل الحب يدفعنا إلى هذه الدرجة من التخيل، بل والافتراض الذي قليلاً ما يخطئ عندما يكون صادقاً؟ أنت لا تدري أنك تمنحني قدراً لا يوصف من قوة المقاومة. عدت إلى المطبخ مرة أخرى وأنا لا أدري ماذا أفعل؟ ماذا لو قرأ رياض هذا النص؟ ماذا سأقول له. لم يعد في حاجة لسماع ما يرتبك في قلبي. هو نفسه مل مني، ولم يعد قادراً على تحمل هذه الحالة. منذ مدة وأنا أقرأ كتاباتك في الحمام حتى لا يشك في أحد، ولا يحس بالنار التي كانت تأكلني من الداخل. الخوف ينتابني من القتلة المتسترين. كلما كتبت، استحضر الشاحبون قصتنا. عالم بأكمله يتهيأ لمطاردتي بمزيد من الادانة و التنديد. السؤال الذي يؤرقهم: هل صحيح أنها تحبه، وأنها تنام معه كلما خلت به؟ لا يملكون الأجوبة، ولكني أوفر لهم فرصة للحياة من خلال محنتي. يقتاتون من جسدي. أحياناً أتساءل عن قوة هذا المرض المستفحل؟ أيعقل أن يجعلوني قصة لهم ولهن، وأنا أعرف جيداً الأصدقاء والصديقات الذين يعيشون معهم؟ أعرف حتى البيوت التي يرتدنها؟ لماذا المرأة أكثر حقداً على المرأة وأقل تسامحاً معها؟ أعطيت لرياض ما استطعته، لكن حالة العبث كسرتني، ولا أريد أن أموت وأنا في حالة كذب مع نفسي. خطئي الوحيد هو أن مايا منك؟ هم لا يدرون أن مايا هي أصدق وأنجح ما ربحته من الحياة ومن حبنا المجنون ومن هذه العبثية المفرطة للحياة نفسها. أخطر حب هو حب الأفق الغامض. امشِ ولا تسأل. فكلما تساءلت، متّ قليلاً.

انتفضت من مكاني، حدقت حولي. الصمت مازال يلف هذه المدينة الغريب ليس بهذه الغرفة منفذ نحو البحر. ولكني كلما بذلت جهداً، وقمت من فراشي، وأطللت من النافذة، شاهدت فراغاً في الأفق يعطيني الاحساس



بوجود هذا البحر، أو على الأقل يرميني في طوق الوادي الذي كان يحيط المدينة قبل قرن، وقبل أن يجف.

كم أشتهي أن لا أكون، أن أغضب منك بجدية، ولكن شيئاً في داخلي يستعصى علي، ولا يمنحني أية فرصة لرفضك. أشتمك. وكم أشتهي أن أعضك وأدميك، ولكنك مثل الزنبق، كلما ظننت أني وضعتك بين يدي، وجدتك هناك تنظر إلي مثل الجني، تسخر من سذاجتي. كم أشتهي أن أواجهك في مثل هذه الحالات، لا للدفاع عن نفسي، ولكن للصراخ أمام الملأ، أني أحبك. أحبك. لا أريد أن أظل مختبئة داخل صمتي.

الصمت من جديد. كل الليل مر هكذا. النور يتسرب من بين شقوق النافذة. الساعات تزحف بسرعة وعليّ أن أقوم لأمشي قليلاً حتى تكون الولادة سهلة ولا يتعب القلب. هذه الأيام صار ينهكني وصرت أرهق بسرعة. لماذا تصر دائماً بتواطؤ مع القدر، على وضعي في زاوية الفجيعة. ألم يكن بإمكانك أن توقفني عن غيي في ذلك الصيف المجنون؟ تضحك كعادتك أو تنكت!

«أنتِ مخطئة يا حبيبتي. من يقاوم شهوة غابة عذراء؟ أنا لا أعرف سوى الكتابة عن امرأة لم يعرف قلبي سواها. سيأتي زمَن ويحكى عنا إما كشياطين، أو كملائكة. هل تتخيلين عاشقين حقيقيين سعيدين، وهما في غمرة الحب والألم؟ ها أنت تكنسين ذعرك الداخلي. أحبك هكذا وسط هذا الشطط. أنا لست مصراً على قتلك أبداً. أطمح أن أؤنس غربتك وقلقك ووحدتك وخوفك، لتدركي أنك لست وحيدة وسط هذا القفر الذي اسمه الحياة. أريدك أن تحافظي على هذا الألق الذي يجب أن يظل حياً ومشعاً. هل تريدينني أن أصمت وأنسحب؟»

من أين تأتيك كل هذه الكلمات التي تضيعني؟ من أين يأتيك كل هذا السحر الذي ينسيني مأساتي ويربطني بك بقوة أكثر؟ من أين تأتي بكل هذه الوداعة التي تجعلني أغفر لك كل حماقاتك وأزداد ارتباطاً بك؟ أنت تقتلني بحبك. ماذا أفعل معك؟ يبدو أني لا أملك سوى أن أنسى ألمي وأراك لأشبع منك قبل أن أتركك. فتحت عيني على أجمل وهم تعيشه البشرية وتدافع

عنه. الحب. كتاباتك ولدت فيّ جروحاً و دموعاً وعلامات استفهام. بقدر ما أشعر بالحب، ينتابني الإحساس الغريب بالموت. أفتش عنك وأخاف على رهافتك مني. مدننا غابات موحشة. أحياناً أتساءل كيف ملكت القوة لاختراق كل الأغلفة الوهمية ووصلت إلي. كنت خلف كتل الضباب، لا يكاد وجهي يظهر أبداً. حتى ملامحي انكسرت. استطعت أن تلمس قلبي وأشواقي وتجرني نحوك. أنت مثل عرض البحر، كلما اقتربنا منه ازددنا انجذاباً وخوفاً. كم أشتهي أن أهرب منك وأن لا أضطرب أمامك. أحياناً أرتجف لمجرد ذكر اسمك. أخيراً اهتديت إليك من خلال أحرفك التي تقول فيها كل شيء بأقسى حب ممكن. أنا اليوم لم أعد مستعدة أن أخسرك بعد أن وجدتك. كلما رأيتك ارتسمت في ذهني مباشرة كل اللحظات الجميلة التي حورينا فيها. لا لست مستعدة لخسرانك أبداً ولو خسرت كل هذا العز الوهمي الذي يحيط بي. أشتهي أن أتعلم كيف أكون مجنونة في عينيك بدل أن أكون عاقلة في عيون الآخرين. منذ مأتم الزواج، جربت أن لا ألقاك، وأن أتفاداك لأتمكن من العيش، ولكني لم أفلح. ربما كان هناك شيء فيّ أقوى حتى من عقلي نفسه. كلما رأيتك، أشعر بك تناديني كما كنت تفعل دائماً: مريم... تعالي. عندما أهم بالانصراف تطلب مني البقاء قليلاً. لو لم تفعل ذلك للعنتك من كل قلبي. حبيبتي، هل نلتقي اليوم؟ كلمتك التي لا تموت أبداً، ولا تتراجع ولا تستسلم، حتى وأنت في أبعد المدن. لقد اختزلت كل المسافات بجنونك وهبلك. أي سحر تحمله هذه الكلمات؟ الوجوه الضبابية لا تمنعنا من اللقاء والحب. الضبابيون كلما تأملوني عروني من لباسي. أتساءل إذا لم يكن الذين تكلموا عنك وكرهوك، هم الذين يدفعونني باستمرار نحوك بشكل أعمى. من يكون هذا الكائن الذي ألصقت به كل هذه التهم المتناقضة؟ كلما رفعت رأسي، رأيتك تعبر الأمكنة بهدوء بابتسامتك الاستثنائية التي لا أفهمها إلا أنا. كل سر السخرية هو في حركة شفتيك. كلما رأيتك تساءلت هل يعقل أن يكون هذا الإنسان الطيب والودود، بكل هذا الجنون الذي يلصقونه به؟ مع الزمن، أدركت أن الغيرة وحدها هي التي كانت تحرك البشر بمختلف أهوائهم. لا شيء يفسر ردود أفعالهم سوى ذلك. إذا لم تكن المرأة هي أول من يدرك ما خفي من السيرة، من تراه يكشف جوهر الأشياء؟ أراهم يرابطون عند المداخل

لافتناص كل حركاتك ومع الزمن ضموني إليك. أقرأ في عيونهم شهواتهم المنكسرة ولكنني هنا في حلوقهم. حزينة فقط لأني أخاف أن أتركك وحيداً ولكني أعرف أنك ستجد بحاستك العالية المرأة التي تليق بك. تذكر حبيبتك التي باعت كل شيء للشيطان مقابل أن تريح قلبك وأشواقك. كم من مرة أقنعت نفسي وكذبت عليها بأني متزوجة، وعلي أن أنساك، ولكن عبثاً. في هذا، كل النساء كاذبات لأننا لا نترك رجلاً لأننا نريد ذلك، ولكن عندما تشتهي الذاكرة والسكينة المفقودة. نحمله كل خساراتنا، ومع ذلك نظل له وحده حتى في أدق اللحظات حميمية. تصور، حتى عندما أنام معه، أجدني في الفراش معك ولست معه. قلتها وأكررها لأنها عقدتي القاتلة. أنت قدري، ومن الصعب علي أن أهرب منك.

سيني الغالي،

اليوم، لم يعد شيء يعنيني غيرك ويونس، وهذه المصرة على تعذيبي لكي أحبها أكثر. الحب يحمل أحياناً في جوهره بذرة الموت والنهاية، ولهذا صممت أن أحبك حتى الموت مثلما كان يفعل العشاق الذين أسرونا بقصصهم. لن أطلب منك الشيء الكثير، فكر في ألمي الخفي، قليلاً، فأنا لم أفعل شيئاً لا يوجد فيه نبض قلبك.

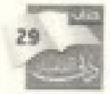
شكراً لك لأنك أطلقت علي النار بحبك وبكتاباتك. ربما طوال معرفتي بك، ومنذ الرسالة الأولى في رأس تلك السنة التي انسحبت بسرعة، لم أكن أفعل شيئاً سوى استدراجك نحو هذه الحماقة التي أقدمت عليها اليوم. كنت أريدك أن تقول لي أحبك بالشكل الذي يشبهني، فقلتها بالشكل الذي يشبهك. عفواً، يشبهنا.

وهل هناك موت أجمل وأكثر هبلاً، من موت سببه رواية؟
شوق مجنون وانتظار على الحافة الصعبة جداً.

وهران، ربيع ١٩٩٧

الفصل الثاني

مشيئة القلب



-١-

الزمن يزحف.

هدأة السكينة تتضاءل شيئاً فشيئاً. اخترقها قبل لحظات، صوت يشبه أذان الفجر، الذي أتى من بعيد واضحاً وناعماً، قبل أن يعود الوضع إلى حالته الأولى.

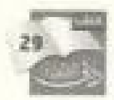
منذ قليل قمت وبحثت عنها بشق الأنفس ولكني لم أعثر عليها. الذبابة الزرقاء. لم أستطع أن أكتم غضبي. «بنت الكلب». لا تشبه بقية الذباب، أنا متأكدة من أن لها قدراً كبيراً من الذكاء. ليست كائناً حشرياً عادياً. تحدث طنينها المزعج، وعندما أبحث عنها تصمت وكأنها تترقبني من وراء شيء خاص وشفاف. كنت أحمل في يدي حذائي القديم، كان أول شيء عثرت عليه أمامي، وكنت مصممة على إلصاقها على الحائط إذا رأيتها. بحثت عنها في كل الزوايا الممكنة، لإخراجها من مخبئها، ولكني لم أفلح في إيجادها. عدت إلى الجلوس من جديد وترقبت أن يأتي الصوت لأحدد جهته مرة أخرى. هدأت طويلاً ولكني لم أسمع شيئاً. صمتت وكأنها كانت تقرأ ما كان يعتمل في دماغي.

غيرت مساري كلياً. تذكرت يونس ومايا، فصعدت نحوهما في الطابق الأول من البيت. كان يونس قد تعرى كلياً من غطائه. عندما اقتربت منه لأضع البطانية على صدره، كأنه شم رائحتي أو أحس بوجودي، حتى قبل أن ألمسه قال: «يما. شوية ماء»... نسيت أن أضع عند رأسه قنينة الماء المعدنية، التي تعود عليها. قبلته على جبهته، غطيته للمرة الأخيرة، ثم تهيأت للنزول من جديد صوب السكريبتوريوم. عندما وصلت إلى العتبة، قال مغمغماً قليلاً:

- بابا يجي اليوم؟

- لا أعتقد حبيبي، أنت تعرف بابا، هو لا يقول متى يعود.

- رأيت كابوساً. رأيت الناس يمشون في جنازة بابا، يسبقهم الأذان



وقراء القرآن، وناس كثُرٌ يرتدون السواد، كانوا مثل الغربان.

– أذان الفجر هو الذي أيقظك. نم حبيبي. نم عمري. ليس إلا التعب.

لم أسأله عن تفاصيل الكابوس. أطفأت الضوء، وذهبت لأطمئن مرة أخرى على مايا. لا تزال على هيئتها الأولى، مثلما غطيتها لآخر مرة. ابتسامتها الملائكية لا تبرح محياها أبداً. تنير المكان قليلاً.

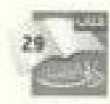
تشبه واسيني كثيراً. مثله، ترفض أن تغطى قدميها. تلقائياً تعريهما.

لا صوت. نسيت المسدس في مكانه، على المكتب، ولم آخذه معي عندما انتقلت إلى الطابق الأول. مع أن رياض أوصاني بأخذه معي كلما تحركت نحو الكهف، كما يسميه، من يدري؟ نحن في عالم لم يعد يخبئ جرائمه. منذ أن وضعته على الطاولة لم أتحسسه إلا قليلاً، حتى غطته كومة الأوراق والقصاصات والرسائل.

جلست على كرسي وراء مكتبي المزدحم بالرسائل والوثائق الكثيرة التي لا أدري إذا ما كانت لا تزال تصلح لشيء. بدأت أتأمل حيطان المخبأ كأني أكتشفها للمرة الأولى. لا شيء فيها يثير الانتباه سوى الرزنامة اليابانية القديمة المعلقة، والتي لم أتجرأ على التخلص منها، لأنها كانت في شكل لوحة مختومة على أرضية من الحرير الاصطناعي. هدية واسيني عندما عاد من اليابان. ورقة لاتزال عليها تواريخ غيبوبته مكتوبة بالأسود، على خلفية صفراء لأتمكن من رؤيتها بلا أي جهد ٢٧-٠٣-٢٠٠٨. ليس بعيداً عنها، دُوِّنت أرقام أخرى، كُتِبتْ بالشكل نفسه 04 – 15h27mn07s كتبتها يومها بأول قلم وجدته في طريقي وبشكل آلي. الأرقام الأولى كانت تشير إلى يوم دخوله في الغيبوبة المميتة، والثانية تشير إلى رقم اليوم وهو الخميس، اليوم الرابع في الأسبوع. وساعة الغيبوبة التي كانت تشير إلى الثالثة وسبع وعشرين دقيقة وسبع ثوان. كل هذا لكي لا أنسى شيئاً مما حدث للرجل الذي غير كل شيء فيّ، وهزت غيبوبته يقيني، حيث كنت أظن أنه لن يموت أبداً. فجأة اكتشفت بأنه يمكنني أن أترمل في أية لحظة، وأصبح في مهب الريح

كورقة شجرة ميتة. ولهذا دخلت في اللعبة التي قادتني إلى أسئلة لم أكن لأطرحها حتى على نفسي، لولا الذي حصل.

على الحائط لوحات كثيرة كانت تحتل، من قبل، مكاناً واسعاً في الصالون، على الرغم من أننا اشتريناها غالية، أو هدايا من أصدقاء. تخلص منها رياض بعد أن حول الصالون، من صالون أوروبي إلى صالون شرقي، بكل ملحقاته من زرابي إيرانية، على الأرض والحيطان، وصوانٍ وأوانٍ نحاسية. حتى اللمبة التي كانت تتدلى في وسط الصالون، كانت نحاسية، تحوي في داخلها لمبات عديدة تعطي ألواناً بحسب البوابات الزجاجية الصغيرة الموجودة بها، من أزرق وأحمر وأصفر وأخضر وأبيض ضبابي. قال لي رياض يومها وهو يبرر هذا التغيير المفاجئ الذي لم يستشرني فيه أبداً: هذا أقرب إلى ثقافتنا. أستقبل رجال أعمال يابانيين وفرنسيين وأمريكيين، وأتراك، وألمان، وأنا بحاجة أكثر إلى صالون قريب من ثقافتنا. وأنزلنا كل الزوائد، أو ما كان يظنه كذلك، إلى الكهف. وهو ما ساعدني على إعادة تشكيل مكان لم يكن يصلح لشيء، ليصبح فضائي المفضل. ولم يكن يزعجني وجود الغسالة به، فقد وجدت لها مكاناً معزولاً لا تُرى فيه أبداً، مثلها مثل الزاوية الصغيرة التي يوجد بها الحمام. من بين ما تخلص منه رياض، العديد من اللوحات التي وزعتها بين غرف الأولاد والضيوف وغرفتنا. ما عدا بعضها، ومنها لوحة بابه: **عصافير الجنة**. ألوانها الجميلة وعالمها الطفولي الذي ينتمي إلى المدرسة الساذجة أو العفوية الذي يتبدى في كل لوحاتها. ليس غريباً أن يعجب بها فنانو عصرها العالميون. في ١٩٤٧ نُظم لها معرض في باريس، في غاليري مايغت[٥٨] وخصصت مجلة من وراء المرآة، غلافها لاحدى لوحاتها، وكان أندري بروتون هو من أنجز مقدمة كتيب العرض الخاص بها. حتى أن مجلة فوق[٥٩] العريقة، خصصت لها بورتريه، ولم يكن عمرها آنذاك يتجاوز ١٦ سنة، مع مقالة تمتدح عملها، لإدموند شارل رو. وفي السنة التالية أنجزت بأتيليه مادورا، منحوتات على السيراميك، وهناك تعرفت على بيكاسو الذي كان معها في الأتيليه نفسه. أستغرب أحياناً كيف منح الله تلك البلاد كومة من الصدف الجميلة، لم تستغل أية واحدة منها،



الإصدار ٢٩، أكتوبر ٢٠٠٩

وكماً من البشر الاستثنائيين، وجدت متعة استثنائية في تشريدهم، أو قتلهم، أو فتح بوابات المنفى في وجوههم. لقد تخلصت تلك البلاد من كل ما لم يكن يروق لها. الجهل قاتل وقاس. ماتت بايا في العزلة التامة، ولم يعرف أهلها قيمتها إلا عندما لم تعد موجودة. أتذكر جيداً أن التليفزيون الذي لم يحاورها وهي حية، انتقل يوماً إلى بيتها وجلس المنشط الشاب يحكي أي كلام، في بهو بيتها الأندلسي، وخصص لها أمسية فنية، ثم طوت البلاد ملفها نهائياً، كما فعلت مع غيرها، وكأنها كانت تريد فقط أن تزيل عن نفسها بعض ثقل تنغيص عقدة الضمير، إذا بقي بعض من هذا الضمير أو ما يشبهه فيها.

-٢-

استيقظت فيَّ فجأة حموضة المعدة، الثقيلة. زادت من ألمي الداخلي، وقوّت لدي حاسة الخوف من الآتي. لقد اغتال الورثة ألوان البلاد وتعبيراتها الخفية الجميلة، وسطحوا الذاكرة بحيث لم تعد تعني شيئاً.

وأنا أعدل لوحة بايه، **عصافير الجنة**، التي كانت مائلة قليلاً، رأيت تحتها بالضبط، فوق كومة الصحف القديمة التي جمعتها ولم أنظمها بعد، وجه عمي البشير مختوماً على كتابه: العسف[٦٠]، باللغة الفرنسية. تأملته طويلاً. شعرت بحدة الفجوة التي في معدتي تزداد اتساعاً. ظل طوال عمره يغني أندلسه المتسامحة التي لم يسرقها الأسبان، ولكن الجهلة والأميين من أهل البلاد.

كان عمي البشير لا يتواني، بعد أذان كل فجر، عن ملء كفه بحفنة من نور الصباح، وسحابة من عطر البحر وبنفسج الجبل المقابل، الذي يصل حتى البيت، وقطف الندى العالق على شجر مسك الليل الأشبيلي قطرة قطرة، ثم رش البيت بكامله بكل ما تحمل كفه من فرح، ليبدأ النهار بفاتحة وحده كان يعرف قوة سحرها. عندما زرته مع واسيني، قبل موته بشهور، لا شيء فيه تغير، سوى ذاكرة متعبة أصبحت تخونه من حين لآخر. الصلابة نفسها، ثم الهشاشة التي لا تخفيها نظارتاه السميكتان. حتى انقلاب الورثاء الجدد في ٦ يونيو ١٩٦٥، والسجن، والتعذيب، لم يغيروا فيه الشيء الكثير سوى حركة مشيته التي أصبحت صعبة قليلاً بسبب التعديات المتكررة على جسده، في

السجن. يختفي عمي البشير في الزاوية الخلفية من صالون بيته الجميل، الذي تؤثثه الكتب والمصنفات الموسيقية والتاريخية الكثيرة والمتنوعة باللغات المختلفة، العربية والفرنسية والإنجليزية والإسبانية. ظلال حركاته تملأ الأمكنة. ينهض ويقوم بشكل دائم. ثم فجأة يختفي ولا يظهر إلا بعد لحظات، حاملاً إبريق القهوة مصحوباً بآنية نحاسية مليئة بماء الزهر.

– «شفتوا واش دار فينا ورثة الانكشارية!» لم يتركوا مساحة واحدة من جسدي لم يجربوا فيها ساديتهم. ومع ذلك، أغفر لهم، لا لأني مسيح طيب، ولكن لأنه لا جدوى من ذلك. أتمنى فقط أن يذوقوا مرة واحدة في حياتهم، ما معنى أن يجلسوك على قنينة، ويضغطوا على كتفيك بكل قوة! ثم تبدأ في النزف من تحت، وكلما تحسستَ جرحك شعرت بتمزقات عميقة يصعب رتقها. يتركونك ترتاح لمدة يومين، ثم يعيدونك إلى الجلوس ثانية على القناني، من مختلف الأحجام. هل يدري الساديون فظاعة الألم وهم يفتحون جراحاتك من جديد؟ أغفر لهم، ولكن قبل ذلك أتمنى أن يجربوا فقط أن يجلسوا بالشكل نفسه، على فوهة قنينة من حجم أصغر مما تعرضنا له، ربما تركوا مهنة التعذيب الوسخة، هذه، إلى الأبد. لم يقتلوا الحلم، لكنهم أبادوا كل من يخالفهم. الكلمات أيضاً تختنق بفعل الخوف، وتتحول إلى كومة رماد، عندما يسرق منها حنينها الخفي. لقد قتل الورثة الجدد أشواقاً جميلة أخطأتها عيون القتلة السابقين، فنبتت فينا في سرية كلية. كنا نظن قبل هذا الزمن، أن الجراح طارئة وأن زمن الخوف عابر، ولكن الورثة جعلوا منه قيامة دائمة. اعذروني على جلستي المعوجة التي لا تليق بالشعر، ولا بجلسة مليئة بالفراشات والأنوار وحبات المطر الدافئة، وقوس قزح... اعذروني، نداري الآلام أحياناً ولكنها فينا، متصلبة كالأحجار السامة، فتفضحنا.

– لماذا لم تخرج يا عمي البشير؟ أرض الله واسعة. ترتاح قليلاً، تستعيد جهدك، ثم تعود بعدها للحياة والكتابة.

قلناها في وقت واحد أنا وواسيني، وكأننا اتفقنا على ذلك قبل أن ندخل بيته.

– ليست لي أرض أخرى غير الأرض التي اخترتها، ولا وطن لي سوى وطن الكتابة. تريدين الحقيقة المرة يا ليلى؟ أعتقد أننا خسرنا كثيراً عندما قتلنا الشعراء، وافتتنا بالموت بدل الحياة. ومع ذلك سأموت متفائلاً، غارساً بصري في كل شيء به بصيص من نور الحياة. عذّبنا الورثة، قتلوا غارسيا لوركا وكان طفلاً بريئاً، قطعوا رأس بشار بن برد، سجنوا حكمت، وقطعوا أصابع فكتور جارا... لكن، ماذا ربحوا؟ كما ترين، لا شيء. أغلب ورثة الدم ماتوا بالأمراض نفسها التي نموت بها اليوم، ولم ينفعهم بطشهم وجبروتهم. الكثير منهم قتلهم أصدقاؤهم في انقلابات منظمة، أو في حوادث مشكوك في أمرها، أو ماتوا في المنافي أو العزلة المرة. من يذكر اليوم الشخص الذي أصدر حكمه ضدي وأمر بتعذيبي؟ أو حتى الشخص الذي عذبني؟ أو من سرق ذاكرتي؟ السياف الذي قطع رأس بشار؟ أو الفاشي الذي أطلق النار على لوركا؟ في كل هذه الحرائق القاسية، الشعر وحده هو الباقي وهذا الصوت الشجي الذي يموت ويحيا، يختفي ويظهر، ينطفئ ويضيء، يخاتل ويجاهر، ولكنه سيستمر طويلاً قبل أن ينسحب من على هذه الأرض.

قاوم عمي البشير طوال العشرين سنة التي أعقبت تعذيبه، قبل أن تستسلم ذاكرته المنهكة والمنتهكة، المليئة بالثقوب والجراحات، لسلطان محنة السطل الألماني[61] L'Epreuve du casque allemand. سنوات تعذيب الورثة، وآثارها المدمرة محت الذاكرة أو ما تبقى منها.

تمتمت وأنا أتأمل كتاب العسف الذي وصف فيه محنته:

« هل يجرؤ اليوم قتلة البشير، بعد صحوة ضمير فجائية متأخرة، أن يقصوا علينا ليالي البشير، وأحزانه، غير ما حكته لنا نشرات الأخبار الرسمية، ويقولوا لنا فقط ماذا ربحوا بمحو ذاكرته؟ وهل كانوا يدركون أنهم كانوا يصنعون صوراً قاتمة لبلاد سيورثونها مشلولة، مقتولة ومغتصبة في ليلة عرسها، لشباب سيكفر بكل شيء، حتى بنفسه؟»

–٣–

لا أدري ما الذي أيقظ حواسي دفعة واحدة؟

ليست الحكمة التي سمعتها من فم أمي وجدتي، هي التي قادتني نحو هذه المخاطرة والتي تقول: بلا هوية، أقل من شوية. وماذا إذا كانت هذه الهوية قد أبيدت بقوة بحيث لم يعد لها وجود؟ ليس في نيتي أن أكون أكثر مما هو أنا في الجوهر، ليست هذه إلا البدايات التي تشتعل في داخلي؟ ربما كنت أوذي نفسي إلى أقصى حد، ولكني لا أريد شيئاً أكثر من استرجاع هويتي وقتل مريم التي سرقت مني كل شيء. هي لا تختلف عن الدكتاتور الصغير الذي يريد كل شيء له، حتى أحلام الناس. ولكن هل يتحمل مخه وجسده أحلام الملايين وانكساراتهم؟ ولهذا، فأنا لا أتردد في استعمال المسدس، والإجهاز عليها. لم يعد لدي كثيراً ما أخسره.

واسيني أراح نفسي بأن نام داخل غيبوبة طويلة، أو هكذا أردته، وأنا اشتعلت نار الخوف فيّ. فجأة شعرت بنفسي أني كنت لا شيء لولا هذا الكمان الذي أصبح الآن مدفوناً تحت ركام الأوراق، وربما هذا المسدس البارد الذي عاد إلى الظهور من جديد بعد أن سحبت بعض الأوراق التي نظمتها بشكل يريحني. قبل قليل شعرت ببرودته عندما كنت أبحث عن رسالة انزلقت بين الوثائق المرقمة التي أصبحت الآن تغطي جزءاً كبيراً من مكتبي.

« علي أن أعيد ترميم حياتي والتعود على العيش بدونك.»

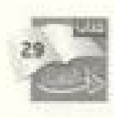
–٤–

ليعذرني واسيني، «أحبه موت»، ولكني في حاجة إلى أن أكون بالقرب من نفسي، ربما للمرة الأولى في حياتي.

سألته في مرة من المرات ونحن نتوغل في صفائنا الأكثر عمقاً. كنا متعبين جداً، بعد سهرة جميلة كنا ضيفيها الوحيدين. لم أكن أقصد شيئاً سوى معرفة سر كان يكبر كل يوم أكثر في داخلي ويبعدني عن نفسي قبل أن يبعدني عنه.

– هل الكتابة لا تقوم إلا على قتل الحقيقة؟

لم يقل: لم أفهم قصدك، في أول ردة فعل عفوية كما تعود أن يفعل، ولكنه



تأملني طويلاً في عينيَّ كأنه كان يريد أن يقرأ ما يتخفى وراء السؤال.

عندما رد عليَّ، كان يعرف جيداً، أو هكذا بدا له على الأقل، ما كنت أريده منه.

– لا. المطلوب من الكتابة فقط أن ترى الحقيقة بشكل مخالف. لا توجد في الدنيا حقيقة واحدة. الحقيقة مثل الأيقونة. عندما نكون جالسين قبالتها لا نرى إلا وجهاً واحداً من أوجهها المتعددة وتبقى أجزاؤها الأخرى في الظل. نحن حقيقة اجتماعية موضوعية، ولكن مريم حقيقتنا المتخفية فينا. هي حقيقة أيضاً. ليلى، تعرفين جيداً أن ما يقوله البشر عنا مثلاً، ليس إلا حقيقتهم الخفية التي تشبههم في النهاية، أما نحن فشيء آخر، وحدنا نعرف جيداً تفاصيل هذا الشيء الآخر في حدود ما ندركه لأن جزءاً كبيراً منا يظل بعيداً حتى عن إدراكنا.

من حيث لا يدري، كان قد أعطاني أجمل سلاح أجهز به على مريم، ظلّي القاتل، وأقاوم به انتفائي من لحظة وجودية سُرقت مني بسبب طيبة زائدة مني، أو لنقل بسبب غبائي وثقتي العمياء في الكائنات الورقية.

– ومريم إذن؟

– مريم. ليستْ أنتِ. وليستْ أنا. وليستْ من يشبهها. ولكنها ذلك كله مجتمعاً في كائن واحد. لأنك لو اكتفيت بالشبه فقط، فأنت لن تستطيعي تفسير الناس الذين يأتون نحو هذه الشخصية، ويشعرون بشبه كبير بينهم وبينها، ونحن لم نعرفهم أبداً! هناك شيء خفي هو الذي يصنع هذه القرابة السحرية التي يمكن تبريرها بسهولة إذا تعمقنا في العلاقات. كل قارئ عندما يقرأ يتماهى داخل النص، يتحول إلى ذرات تلتقي في رحلتها مع أنفاس أخرى تشبهها في النص، فيحدث الإحساس بالتشابه والقرابة والتجاذب. العملية ليست فقط لغوية ولكنها فيزيقية ومن هنا قوة الإحساس بها.
«ما كنت أظنه مجرد لعبة أصبح حقيقة».
تمتمت في أعماقي المنهكة والمتقدة.

المشكلة أني بدأت أعرف أيضاً، قتل الحقيقة الأدبية يوجب أولاً قتل أصحابها. لم أجد صعوبة في قتل واسيني، فقد افترضته استمر في الغيبوبة التي لم يستيقظْ منها أبداً. ما زلت أعيش حداده. لكن كيف يمكنني أن أقتل ظلاً تمرد على كل شيء، حتى أصبح حقيقة أخرى يعرفها الناس أكثر مما يعرفونني أنا. وهذا صعب علي.

ليعذرني حبيبي، مرة أخرى. أغرقته في الغيبوبة، لأتخلص من ثنائيتي القاسية. هو يفهمني جيداً، ولن يحاسبني على حماقتي حينما يقرأها. أعرف أنه سيتحملني. فأنا تحملت امرأة أخرى فيَّ، ويجانبي، وفي العديد من المرات اقتحمت حتى سريري مع واسيني، ونامت فيه عارية. رأيتها مراراً، تقوم مع الفجر. تتدحرج عند قدم السرير. تتمطط، وكأن الليلة التي قضتها بيننا ألبستها خمول العاشقة. أرى جسدها المصقول الذي لا توجد به أية تجاعيد. أرى ظلها باستقامته وهو يدخل إلى الحمام ولا أسمع إلا أغنيتها التي تأتيني من بعيد خافتة ومليئة بالحنين الغريب، أغنيتي:

ورقه الأصفر، شهر أيلول.
فتحت الشبابيك.

عندما يفتح واسيني عينيه، أراها وهي تنام فيهما براحة كبيرة كفراشة غارقة في بحر من الألوان. لست قطعة حجر. كل ذلك يشعل غيرتي ويؤججها.

–٥–
أفتح باب القلب وأقرأ ما يؤجج هذا الألم الخفي.
أشعر بالرغبة المجنونة لكشف أسرار مريم. ربما أسراري!
لا أحد يعرف من ماضي مريم إلا ما تقوله الروايات. ولكن ماضيها يلتبس بحياتي ويسرقها. فقد أصبح تاريخها مبنياً على اندثار حقيقي لامرأة ظلت تحس ولاتزال، أن الحياة جميلة وتستحق أن تعاش. وأنها كلما فتحت عينيها صباحاً، غمرتها السعادة بأنها لا تزال حية، وأن مريم ليست إلا ظلاً باهتاً لحياتها. لكن هذا الإحساس لا يأتي دائماً كما تشتهيه.

لا أدري لماذا يقودني سحر الماضي نحوه بكل هذه القوة على الرغم من أنه لم يكن دائماً ماضياً جميلاً ومدهشاً. لكني كنت سعيدة بآلامه وأشواقه وأحزانه التي كان لها طعم الملح أحياناً، وفي أحيان أخرى طعم المطر.

كلما لامست هذه الرسائل، أعرف أسرارها وحروفها واحدة واحدة ولا يوجد كائن آخر في الدنيا يدرك خفاياها مثلي. أعرف كيف كتبتها، وأعرف أيضاً كيف استعملها واسيني في رواياته، وكيف شذبها بعد أن نزع عنها كل ما يشير إلينا مباشرة، وكيف أهدر أحياناً نسغها الجميل فقط ليراوغ مرجعها الأصلي. ألم يكن واسيني، بفعله هذا، يقتل الحقيقة بطريقته الخاصة؟ يقتلها ويحولها إلى مجرد علامات خفية لتثبيت سرنا في رواياته وقصصه. أراها مثل رموز الماسونية أو الصوفية، لا يدركها إلا من كان قريباً منها وفيها. كلما قرأت حرفاً واحداً منها، أدركت ما الذي يتخفى في أعماقها.

لا يمكن أن تكون قصتي هي حكاية مريم. لا أريد قلب الأدوار بأن يصبح إنسان من لحم ودم، مجرد ظل لشخص ورقي، لغيمة وحفنة من الإبهام، مهما كان جميلاً، فهو لا يعرف لذة القبلة، وسحر اللمسة. ليست مريم في النهاية أكثر من لغة شبيهة بلغة الجنون. لكنها، على الرغم من ذلك، كانت لغة قاسية في جبروت سحرها. تمكنت من إزاحتي من طريقها وإلغاء وجودي كلياً. لهذا، أريد أن أمنحَ فرصة، فرصة صغيرة لأكون أنا كما أشتهي، خارج نظام مريم، ولو ليوم واحد فقط. لأشعر بعد فقدان واسيني أني كائن يستحق أن يحيا حياة مستقلة. أدرك اليوم أن مريم الورقية، لا تُقتل إلا بليلى الحقيقية.

لم أكن أتسلى، عندما قلت إني اتخذت قراراً خطيراً.
«أن أكون أنا، بكل ما يمكن أن يلحق بي من دمار شامل وخراب».

لقد بدأ العد العكسي للقنبلة الموقوتة التي كانت فيَّ، ولا أدري إذا كنت قادرة على السيطرة على حواسي. أشعر كأن هناك قوة تتجاوزني، وتدفع بي نحو التيه. ليس كتيه المنفى الذي أصبح اليوم قدرنا المشترك، ولكنه تيه اللعنة التي لا أعرف مصدرها. والدي كان يحبني، وأمي لا تنام إلا على تذكيري بأنها تراني في أفراح وأحزان سي ناصر، الذي سرقه الموت من بين

ذراعيها، في وقت كانت فيه، في أمس الحاجة إلى ظله. إلى نفسه.

- «حتى واحد يا بنتي ما وجد الحياة كما أحبها...»

أحاول أن أغفو قليلاً على الكرسي القصبي وأنسى للحظة، كل ما يحيط بي.

***

سنة تمضي... وأخرى تأتي...

سيني الغالي،

والدي عندما خرج، سحب وراءه ظله ولم يترك لنا إلا حسرة قاسية. ماذا فعلتَ أنت غير ذلك؟ أبحث عنك في كل الوجوه، فلا أرى إلا ظلالاً مكسورة ووجوهاً أنهكها تعب الدوران والبحث عن المبهم.

كيف أجدك أيها الهارب من غيمته وجنونه؟

هكذا إذن، تقتلني بحبك و بصمتك وبمنفاك الذي بدأ بحيرة وانتهى بخوف؟

دعني أقول لك أولاً وأنت غائب عني هذا المساء في مكان لا أعلمه: كل عام و أنت بخير حبيبي. دمت للفرح و السعادة. اعذرني، أنا دائماً أصل متأخرة عندما يتعلق الأمر بالمواعيد الجميلة. لم أهدك شيئاً بمناسبة حلول السنة الجديدة. أحسبها علي. حسبي أن أهديك هذه المرة قلبي. قلبي فقط و أشواقي و حنيني التي لا تموت.

هل تكفي الكلمات؟ أريد أن أمنحك حروفاً أكثر دفئاً ووضاءة، وربما أكثر. لا تغضب من السنوات التي تمر بسرعة. مجرد الثفالة صغيرة للزمن الذي لا يأبه بنا كثيراً.

سنة تنسحب و أخرى تأتي، وأنت مازلتَ هنا، على حافة المنفى، تنتظر إلى المبهم وتنتظر عودة أمطار الطفولة كما كنت تقول لي، لتستطيع أن تتم أغنيتك التي بدأتها وتوقفت في منتصفها. لم تنهها لأنك رأيت في ذلك اليوم والدك وهو يغمض عينيه للمرة الأخيرة في حرب لم تكن متكافئة. مع بداية كل شتاء تنتظر أمطار الطفولة الأولى لتواصل نشيدك المكسور. فهمت متأخرة جداً لماذا كنت تكره التخفي من المطر، والمطريات أيضاً. كانت تحرمك من متعة الماء و الغناء:

«يا النو صبّي، صبّي،
ما تصبّيش عليّ،
حتى يجي خويا حمّو،
و يغطيني بالزربية...»

تضحك مني؟ اضحك. لن أغضب منك لأنني صممت أن أضع حداً لصمتي. أشتهي اليوم أن أكتب لك لأقول لك بكل بساطة أحبك. «نْحبكْ و نْموتْ عليك يا دينك». وأنت لا تعرف شيئاً أو تتعامى عن حرائقي. ارفع رأسك قليلاً وتأملني في وجهي مباشرة. هل ترى شيئاً؟ كلمة ترقص في عيني منذ زمن بعيد. لم أعد اليوم قادرة على لجمها حتى أمام رياض الذي يجد متعة غريبة في استدراجي نحوك عندما يجد لي بعض الوقت. أحبك. حروف ليست كبقية الحروف وكأنها ليست من الأبجدية التي نتداولها يومياً آلاف المرات. لا أتجرأ على قولها أمامك. ولا أدري إذا كنت أخاف ردة فعلك أم أخافها؟ «نحبك ومن بعد واش راح يصير»؟ إذا شئت قاسمني هواجسي. وإذا لم تشأ، لقلبك حريته وراحته، ولعمري عزلته وشططه وحزنه. والسلام.

Basta, c'est Basta. Je suis très fatiguée.[62]

منذ زمن وأنا أقاومك عبثاً. ولكن الشتاء يفتح شهيتي للحماقات. كلما عاد، شعرت بنفسي ممتلئة بك ولا أستطيع مقاومة شهوة الكلمات. البرد، الأمطار، الثلوج وإيقاعات والدي الحزينة على كمانه الذي ورثني خوفاً مبهماًمن الآتي. لقد تلاشى بعد أن توقف نهائياً عن الحلم. لو تدري كم أحبك، وكم تؤذيني عودة الشتاء لأني أخاف فقدانك مثلما حدث في شتاء الموت عندما شجعتك على الخروج والمغادرة وأنت تتعنت.

كنت أنصحك بالمغادرة، وأنت تقاوم غواياتي بأني سأزورك في باريس حتى ولو وضعوا بيني وبينك أبواباً من حديد، وكأنك لا ترتاح إلا باستدراج الموت.

«كُل كنت في عقلك يومها؟»

سألتني وأنا أضمك لصدري لأودعك. سألتني وأنت تضحك وتخبئ رأسك بين يديك كما تعودت أن تفعل وأنت صغير: ما رأيك لو أبقى هناك، بعيداً، بعيداً عن هذا الموت اليومي ما دمتِ تصرين على خروجي؟ لا أدري إذا كنتَ تعني ما تقوله، ولكنّي صدقت أن الفكرة اختمرت في ذهنك. لم أتردّد في الجواب. قلتُ لك: سافر. إذا كنتَ حقاً تحبّني سافر، ولا تَعُدْ. تتحدث عن الحماقات؟ مارسها ولكن أحبّني فقط. ثم أنظرُ في عينيك وأنا أستدرج ضحكتك الملعونة لتكشف لي عن أسرارها: احذر، «شوف والله لو تديرها، ناكلك حيّ». تضحك. أفضّل أن أراك واقفاً وبعيداً، على أن لا أراك أبداً. قلت بحزن رأيته يرتسم في عينيك المتعبتين يومها: الفراق صعب، وأنا لست مهيئاً لهذا المنفى إلى الأبد. قلتُ لك: سيكون عزائي الوحيد، أنك حي، وأنك هناك، بعيد عن المخاطر المفاجئة. يعزّ عليّ كثيراً رؤيتك وأنت تسير في الشوارع وتلتفت وراءك في كلّ مرّة خوفاً من يد غادرة. يعزّ عليّ أن تختبئ داخل الظلمة وأنت متعود على النور والحياة. يعزّ عليّ أن تموت في اليوم ألف مرّة، وأموت أنا معك مليون مرّة. يعز علي أن لا تفكر إلا في الموت الذي يتصيدك في كل الزوايا المعتمة. ولو كان نديرها، ألا تندمين؟ قلت لي لتختبر جدية مقترحي. ضحكتُ بمرارة: «يا سيدي دِرْهَا وْسَافَرْ. إِرْحَلْ وْرُحْ بْعِيدْ بْعِيدْ. وِينْ مَا يْشُوفَكْ حَتَّى حَدْ. نْخَافْ عْلِيكْ مِنْ الْعِينِيْنْ وِالْقْتَالِينْ. إِرْحَلْ، وسأنتظرك العمر كلّه». وغدٌ وأنْت تحمل لي كعادتك، باقة ورد. سنتين وأنا أراك يومياً تتعامل مع خوفك كقدر محتوم عليك، وأنا أعرفك لا تحمل في قلبك إلاّ ما يوقظ فيك حاسة الجمال، وكتباً ملوّنة بالكلمات التي لا تزرع في القلب إلاّ الدِفء والسمُوّ. أنت عودتني على مقاومة كلّ الأقدار التي تفرض علينا. أراك الآن تتهاوى كالحائط القديم. سافرْ ودعني أعيشك كغيمة أحلم كل ليلة بلمسها، حتى ولو كنتَ بعيداً. لستُ مستعدّة لفقدانك بعد أن التقيت بك مرّة أخرى. كلّ ما أطلبه منك هو أن تكون سعيداً وممتلئاً بكل ما يثير أشواقك. وتذكّر دائماً أن هناك قلباً كبيراً يحبك، ولا ينبض إلاّ لأجلك، رغم العيون الهمجية ونظرات السحق والخوف والحسد أحياناً.

في خلوتي، كنت سعيدة أنك استمعت إلى ندائي الباطني الخفي. وأني مهمة بالنسبة لك. أعرف رأسك القاسي عندما يتصلب ولا يسمع إلا لعناده.

أسأل نفسي ماذا كان سيحصل لي لو فقدت وجهك، وسرقك الموت مني؟ حياتك جعلتني أستمر في العيش. أعزف حتى للمرايا مقابل أن أعطي لنفسي الإحساس بأني ما زلت موجودة من أجلك. وفي كل لحظة أقول ربما كانت هذه آخر النغمات، آخر الرسائل، وآخر النبضات. وربما آخر مرة أهتف فيها باسمك وأقول لك صباح الخير حبيبي وأنت تستيقظ في ضفة أخرى على نهر كان يعوضك فقدان البحر. كلما حادثتك في الموضوع، قلتَ بلا تردد: نهر السين أيضاً شهم ويحسسني بأني أعيش على حافة بحر أخضر.

صباح المطر يا عمري. كل سنة وأنت بألف خير. وترد أنت علي: صباح المحابس والسعادات التي لا حصر لها. كل سنة و أنت رائعة.

هكذا نلتقي وهكذا نفترق. أرأيت كيف يختم الشتاء بأصابعه الباردة على كل الأشياء الجميلة؟ هذه السنة لم تكن مثل السنة التي مضت، فقد مرت بسرعة، مليئة بالمفاجآت الكبيرة. أرأيت كيف تمر الأشياء الجميلة بسرعة غريبة؟ من يصدق أن كل شيء بدأ بسؤال صغير، ثم بموسيقى امرأة- تروبادور لا قوة توقفها عن غيها وتماديها في العزف؟ ثم وريقة طائشة حطت بين يديك، ثم أوراق ورسائل وكتابات صار من الصعب علي مقاومة اندفاعها في، لأصبح مثلك في النهاية، مريضة بما يمكن أن تمنحه لي الكلمات من سعادة صغيرة حتى ولو كانت مؤقتة. وفي أحيان كثيرة غير كافية. لقد صرت فيّ. وأستطيع أن أشهد أني أحبك أنا التي كانت تظن أنها تهز شهوة الرجال، ولا يهزها رجل مهما كان. فكل الرجال كانوا يبدون لي أصغر من جنوني. أراك باستمرار من وراء حزني وقلقي، ووجودك وحده يمنحني قدراً كبيراً من الراحة. ألم تقل لك امرأة قبلي، المؤكد أنك عرفت الكثيرات: إن وجودك وحده يبعث على الراحة والاطمئنان؟ لا تقل العكس. صحيح أني أغار من نسائك، ولكني لست مجنونة لدرجة أن أمنعك من شيء ليس في مقدوري فعله حتى ولو أردت. الغريب، أشعر أحياناً وأنا أقرأ كتاباتك، أن بعض جملك مهداة إلي مع أنك لم تقل لي ذلك أبداً. رسائلك وكلماتك تؤنسني، وتبعث فيّ القوة كلما وهنت. أتعرف كم هو مضن أن تعشق امرأة فنانة أو كاتباً مهووساً بالحياة؟ إنها مشقة كبرى. إنها مثل

الذي يريد أن يلقي القبض على غيمة. تبدو قريبة من يديه، وتستحيل عليه كلما مد أصابعه نحوها. أنت قريب مني، وفي بعض الأحيان أصير مثل المراهقة. أخرج أبحث عنك في المدينة، أو في الجامعة، أو في البارات التي تظلل فيها، لحظة القيلولة، مع أصدقائك القريبين إلى قلبك، سينمائيين، صحفيين، كتاب وغيرهم. أتمنى فقط أن أجدك أمامي ممشوقاً كنخلة عندما يصيبني اليأس. عندما أتعب، أحلم أني أفتح عيني وأراك ماراً، عابراً مسلكاً صغيراً تعودت أن أراك فيه عندما أكون سعيدة. وأتظاهر بتفاديك. وأتعمد عدم رؤيتك لأتأكد من حبك لي عندما أغضب منك لسبب تافه أو جدي. لكنك، كلما التقيت بي، أنسيتني غضبي منك. فأغفر لك حماقاتك الصغيرة بسرعة. ألم أقل لك إنك ساحر وتملك ما يعطي للمرأة، التي معك، اطمئناناً كبيراً وراحة.

Est ce qu'on t'a jamais dit ça? Avec toi on se sent en sécurité. Ce qui rend une femme plus confiante c'est aussi cela. Nos hommes sont en grand déficite d'amour, parce qu'ils ne savent pas rendre visible leur côté intime[83].

الساعة الآن تخطت الثانية عشرة ليلاً. فاسحة الطريق نحو سنة جديدة تأتي من بعيد محملة بالأشياء التي لا نعرفها. بعضُها يسير بسرعة جنونية، وبعضها الآخر يقهرنا ويقتلنا ويعمق عزلتنا. أحاول أن أستحضر وجهك لكي لا أنساك أبداً، وصوتك المنكسر قليلاً وبهاء الحنان الذي فيك.

أين كنت مختبئاً عني كل هذا الزمن؟ كنتَ معي؟ لا. كيف إذن كنتُ أراك و لم تكن تراني؟

ستضحك مني كثيراً إذ أبدو لك، بعد كل هذا الزمن، مراهقة تحاول اقتفاء دقات قلبها خطوة خطوة. ليكن. أنا منذ أن عرفتك لا أندم مطلقاً أني مراهقة وعاشقة تائهة. اعتبر رسالتي هذه كما تشتهي. صنفها مع الرسائل الصغيرة الملونة التي تصلك من حين لآخر من امرأة لا تعرفها ولكنها قرأتك، وأحبتك من حروفك. ومن شخصياتك. حتى اختلط عليها الأمر هل هي تحب الكاتب أم ما يكتب. كل شيء معك ملتبس. تحب ما تكتب. لكننا عندما

نراك ونعاشرك، ينتقل بسرعة حبنا من شخصياتك إليك. هذه حقيقة وليست تخريفاً. أنا أشتهي فقط أن أقول لك ما يملأ قلبي، لم أعد قادرة على تحمل شططي الذي أُصبح ثقيلاً جداً. هل هناك فرصة أجمل من السنة الجديدة التي تفاجئنا بهزة نادرة ونحن في أقاصي الزعل والغضب. هل هناك أجمل من استحضارك حياً بدل البكاء على قبر؟ لو كنتَ تدري ما يفعله فيَّ غيابك. لتركت كل شيء وراءك، ولركضتَ نحوي مغمض العينين، حافي القدمين.

سنة أخرى تأتي وشتاء آخر يقفز أمامنا. وكم أتمنى أن أراك تستقبل بقامتك المديدة ولباسك الأبيض الأنيق، أمطارك الطفولية التي تشتهيها، وتنهي أغنيتك التي بدأتها قبل عشرين سنة. وأقف أنا بجانب الحائط العتيق وأتأملك، وأنت تنط، وتركض مع الأطفال، وعلى رأسكم الزربية الحمراء التي تقوي شهيّة الأمطار.

كم أريد أن أسمعك وأنت تغني أمطارك الملونة:

«يا النو صبّي،
ما تصبّيش عليّ..
حتى يجي خويا حمّو،
ويغطيني بالزربية...»

سيلنو، عمري،
في فاتحة هذه السنة أرجو أن تهتم بصحتك.
أرجوك، لا تتعب نفسك كثيراً، لا شيء يستحق أمام ندرة الحياة. أرجوك، لا تتعب قلبك إلا بالقدر الذي يجعلنا قريبين أكثر. صحتك تهمني كثيراً، وأنا امرأة لا تطاق. أعرف نفسي جيداً ولكني أحبك. كم تريدني أن أتكلم، وكم أريد أن أصمت وأن أعيش في هذا الداخل الذي يضحك قاهراً، ولكن الحياة لم تمنحه حظاً كبيراً؟ ماذا أقول لقلبك الحزين؟ أحبك؟ كلمة لا تكفي لتكنس هذه الغربة الشاقة التي تملأني. سعيدة؟ لأني هذه المرة سلكت المنعطف الذي كان يجب ألّا أسلكه لتتيح لي الدنيا فرصة لقائك!

تتسلل الأصابع إلى الصدر وتتحسس القلب الذي لم يعد يأبه كثيراً

بالموت. ياه! ها أنت مازلتَ هنا كما تركتك في المرة الأخيرة مثل اللوحة النادرة. لا شيء فيك تغير أبداً. شعرت بشوقك وأنت تحضنني ليالي بكاملها. وتهرب بي من نزل إلى نزل وكأن باريس كلها لم تكن قادرة على احتضان شوقنا الهارب. أراك الآن، بقسمات وجهك الصبوح وجمالك الهادئ وأنفك الصغير الشامخ، بعد أن هدأت كل العواصف التي حولت البلاد إلى وادي من الدم. سنوات مرت، ولا شيء تغير. الوقت مسافة تموت. والذكريات حنين يتفجر، يرهق النفس ويرعش القلب. ها هو الزمن الذي انتظرته يجيء ولكنك لست هنا. أغويتك بالخروج، فذهبتَ انتعلت الريح كشاعرك المجنون رامبو، وغادرت المكان. هل كان من الضروري أن تتركني في ذلك المنعطف المقفر؟ ألم يكن بإمكانك أن تردني عن غيي وتسحبني في أثرك ولا تقنعني بأن لا ألتفت ورائي؟

ما أقوى عقلك، وما أبأس جديته أحياناً!

أنت تعرف أن والدي تركني وحيدة منذ أن خرج بصمت على رؤوس أصابعه بعد أن وضع الكمان على ركبتيه وورّثني أحزانه وأنينه. وورّثَ أمي حسرة لا تموت أبداً إلا إذا لحقت به. أمي... وجهها يملأني كلما هرب وجهك وتركني وحيدة. أريد أن أتشبث بالأحياء. الموت أصبح يخيفني. كم هي قريبة مني وهي تأخذني من يدي، تنتبذ مكاناً صغيراً بجانب الولي الأندلسي الصالح، سيدي عبد المؤمن بوقبرين، وتذكرني بطلبها قبل ولادتي بشهرين، لأني سبقت حساباتها يا سيدي العالي، سأسميها باسم المرأة التي نذرت عمرها لك، وخدمت مقامك حتى الموت. لالة ليلى بنت سيدي أحمد الزكري، ولي الله الصالح. كلما ألمت بها الأحزان واليأس. تأملت وجهي طويلاً ثم تنهدت: لم أكن أعرف لا أنا ولا سي ناصر بأنك ستنزلين ضيفة على الحياة قبل شهرين من ميعادك المعتاد. كنت هشة وصغيرة إلى درجة أن كل من راك تأسف لموتك المؤكد. كنت أقرأ ذلك كله في عيون الزوار. لكن الله وسيدي عبد المؤمن بوقبرين، شاءا غير ذلك. فجأة عندما كبرت، ونما جسدك بسرعة، فوجدت أنك كنت مثل قطرة ماء مع سي ناصر أنت عزائي في فقدانه. ثم تلملم ملامحها وتنكفئ على خفايا آلامها.

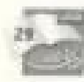
سنة أخرى تمضي وأنت مازلت معلقاً في مدى الحيرة والتيه.

سنة تأتي وأنا مازلت هنا. لم أمل من انتظار عودتك الصعبة.
وعمر آخر يركض بسرعة الخوف والفجيعة.
كيف أصبحتْ اليوم حبيبي. مع سنة جديدة أراها الآن تتثاءب في عينيك بكسل؟

منذ مدة لم نلتق. كيف هو مخبأنا الصغير الذي جمعنا آخر مرة في باريس، في الحي اللاتيني الغاص بالذين كانوا يشبهوننا في كل شيء. هل تصدق أني بدأت أنسى أنيا. طالبتك الروسية الممشوقة التي حركت فيّ كل مدافن الغيرة؟ كيف شوارعنا ودروبنا الجميلة التي مشينا فيها ليلاً بسكينة غريبة لم أكن لأصدقها أنا القادمة من أرض الرماد والرصاص. يبدو أننا ضعنا يا حبيبي. لا أعرف إذا ما كان علي أن أحقد عليك أم أعبدك؟ طوال هذه السنوات لا أنا استطعت التخلص من وجهك، ولا أنت استطعت أن تحسم أمرك مع نفسك؟ مايا حبيبتي، عندما تكبر، سأحكي لها عن كل شيء. كل شيء حتى كونها أنجزت في لحظة حب تحت أجمل سماء في الدنيا. وفي عمق غابة استوائية بخلجان كثيفة وأرض نقية. وجزيرة القديسات المليئة بالأسرار. وستغفر لي حماقتي التي مارستها مع الرجل الوحيد في الدنيا الذي هز كل يقين فيّ.

ـ ياه؟ كم أنت غبي؟ بعد كل ما كتبت لي تسألني؟ أنت الوحيد من يفهمني فهل بعقل؟ حتى ولو كانت حماقاتي كبيرة فأنا لا أملك إلا أن أحبك. القلب الذي وسع الحب الكبير، يسع الغفران الكبير. الحب مثل الموت مخيف. هكذا أنا اليوم. ماذا بقي لي أن أقول بعد جملك الكبيرة. سأعيش عليها وأعمل بما تشتهيه. أنت الآن وسيلتي الوحيدة للحياة. ها أنا ذي أستعيدك مثلما يستعيد مجنون عقله. أستمع إليك: «مريم، امرأتي الهاربة من حلم مجنون. افتحي عينيك على وسعهما و لو لمرة واحدة في حياتك، وسترين أن الدنيا جميلة وتستحق أن تعاش. جربي . فلن تخسري شيئاً غير قيود السنوات التي تأكلك في هدوء. جربي فقط وسترين. أنا ما زلت هنا. في المكان الذي تركتني فيه في آخر مرة. عند المنعطف المؤدي إلى اللاجدوى أو إلى الجنة. لا أدري. أنتظر بأمل كبير رؤيتك..أنتظرك...»

ـ شفت؟ واش راك داير فيّ أنت وعود النوار ديالك الذي كلما وضعته تحت



لساني اشتهيتك واستحضرت قبلك ولسانك الحار الذي يشبه الزعتر!».

علمت منك أنك ستسافر لمدة عشرة أيام إلى الصين. بعيدة عليّ عمري. بعيدة جداً ومن الصعب تبرير هذا الغياب المجنون الذي تكاثر. ولا أريد أن أثير شكوك رياض المنهمك في شأنه الغامض مع الكارتيل الذي، ناهيك عن بيع السيارات، أصبح يهرب كل شيء، بما في ذلك البنزين على الحدود الغربية والشرقية. ثم إن أردت أن أتبعك نحو تلك البلاد البعيدة، ونحو سورها الأخاذ الذي حدثتني عنه كثيراً، عليّ أن أحصل على فيزا أولاً، وعليّ أن أجد مبرراً قوياً لأتمكن من مرافقتك إلى هناك. صعب وربما مستحيل. اذهب وعد لي بالسلامة. سأنتظرك دائماً. أرجوك لا «تطول» كثيراً. فوجودك وحده، حتى ولو كان ذلك من وراء المتوسط، يعطيني الاحساس بالطمأنينة والراحة.

معذرة أيها الحبيب الغالي. أنا دائماً أخطئ حيثما أريد أن أكون استثنائية في حبي لك. لا تزعل مني. تحمل حماقاتي كما فعلت ذلك دائماً. من جهتي لا أفعل شيئاً مدهشاً ولكني أحاول وسط هذه العزلة أن أجعل الحياة ممكنة التحمل، وأن أقبّل السنة الجديدة مائة قبلة، ألف، مليون، وأبعثها لك مع الفجر القادم. سأجعل لك منها فراشاً وثيراً، وأغطيك بها حتى تتحول إلى فراشة تعبر المتوسط، وتفاجئني في غفوتي، في فراش الحماقة واللذة، وتفتح عيني المغلقتين عليك لا لشيء إلا لرؤيتك.

هنيئا لك حبيبي بسفرتك الجديدة. قلل فقط من خطايا الشراب، واحذر من أن تسرقك صينية مني، هن مذهلات وحارات مثل عود النوّار. حذار! إذا سمعت أنك انزلقت مع إحداهن، سأخنقك بلا تردد. وحياتك سأخنقك بأطول قبلة في الدنيا.

دمتَ لي عمراً جميلاً.

حبيبتك مريم. سنة أخرى... ربما كانت أجمل.
وهران في ٠١-٠١-١٩٩٨

-١-

«قد أكون في وضع لا أحسد عليه. بل قد أبدو لمن يراني وسط هذه الحالة من التردد أني قد فقدت بعض توازني وأصبحت «دون كيخوته» من نوع جديد، غارقة في حرب خاسرة ضد طواحينها الهوائية، وربما حتى ضد نفسها، لكني، في كل الأحوال لست مجنونة».

لا أدري لماذا أشعر بالفداحة القاسية؟

ربما لأني خسرت حقيقتي وعليّ استرجاعها! لم يخطئ نيتشه عندما اعتبر فاغنر أكبر كارثة على الروح باكتمال موسيقاه. مريم كانت كذلك. فقد كانت جاذبيتها أخطر شيء على عشاقها الورقيين. لم تكن لغة، ولكنها مأساة الروح. قبل قليل وأنا أتأمل سقف هذا القبو، بدا لي كأني شممت عطرها القوي Poeme الذي تركتْه قبل مدة، لقوته وكثافة رائحته على الجسد، وعوضته بـ Chanel 5 أخف وأدفأ. تحسست كل شيء، تفحصت المكان بدون أن أقوم من مكاني ولكني لم أر شيئاً، لكن العطر ظل عالقاً بدماغي. ليس غريباً، مريم بالتأكيد في مكان ما، حتى في أنفاس هذا الفضاء المغلق، في الألبسة والأواني وكؤوس الويسكي القديمة المصطفة في أعالي المرفع الخشبي وكأنها لم تستعمل منذ أن وضعت في ذلك المكان. ربما هي ورائي، تسخر من جنوني وعبثيتي التي أصبحتُ أشك في أنها تستطيع أن تقاوم حضورها المفجع.

أشعر في الكثير من الأحيان بأن زوليخة تشبهني في كل شيء. زوليخة كاتب المسكينة التي وقفت منكسرة على حافة تابوت لم تعد فيه إلا جثة، وبقايا حب ذهب مع صاحبه، بعدما سرق منها كاتب ياسين سرها الخفي، وسلمه لنجمة، امرأة من ورق شفاف، غطت عليها، ووضعتها في المدفن قبل الأوان. أكاد أجن مما يفعله الكتاب بأقرب الناس إليهم: كيف لامرأة ورقية لا حياة فيها إلا روائح الخمائر الكيماوية، والحلفاء المجففة، والحبر الخفي، أن تطحن امرأة حقيقية من لحم ودم وفيض من الأحاسيس، وتفتتها حتى تحولها إلى لا شيء؟ هل كان كاتب ياسين يعلم، وهو يجوب العالم مزهواً بنجمته، أنه كان كل يوم يطحن وراءه امرأة حية، لم تطلب شيئاً سوى أن

تحب، وأن تعشق، وهي مستعدة أن ترمي وراءها كل خرافات الحياة الزوجية التي منحتها أولاداً عديدين، ولم تمنحها أية سعادة! لقد خرجت نجمة من آلامها وانكساراتها. شاخت زوليخة في عزلتها القاسية ومرت كالريح وكأنها لم تكن أبداً ولم توجد، ومات ياسين بلوكيميا لم تمنحه أي حظ للشفاء، واستفردت نجمة بكل شيء، حتى بميراث ياسين العشقي والحياتي. أية امرأة هذه، وأي ورق؟ لن أسمح لمريم بأن تفعل الشيء نفسه.

أراني أحياناً في عمق مأساتها. فقد تواطأت مع من لم يتردد لحظة واحدة في قتلي. بحثت لها عن كل أعذار البراءة، وكانت تتفنن في كل وسائل الجريمة.

مازال عندي قليل من العقل، وأمامي متسع من الوقت لأشهد أمام العابرين عن عمق هذه المأساة التي تقودني، لو استمرت، مباشرة نحو الجنون.

لست ملاكاً حتى أترك كل شيء يمر أمام عيني وكأنه لم يكن أبداً. لست مسيحاً مستعداً عند الحاجة لأن يقدم خده الأيسر ليُصفع. لست كما صورني واسيني، أيقونة جميلة موضوعة في كنيسة تمسحها آلاف العيون يومياً. ولا امرأة دافئة، لا صوت لها إلا حنينها الخفي. حماقاتي ربما كانت أصلاً في جيناتي السرية التي تقودني دوماً نحو الإخفاق.

واسيني لم يَبُزّ معي ماضيّ الدفين ولو أنه كان يؤلمه من حين لآخر. مع الزمن تعلم أن يحترم جزئي الخفي. رفض من تلقاء نفسه أن يتحول إلى بقال يحاسبني عن تفاصيل هو نفسه لم ينج منها. كنت سعيدة لذلك، ولكن منزعجة أيضاً. كنت أعرف عنه كل شيء، ولم يكن يعرف عني إلا تفاصيل قليلة كشفتها الصدف. ربما لأنه كان منهمكاً دائماً ولم يكن يريد أن يثقل على نفسه وعليّ أيضاً. أو... أنه كان على يقين بحبي له، فلم تكن تهمه التفاصيل الأخرى. الأسئلة ليست وليدة الصدفة أو الفضول المرضي، فهي تتكاثر عندما يهتز يقيننا بالآخر. هو لم يكن في حاجة إلى ذلك. لم أكن أحبه فقط، فقد نسيت نفسي فيه، ولم أعد أنا إلا من نفسه، وعطره، وشهواته المجنونة، وأشواقه.

عندما نكون متيقنين من الآخر، نستسلم لراحة غريبة ولا نسأل عن أي شيء. تنهض المشكلات، عندما نشعر أن هناك من يزاحمنا في حبنا ولذتنا. ولهذا، كانت غيرتي دائماً حارقة وجارفة، لي ولغيري.

أحياناً أشتهي أن أصدق أن مريم ليست فقط سوى شخصية من ورق تشبهني كثيراً وتختلف عني قليلاً. ثم أقول في خفائي: لابد أن تكون امرأة غيري. أبحث في هذا السر الخفي عما يحررني من قيدها. لكن من أين جاء واسيني بكل ذلك الكم من التفاصيل الغريبة والصادقة في الآن نفسه؟ ربما من امرأة أخرى! ما يشغلني ليس أنه نام معها أو نامت معه! ولكن ما هو الجديد الذي تعلمه منها؟ أي شيء منها التصق به إلى الأبد؟ لا أتحدث عن شعرها، عطرها، رائحة عرقها وجسدها؟ ولكن عما يبقى فيه منها، ويراه في عيني، في ابتسامتي، عندما يمتص الأجزاء الخفية من جسدي! أحياناً أحس بذلك عندما يعود مجنوناً، بعد غيبة طويلة. أشعر بكل شيء جديد فيه، وكأنني أواجه رجلاً آخر أنام معه للمرة الأولى. يخرج بسرعة من الرتابة القلقة. أتساءل أحياناً إذا كان الشوق هو الذي فعل فيه ذلك كله؟ أم رغبته العميقة التي كان يكررها دائماً: لكي يستمر الحب، بما في ذلك الجنس، عليه أن يكون خلاقاً ومبدعاً؟

- «ليلي... الحب ليس استكانة دائمة. خلق وإبداع متواصل. عندما ندمنه بتكراره، يموت ويصبح رديفاً لبلادة الزواج. ولهذا من الصعب أن نحافظ على كل تلك الحرارة بدون الإمساك بها في كل لحظة، وتنظيفها من التكرار الفج. لكي لا يموت الحب علينا أن نحب ونقلل من الأسئلة والتهم. الحب ليس تهمة ولكنه رغبة إنسانية حرة، وإلا سيموت كل شيء فينا.

أنام على صدره، أسمع إلى كلامه الجميل، وقلبه وهو ينبض بسرعة غير عادية. أتساءل: إلى متى سيظل هذا القلب راكضاً بهذه السرعة؟ وهل سيتحمل، بالقوة نفسها، الأعطاب القادمة؟ أشتهي أحياناً أن أسأله لأعرف سر الهبل الذي يتخفى في بؤبؤ عينيه عندما تنكسر عليهما أشعة الشمس الرائعة، وتنعكس فيهما أعراس الألوان المتقاطعة؟

– في قبلتك حبيبي طعم جديد، لم أعهده من قبل؟ من أين تعلمته؟ من المرأة التي منحتك هذا الاكتشاف الجميل؟ أي جسد تلوى عليك ليلة كاملة مثل الأفعى، ولم يتركك إلا حينما علمك كيف تقاوم سم التكرار؟»

لكني أرفض أن أنغّص عليه أحاسيسه بالراحة الجميلة وهو معي، أو وهو نائم على صدري بعد متعة سحبناها إلى الأقاصي، وتمنينا أن نظل فيها.

أقول اليوم ما جدوى ذلك الصمت كله إذا كنت أحسه؟ لم أقله طبعاً في أية رسالة من رسائلي. وبقيت مثلما اشتهاني، لكي لا أكسر يقينه الجميل.

–٢–

عقّدتني مريم. أعادت ترتيب حياتي بالشكل الذي أرادته هي.

ربما ما قاله واسيني عن مريم انطلق مني ومن هبلي وجنوني معه، بل إني على يقين من ذلك. لكنه دفعني أنا أيضاً نحوها، لأصبح مثلها، شبيهتها ولست حتى هي. ظلها المتمادي دائماً تحت رجليها، أو مصاحباً لها، ملتصقاً بالحيطان في صمت جنائزي مقلق. أتبعها مخافة أن تسبقني كثيراً. أتداخل معها بشكل مقصود أحياناً لدرجة التماهي وأحاول أن أنسى أنها هي وأني أنا. وأنسى أننا كائنين مختلفين في كل شيء، حتى في طريقة التنفس. في المادة التي صنعنا منها. صنعتُ من مادة هشة، يلحقها الخراب والأذى يومياً، وصنعتْ هي مثل الجنّي، من لهب الكلمات، ونور الأحرف، وبعض خمائر الورق الأصلية. الأدهى من هذا كله، أن واسيني أضفى عليها أشياء جميلة ليست فيّ أبداً. وصورها كما اشتهاني أن أكون، حتى حولني مع الزمن إلى أيقونة أحببتها، ولكني لم أكن أشتهي أن أتحول إلى مجرد رماد في داخلها.

هذا المساء صممت، وبلا رجعة، أن أحمل هذه الأيقونة. أتأملها للمرة الأخيرة لكي لا أندم عليها أبداً. بعدها، أرميها بكل قواي على الأرض، استمتع بكسرها، وأصرخ بأعلى صوتي: مريااااااااام... أخرجي ولا تعودي، أرجوووووووك... أطأ الأيقونة برجلي، حتى تصبح مجرد فتات دقيق، ثم أجمعها قطعة قطعة، وأدفنها مثلما يدفن جسد نريده أن يختفي بسرعة لكي نتفادى رؤيته من جديد.

الصدف في حياتي غريبة وكثيرة، وكم أتمنى من الذين عرفوا مريم في صدفة الكتب والورق، أن يكسروا أيقونة مريم التي رقصت بين أيديهم في لحظات السكّون والغفوة والخيبة، وكذبت عليهم مثلما كذبت علي، ودمرت سكينتهم مثلما خربت عليّ متعة الهدوء. واسيني كان سعيداً وهو يحكي عن الذين رأوا لهم شبهاً مع مريم. قد تكون الغيرة هي السبب المحرك لكل هذا الجنون العبثي، المستحيل أحياناً. ربما. لكن ليست الغيرة وحدها هي التي تفعل فيّ ذلك كله. رغبتي في الانتهاء من ظلي الذي يعذبني هي الأساس. لا يمكنني أن أدير حياتين، واحدة سرية وواحدة ورقية، بدون اعتبار الحياة المعلقة. وليكن، إذا كانت النتائج قاسية جداً، لن أندم.

وأنا مستعدة للأقاصي بكل مخلفاتها المحزنة.

–٣–

ما دمت في لعبة الصراحة الصعبة، أكرر مرة أخرى، أن واسيني لم يعرفني بالشكل الكافي. أعجبتني فقط هزته الأولى التي أدخلته في دوار طفولي لم يكن قادراً على مقاومته. كانت موافقتي على حبه، هي رهانه الوحيد، لم يكن معنياً ببقية التفاصيل. أنا أيضاً لي قصة حياتية معقدة مفروشة بالإخفاقات.

قبل واسيني، عشقني ابن عمي، شاب يدعى قيس. صديقاتي كنّ يسمينه قيس بن الملوح، واسمه الحقيقي قيس وليد عمي موح. ولم يكن ذلك يزعجني، لأني كنت أرى نفسي في رتبة ليلاه. صدق بشكل مجنون أني ليلاه التي عليها أن تموت من أجله. يوم غادرته، اختار قبراً مهجوراً لامرأة ماتت منذ أكثر من دهر اسمها ليلى أيضاً، أحرقت نفسها لأن عشيقها تخلّى عنها وتركها وراءه حاملاً. وظل يزوره كل صباح إلى أن أنهى حياته على تربته وشوكه. عندما أرادوا غسل جثته، لم يجدوا مساحة واحدة من جلده لم تُخطّ عليها قصيدة من قصائده بأوشام لا تمحى ولا تزول. غسّالو الأموات كانوا كالعادة أغبياء. قال كبيرهم: إن الله لا يستقبل جسداً غير نظيف، وأن الملائكة تهجر السماء. لو فقطّ كانوا يعلمون الخراب الذي تسببوا فيه، ولكنهم عمّيٌ بكمٌ لا يفقهون. أتوا بالحامض، ومزيل اللطخات والصمغ، وأذابوا كل الأشعار مع القشرة

شهوانية، إلى اللعبة، إلى السادية، انتهاء بالكلمة التي تختزل كل عجزهم: الزانية.

لم يكن ذلك مهماً، لأن حقدهم في النهاية لم يكن إلا صورة مضمرة لما يعانونه داخلياً من إحباط متكرر. كنت كلما مستني سكاكينهم ووصلتني رياح مجالسهم القاسية، ضحكت بمرارة، وحزنت لأجلهم.

جاء بعد الهامل، نارسيس. نسيت اليوم وجهه واسمه الحقيقي. كان معجباً بنفسه أكثر من إعجابه بي. كل صباح يتأنق، يتفحص وجهه في المرآة، وينزع الشعيرات التي على وجهه وداخل أنفه بملقط خاص، يقلم شعر حاجبيه وأظافره، يبتسم لنفسه في المرايا التي وضعها في أمكنة متعددة من بيته. يتعطر بالعطور النسائية القوية التي تشم من بعيد، ثم يخرج. كان يغيب كثيراً ولا أراه إلا بعد مدة طويلة. وبدل أن يعتذر، كان يعود دائماً إلى مرآته.

عندما امتلأت «وغاضتني عمري» كما يقال عندنا، قلت له بعد أن تأكدت من أن الحظ وضع هذه المرة في طريقي، مخلوقاً لم يكن يشبهني في أي شيء. كنت أريد رجلاً أحس به ويحسسني بأني امرأة كاملة، وأني معشوقة ولست إنساناً لا وجه له إلا نفسه:

- «اسمع يا ولد الناس، ابحث عن غيري. نحن لا نصلح لبعض. لك الحق في أن تشتهي نفسك وجمالك وأنوثتك الخفية، ولك الحق في أن تجعل المرآة مآلك النهائي والجميل، ولكن ليس هذا ما أبحث عنه. أنا لا أفيدك في حياتك سوى أني أغطي عليك حياة سرية تعيشها. علاقة من دون علاقة؟ الله يسهل عليك...»

من يومها انطفأ حتى من المدينة. أراح نفسه وأراحني معه.

أوقف القائمة عند هذا الحد. لو تماديت سأمنح أعدائي فرصة إلصاق كل التهم الغريبة بي. في إرثي مجانين ومنتحرون ورجال شواذ، وحمقى. ولا يوجد ما يجعلني ملاكاً طاهراً، كما صورني واسيني، إلا اللغة التي أغرقتني

فيها حتى سُحرتُ بها وكدت أن لا أعرف أنا من غيري. لست أصلاً من طينة النور، ولا من عجينة الغيم التي يصعب القبض عليها. هذا كله أدب وليس حقيقة أبداً. امرأة أنا، محبة للحياة وممتلئة حتى القلب بكم لا أحسد عليه من الهبل. قنبلة موقوتة.

اللغة أخطر غواية. لغة الشيطان وحواء، التي سنت الطريق نحو التمادي في الغواية والعصيان أيضاً. لغة حواء وهي تهذب وحشية آدم. لغة هابيل وقابيل التي أدت إلى أول جريمة حب في الدنيا. لغة الله لعباده التي وضعت مسطرة الحدود. لغة الجسد للجسد، من الالتصاق بثدي الأم إلى التشبث بنهد الحبيبة والتلذذ بحليب الشهوة. هي دائماً مثل فاوست، تقف بشكل دائم وراءنا، توجهنا نحو ما يجب أن نفعله لكي نوقظ حواسنا الميتة ولا تترك لنا فسحة التأمل. لغة واسيني جعلت مني أنا، ولست أنا. كانت رهاننا المشترك، إذ ظل جوهرها صافياً كمرآة، ولم يستسلم أبداً لغبار الأيام الصعبة. لكني... كنت ضحيتها الأولى.

كان واسيني يقول دائماً: إذا بقيت لي قشة ألتصق بها في الحياة، قبل الغرق، فهي اللغة. لا شيء آخر سوى اللغة. وحدها اللغة، لغة العصيان والمسروقات الحميمية، حمتني من حماقات الموت وغواية التلاشي.

« - كان الموت عند الحافة. بل كان فيّ. أراه يعبر الأنابيب والأجهزة الملتصقة بصدري، وحتى بعيون الممرضات اللواتي قضين الليلة كلها معي في مراقبة ضربات قلبي المتواترة، وتنفسي ودرجة الحرارة، واستجابة جسدي لكل ما يحيط به. كنت في أعماقي أحس بانتشاء كبير لأني كنت أنتصر شيئاً فشيئاً على خوف كان فيّ. كنت أكتب وأنشئ لغة وأنسج نصوصاً سرية ستظل في متحفي الذهني، ولن ترى النور أبداً. ولكني مازلت أعتقد أن اللغة يمكنها أن تقتل وأن تنقذ صاحبها أيضاً».

أستطيع حبيبي أن أقول اليوم بلا تردد، إن اللغة التي منحتني الحياة بفضلك، في جسد امرأة أخرى، هي نفسها التي سحبتني كثور الكوريدا إلى ساحة الموت وكادت أن تجهز علي لولا تفطني في آخر لحظة، أي في اللمسة

الهادئة الفاصلة بين الحياة والموت، التي رأيت فيها فجأة شمسك تغرب، قبل أن يتسرب شعاع هارب إلى عينيك من سقف زجاجي، ويوقظك من غفوتك القاتلة، ويقنعك بأن الحياة مازالت مستمرة.

قتلتني مريم، ولم تسأل عني أبداً.

حياتها وأنانيتها تمر قبل أي شيء آخر في هذا، لم تكن مريم شيئاً آخر غير مجرمة ذكية، تقتل ولا تترك وراءها أي أثر للجريمة الموصوفة. كان علي أن أقوم بكل شيء بنفسي. فأنت لم تكن هنا، لم تستمع إلى الأنين الخفي الذي كان يتكالب كالحمم في داخلي. فقد بدا لك كل شيء مجرد استيهامات هاربة في أفق كل ألوانه كانت مغلوطة.

لم تكن هنا أبداً كما اشتهيتك.

كنت غائباً داخل غيماتك البنفسجية، غارقاً في تيه اللغة، مستمتعاً بالضياع الجميل، بين الأحرف والجمل والبياضات المحددة بدقة كالنوتات الموسيقية، التي كنت تجمعها برعشة العاشق الولهان، ثم ترمي بها على الورق الأبيض فتصطف في حلقات متتالية من النور، منفصلة– متلاحمة مثلما حددت لها أن تكون. لا شيء يعصى على يديك حبيبي. تفعل ما تشاء بها، فقد كنت مولاها وسيدها الأكبر.

وحدها مريم، كانت تعرف بالضبط سر ما كانت تفعله معي، وسعة فجوة الخراب التي خلفها جنونها فيّ، ونسيانك لي.

– قل لي بربك! ألم تكن تدري أن تواطئك مع مريم كان يقتلني أيضاً؟ وجدتَ في صمتك عليها، طريقها الواسع الذي جرتني فيه من شعري ورمتني على الحواف مثل أي كيس للقمامة!

أعرف إجابتك الأنيقة، لا داعي لأن تقولها.

«مريم ليست أكثر من لغة، ظل لحقيقة هاربة ومستعصية».

* * *

أي قدر وضعك في طريقي؟

ياسين حبيبي،

مهبولي الرائع،

حلمي الأكبر والأوحد في دنيا لا تمنحنا كثيراً من الحظ لنحلم، ولكنها كانت سخية معي حين وضعتك في طريقي.

يا مهبول، لو كنت تدري أي مهبولة أيضاً وُضعت في طريقك، لتفاديت مسالكي! لقد وضع الله في طريقي كثيراً من المجانين الذين انطفأوا بسرعة، وحدك بقيت. لا قيس، ولا الهامل ولا نارسيس، استطاعوا أن يجدوا ما كان يتخفى من وراء خيط الروح، غيرك. لم تنستيهم جميعاً فقط، ولكنك أنسيتني نفسي أيضاً.

كنت أظن أن مصاعب الدنيا قد تجعلك عاقلاً، وتقتل فيك جنونك، وأنك ستأخذ بقرار محيطك في أن تعيد رسم حياتك، وتنظيمها، لكنك بقيت مجنوناً ولم يقتل منفاك شيئاً من هبلك الجميل، والقليل من العقل الذي بقي فيك. وأنا سعيدة لذلك.

ماذا أقول أمام دهشتك الجميلة، يخرب بيتك؟ لقد جردتني من كل أسلحتي ولم تترك لي أية سلطة لكرهك أو لنسيانك.

اليوم أيضاً أطفأت شمعة أخرى لمايا، الثالثة. إنها تكبر بسرعة، حاملة منك كل شيء حتى الخانة التي ترتسم كبيرة على ظهرك، وميلان عينيك اللوزيتين. امتدادك.

شكراً على ردك، وإجاباتك، صدق أني أفهم وأقدر كل ما تقول، وكلما وضعتُ ملاحظة، تخيلت ردك وعرفت حدود قبولك ورفضك لها. هناك أمور قابلة للنقاش ولكن الخيارات تعود لك ، ولا أحد بإمكانه أن يغير رسم

عالمك. مشكلتي أني أحبك. أشعر بقرب منك لا يترك لي مجالاً لأنتبه لشيء آخر. لقد خسرت الشيء الكثير في رحلة الحياة القاسية ولكني لا أريد أن أخسرك. رياض مسافر دائماً. لقد دخل دوامة كبيرة، ووسع خياراته. بعد السيارات والتهريب وغيره، انضم إلى كارتيل السكر. تخيل ماذا فعلوا في المرة الماضية! بعد أزمة ندرة السكر! جاءهم منافس من كوبا مع شريك جزائري ورث مالاً كثيراً من والده لم يعرف أين يضعه! نصحه أحد أصدقائه باستثماره في السكر وأشار عليه بالمستثمر الكوبي. كانوا متيقنين من أنهم سيغطون السوق الوطنية بسكر من نوعية جيدة وبسعر أقل. عندما وصلت السفينة التي اكتروها، ظلت راسية لمدة شهر في الميناء، قبل أن يدخلها رجال مكافحة الغش، ومراقبة استيراد المواد الغذائية ويكتبون تقريراً، بإيعاز من الكارتيل، بأن في السكر سوسة أمريكية لاتينية مدمرة جلبت من كوبا، وأن درجة الرطوبة جعلت من السكر غير قابل للاستهلاك. في الليلة نفسها دخل خمس مسلحين على الشاب صاحب المال، في بيته. وضعوه بين خيارين، وتركوا الثالث غامضاً. لم يكن في حاجة إلى ذكاء كبير لفهمه:

– «أنت رجل طيب وبريء، ولهذا تركنا لك هذه الفرصة وإلا لكان لنا معك شأن آخر. نقترح عليك ما يلي بالترتيب: إما أن تعيد السكر إلى كوبا حالاً، أو نعيد لك خسارتك بعد حسم تكلفة السفينة التي بقيت رابضة زمناً طويلاً في الميناء ومتاعب رجال مكافحة الغش، ونستلمه نحن في عرض البحر، ولا تسأل عن الطريقة، أو...

– أو... «فهمت. شوف يا خويا، يرحم والديك، أنا زوالي ولد باب الله وأريد أن أعيش. لا علاقة لي بالتجارة. كنت أظن أن المسالة أبسط. أفضل أن أسترجع مالي إذا كان ذلك ممكناً. ما شفتوني ما شفتكم».
– كلامك جيد. هاهي نقودك. كنا نعرف أنك رجل عاقل».

ووضعوا في كفه نصف مبلغ الخسارة. وخرجوا. لم يسأل عن أي شيء آخر. لم يحاول حتى أن يتناقش عن بقية المبلغ. فقد اعتبر نفسه ولد من جديد. ظلت فوهات العوزي التي كانت تبرز من تحت ألبستهم تطارده شهوراً

طويلة في نومه.

عرف فيما بعد، أن السكر الذي زادت حدة ندرته قد بيع بأضعاف سعره، وأن سفينة الكوبي أفرغت في عرض البحر ودخل سكرها على متن سفينة أخرى كانت تحمل علماً بانامياً.

عندما سألت رياض:

– لماذا فعلتم هذا كله في هذا الشاب المسكين؟ ألم تحرر الدولة التجارة الخارجية؟

قال بلا تردد:

– كلام فارغ. لست أنا من فعل ذلك. الكارتيل هو صاحب الفكرة.
– وأنت ماذا كنت تفعل؟
– يهمني فقط أن لا تتدخل الطفيليات في تحديد أسعار السكر.
– هل كنتم ستقتلونه لو فعل غير ما طلبتموه منه.
– نعم. كانوا سيقتلونه. لم يفعلوا لأنهم عرفوا الصغيرة والكبيرة عنه قبل زيارته. لكن احتمال قتله كان وارداً. حتى أن هناك من طالب بتصفيته بمجرد الانتهاء من تفريغ باخرة السكر، ولكن الكثيرين كانوا ضد، لأنهم رأوا في موت الشاب فعلاً مجانياً.

عرفت يومها أن رياض أصبح جزءاً من آلة جهنمية، ربما كان حلقتها الأضعف، ولكنه كان جزءاً حيوياً منها. ولا أستبعد أن يكون ممن تخطوا عتبة الموت ليلتها تجاه تاجر الصدفة الشاب. عندما استعدت الشريط بدقة، تذكرت أني لم أر ليلتها مسدس ميكرو عوزي، في مكانه المعتاد، ولم يعد رياض إلا مع وجه الفجر.

لا أدري لماذا أحدثك عن أشياء خطيرة كهذه، ولكني أشعر أن البلاد تغيرت كثيراً، وأن أشخاصاً غامضين، لا يتجاوزون أصابع اليد يديرونها بسرية كاملة.

هل تدري أني أصبحت أخاف عليك مني؟ لأني مسارك نحو الموت إذا أحس رياض بأي شيء. أحمد الله أنك لم تعد هنا وأن مسافة المتوسط تضعك في منأى عنهم.

حبيبي وروحي..

دعني أخرج قليلاً من هذا الظلام القاسي.

كم أشتهي أن أكون معك لحظة الكتابة، أحضر لك شاياً، وأضع أجمل موسيقى وانسحب على أطراف أصابعي حين أراك غارقاً في نصك، ثم تأتي منهكاً وسعيداً ومحملاً بالدهشة ، تستلقي بقربي وتحكي لي عما تكتشفه ليس بعيداً عن ذاكرتك وقلبك. أستمع إليك بحب، أمسد على شعرك إلى أن تنام كطفل. وحين أستيقظ لا أجدك أمامي، أرى النور مضاء، فأعرف أنك عدت إلى هبلك من جديد وغرقت في الكتابة على الرغم من نصائحي لك بالراحة. أبتسم من أعماقي: لا فائدة من نصحك. مهبول. الله غالب. ومهبولة المرأة التي تربط مصيرها وحياتها بك! مجنونة تلك التي تفكر بأنه بإمكانها أن تحبك للحظة، ثم تمضي لحياتها.

حبيبي، شوقي إليك يعذبني بلا هوادة. لو كنت أستطيع المجيء إلى باريس الآن لما انتظرت لحظة واحدة، ولأريتك أنه أيضاً أي جنون يركبني ، ولسحبتك نحو طفولتي التي تخاف منها وعليها، ولرسمت في قلبك، وعلى جسدك كل ألوان قوس قزح، ولركضت بك في الشوارع حتى نتعب، ولمارسنا كل الجنون الذي يمكن لعاشقين أن يمارساه، ولأربكنا كل القوانين العشقية، ولهدمنا كل اليقينيات الوهمية.

لو فقط كنت أستطيع المجيء؟!

أشعر أن الدنيا لم تعد تسعفني. ولا حتى العالم الذي يحيط بنا، والذي أصبحت أخافه.

أرى في كل العيون البريئة، وجه تاجر الصدفة المسكين، وأرى في الكثير من المارة الغامضين، بعض الوجوه المنتمية إلى الكارتيل.

حدثتني قبل أيام عن رغبتك في كتابة رواية مجنونة باسم مستعار. لماذا تصر على ذلك؟ ألم يكفك ما فعلته بي أيها الشقي؟ لماذا تريد اسماً مستعاراً لتكتبَ جنونك؟ رواياتك كانت مجنونة أيضاً ولكنك استطعت أن تهرب منها ومن شبحها دون أن تهرب من اسمك! يكفيك واسيني. أغلبية الذين لا يعرفونك يظنون أن اسمك مستعار. ألا يكفيك هذا؟ أي جنون يدور برأسك أتمنى أن أعرف. طول العمر لك لتعيش حياتك كما تشتهي وتكتب كما تشتهي أشواقك وأشواق أولئك الذين لا لغة لهم. أثق كثيراً في أنك ستعيش طويلاً. تذكر ذلك. وأتمنى أن أموت قبلك، لتتحمل أنت خسارتي، فأنت قادر عليها أما أنا فلا. أفكر بجنون فيك وأتكوم على نفسي كلما شعرت أن شوقك صار أكبر من طاقاتي كلها لتحمله، وأحترق ريثما تعود. لا ثمن لحبي، ولكن أقبل بالأشياء التي تأتي من عمقك ولو كانت قبلة واحدة. قبلة دافئة بلا بداية ولا نهاية ولا نحتاج للعد حينها، قبلة تعيد حرارة الجسد الذي برد بالغياب. أنا لا أحب البرد ولا أنت. ولذلك سيكون جميلاً أن نتدفأ بأنفاسنا مرة أخرى. ياه! هل هناك مبرر يمكن أن يقتل كل هذه الأشواق ويمنعها من الحياة؟ أي امتحان يضعنا فيه الله وهو يعرف أننا أضعف من أن نواجه أشياءه الجميلة بعيون مغمضة. وأنت أجمل ما منحني في حياتي.

أحبك عمري وشوقي. وأشكرك لأنك تفتح قلبي وتهزني هزات جميلة لا أعرف كيف أعيشها وأنت بعيد عني كل يوم أحبك أكثر. وأفتش عن حلول ممكنة لورطتي معك وهشاشتي نحوك، التي لا أظن أنها ستشفى. لكن. أقبل بهذا القدر الجميل أن نمرض بإنسان حي، أجمل من أن نمرض بغيابه الأبدي.

أشتهي أن أبقى هنا معلقة أمام عينيك، بكل هذا العري الداخلي الذي لا أخجل منه مطلقاً وأجننك أكثر حتى تعود إلي بسرعة. عد أيها الأهبل، لك امرأة تنتظر عودتك مع كل ريح تهب، في كل قطرة مطر تتمزق على الأسطح القرميدية. عد، لم أعد قادرة على تحمل غيابك. لن أكون شريرة ولا طماعة. سأسرقك كل صباح فقط وأعيدك مساء. لا أحد ينهب منا أشواقنا، وأشياءنا الجميلة التي ترفضُ أن تسرق منا ونصر عليها. حين تسرق منا الأشواق، فهذا يعنيّ أننا لم نعد نرغب فيها.

سيفي حبيبي

أستغرب أنك لم تكتب لي طوال هذه الأيام! أتمنى فقط ألا يكون لتعبك علاقة بالأمر. وصلتني رسالتك الجميلة منذ مدة وأشعرتني يومها أني ملكة، وأن كل الدنيا لا تعادل إحساسي بك. ما أجمل صباحاتي التي تبدأ بك ومعك. لا عليك، ارتح قليلاً، واكتب لي حين يشتهي القلب ذلك. أنا هنا في هذه المدينة التي أصبحت كظلي، متعبة من الركض بين الكونسرفتوار، ودار الأوبرا التي يسميها الناس هنا في وهران، مسرحاً، وأشعر أن التسمية تنقص قليلاً من نبلها ولو أن العلاقة بينهما حميمية ووشيجة. لقد جعلني جنونك أسعد مخلوقة في الدنيا، ثم رحلت كما تعودت أن تفعل، ولا شيء تغير سوى أن شوقي نحوك صار أكبر من طاقات البشر الضعيفة. أفكر فيك. وكلما تذكرت قبلك المسروقة، تحسست شفتي وابتسمت. وأحسست أنك لم تغادرني مطلقاً، فأنت هنا، في القلب، في نفسي، بين شفتي ابتسامة أو قبلة هاربة.

حياتي وقلبي،

أشعر ببعض القلق عليك، من وضعك الصحي، ولكني متفائلة هذه المرة والقلب العاشق لا يمكن أن يخذلنا الآن ونحن بكل هذا الجنون. اهتم كثيراً بنفسك من أجلنا معاً. ومن أجل كل الناس الذين تصنع في قلوبهم إحساساً جديداً بالحياة. يفترض أن أكسر رأسك وتلفونك ورأس صاحباتك الخليجيات وقارئاتك الجزينات اللواتي يبعثن بالرسائل المجنونة، ولكني سأوفر غيرتي هذه المرة. الغيرة لا تنفع عن بعد. ما ينفع فقط هو مزيد من الحب لنتحمل المسافات القاتلة والعزلة المفروضة علينا من كارتيل العواطف الذي جبر كل شيء لمصالحه وحساباته المعلنة والخفية.

أيها الأحمق،

ما أخطر ما تفعل بي لو تدري! مثلك أحس أن شيئاً كان ضائعاً بيننا ووجدناه. لا أريد من الدنيا سوى أن تمنحني قدراً إضافياً من الجنون لأعيش حماقة حبك كاملة وجميلة كما أشتهي. لا تعرف ما الذي أختزنه لك في هذا الجسد الصغير، والمليء بالحياة، من جنون ورعشة بحيث يكون لدينا في

كل لحظة إحساس جديد وصاف. لا أريد أبداً أن أقتل جمال الأشياء وهشاشتها وإلا قتلت حبي. لكن الدنيا بنت كلب وضعتني في أسوأ الخيارات.

لا يعني لي الزواج إلا هروباً من ضيق لا يحتمل حلاً لا أملك غيره لأتحرر قليلاً. الأمومة شيء جميل، وأنا لم أكن أشتهي إلا مايا ليكتمل إحساسي بك. شكراً لهبلك المتمادي بلا حساب. فقد منحتني ما اشتهيت في أقسى الظروف وأصعبها. اطلب مني أن أطلق رياض، أيها الأحمق، وسأفعل حالاً بلا تردد، ولست مجبراً على الزواج مني. أشتهي أن أغمض عيني وعندما أفتحهما، أجدك فيّ بكلك. أريد أن أكون لك. وبلا خوف، وألا أمنح جسدي لغيرك ما دمت أحبك. شيء من الخوف يمنعني، ولكني متأكدة من أن ذلك سيحدث يوماً ما. أشتهي لحظة عذبة لا أفكر فيها إلا بك، ولا أحس إلا بك وأنت تفتح طريقاً من النور واللذة في جسدي. ستكون أحمق لو ظننت أني لست مثلك، عاشقة وقبلية المزاج.

أينك الآن؟ أتمنى أن تكون في المنزل مرتاحاً وأن تقرأ رسالتي! وأن أخرج كالعطر من كلماتي وأمتطيك وأنت جالس هناك أمام جهازك العجيب الذي أتاك بالمرأة التي تحبها والتي رحلت عنها وفي عينيك بريق الحب والشهوة المتفجرة.

أقبلوووووووك، بجنون، وأطلق العنان لكل القبل المؤجلة وكل القبل التي حلمنا بها. أقبل جسدك نقطة نقطة، وأتحسس مساحاته. لو فقط أستطيع أن آتيك الآن لأريك من أكون! أردت أن تفسد عليّ صومي أيها الشرير. طيب، هكذا سأفسد عليك نومك هذه الليلة لأنك لن تستطيع النوم بدوني. الشح فيك!!! واحدة بواحدة. لتحس وقع كلماتك المجنونة فيّ يخرب بيتك ما ألعنك وما أقسى غيك المخبوء!

أيها الغالي الذي لم يبرح القلب ولا دقيقة منذ أن سرقته تلك البلاد.

هل تدري كم أحبك؟ هل تدري كارثة الفقدان الكبير؟

كم أشتاق لك حبيبي، وكم أتمنى أن نعيش هذا الإحساس الجميل بامتلاء في الفراش وخارج الفراش. لا تطلب مني أن أنسى شططي. فأنت جزء منه.



ولكنك شطط جميل. أحاول أن أكتب قصتنا، ولكني أخشى أن أضيعها داخل اللغة. أنا التي بدأت أخيراً أحسها تورق مثل شجرة ياسمين بري. أنتظر عودتك فقط وسنرى إلى أي جنون نصل. سلم لي على مهبولتك وصديقتك المجنونة إيروتيكا التي ابتدعتها من هبلك. سلم لي على آنيا، الروسية التي تسرقك مني كلما افتقدتني في أرض المنفى القاسية.. لا تقل لي العكس. سلم لي على كل من يحبك ويشتهيك. وعلى كل المجنونات اللواتي تصادفهن في طريقك الضائع. قل لهن أن لك حبيبة تغار عليك كثيراً.

أعرفك مجنوناً لا يبالي بالأخطار المحدقة بقلبه، ولكن أرجوك، اهتم بنفسك كثيراً، من أجلي على الأقل! أنت لا تنتبه، ولكنك متعب كثيراً لأنك لا تعرف الراحة أبداً.

اعذرني على كل وساوسي التي تأكلني، فأنا أخاف عليك كثيراً

في النهاية، لست أكثر من امرأة عاشقة من رأسها حتى أخمص القدم.

أحبك يا أكبر مهبول في الدنيا

وهران ربيع ٢٠٠٠

-١-

رفعت رأسي قليلاً بعدما شعرت بثقله على جسدي.

لا شيء سوى الوقت الذي يزحف كأفعى عمياء. الساعة الغارقة في جبروت التكرار، تجاوزت الآن الخامسة بدقيقة واحدة وسبع ثوان. لا أدري إذا ما كان للوقت قيمة فيما أنا فيه، ولكني أشعر به مثل قطرات الحامض التي تأكل كل شيء في هدوء وسكينة، تنزل على ذاكرة كسرتها الخيبة وكثير من المتاعب. لولا تلك اللمعات المسروقة على هامش حياة مكرورة، لكنت ذهبت بلا تردد نحو مرقد جدي سيدي عبد المؤمن بو قبرين، في أعالي جبال اسبيردو، وطلبت منه أن يستردني نحوه بسرعة. وصرخت في وحشة العزلة: أغثني يا جدي، لم أعد قادرة على تحمل جسدي. لقد ثقلت روحي وتهاوت حواسي كأوراق الخريف، وماتت أشواقي وانسحبت طفولتي. هناك، على الحواف الحادة، غوايات الانطفاء كثيرة. عندما أقف على ارتفاع خمسمائة متر قبالة المتوسط الغربي، وسط الضباب اللدن والجميل، أستحضر كل شيء بما في ذلك إغماض عيني والدفع بجسدي، بلا تردد، نحو الطيران.

الزمن محنة المنكسر، وربما الخاسر. قد لا يعني ذلك الشيء الكثير بالنسبة للآخرين، لكنه يعني على الأقل، أن لا لحظة تشبه أختها في هذه السيولة الأبدية المستمرة.

«طبعاً.. لست سادية إلى كل هذا الحد، كما يتصورني الكثيرون من الذين يتوقفون فقط على حافة ما يحدث لي. لا أريد الشر لأي إنسان حتى ولو كان كائناً ورقياً، بل حتى ولو كان اسمه مريم، ولكني أعترف أني سجينة في الأعماق، كسمكة في عمق شبكة عمياء، تائهة كحيوان مجروح».

قبل قليل كنت أشعر كأن داخلي كله تحول إلى كومة من رماد بلا هوية.

الآن هدأ كل شيء على الرغم من العاصفة الداخلية. حتى الحركة التي أجبرتني على التوقف عن الكتابة، انتفت. لم أعد أسمع شيئاً. ظننتها في البداية حركة الذبابة الزرقاء بعد أن وقعت في كمين طبيعي، ولكني عدلت عن الفكرة، إذ عادت السكينة المفرطة التي لا تشوبها أية شائبة.

افترضت أن تكون أصداء حركة خارجية لقط ضائع، يبحث عن قليل من الدفء. لكن الهدوء الذي أعقب الحركة، جعلني أغير فكرتي، بل وحتى أنسى فكرة الحركة إذ لا تعدو أن تكون مجرد أحاسيس داخلية لا وجود فيزيقي لها، أو على الأقل هكذا أقنعت نفسي.

تراكمت كومة الأوراق والرسائل المحيطة بي، وكان علي أن أرتبها وأخلق بعض المكان على المكتب الذي لم يعد قادراً على التحمل.

بدأت أشعر بقليل من التعب، تناسيته بسرعة. كنت في سباق ضد الساعة، ولم يكن لدي خيار سوى أن أواصل. قضيتي عادلة، وعلي أن أوصلها إلى المنتهى.

تحسست الكمان من جديد. شعرت برغبة باطنية للتمدد قليلاً على الكرسي القصبي، والعزف بلا توقف. سحبته من عمق المكتب، ووضعته عفوياً بين الكتف والذقن، تماماً كما كان يفعل والدي الذي مات متكفئاً على آلته التي عشقها بجنون. لا أدري ما الذي ذكرني الآن بجون دومنيك بوبي الذي خانه جسده وهو في عز عنفوانه. لم يكن لجون دومنيك بوبي، حظ والدي في الموت الهادئ. فقد سجن في جسد ميت مدة طويلة، قتله بمجرد انتهائه من كتابة سيرته الذاتية برمشات عينيه، ومساعدة الممرضة التي تعاطفت معه حتى النهاية. أحياناً أقول إن العظيم ليس جون دومنيك لأنه لا خيار له داخل جسد متهالك، ولكن تلك المرأة التي سهرت معه طويلاً، قبل أن تخرج من آلامه الصامتة كتاباً، هز الأصحاء قبل أن يمنح المرضى قوة أخرى.

لم تكن جلستي مريحة، ولكنها كانت كافية بأن تمنحني فرصة الأنين الذي كان في رأسي، والارتباط بك حد الهوس. شيء ما أيقظ فيّ أماديوس موزارت، ودفع بي نحو لياليه الهادئة.

وقفت. مشيت قليلاً. أغمضت عيني قليلاً. شعرت بالفضاء واسعاً جداً، مخترقاً بـ «لمبات ونيونات» من كل الألوان الخافقة. تبثُّ الكمان من جديد بشكل أشعرني ببعض الراحة. كان عليّ أن أملك القدرة على محو كل ما كان

يحيط بي. الكمان لا يقبل إلا بالوضعيات المريحة ليتمكن من استدعاء كل الحواس الحية. ثم تركتني أتدحرج في آخر الليل، في عمق التمزق الذي احتل جسدي.

لم يدم الوقت طويلاً. استحضرت بعض أناشيد الميلاد الحزينة، كانتو نيول[65]. عزفتها براحة كبيرة. عندما انتهيت، شعرت بإحساس غريب من القوة وكأني لم أكم متعبة. استطعت في لحظات مسروقة، أن ألمس بحنان نادر، ابتسامة والدي سي ناصر الذي غاب ولم أسمع تنهيدته الأخيرة. هل كان أنيني يصل إلى مسمع الذين بدؤوا يستيقظون قبل غيرهم؟ لا أدري. السكريبتوريوم الذي أنا فيه مغلق من كل الجهات مثل البونكر[66].

-٢-

تنفست ملء رئتي وكأنني أزحت ثقلاً رمادياً كان ما يزال يملأني.
وضعت الكمان على المكتب من جديد. وعدت إلى حركتي الاعتيادية.
الكمان الآن ظاهر للعيان. تنام بجانبه قصبته الجميلة. ليس بعيداً كثيراً عن المسدس الذي أصبحت فوهته مصوبة نحو الحائط. عندما دققت جيداً، كانت هذه المرة موجهة بالضبط نحو لوحة إتيان ديني[67]، التي جاء بها رياض من مزاد لا أعرفه. أسير الحب ونور العينين[68]. لوحة العاشقين. رجل وامرأة من بدو بوسعادة. يسحب نحو صدره شابة نايلية جميلة وممتلئة إغواء، بعينين عاشقتين مليئتين بالنور والنداءات المضمرة. تحاول بلمسة الساحرة، أن تسكن غلياته بإشارة من إبهامها، لكي يمنح لحظتهما الجميلة وقتاً ضافياً. تنتابني أحياناً رغبة اختبار ألوان اللوحة بأخذ عينة منها والذهاب بها نحو مختص لمعرفة تاريخها على الأقل؛ أنا لا أعرف أين يوجد الأصل، هل اللوحة التي في القبو، التي يبدو أن رياض قد أهملها قصداً في هذه الخلوة ليعطي لنفسه وقتاً آخر قبل أن يبيعها في مزاد من المزادات السرية أو تسترجع بأمر من الكارتيل السري، أم اللوحة الموجودة في متحف أورسي[69]، في باريس، التي رأيتها في العديد من المرات! عندما سألته يومها لم يجبني بدقة، وفضل أن يغرق كل شيء في العموميات، كما تعود أن يفعل معي كلما تعلق الأمر بتجارته التي كبرت وتنوعت مع

أعضاء الكارتيل السري. أعرف أنه يحضر بعض المزادات الوطنية والأوروبية والأمريكية وحتى الآسيوية المتعلقة ببيع اللوحات. هناك من يقول إن بعض أعضاء الكارتيل يقفون أيضاً على رأس شبكات تهريب الآثار خارج البلاد. وانتبهت أيضاً إلى أن المسدس كان موجهاً في الوقت نفسه، باتجاه كتاب «اسم الوردة» لأمبرتو إيكو الذي كان في الامتداد المستقيم للوحة. علاقتي بالمسدس يشوبها شيء من الاطمئنان والخوف. لا أدري لماذا يلازمني كلما نزلت إلى السكريبتوريوم. أشعر بشيء من الخوف في غيابه معي، لكن برودته لا تريحني أبداً.

عدت إلى صورة والدي لأنسى المسدس البارد. كلما رأيت الكمان على هذه الوضعية الممتدة، رأيت سي ناصر في هدأته الأخيرة. في حالة صفاء كلي، على الرغم من حالة الحزن التي تنام بين ملامحه المتعبة. كنت في المدرسة، عندما مر علي خال أمي الذي أناديه خالي، وسحبني من الكرسي، بعد أن وشوش في أذن الأستاذة ببعض الكلمات. لم أتساءل، ولكني كنت أدرك بحاستي الباطنية، أن شيئاً خطيراً قد حدث. سألت خالي وأنا أتلعثم وأبحث عن مفرداتي الضائعة:

– خالي! هل حدث مكروه لوالدي؟
– لا.. لا... ما تخافيش. لا شيء. يريد فقط أن يكلمك... أن يكلمك...

رددها خالي مرتين. عرفت بسرعة ما كانت تبطنه لهجته الخفية. كان واضحاً أنه يخبئ شيئاً خطيراً لا يريدني أن أعرفه. عندما دخلت إلى البيت، كان سي ناصر مازال متكئاً والكمان على صدره كما اشتهاه، وكما أوصى به قبل وفاته. لم أسأل أحداً ولكني سألت والدي الذي تسمرت قبالته. عبثاً ظللت أصرخ وأبكي: بابا اعزف لي نشيد البارحة. فقد أحببته لأنه يثير شيئاً غريباً في حواسي. لم أسمع إلا تمزقاتي. احتضنتني أمي وخالها. بكيت طويلاً قبل أن أنسى تلك الصورة الصعبة. فقد سرقت منه النوبات الأخيرة الكثير من حواسه وحدت من حركته. كان يتكئ على كمانه ويطلب مني أن أعزف له ما أشاء إلى أن ينام، أو يغفو.

كان الحزن كبيراً والفقدان فجوة يصعب رتقها.

واسيني كان متعاطفاً جداً مع آلامي وأحزاني العميقة. ولكنه لم يفهم يومها لماذا بكيت بعد أن رأينا فيلم السكافوندر والفراشة. عندما خرجنا من قاعة السينما. لم أقل له عن السبب. لكي لا أخسره متعة المشاهدة إلا عندما راسلته. ظل يكرر: ليلى حبيبتي. أرجوك! هو مجرد شريط سينمائي لا أكثر ولا أقل. قبل أن أرى الدمعات ترتسم في عمق عينيه هو أيضاً وكأنه أحس فجأة بما كنت أحسه.

كان والدي قبلتي الوحيدة وسندي العظيم. لم يكن فقيراً. فقد ورث عن والديه مالاً كثيراً وعقارات معتبرة. لم نجد في وصيته سوى جمل محدودة:

الكمان لحبيبتي ليلى. هي تعرف كيف تزرع فيه الحياة قبل أن تورثه لابنتها. البنات يملكن حاسة ضافية عن الأولاد: حاسة التوريث الجميل. الباقي لكم جميعاً، أنتم أعرف الناس بتقسيمه وتوزيعه.

الكمان هش ويحتاج بقوة إلى تشغيل كل الحواس الحية في الإنسان، لا يمكنني أن أعزف به لحناً راقصاً كما يفعل الغجر والإرلنديون. حواس الكمان رهيفة جداً، لا تتحمل الصخب. تعلمت هذا من والدي، ومازلت على رأيه.

-٣-

ليعذرني واسيني مرة أخرى
هو كاتب، ويعرف هبلي جيداً.

ثلاثون سنة وأنا امرأة الظل والصمت والورق. لا أمشي إلا على الحواف، ولا مخبأ لي إلا الورق، والظلال التي أتماهى معها بحيث لا أحد يراني، وأرى الجميع. يتحدث الناس عني، قصدي عن مريم، يشتهونني، يحبونني، يحسدونني، يكرهونني. الكثير من الرجال تمنونني في فراشهم، أو أما صالحة لأولادهم. الكثير منهم أيضاً تمنوا أن يبوسوا الحجرة التي يرجمونني بها بحثاً عن قبلة الجنة. الكثير من النساء حسدنني في حريتي، والكثير منهن أيضاً رأوا نورهن الغائب وألقهن المتلاشي، في عينيّ الهاربتين.

لكن، لا أحد منهم جميعاً سألني من أكون حقيقة وسط هذا الكورس الجنائزي العظيم الذي تسجى فيه أحلامنا المنكسرة!

لم أتحدث يوماً عن نفسي كما يفعل جميع الناس العقلاء. هذه المرة بلغ السيل الزبى، وصممت أن أحكي عن جزء صغير من قلقي الذي عشته مع واسيني.

منذ أن اخترنا مسالكنا المختلفة للزواج، صارت كل حياتنا مسروقة ومليئة بالمخاطر والخوف، أصبحت أفراحنا وأشواقنا تحسب بالثواني والدقائق والساعات. لم يكن الحب سعادات متكررة، ولكنه كان ظلاً ثقيلاً يصعب حمله. ولا نتجاوزه إلا عندما تسرقنا مدينة جميلة في آخر هذه الدنيا الصاخبة.

أحياناً، عندما تنتابني الأحزان بقوة، أقول «باسطا» من هذه الحياة المرهقة. «باسطا» من هذا الحب الذي جعل من العذاب لازمة وقتية. الدنيا مع واسيني لم تكن كما اشتهيتها، ولكنها عاشتنا كما اشتهت هي، وبمنطقها المجنون، ولم تسأل أبداً عن أشواقنا واهتزازاتنا الخفية. فكلما صممت أن أتركه، زاد التصاقي به وكأني أتخلى عن عضو حيوي من أعضائي، وصمت كل شيء فيّ وماتت إرادتي ونواياي. هذه المرة غيرت الإستراتيجية. فقد اتخذت قراري بتبصر كبير وتعقل وتفاديت الأحاسيس الطارئة، لأخرج نهائياً من شرط سيدة الظل الذي وُضِع لي. صممت أن أقول كل حرائقي الداخلية. لهذا، تحملت موت واسيني الافتراضي في غيبوبة تخيلته فيها غارقاً بين حافتي الحياة والموت لكي أتمكن من استرداده عندما أنتهي من تصفية كل حساباتي. لست سادية رخيصة، ولكن كان علي أن أفعل ذلك لكي أتخلص من كل هذا الرماد الذي بداخلي.

ومع ذلك كله، فأنا أعرف مسبقاً أني لن أشفى من شهوتي للحياة وشغفي بها وجنوني. حتى هذا الموت الافتراضي كان عاجزاً عن تعطيل حواسي الخفية التي كلما ظننتها اندثرت، وجدتها تنبض بالحياة حتى وأنا على الحواف الخطيرة التي تشبه الموت ولا تريد أن تنطق باسمه!

كان واسيني بعيداً، وكنت أموت في العزلة والبرد، ضحية لامرأة خانت الخميرة والحلفاء، والورق ورائحة الحبر البنفسجي وطفولة الأبجدية، ولمسة العاشق الطيّب الذي خطها ذات يوم من شعاع ظلٍّ متقداً في عينيه.

هل بقي لمريم شيء تقوله بعد هذا الخراب كله؟

* * *

حافتنا جميلة، لا تهدمها

حبيبي،
سيني الغالي،
لم يقدني نحو هذه الحافة البحرية إلا أنت.

اشتقت إليك، فجئت مع عائشة من وهران إلى العاصمة، إلى بيتنا على الحافة البحرية. فقط لأشم رائحتك وأتلمس مسامات جسدك المتعب، وأغلق كل جراحاتك المفتوحة. أشتهي اليوم أن أكتب لك رسالة خطية بالحبر الذي تشتهي، البنفسجي. عطره يملأني الآن، ووجهك بجناحني وأشواقك تغمرني. لا أكتب على الكمبيوتر هذه المرة. في خطي اليدوي شيء مني، وفي تطرف حبري الكثير من مزاجي.

لقد هيأت كل شيء للقاء بك هذا المساء.
هل أذكرك بما يربطنا، لكي لا تنسى أبداً؟

أرجوك افهمني بدل أن تحاكمني! أنا أيضاً أشتهي أن تكون كل لحظات العمر التي نتقاسمها، جميلة. يا مهبول هل تدري أنك قتلتني بذلك الفيلم الذي لم يترك فيّ شيئاً. كان يمكنك أن تختار شيئاً آخر. فقد رأيت والدي وهو يموت أمامي. لم أكن أشاهد الفلم، ولكني كنت أعيش حداداً قاسياً لم يتم أبداً، وأعيش موت والدي الذي لم أره إلا منكفئا على كرسيه قبل أن يسجّى. على الرغم من أني قلت لأمي في ذلك الصباح، إني متعبة، ولا أريد أن أذهب إلى المدرسة، ولكنها ألحت علي أن أذهب وأن والدي بين يدي الله وبين دعواتها الطيبة.

كان وجهه كابياً ومنكسراً ولا أدري القوة الباطنية التي نبهتني إلى أنها المرة الأخيرة التي أرى فيها والدي ولهذا أصررت على أن اسمع أنينه.

كنت أنظر نحوك من حين لآخر، ونحن نشاهد الفيلم وأستغيث بك، ولكنك أنت أيضاً كنت تضع وجهك بين يديك كالطفل الحائر. أتكئ عليه برأسي وشعري لكي أخرج من الإسقاطات التي لا مناص منها. تقبل رأسي، وتنكسر بجناحك علي قليلاً، ثم تواصل المشاهدة بحيث لا أراك ولا تراني. مشكلة الفنون أنها عندما تتوغل في الأعماق، تلغي كل المسافات الفاصلة بين الخيال والحقيقية. كل شيء يصبح هشاً. أتذكر كل كلمة قلتها لي ونحن نتحدث عن الحدود الوهمية بين الأشياء: أليس الخيال في النهاية إلا احتمالاً آخر لحقيقة ممكنة حدثت في مكان آخر، ويمكن أن تحدث لنا؟

طوال الفيلم لم أر إلا والدي وهو يتعذب في صمت قاس.

أغفو وأحاول أن أنسى كل شيء لكي لا أبكي. أحاول أن أضحك من حماقاتنا الصغيرة. كنا في فراشنا المسروق من حياة زوجية بالية ومكرورة وميتة. قلت لي يومها بالكثير من الهبل والجنون وأنت لا تدري ما كنت تفعله فيّ: ليلي الحبيبة.

- لو كان قيس المجنون يعلم ما سيحصل بعده، وأني سأسرقك منه في غيابه، لانتحر بين يدي الله الذي سحبه نحوه قبل الأوان. أحياناً أشكر الله لأنه فعل ذلك في وقت مبكر ومنحني بعض الحياة ممزوجة بقدر كبير من الهبل.

- قيس! أحزن كثيراً لموته غير العادل. أشعر دائماً بظلم سلط على عاشق ظن نفسه أنه استمرارية حية لأحزان قيس. كان ينقش أشعاره السرية على جسده بإبرة صغيرة، قبل أن يُغسل بمحلول سلخ جلده يوم موته. أشتهي أن يمنحني الله عمراً آخر لكي أتمكن من حبك أكثر فقط لتدرك أن امرأة مجنونة وضعت حياتها كلها في كف رجل هو في الأصل ليس لها وحدها. لن أتزوجك لأني أدرك اليوم، وأكثر من أي زمن مضى، أني إذا فعلت ذلك سأفقدك أو أقتلك. يكفيني أني سرقت منك أجمل هدية: مايا. الباقي لم يعد يهمني أبداً. ربما كان ذلك هو شرعيتنا الوحيدة في هذه الدنيا.

لن أطالبك حبيبي بفواتير الماضي فهي ثقيلة من الجهتين.
ماذا فعلتُ بك وماذا فعلت بي أيها المجنون؟

أيها النائي القريب أما آن لك أن ترتاح وتريحني معك؟ كنت أريد أن أنساك دفعة واحدة فوجدتني أتجرعك قطرة قطرة، بعد هذا العمر كله! بعد ثلاثين سنة من الخوف، ما زلت حارة كهذه الأرض، هل تريد أن أذكرك بما قلته لي يوماً ونحن في مدينة لم يسرق العابرون أبداً بهاءها؟

– أحبك ولا شهوة لي إلا الموت بين ذراعيك، وتحت ظلال عينيك.

أيها المجنون ما أخطر ما كنتَ تقوله، ببساطة.

سعيدة أن الهروب الأبدي، أعادك إلي من جديد حياً وكاملاً. كنتُ أظن أن الدنيا سرقتك مني وأن المنافي صنعت لك أعشاشاً جميلة في مدن أخرى لم أعد قادرة على الوصول إليها. لكني كل يوم أكتشف أن قلبك مازال لي.

لقد نزل المطر هذا الصباح على حافتنا البحرية، وأرى السحب من هنا وهي تحاول أن تتنازل قليلاً وتلمس هذه الأرض التي تعطش بسرعة. وأحس برغبة في لمس غيمة بنفسجية كانت معزولة، عن البقيّة وقريبة مني. أشتهي سحبها نحوي ووضعها على رأسي، واعتصار كل المطر الذي يسكنها في العمق. ربما لأنني أشعر بالعطش أنا أيضاً، مثل الأرض التي أنتمي إليها والتي نسيت حبيبي أنك اليوم خرجتَ من منفاك القسري، وأصبحتَ تتجول في الحديقة وترى الفراشات وألوان الله. أعرف أنك كنتَ ستختنق في اللحظة التي تشعر فيها أن حريتك سلبت منك. يتهيك الغبن قبل الموت نفسه. نسيت فقط حبيبي، في المرة الأخيرة، حينما احتضنتني، أن تمتحني قليلاً من الصبر يجعل الأقدار أقل قسوة على هشاشتي.

سعيدة لأنك بخير، وحزينة قليلاً لأنني ما عدت أملك إمكانات كثيرة لمقاومة غيابك. حتى رسائلك صارت تشبه البرقيات القديمة التي لا تجيب عن سؤال إلا لتتركنا معلقين داخل ألف سؤال آخر. وأتساءل الآن إذا بقي لك شيء تقوله لي، ومكان تأوي إليه لغتك التي أحب. ربما أتعبتك الدنيا فلم

يعد فيها شيء يثير شهيتك، بما في ذلك أنا! ربما! لن أعترض، لسبب بسيط هو أن رهاناتي مع الله كانت قاسية. فقد طلبت منه فقط أن ينقذك من موت رأيته يركضُ نحوك بأقصى سرعة، وبعدها سأتحمل كل شيء، حتى فراقك. طلبت أن ينقذك فقط، ولم أطلب شيئاً آخر، ولا حتى أن تحبني كما كنا نفعل في ليالي القدر، عندما كنا ننتظر أبواب السماء لكي تفتح علينا ونطلب من الله أن يجنن عشاقنا علينا. وعندما تسألني أمي: ماذا طلبتِ في ليلة القدر؟ أتلكأ ثم أقول لها: طول الصحة والعمر يا يما لك ولكل عائلتي، وحفظ والدي من أي مكروه، والنجاح في امتحاناتي وحياتي وأصبح عازفة كبيرة مثل والدي. تقول لي وهي منهمكة في ترتيب شؤون البيت: حسناً فعلتِ يا ابنتي. والدي كان يقرأ كل شيء في عيني. ولهذا لم يكن يكلف نفسه بسؤالي، ولكنه كان يقول وهو يحك على رأسي: لا تكثري على الله من الطلبات وإلا سيعتبرك طماعة كبيرة. فتنزلق الإجابة على لساني: لم أطلب إلا طلباً واحداً. يضحك ولا يسألني لا عن طلبي ولا عن تناقضاتي الطفولية التي أشعر بها بعد فوات الأوان. ثم ينكفئ على كمانه وهو يتمتم: اسمعي هذه يا مايا، فهي على إيقاعك وميزانك: رمل المايه. وينغمس في إيقاعات مليئة بالحنين.

أشتاق إليك كثيراً. أكثر حتى مما تعنيه لحظة مسروقة. احتاج إلى أن أراك، واسمع صوتك وأشبع من ابتسامتك. واستمع إلى حكاياتك التي تروي دائماً شوقاً بعيداً أو لحظة منكسرة بدون أن تخسر وجهتها نحو سعادة محتملة. أحب أن أصغي إليك وأنت تتحدث عن صدفة أخطأتك. عن موت كان أكيداً ولكنك سخرت منه فهرب! احتاج إلى أن أضع أناملي المرتعشة على تفاصيل وجهك لأصدق أنك مازلت هنا، وأنك لم ترتكب أية حماقة في حقي وفي حق نفسك.

يبدو حبيبي، أني أحتاج يوماً إلى أن أنتفض ضد خشونة رأسك الذي لا يسمع إلا لسخريته من شيء لا يَسخر منه. أعرف أنك مازلتَ تسهر وتشرب، كما في السابق على الرغم من نصائح الطبيب، وتحب الكتابة بجنون كمن يلتصق بالمستحيل. لقد صرتَ فيها وصارت فيك. ألم تفكر يوماً أن الكتابة أيضاً يمكن أن تتخلى عنك، وتنسى أنك أصبحت مهدداً بشيء أكبر منها؟ طبعاً

سيني الغالي..

لا ترهق نفسك أرجوك. فكر فقط بالسعادات القادمة. اهتم كثيراً بنفسك، وبقلبك، وبأشواقك الجميلة، من أجلي. وهران لم تتغير كثيراً. وبحرنا على الحافة مازال كما في بدء الرحلة. عفوياً ومدهشاً. عندما نلتقي، في الأيام القادمة، تنتظرك مهمة خطيرة وثقيلة، هي إسعادي. عليك أن تكون بصحة جيدة، حتى تنجح في ذلك. «وين تروح مني يا دينك؟». فقد ربطتك إلى بسحر لا يفك؟ استسلم، فلا حل لك في الدنيا سوى أن أراك سعيداً. دع قلبك يرتاح قليلاً. منفاك ليس إلا صرخة تنبيه لتحافظ على نفسك. عليك أن تصغي لها بقليل من الحكمة، ولو أني أعرف سلفاً أنك تقرأني وأنت تقول في خاطرك: أية امرأة هذه؟ كيف أصبحت هذه المجنونة عاقلة فجأة؟ أصبح عاقلة من أجل الحفاظ عليك. إدامة حبنا إلى الأقاصي، ولو كان ذلك على مهاوي الحافة. أنا سعيدة بذلك. المهم أن تظل حياً. وكلما حزنت وشعرت بقهر الدنيا، سافرت باتجاهك أو طلبت منك أن تأتي، لا لشيء، فقط لأسند رأسي على صدرك الواسع، على الجهة الأكثر هشاشة وإحساساً، اليسرى، وأعود في اليوم التالي إلى موتي المتواتر. هل يكفي هذا لإقناعك بأنك تعني لي الكثير؟ حياتك حياتي؟

•

ملاحظة: لقد قضيت الليلة في بيتنا في الحافة. البحر جميل ومدهش بسكونه غير العادي في مثل هذا الفصل. أنا أجلس بجوار المدفأة القديمة في الزاوية التي تسميها زاوية القطط. لأنها الأكثر دفئاً. دخلت من الخارج مبللة من رأسي حتى قدمي. على الأقل هناك سماء رحيمة فوق رؤوسنا. اشتهيت أن أبعث لك برسالة جميلة، مبللة بقطرات الحافة وملح البحر. من حين لآخر نشتهي أن نكتب بالقلم، وبالحبر البنفسجي ونشم رائحته المدهشة، فهو يحسسنا بوجود غريب على العكس من ألوان الكمبيوتر، فهي جميلة ولكنها بدون عطر ولا رائحة.

أخبرني عندما تصلك هذه الرسالة! ولا تضحك مني. أحبك.

عمري لك، وقلبي معك.

الجزائر العاصمة، على الحافة البحرية، شتاء ٢٠٠٠

-١-

الآن فقط انتبهت لشيء غاب عني منذ بدأت أنظر إلى الساعة.

كلما رفعت رأسي وجدت رقم سبعة مرتسماً في مكان ما، في الساعات، أو الدقائق، أو الثواني! هل هو رقم الشؤم؟ الغرابة؟ الخوف المبطن؟ الغموض؟ أم رقم الصدفة الذي لا معنى له؟

لا شيء وليد الصدفة، ولكن عليّ أن أعترف بأن المهمة تحتاج إلى تركيز أكثر. يجب أن لا أهتم بهذه التفاصيل لدرجة الإغراق والهوس، وأركز أكثر على ما أنا من أجله هنا. فأنا في النهاية اخترت هذا المسلك لحسم شيء ينخرني من الداخل. كل شيء جاء عن سبق إصرار وترصد. وأدرك جيداً تبعات ذلك، القانونية والأخلاقية والحياتية.

«أريد أن أصرخ بأعلى صوتي، ملء قلبي وذاكرتي: يا يمّا! لقد تعبت من الظل القاسي الذي يتمدد كل يوم قليلاً فيّ، حتى ابتلعني وبدأت أختنق فيه».

هل ما أنا بصدد فعله، جنون؟ أليست رسائلي أيضاً؟

بعد الذي حدث، مستعدة لتحمل النتائج الوخيمة المترتبة على فعلي: نشر رسائل حميمية بكل أسرارها، وحماقاتها وهوامشها. بطلاها في النهاية شخصان من لحم ودم وهواجس وكوابيس، وليسا مجرد لغة منزلقة كشعاع شمس، كلما حاولنا القبض عليه، هرب منا. أنا وواسيني. الرسائل دليل قاس على أن ما حدث لم يكن لعبة لغوية عفوية ولكنه حقيقة مرة ولذيذة.

نسيت أن أقول، إن ما يخفف من خوفي ومسؤوليتي، هو أن بعض هذه الرسائل سبق أن سربه واسيني في رواياته بعد أن حوره بالإضافة والنقصان، كما شاء، لكي يحافظ على توازنات خاصة، وحده يعرف أسرارها، ويجعل مني ما لم أكنه في الحقيقة: امرأة ورقية مليئة بالاستكانة والعقل والجنون.

لستَ في حاجة لأن تجيبني، أعرف أنك لم تطرح على نفسك هذا السؤال، وربما لن تطرحه أبداً لأنك على يقين من أن الكتابة هي الحياة والحياة ربما هي الكتابة أيضاً، ولن تتخلصا من بعضكما البعض إلا بالموت. حتى وأنت تحت التراب، ستظل أيها المجنون، العبثي، تؤمن أن لا قوة قادرة على إرجاعك إلى الحياة سوى الكتابة.

سينو حبيبي،

ليس ضرورياً أن تأتي إلى حافتنا السرية لنلتقي. المهم أن تكون بخير فقط. ليس المطلوب منك أكثر من ذلك. أضع قلبي تحت قدمي في هذه اللحظة، وأسحقه بعنف كي يسكن صوته، ولا يتدخل بيني وبينك، ويعطي للعقل مهلة، لأنني أفكر في نتائج العمى الذي قد نتصرف به أحياناً. أن تأتي إلى الحافة قبل أن تتعافى من المنفى تماماً، يعني أنك تبحث عن انتكاسة أو عن موت مجاني. تخيل كل من سيزورك في سريرك مرة أخرى! كل من سيتصل بك من جديد! من المحبين والكارهين والممثلين، وما أكثرهم! سيكون عليك تحملهم. هل أنت مستعد لذلك من جديد؟ الناس هنا أغبياء بالفطرة، مثلما هم طيبون بالفطرة، ولذلك سيقتلونك بطريقتهم التي لا تعرفها ولن تعرفها لأن مخك أكبر من هذا النظام القلق الذي أعرفه جيداً. إذا كان لديك شيء ما يشغلك أخبرني به وسأؤديه لك. فأنت لست بعيداً عني إلا بمسافة نبضة قلب فقط. حتى ولو طلبت مني أن أقول لامرأة ما، أنك تحبها وتشتاق إليها، سأفعل: «عجبتك هذه؟ جاتك على قلبك؟» لا تصدق. والله ناكلك؟ أنا لست جادة. وإذا فعلتها من وراني، سأستقل أول طائرة إلى باريس في مهمة نبيلة لخنقك أمام الملأ بأطول قبلة وأشد ضمة. إوْغ.. قلتها لك من قبل ولن أمل من تكرارها.

سينو الغالي،

أرجوك. الحياة ليست سيئة إلى هذا الحد. ابق حيث أنت ولو لمدة قصيرة، حتى ترتاح من هزات هذه الأرض القاسية. سأقبل بغلق مكاننا الجميل على أطراف البحر: الحافة كما تسميها، مقابل أن أراك في المرات القادمة، مليئاً بالنور والحياة والحب. أنا لم أتعود عليك بغير هذه الصورة.

بقاؤك هناك، يعني أن تكون بخير ولديك أغلى شيء على قلبك يمكن أن تقوم به، الكتابة. ولذلك بإمكانك أن تخترق النكد والرداءة، وتصنع عوالمك كما تشتهي دون أن يمنعك أي شخص من ذلك. الرواية التي حدثتني عنها، تستحق أن تكون شيئاً جميلاً يمنحك استقلالية وبعداً عن واقع أعرف أنك لا تحب البقاء فيه لوقت طويل. والطفل الذي في داخلك يرفضه بشدة ويحرن في الركن، كلما رفض عقلك الحي الذي صار ولي أمرك الحقيقي، أن يمنحك ترخيصاً بالسفر نحو الحافة، كمن حرم من لعبة يشتهيها. ابق حبيبي واسمع لداخلك، ولا تكن مجنوناً. الحياة لمسة، علينا أن نديمها قدر ما نستطيع، وأن لا نخسر دفئها بلحظة جنونية طارئة وإدمان مفرط! طريقتك التي انتهجتها ليست سيئة، تأتي لمحاضراتك القليلة التي تجمعها على مدار أقل من أسبوع وتعود. الوضع كما رأيت في المرة الماضية، بدأ يتحسن، ولكنه خادع أيضاً، وهو ما لا تريد رؤيته.

وأنت؟

تسألني عني أنا؟ فلست بعيدة عنك ولا تحتاج لسفر أو لطائرة، لتراني. تلمس فقط قلبك وستجدني بالقرب منك. أغمض عينيك وستراني كما تشتهي تماماً، ممتلئة كحبة مطر، تنزل على جبهتك، وتسيل على أنفك ثم شفتيك، ثم كامل جسدك، وتشعرك بأن الحياة لاتزال مستمرة، وتغسلك من كل الحزن والخيبات، وتشعرك بقليل من الرعشة التي نحتاج معها إلى حضن دافئ. أنا حبيبي، لم أعد بعيدة، لقد صرت فيك وبإمكانك أن تستحضرني متى أردت.

أشعر أني أثقلت عليك كثيراً، وأني أطلت بعض الشيء. عذراً. رغبتي في الكتابة إليك أصبحت لا تقاوم. مثلك، أصبحت وسيلتي لأبادلك عزلتك ووحدتك. ربما لأنني حزينة قليلاً ولا أدري لماذا بعد أن منحتك الأقدار الطيبة أحياناً، قدراً جديداً وجميلاً. وربما لأنني أمارس التعويض الوحيد الذي أملك وهو حبك، وحبك دائماً، وحبك إلى الموت فيك لأشعلك من داخلك. لا تكلف نفسك مشقة التساؤل. أحبك وأريدك أن تعرف أن لحظة حزني هذه، عابرة، لأنني بعد قليل، سألوم نفسي كثيراً عليها. المشكل في الكتابة هو أننا نتحايل لنكتب عمن نحب، خصوصاً في حالة شبيهة بالحالة التي نعيشها.

لست أكثر من امرأة عادية تحاول يومياً رفع الرجل الثقيلة التي وضعت على ظهرها وأجبرت على تحملها: مريم.

لست امرأة من ماء وصمغ وحبر وخميرة معجونة حولت إلى ورق!

لست هواء متسرباً من فجوات الشقق الموصدة. لست عطراً يُشم من بعيد ويسحب وراءه خيطاً من الشهوانيين. لست لمسة فجرية، ولا همسة طير تائه في سماء وردية. لست ملاكاً، كلما أحس بالألم نام على جناحيه. لا شيء أنا، سوى امرأة من جنون وفتائل القنابل الموقوتة، هشة مثل غيمة، تحب حد الجنون، تكسر بلا ندم كل من يسرق طفولتها، تشتعل غيرة كلما فضل عليها حبيبها امرأة غيرها.

ثلاثون سنة ونحن ننهب من الحياة حقنا في العيش سراً، وتسرق منا الصدف القاسية نسغنا الجميل. دخلنا في الفراش نفسه مئات المرات. في كل مرة كانت اللذة استثنائية، لأنها كانت منهوبة ولم تكن مستهلكة. كان الموت يتهددنا بلا رحمة في الحافات المختلفة. كان يمكن أن نسرق من الحياة القاسية عرشاً من الأطفال. أبدعنا في كل الحماقات. وأعتقد أن الشيخ النفزاوي بكل خياله الواسع، والسيوطي بأغلفته الفقهية وصراحته، والتيفاشي بهبله، وغيرهم، كانوا تلاميذ صغاراً أمام جنوننا الذي لم يكن له حد يوقفه. حاربنا صدام الحضارات بتقريب شقة الجنون الغربي والشرقي وابتدعنا صيغنا الخاصة. الكثير منها غير معروف، يحمل ختمنا السري الذي لن نفشيه لأي عاشق: ماركة مسجلة ابتدعتها مخيلتنا، وسنأخذها معنا نحو القبر. أنانية؟ هي كذلك. ليكن.

-٢-

اكتشفت في نفسي مواهب غريبة لم تكن لدي من قبل، أو على الأقل لم أشعر بها قبل أن نفجرها في بعضنا كالألغام اللذيذة والقاتلة.

لم تكن حياتنا المشتركة خسارة دائمة على الرغم من شططها القاسي.

لم تكن رسائلك قاسية بقدر ما كانت تعيدني من حين لآخر إلى حالة غريبة من الصفاء المذهل الذي كنت أفتقده.

سافرنا عبر العالم، ولم نسأل عما يمكن أن يحدث في غيابنا. ورجعنا، ونحن لانزال مأخوذين من دهشة ما عشناه: هل كان حلماً أم حقيقة؟ زرنا مدناً كثيرة، ومتاحف لا تحصى. وكتبنا نصوصاً مشتركة لم ينشر أي منها. بل إننا وجدنا لغتنا التي تحمينا من سلطان العيون الهمجية. كل شيء مارسناه ونحن في قمة الرغبة المحمومة للتكرار، ولم نشبع يوماً من بعضنا البعض. كلما التقينا، شعرنا بأن الجوع الذي فينا أكبر من أية قوة بشرية. لدرجة، أني كنت أشعر بإعجاب كبير عندما كان واسيني يُسأل في الندوات والملتقيات: **من هي مريم التي تتكرر في كل أعمالك؟ من أين جاءت؟ ما سرها؟ هل هي إنسان حقيقي أم مجرد شخصية ورقية؟** فيجيب الصحفيين باستعارة إجابة فلوبير[٧٠] الملعونة، عندما سئل عن مادام بوفاري، فقال: **مدام بوفاري هي أنا**، مرتكزاً على ما قاله قبله لويس الرابع عشر، ملك فرنسا عندما قال: **فرنسا هي أنا**. كان واسيني يبتسم بإشراق قبل أن يجيب: **مريم هي أنا**. مما يدل: على أني أصبحت في دمه. حالة من الحلول.

كنت أسعد امرأة في الدنيا لأني كنت أعرف جيداً أن لا مريم غيري. حتى ذاكرته الطفولية كانت تضحكني أكثر مما تؤذيني. قبل أن تسطو مريم على كل شيء جميل فيَّ وفيه أيضاً. ربما كانت تلك أجمل صورة أحسستني بأني أصبحت شيئاً آخر غير ليلى المبتئسة التي كانت تعيش داخل فشلها العاطفي المتكرر.

«لكن.. أجمل الغيوم وأحلاها، قد تكون أحياناً فارغة وجافة».

إصراري على الحياة منحني حقي في الجنون. ميراثي الوحيد من حياة كانت مليئة بالعواصف والانكسارات والأحلام التي ظلت معلقة في الفراغ.

كانت المدن الجميلة ملجأنا الرائع، وهي التي أصابتنا بعدوى الأسفار.

سافرنا بلا هوادة على الرغم من عيون العسس. كنت أخاف عيون الكارتيل المبثوثة في كل الدنيا. ارتدنا مسارح المدن الأنيقة، والمسارح الذهبية الجميلة التي أغرقتنا أنوارها. ذهبنا إلى الأوبرا التي قادني هوس واسيني وجنون ولدي الرائع، نحوها، لأصاب بمرضهما نفسه. لا أمارس حباً، ولا تستيقظ شهوة جنوني إلا على الموسيقى السيمفونية. عوداني على الهبل ثم ألقيا بي في فراغ التيه.

شاهدنا الكثير مما أنتجه فنانو هذه الأرض الطيبة وهم في قمة ألقهم. الموسيقى عطاء استثنائي، نفَس الآلهة في لحظة توحدها مع مخلوقاتها: من حلاق أشبيليا لروسيني في روما ذات شتاء جميل وساحر، وعصفور النار لسترافانسكي، بالمدينة نفسها. كنت سعيدة على الرغم من أني عدت بفجوات كثيرة في القلب، وبأسئلة لم أكن قادرة على فهمها ولا هضمها. لم يقنعني واسيني يومها بعلاقته بالشابة الروسية آنيا التي شغلني تعلقها به. كلامه عن آنيا كان عاجزاً عن أن يخبئ سراً أبيض. الناي المسحور لموزارت، في فينا التي كان دفؤها لا يضاهى. طوسكا لبوتشيني في المسرح الملكي باستوكهلم. تريستان وايزولد لريشارد فاجنر، في أوبرا بايروت بألمانيا، التي جننتني وذكرتني بحماقة نيتشة الذي ظل معلقاً بين عشقه لكوزيما وقداسة فاجنر العالية. وكارمن لبيزيه، في أوبرا غارنييه بباريس. ولا أعتقد أن إنساناً أصيب بها مثلما أصبت بها بقوة وجنون. عايدة لـ فيردي في الأهرامات بالقاهرة. لاترافياتا في لاسكالا بميلانو. بحيرة البجع لسترافنسكي، في أوبرا فينيسيا. البؤساء في برودوي نيويورك. شيكاغو في أوبرا سان فرانسيسكو. الفصول الأربعة لفيفالدي التي رأيناها في أوبرا كوبنهاجن الجديدة، على حافة الماء. وشهرزاد لريمسكي كورساكوف، في موسكو، في مسرح البولشوي الأحمر...

-٣-

أتذكر الآن، وكأن اللحظة هي التي استرجعتني بكل قوتها وحيويتها. كنا في روما، مازلنا تحت وقع سهرة عصفور النار لسترافانسكي التي أدرج فيها طريقته الخاصة في استعمال الكمان، أو ما كان يسميه سي ناصر، بالانزلاق الهارموني Glissando harmonique، التي كانت تقتضي انزلاق الأصبع على الوتر بدون ضغط. الأصبع يلامس قليلاً الهارمونية الطبيعية للوتر فقط. استعمله سترافانسكي لتقليد صوت العصافير، وقد نجح في ذلك، إذ أعطى الانطباع بأن الأصوات المتناغمة كانت حقيقية، ولم يلجأ أبداً إلى المؤثرات الصوتية الخارجة عن الموسيقى. الأوبرا ملأت ليلتها خواءنا وحزننا. دخلنا بسرعة في سحرها. كنت حزينة ومذهولة في العزف الخفي على الكمان. أشعر أحياناً أن في صوت الكمان شيء مقدس وحزين

أكثر ارتباطاً بالفقدان، لا أعرف مصدره ولكني أحسه بقوة. كنت أرى نفسي في السهرة، في غيبوبة. الكثير من المقطوعات كنت أحفظها عن ظهر قلب. لم أكن قادرة على الانفصال عن والدي، سي ناصر الذي كان يقبض على يدي وأصابعي الرخوة والناعمة، ويوشوش في أذني بصوت يشبه الهمس، ويعيد علي ترتيب الأصوات والأوتار في الكمان، ويحذرني من التسرع الذي يقتل الإيقاع لأنه لا يعطي للنوتة حقها الطبيعي:

- هكذا عمري. بهدوء. هذا هو نظام الأوتار.

كان همس والدي مثل اللغة التي تلتصق في اللحظة نفسها بالقلب.

- عندما تسرعين في الخروج، تجرحين ليس فقط الخيوط، ولكن النوتة أيضاً. السلاسة والإشباع هما الأساس في الكمان.

كان الأمر يبدو لي مستعصياً في البداية، ولكن مع الزمن، وبفعل الاستماع إلى نصائح والدي، أصبحت الأمور أكثر دقة ووضوحاً. كنت أدرك بحواسي جوع النوتة وشبعها، بمجرد تمرير القصبة عليها.

كانت ليلة روما مذهلة. على الرغم من أننا في لحظة من اللحظات، الكثير من الأشياء اهتزت. كنت مشتاقة له كثيراً ولم أكن مستعدة لتقبل أي شخص يعكر صفونا. من أجل عيش جنوننا، قفزت فوق كل الحواجز الخطيرة، فقط لأكون معه وله وحده، في تلك الليلة. لم يكن قادراً على استيعاب ذلك، لأنه كان يتحرك بحرية أكثر، ولم يكن بمقدوره أن يدخل في جلد امرأة متزوجة. جئت من أجله بعد أن تركت ورائي كل شيء. في الأصل، كنت في برلين مع الفرقة الفيلارمونية الوطنية. من هناك اصطنعت فرصة الهرب نحوه لأسهر معه ليلة في أوبرا روما، ثم أعود في اليوم التالي. المسافات في أوروبا سماعية أكثر منها حقيقية. كل شيء بدا لي ملتصقاً وقريباً. استغليت الفرصة لأسأله عن آنيا، طالبته الروسية التي تحضر معه دكتوراه وتساعده في عمله في الجامعة. التصقت به كظله، منذ تلك الأيام الصعبة. تجرأت على فعل ذلك، لأني رأيت ليلتها في عينيها بريقاً من العشق لم تستطع إخفاءه عني. لم

ليلتها لم يكن واسيني كما اشتهيته في عصفور النار، حبيباً شبيهاً للأمير إيفان تزاريفيتش، ولم أكن حبيبته زاريفنا zarevna، التي أثارت شهوته، فركض وراءها ليلاً، في غابة مسحورة، وكاد أن يتحول إلى تمثال، مثل من سبقوه، يؤثث قصر الشرير كاشتشاي kachtchei، لولا تدخل عصفور النار ذي الأجنحة الأجورية الواسعة. فقد خلط وجود آنيا كل شيء. وقفتْ ليلتها بيني وبينه حتى في الفراش. رأيتها تعانقه وتقبله. لأول مرة أخاف من وجودها بجانب واسيني. كانت جميلة وساحرة مثل جنيات سترافانسكي، تعرف كيف تنوّم معشوقها للأجهاز عليه نهائياً. تملك أداة الغواية: جسد غض يركّع كل ذي سلطان.

كانت تحبه، ولم يكن قادراً على إقناعي بغير ذلك.

واسيني لم يحدثني ليلتها عن بالي عصفور النار الذي امتلأنا به طوال فترة المشاهدة، ولم يجبني عن جوهر سؤالي عن آنيا، ولكنه دخل في كآبة وعزلة لم أعهدهما فيه من قبل.

كانت سطوة الخيبة والحيرة كبيرة.

سمعت تمتمة تأتي في آخر الليل، من نفق بعيد، من قلبه المنكسر:

- متعب، أريد أن أنام.

وكان عليّ تغيير نظام الليلة كله. لم أكن أشتهي العودة إلى برلين بشبح آخر في حقيبتي اسمه آنيا. لم أكن قادرة على ذلك أبداً. دخلت روما ممتلئة بواسيني، وكان عليّ أن أخرج منها بهذا الإحساس وإلا سأموت.

سألته وأنا أتفرس ملامحه وأعبرها برؤوس أصابعي وكأنها أجنحة فراشة هشة، كنت خائفة من تفتيتها وبعثرتها.

- انس ما قلته لك حبيبي... لا أريد شيئاً سوى سماع قلبك وهو يدق ولا يتوقف عند التفاصيل العابرة. ليلتنا أكبر من كل هذا القلق الشقي. احك لي عن حبيبي الذي بعث كل شيء من أجل أن أريحه. عن واسيني العنيد الذي

اكتشف فجأة أن الصدفة مثل القدر، تصنع مساراتها خارج شهواتنا. احك لي عن حبيبي الذي يرفض أن يكبر ويصر أن يظل لزعر الحمصي الذي يفرح كل صباح وهو ينظر إلى الشمس بعينين مفتوحتين، فقط ليثبت لها أنه قادر على النظر فيها بعينين مفتوحتين حتى ولو جرحتهما الأشعة. احك حبيبي... حبيبي... ولا تلتفت لهبلي، فهو يقتلني قبل أن يحزنك. انس غيرتي فهي ليست إلا صورة أخرى لذلك الجنون الذي يشتعل في داخلي من أجل حبك... وحبك دوماً. هل تدري أني كل صباح عندما أفتح عيني، لا أنظر للشمس بقوة لزعر الحمصي، ولكن أسجد عند قدمي الصدفة، أقبل رجليها ويديها، أظللها بشعري الطويل ضد الرعود والشمس القاسية، وأشكرها فقط لأنها وضعتنا في المسالك نفسها... احك يا لزعر الحمصي... احك حبيبي... طفولتك أكثر حكمة من حماقاتي وغيرتي.

لأول مرة، أرى ابتسامة حزينة ترتسم، تتشكل بلون اللمبة الخافتة، وبأنوار الشارع الخارجية التي انكسرت قليلاً على شفتيه.

وقتها... ووقتها فقط شعرت بأنني كنت بصدد الانتصار على الصمت.

* * *

هذا أنا، وهذه ذاكرتي المشتعلة

ليلي!
فكرت في كلماتك الطيبة، وفي ليلة روما، كثيراً!

ماذا حدث لك؟ هل كان من الضروري أن نفترق على كسر عميق؟ ألم تكفنا الكسورات القديمة التي تؤثث ذاكرتنا المتعبة؟

بعد كل هذا العمر من الشجن والمنافي، تسألينني من أكون؟

لم تكن أنيا أو الجنية المسحورة كما تسمينها، إلا مطيتنا لإعادة اكتشاف أنفسنا المرهقة والبحث عن ظلالنا المفقودة. لم تكن أنيا لوحدها ولم تأت من أجلي، ولا حتى من أجل أوليغ. ليس صعباً عليك أيتها الغالية أن تتخيلي أنه يمكن لامرأة مجنونة أن تترك كل شيء وراءها، بما في ذلك عملها من أجل ساعتين من المشاهدة. امرأة خارج منطق الأشياء. لو لم تر أوبرا عصفور النار، في طبعتها الجديدة، لانتحرت. قد أبالغ، ولكني لست مخطئاً.

ليلي الحبيبة..
– «تريد الصراحة.. لم أعد أعرفك عمري؟ من تكون؟ أصبحت غامضاً إلى أكبر الحدود!»

هل تدرين وقع ما تقولينه؟ لماذا لم تطرحي عليّ هذه الأسئلة في وقتها، يوم التقينا لأول مرة؟ ربما كانت الإجابة أهون وأكثر امتلاء! كنت ممتلئاً بك وأنا استقبلك في المطار وأنت قادمة من برلين. كنت في داخلي غير مصدق: هل سأرى الليلة ليلى؟ كنت خائفاً من الموت من دهشة رؤيتك واللقاء بك.

لست أكثر من الطفل الذي تعلق بك فجأة، ثم وضع بين أناملك الناعمة

رسالة، مجرد أحرف مبهمة، ثم هرب خوفاً من مواجهة رفضك.

تريدين أن تعرفي كيف يدق القلب من أجلك؟ من أين جاء ذلك الطفل المجنون الذي وضع حياته كلها بين يديك؟ أي عطر يحمل في كفه، يزرعه على جسدك كلما التقى بك، ليدخلك في دواره المستمر؟

ليكن عمري، ها أنا ذا أنصاع لسؤالك قبل أن أنسحب من عينيك كما فعلت الأنوار والألوان والأحلام والعصافير من قبلي. أشتهي اليوم أن أضع بين يديك ذاكرتي المشتعلة التي ترفض أن تذبل وأن تروضها الأقدار لإطفائها نهائياً، ربما وجدنا سبيلاً جديداً لإيقادها وإيقاظها من سهوها وسباتها المزمنين.

قلت لي في آخر الليل، في روما، وأنت تبحثين عن كلماتك الهاربة، أن أعيد على مسمعك حنيني المسروق وشدوي بعدما سكنت. قلتِ لي مثل الطفلة الصغيرة، احكِ لي قليلاً عن نفسك قبل أن يأتي غيرك ويسرق ألقك وعنفوانك الجميل ويروضه كما يشتهي. قلت لك من أين أبدأ هذا الخوف الذي فيّ؟ قلتِ: من حيث تكون قريباً من أنفاسي فقط. قلت: أنا الآن صرت قريباً منك. قلتِ: ليس بالشكل الذي يجعلك فيّ.

صمتُ. فقد وضعتني بين شعلتين حارقتين: نار الشوق إليك والالتزام بالحقيقة، ونار الخوف عليك من جنونك التي كانت تزداد كل يوم اتساعاً فيّ.

أخطر الأشياء هي البدايات لأن عليها تُبنى الأسئلة التي تخبئها الأقدار. لا أعرف بالضبط من أين أبدأ وكيف أعرف كل مسروقاتي وصدفي الجميلة؟

أنا بالفعل ابن الصدفة.
ضحكت وأنت تمدين رأسك إلى صدري:
– احك عمري بلحك.. ربما قربتنا الحكايات أكثر من معاشنا القاسي.
تتزاحم الآن في ذهني كل الأشياء دفعة واحدة كما في لحظة الموت الأخيرة.

هكذا ينتهي كل شيء في رمشة عين ليصبح مجرد نثار في الذاكرة..
كانت المقبرة ضيقة كوطن. والربيع لم يكن ربيعاً.
فتحت عيني عن آخرهما. لكي أتشبع من الألوان ولكي لا أطلب شيئاً يوم أموت.

لأول مرة ينتابني هذا الشعور وأنا أقف أمام الموت الذي أصبح له جسم وفضاء واضح. شيء غامض كان يشتعل في داخلي كالحرائق الخفية. لم أكن قادراً على مقاومته لأنني كنت عاجزًا عن فهم أسراره.

«هكذا يأتون.. ويصمت يذهبون.. ثم لا شيء. لا أحد يسأل عنهم. كأنهم لم يكونوا يوماً ما. إن الموت ليس قهراً فقط. ولكنه آلة محو قاسية.»

لست أدري كيف جاءتني هذه الجملة وأنا أقف مع حفنة من الأصدقاء على قبر الكاتب الكبير محمد ديب. أستاذي في الحكاية ومعلمي في التفاصيل. فقد ملأ الدنيا محبة وغذّى أجيالاً متعاقبة. دفناه في مقبرة مسيحية صغيرة على أطراف باريس. لم تجد له زوجته الفرنسية مكاناً إلا في مربع أقاربها. إلى جانب قبر رجل بربري. منسي لم يبق من اسمه إلا كلمة: آيت التي تعني في اللغة الأمازيغية: آل. لقد كان: ديب أباً مؤسساً للأدب الوطني المكتوب باللغة الفرنسية. ومناضلاً من أجل وطن خذله. ولكنه ظل وفياً له وللكتابة لأنها لم تخنه أبداً حتى يوم وفاته. بل حتى بعد ذلك بسنوات. إذ نشر آخر نصوصه: عزة[٧٣] بعد وفاته.

هل تدرين يا ليلى أن نوبة الألم التي غرقت فيها. لم يكن لها لا اسم ولا طعم. إلا الإحساس المبهم بالخوف من موت غريب كان يلفه الصمت والعزلة وذاكرة منكسرة! هكذا ننطفئ جميعاً داخل دائرة كل يوم تزداد ضيقاً. كان يمكن أن يتحول موت الكاتب الكبير. إلى تظاهرة وطنية لو دفن في وطنه. هو الذي قضى العمر غريباً في لغة غريبة. يدافع عن وطن تبدى في النهاية أنه هو أيضاً غريب. كان يقول في لحظات خلوته: لم يعد لي من وطن إلا لغتي الهاربة مني. وطن الكتابة وحده سيحزن. وسيغمدني بين أحرفه وسيعمدني بكل المعاني الجميلة. بلادنا البعيدة. المتوارية خلف

المتوسط والجبال الفاصلة ومحيط من النكران. لا تعرف أبداً. أن الكاتب حظ للأرض التي يولد ويتربى فيها. لأنه عينها وقلبها وملحها. كان ديب محقاً. فالأوطان تلتفت باستمرار صوب البياض والفراغ لكي لا ترى خرابها في عيون الفنانين والكتاب المغلقة قبل الوقت. الجرح الذي مس الكاتب كان كبيراً وعظيماً ولم يكن بإمكانه إلا أن يموت وحيداً بعد أن عاش أكثر من خمسين سنة منفياً. في عزلة لا شيء يملأها إلا الكتابة. والكتابة فقط. ورائحة غامضة تشبه إلى حد بعيد رائحة الأرض الأولى.

السؤال المعتم الذي كان يدور بصمت في رأس الحفنة التي ودعت الكاتب الكبير هو: هل نموت جميعاً هكذا. في صقيع هذا الربيع الذي غابت شمسه؟ لا نساوي حتى مساحة قبر في أوطاننا؟ ويبدو أن تراجيديا المنفى لا نعت لها. لأنها لا تترك أي وقت لضحيتها للتفكير. فتداهمها برسائلها الأكثر فتكاً: النسيان.

ليلى..
هكذا مات محمد ديب. أو على الأقل هكذا نُسي. وهكذا مات قبله كاتب ياسين. وقبلهما بزمن طويل انسحب جون عمروش. وقبلهم جميعاً مات كتاب كثيرون لم نعد اليوم نذكر أسماءهم ولا أماكن قبورهم. ولا شواهدهم التي انمحت. ولا حتى تفاصيل حياتهم المليئة بالقلق وأشجان المنافي. نحتاج إلى الكثير من الحظ. وإلى صدفة استثنائية لكي نعثر على قبر أحدهم في باريس. مرسيليا. هامبورغ. برلين. أمستردام. روتردام. بوسطن. جنيف. فيينا. كوبنهاجن. القاهرة. بيروت. مكة. الرياض. بغداد. دمشق. الرباط. تونس.. أتربة كثيرة لم تعد لها أية لغة وهي لا تنطق إلا بحاضرها الهش والمؤقت.

اليوم.. عندما التفتُ نحوي. أجدني ضائعاً داخل المسافات المربكة. التي لا ينتهي امتدادها. يبدو لي أن حياة الترحال أصبحت قدراً سيزيفياً قاسياً. فقد ورثتها عن جدي رمضان المووريسكي. الذي عندما انغلقت عليه سبل الدنيا في غرناطة القرن السادس عشر. التفت نحو العدوة الأخرى. ثم عوى بأعلى صراخه كالذئب المجروح: أهكذا تخون الأوطان ذاكرتها

ويَسرق الحنين على مرأى من ضَيَاعه؛ ثم لَمّ كتبه، أو ما بقي منها بعد رماد المحرقة التي أكلت كل شيء، وولى وجهه شطر مدينة المارية[٧٤] التي حملته سفنها وقذفت به نحو أرض لم يكن يعرفها ولكنه كان يحس بأنينها. قيل له يومها: احذر، لا تذهب نحو تربة جافة لن تمنحك إلا الموت. سيقتلك أهلك هناك، فلا أحد يعرفك. قال : وهذه الأرض التي شيدت عليها عصراً ذهبياً لم تعد لي، ولم أعد لها. لقد كرهنا بعضنا البعض، ولم يعد لنا رغبة لاقتسام فتنة الفراش المشترك. لن أبقى بين أناس لذتهم الكبرى في حرق الكتب. من يحرق حرفاً واحداً كأنما أحرق القلوب جميعاً، ومن أحرق ورقة واحدة بها لغة الحنين والوحشة، كأنما عرّى الناس جميعاً. سأهيم على وجهي وليمنحني الله بعض القوة للوصول إلى هناك فقط، ولا تأكلني بحار الخيانات المستشرية. قيل له يومها: اذهب ما دمت تريد ذلك، ولكنك ستعود. المنفى دائماً شيء مؤقت، يبدأ بكلمة عابرة و ينتهي بسؤال معقد. قال وهو يضحك بمرارة متذكراً القرون الثمانية التي قضاها على التربة التي فتح عينيه عليها، وبنى مدنها بماء الذهب، ولفها بمسحوق المحار والجوهر: عندما نحط الرحال في مكان ما ونستقر فيه، لا وجود للمؤقت بعدها. المنفى ليس لعبة مؤقتة نفككها و نرتبها كما نشاء. حقيقة مرة، تنام في عمق كل الأشياء الحساسة. تأكلنا الحياة، ولكنّ عندما يطل علينا الموت من شقوق النوافذ، تقفز في أذهاننا أرضنا الأولى، حبنا الأول، وتربتنا الأولى، و حتى حماقاتنا الأولى. أغمض عينيه، ثم ضغط عليهما بقوة لكي لا يرى شيئاً أبداً، وسافر ليستقر على حافة بحر امسيردا[٧٥] في أقاصي بلاد كانت واسعة كقارة قبل أن تلتف على أعناق ذويها كأفعى الحر والأحجار. إلى اليوم، عندما يكون الجو جميلاً وصافياً من كتل الضباب التي كثيراً ما تغلف الهضاب والغابات والبحر، تبدو جبال إسبانيا واضحة وهي تخرج من عمق البحر، في شكل جزر صغيرة. أعتقد أن جدي، في لحظات الألم والغبن والكبرياء وصفاء الذهن، كان يصعد إلى أعلى قمة من قمم جبال امسيردا، التي تطوق منطقتنا، ويرمي بصرهُ بعيداً مخترقاً كل الحواجز الطبيعية ليستعيد أندلساً صارت اليوم نثار حلم مستحيل ومجرد صور في الأذهان وفي البطاقات البريدية القديمة.

ليلى.. عمري وأشواقي الهشة.

هل تدرين أنني عندما حملت حقائبي للمرة الأولى، في ذلك الشتاء البارد، لم أتذكر الشيء الكثير من حياتي البسيطة واليومية، ولا حتى وجه طفولتي الأولى التي رفضت أن تتخلى عني وظلت تتبعني وتتشبث بي وتتزلق بين رجلي كالظل الهارب، فقد صار كل شيء أمامي أبيض لامعاً وبلا لون، ولكنني لم أستطع أن أتفادى نظرة جدي رمضان الموريسكي الساخرة من الحياة وهو يرحل بكتبه؛ رأيته يومها وهو يقارع العسس القشتالي المدجج بالرماح والسيوف الحادة والخوذ الثقيلة، محاولاً، بكل ما أوتي من قوة، أن يحمي كتبه أو جزءها الأهم، من حرائق محاكم التفتيش المقدس، متحملاً الأدخنة، ولسعة النيران المشتعلة.

المسافة بيني وبين جدي الأندلسي كانت كبيرة. أكثر من أربعة قرون، ومع ذلك، وأنا أحمل حقائبي بمشقة ونفس مقطوع، رأيته أمامي، ينظر إلي بحزن ثم يلتفت نحو جباله الأولى لكي لا يراني أرحل. يتمتم وهو لا يدري أنه كان يعيش ألماً ممزقاً؛ ثمانية قرون ونيف، وعدت في النهاية كالمحارة الفارغة. هل كنت مجرد معمر صغير يبحث عن اعتراف له وعن مغامرة تقذف به إلى الواجهة؟ ألا يوجد شيء أكثر رحمة من المنافي؟ أقسى عقوبة تسلط على عاشق لمدينة شيد جنته فيها، قذفه خارجها! لا توجد المنافي المؤقتة يا واسيني يا ابني إلا في أذهاننا المتعبة. كما لا يوجد موت مؤقت. نحن عندما نموت، نموت إلى الأبد. هل تدري فداحة الأقدار؟ بلا دراية ولا قصدية مسبقة، كنت أقوم بما فعله جدي وكأن الزمن لم يعمل إلا على تأكيد تراجيديا المصائر. هذه المرة كنت مقهوراً من بشر من لحمي ودمي وترابي، يشبهونني في كل شيء إلا في اليقين القاتل! كل ما كان فيَّ كان هشاً وممزقاً ومهتزاً، وكانوا على دراية حتى بأنفاس الله. يقيني الوحيد كان هو الحرية في أن أكون أنا، كما أشتهي لا كما يشتهون، قدر ما أستطيع الحرية فقط. لم يكن الطلب صعباً ولكنه كان مستحيل التحمل بالنسبة لليقينيين بينما هم سمنة الدنيا التي شيدوها على كذبة ونفخوا فيها من روحهم المريضة، أرادوا كل شيء على صورتهم. مجرد عصابة قامت بانقلاب ضد سماحة الله.

في الطائرة الشتوية التي سحبتني إلى باريس في ١٦ ديسمبر، من سنة ١٩٩٣، تساءلت وأنا معلق في الفراغ، بين مطر كان يسقط من تحتي وفراغ بلون السماء بالزرقة: هل هكذا يبدأ المنفى، بلعبة لفظية لا نقدر مراميها ومعانيها، ثم بكلمة مبهمة تظل معلقة في الذاكرة حتى عندما ينتهي مفعولها، ثم بسؤال مربك يظل يدور في مكانه بحثاً عن إجابة مستحيلة، بعمق الحيرة أكثر مما يفكها؟ أدركت يومها أن ما كان يبدو بعيداً ونتلذذ كلما قرأناه لأن شجاعة الكتاب تبهرنا، لا يحدث للآخرين فقط على هذه الأرض الواسعة. لم أكن أعرف وأنا أقرأ عن عشرات الكتاب الذين اضطرتهم آلة المحو إلى المغادرة، أن المسألة ليست مجرد قصص ممتعة، ولكن مصائر مخلوقات أرضية، تتألم وترتعب، وتقفز من نومها جزعاً وخوفاً، وقد تموت انتحاراً، بالسكتة القلبية أو بالضياع في بحر الحياة الذي لا يرحم أي صراخ يغطي عليه بفيضانات موجه.

في الدنيا، يمكن للمنفى أن يمسنا نحن أيضاً، الذين نعوم في لذة اليومي وننسى أن مرض المنافي يمكن أن يصيبنا كأي داء آخر، ويجرفنا بلا رحمة إلى حدّ فصل الجسد عن جلده.

ليلي الغالية،

لست غاضباً عليك، ولكن امنحيني فقط بعض الزمن لكي أخرج ما في قلبي وذاكرتي من شجن. لتعرفي فقط أن الولد العاق الذي يحبك يريد أن يكون جديراً بك. فهو لا يحمل من الأسرار شيئاً آخر سوى ما يقوله لسانه. تحمّليني لوقت ثم انسحبي إن شئت بعد ذلك.

ها أنا ذا أُدخلك في طاحونة قلقي. أنت من استفززت سري وتعبي المنفي؟ تنسى أو تظنُّ أن ذلك لا يحدث إلا للآخرين وأننا في منأى عن كل ما يمكن أن يربك راحة الآخرين. قد يبدو المنفى مجرد كلمة صغيرة ولكنها مثل النار، تخبئ وراءها إرثاً ثقيلاً ومراً، مخترقاً بالأشواق والفقدان، ومؤثثاً بالسعادات الهاربة، المنزلقة من بين الأصابع كنثار الرمل. فكلما سمعت كلمة منفى، ينتابني إحساس غريب بالبياض. وهذا السؤال المرتبك والهش: ما معنى المنفى بالنسبة لفنان منفاه الأول هو عناده ولغته التي

يكتب بها كما يقول رولان بارث[٢٦]؟ هو منفي أصلاً من حيث هو كاتب؛ اللغة تصنع عالماً موازياً يعج بتفاصيل الحياة التي نحس بانتماءاتها لنا، ولكنها لا تنتمي في نهاية المطاف إلا إلى اللغة ونظامها الصارم. وإذن أين يتجلى هذا المعنى العميق الذي تتبطّنه هذه الكلمة المولدة للخوف ولمختلف الاهتزازات الداخلية؟ هل المنفى هو افتقاد الأرض التي شيد عليها الفنان ذاكرته و أشواقه؟ فكم من أرض يملك الكاتب إذن؟ أرض الطفولة التي يفقدها في سن مبكرة ولا تستعيدها إلا الكتابة بشهواتها المختلفة وخيالها الذي يبهرنا بمتعته كلما توغلنا فيه! أليس فعل الكتابة عن المكان هو اعتراف ضمني بالفقدان؟ هل هي أرض الشباب، التي سرعان ما تنطفئ داخل مجتمعات متخلفة تحاسبك في حبك وفي تنفسك لأنه لا يشبه تنفس الآخرين إذ يخرج عن نظام المجموعة الذي يجب أن لا يخترق. فليس لك، في نظام الجهالة، أن تحب، أن تتحرك كما تشتهي، أي أن لا تكون أنت ولكنك تكون الآخر الذي يشتهي أن يرى صورته المقهورة فيك. مما يضطرك إلى ترك أرضك والذهاب بعيداً نحو أرض أخرى. وربما كانت الكتابة والفن هما وطنك الموازي؟ هل المنفى إذن هو الارتحال عن أرضك، التي ليست هي أرضك الأولى، باتجاه أرض أخرى يفترض أن تمنحك الأمان والمحبة وبعضاً من الراحة والحرية خصوصاً. فالتنقل لو اختزل بالرغبة في العيش واستمرار النوع، يفقد معانيه العميقة والحية. المشكلة إذن ليست في الحفاظ على النوع لأنه آيل إلى الزوال ويحمل موته ضمن رصيده الجيني الثابت: عن أي شيء يبحث الكاتب إذن وهو يغسل يديه من وطن ورثته له التربة وخطابات الأهل والساسة المحتكون؟ عن وطن الحياة الكريمة؟ عن وطن العيش الحر، حيث يمشي ولا يلتفت وراءه كلما سمع وقعاً خشناً لأحذية لم يتعود على سماعها؟ عن وطن الكتابة الذي ينشئ فيه كل حياته الموازية الجميلة؟ وإذن ما هي الخسارات اللاحقة المتولدة عن هذا الترحيل القسري من أرضه الصغيرة التي نبت في حدائقها كأية زهرة باتجاه توطين ليس دائماً فعلاً هيناً؟ و ماذا يمنح له هذا التنقل من اكتشافات جديدة يحافظ بها على الاستمرارية بمعناها الوجودي وليس البيولوجي فقط؟

ليلي الحبيبة، أي الأسئلة أختار للإجابة عنها وسط هذه الغابة من



المبهم وأنا أشعر بنفسي معنياً بها كلها؟ معنياً بقوة. لأن بها كلها رائحة ما من حياتي الصغيرة التي لا أراني بدونها. المنفى كالمرض، لا يأتي دفعة واحدة. يتربى في الأعماق إلى أن يصبح قنبلة موقوتة تنفجر حين تشاء، وفي المكان الذي تريده.

بماذا أجيبك أيتها المجنونة التي لم تكن تعرف أبداً، أنها بشكها في أسرار عينيّ الملعونتين كما كانت تنعتهما دائماً، نزعت الغطاء عن كل مدافني دفعة واحدة. ولم تمنحني حتى فرصة ترتيب شؤوني المرتبكة، لأتمكن على الأقل من الاستقامة وضبط حروفي وجملي؟ ماذا أقول لك غير الذي ينحت القلب كل يوم قليلاً حتى يمحوه نهائياً؟

هل تسمعين صوتي الآن؟ أعرف أن به بحة كنت تشتهين سماعها ولكنها الآن تحولت إلى غصة قاتلة. عمري... المنافي كثيرة ولا تتشابه أبداً.

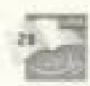
خسرت قريتي التي بنيت فيها الذاكرة الأولى وشيدتها على فقدان الوالد في الحرب التحريرية، في صيف ١٩٥٩. ولم أحتفظ في ذاكرتي إلا بوجهه الطيب وهو يعود من منفاه الاختياري كعامل مهاجر في فرنسا، وهو يغسل وجهي صباحاً ثم يضع على رأسي المنشفة الكبيرة وهو يضحك: هل تراني الآن يا واسيني؟ وأتذكر أني كنت أقول له: أراك. و أحاول أن أصنع له صورة من وراء المنشفة، تشبهه، وأحياناً أجمل. ولماذا ذهبتَ إلى فرنسا يا بابا وتركتَ أمي وحدها؟ أفضل دائماً أن أسأله تحت ظلام المنشفة لكي أتجرأ على طرح أسئلتي التي لا تنتهي، فيجيب: للعمل. قريتنا فقيرة جداً ولا تمنحنا الشيء الكثير للعيش، ونضطر للخروج قهراً وليس اختياراً. بلاد فرنسا، هكذا كان يسميها، وهي ترجمة حرفية لكلمة فرنسية كان يقولها المغتربون: (Le Pays de la France)متعبة، لأننا نعمل بمشقة فيها ونحمل الأشياء الثقيلة على ظهورنا وبين أيدينا، ولا نشتكي، لأننا إذا فعلنا ذلك، نُطرد. الكثير منا يموتون بفعل التعب أو الحوادث المؤلمة، يسقطون من أعالي البنايات أو تسقط على رؤوسهم الكتل الثقيلة. أعاود السؤال: وأنت ألا تخاف من ذلك كله؟ أحياناً، ولكن ماذا بإمكاني أن أفعل؟ يجيبني بعد صمت طويل. لكن... في فرنسا حدائق وأمكنة للراحة، ومدن نظيفة كذلك، نتعلم فيها كيف نقرأ

ونكتب. أسأله من جديد وأنا مستمتع بظلام المنشفة التي تمنحني حرية الكلام، بحيث أحسه وأراه كما أشتهي ولا يراني: هل تعلمت القراءة و الكتابة هناك؟ يُجيب وهو لا يخبئ ابتسامته التي أحس بها ترتسم على شفتيه الرقيقتين، والتي تزيد من يقينه: تعلمت. سيدة طيبة تعمل معي، علمتني. تريد معرفة اسمها؟ نعم. أجيب بفضول منْ استثيرت حواسه الدفينة. يجيبني بلا تردد: فيوليتا... فيوليتا، عاملة مثقفة جداً ونقابية. امرأة جميلة وطيبة جداً مثل أمك. أتساءل ولا أطرح السؤال: امرأة تعلم والدي؟ جميلة، طيبة مثل أمي؟ لماذا أمي تحديداً؟ هذا الأمر لا يوجد عندنا. يتلاعب ملغوم وخبث طفولي. أتذكر أني أدخلت والدي في المصيدة. لابد أن تكون هي نفسها المرأة التي تتحدث عنها كل نساء العائلة، عماتي وخالاتي وحتى جدتي الطيبة. فيوليتا سرقت والدي من أمي. هناك من يتمادى في خياله ويقول إن له أبناء منها. أمي لا تصدق أو تحاول أن تتظاهر بذلك. أسأله مرة أخرى بلغة أقل يقينية: فرنساوية؟ طبعاً فرنساوية. من أصل إسباني. يجيبني والدي. أتوغل في السؤال: لماذا لا تأخذ أمي معك وترتاحان هناك. يرد ولا أشعر أنه تأثر لسؤالي: هي هنا في بيتها وأرضها، تسهر على الجميع وتؤمنهم بقلبها وحنانها. وأنا هناك أحاول أن أخفف عليكم مشقة الحياة. أكاد أسأله: بابا هل هي الرومية[٧٧] التي يتحدثون عنها؟ مثلما سمعت في حوارات جدتي وأمي و خالاتي على الهامش. عندما أسترق السمع مثل أي طفل شقي كبر بسرعة ولم يتنبّه لسنه الآخرون؟ فجأة ينزع المنشفة من على رأسي ويتضح النور، فأتوقف عن أسئلتي في باحة الدار وأجلس في حجره أنا وحسن أخي، نشرب القهوة الصباحية. يقول وهو يضحك. ولا أدري صدق ما كان يقوله: سيدنا علي كرم الله وجهه، هكذا كان يفعل، يضع الحسن على اليسار والحسين على اليمين. لو كنتَ هنا في ولادتك لسميتك الحسين بدل واسيني. أعض على شفتي وأحمد الله أن والدي كان يومها غائباً يحمل على ظهره كتلة حديدية أكثر من وزنه، أو في أحضان فيوليتا. لا يهم.

والدي الذي أدخلني إلى المدرسة الفرنسية و الجامع[٧٨]. استشهد حتى قبل أن أطرح عليه كل أسئلتي التي ما زالت إلى اليوم معلقة في الذاكرة كأية آنية عتيقة تحمل سرها في قدامتها. أمي سارت على هدي وصيته

التي تركها وراءه قبل أن تأكله حيطان ثكنة سواني العسكرية ويموت تحت التعذيب الهمجي في صيف ١٩٥٩. تسألني أمي من حين لآخر عن أحوالي في الجامع، فأرد بحماس: انتهيت من حفظ الربع الأول من القرآن الكريم، وزوقت لوحتي العديد من المرات. وبدأت أجلس في الأماكن الخلفية للجامع. الأماكن الخلفية تعني أنه أصبح بإمكاني أن آخذ نسخة من النسخ العشرة من القرآن وأتفحصها، وأسأل الفقيه عند الضرورة. أحزن أحياناً لأن والدي ذهب قبل أن أخبره بقصة نسخة القرآن في الأماكن الخلفية. استشهد وهو لا يعرف أني تعلمت كما كان يشتهي، وأصبحت أقرأ وأكتب. لكني لم أحك له عن نسخة القرآن العجيبة التي عثرت عليها في رف المكتبة، في نهاية الحجرة الضيقة التي كنا نتعلم فيها. كانت النسخة تحمل الغلاف الأحمر نفسه. لم تكن تشبه النسخ الأخرى في محتواها مطلقاً، ولا حتى في خطها الذي كان أكثر رقة من الخط القرآني. قلبتها طويلاً بسرية كبيرة وبعيداً عن النظرات الملعونة للأطفال الذين في سني. لم أفهم من أين كان يأتي سحرها ولا تلك الرغبة التي انتابتني فجأة لإخراجها من المكان، أو بلغة أبسط لم أكن قادراً على التخلص من التصاقها بي. فقد فهمتها بسهولة كبيرة لأن كلامها لم يكن كالقرآن الذي تعودت عليه، بسيطة وسلسة ومغرية. فكرت أن أسأل سيدي الفقيه (المعلم في الكتّاب) ولكني لم أفعل أبداً. عاودت التهجي ومحاولة الفهم. الغريب أني لم أكن أجد أية صعوبة في القراءة. كل شيء كان واضحاً كالماء، بل إن شهوتي كانت تستيقظ كلما توغلت في ثنايا النص. كنت كلما انتهيت من القراءة، أخبئ نسختي من وراء النسخ الأخرى حتى لا تأخذها يد غيري. ربما كانت أنانيتي هي منارتي الوحيدة في ذلك المكان الضيق، أو ربما كان خوفي من أن تُسرق مني. فجأة صرت أحلم بها وبما قرأت. ليلاً، عندما أستعد للنوم، أرى كل ما فيها يرفرف حول رأسي و يتحول إلى نساء جميلات وعفاريت وحيوانات خرافية وغابات لا حدود لها وذئاب كثيرة. كنت أشعر بالخجل من النساء اللواتي كن يتعرين أمامي بلا حياء. ولكن هذا كله لم يشفني من حبي لهذه النسخة. كان الكتاب، في عيني، كبيراً والدروس في المدرسة الفرنسية كانت تسرق من وقتي ومن لذتي. في إحدى المرات وأنا في الخلفية أفكر فيما يمكن فعله، بدأت أعطي

لنفسي كل مبررات الدنيا لإخراج النسخة من الجامع: قرآن لا يشبه القرآن! مكتوب بخط غير خطه! فيه حديث غريب عن الحب والنساء والسلاطين والعفاريت! فيه حتى الخرافات التي تشبه ما كانت ترويه لنا جدتي! هل يعقل أن يبقى الكتاب في الجامع وهو مكان مقدس؟ يجب تطهير المكان من شيء لم يكن كالأشياء الأخرى. كانت هذه هي خلاصة تساؤلاتي الكاذبة. وانتهيت إلى تحريم بقاء النص في الرف الخلفي. في ذلك الفجر البارد، كنت أول من دخل إلى الجامع. صبحت على سيدي الفقيه، سيدي سعيد. غافلته، ووضعت النسخة في صدري. لم يرني أحد ولا حتى الذين يتصيدون الأنفاس من الأطفال لاسترضاء سيدي. اعتذرت من الفقيه، وقلت له إني متعب وخرجت. عند الباب أوقفني. لم أستطع أن أرفع رأسي مخافة أن يرى كل شيء في عيني. تذكرت مشنقة والدي. كم كانت جميلة إذ كان بإمكاني أن أقول ما أشاء بدون خوف من أن يرى أحد من العائلة ما يتراقص في عيني من كذب جميل. فجأة، شعرت بالكتاب ثقيلاً في صدري. فكرت في أن أتركه وأهرب. قال لي سيدي سعيد: ما بك يا ابني؟ و تلمس رأسي. ثم أردف: لا بأس مجرد حرارة زائلة. مازلت أسمع صوته وأنا أتخطى عتبة الجامع، بعد شجرة الخروب التي ظلت واقفة على الرغم من مصاعب الزمن وحرائقه: اسمع يا وليد أمبزار. قل لأمك تضع لك شوية زعتر في كأس حليب، وقشور الليمون وقطرة من عسل النحل.. عسل النحل الحقاني، مش «الفالسو»[٧٩]، أسمعت والا لا؟ فجأة صرت خفيفاً وصار الكتاب لا يزن شيئاً. تذكرت ما تعلمته: فأما من خفت موازينه.. عندما وصلت إلى البيت كنت محموماً بالفعل ولكن من شدة الخوف. قلت لأمي دثريني يا يما.. دثريني.. ونمت محتضناً قرآني. لم أحلم يومها، ولم أر أي كابوس. ولكني كنت داخل غيمة بنفسجية جميلة. بعد أيام، خاطت له جدتي كيساً خاصاً وهي تقول: هذا كلام الله ويجب أن يوضع في مكانه اللائق به. كنت أضع الكتاب داخله كلما انتهيت من القراءة. كانت جدتي كلما مرت في باحة البيت، بعصاها وسطل مائها للوضوء، ورأتني منكباً على القراءة، ابتسمت من فرط السعادة. لا تخبي. فكرها أمام خالاتي واسيني. ولبدي، هو الوحيد من أبنائي الذي تعلم لغة أجداده وقرآنهم. جدتي مثلها مثل أمي، مثل بقية أفراد العائلة



الكبار سناً، لا يعرفون القراءة ولا الكتابة. يعرفون القرآن من غلافه الأحمر ومن ورقه الطيب المائل نحو صفرة ما، ومن رائحته المتأتية من صفرة الورق وحبر المطابع القديمة أحياناً. كنت أشم في سيدي الفقيه، سيدي سعيد، رائحة القرآن ممزوجة برائحة القطران عندما تبدأ في افتقاد شعرها عندما كبرت قليلاً. اكتشفت أن نصي الذي هربته زمناً طويلاً خوفاً عليه من السرقة والتلف، لم يكن قرآناً ولكنه كان كتاب: ألف ليلة و ليلة، في جزئه الأول، طبعة بولاق القديمة، بأوراق وحروف ورائحة لم تكن بعيدة عن رائحة القرآن، وربما كانت رائحة المكان نفسه. إلى اليوم مازلت أنقاد نحو رائحة الكتب قبل أن أكتشف عناوينها. لا أعرف طبعاً اليد التي وضعت قرآني هناك، في ذلك الرف الصغير، ولا أعلم أبداً إذا ما كان علي أن أشكرها وأقبلها بحرارة، أو أرفضها لأن كل ما حدث لي فيما بعد مترتب عن تلك اللحظة التي فتحت فيها خطأ كتاب ألف ليلة وليلة. تلك اللحظة غيرت نظام حياتي وأحاسيسي نحو الأشياء وأدخلتني في غمار التجربة وقذفتني داخل عالم لم أكن مهيأ له، إذ كان يمكن في أحسن الظروف أن أتحول إلى فقيه يدرس القرآن في القرية، ومع بعض الحظ، إلى مهرب صغير للكتان والخضر والفواكه، على الحدود المغربية الجزائرية. لهذا، كلما صفوت إلى نفسي، أقول: طوبى لتلك اليد التي غيرت مسلكي، وأعتذر منها لأنني سرقت متعتها، فقد وضعتْ في معابري الضيقة، أجمل نص قربني من الخيال والكتابة واللذة، وأبعدني عن مهالك اليقين.

ليلي.. صرختي المكتومة.

لن أضيف الشيء الكثير إلى ما تعرفينه إذا قلت لك إن تلك أرضي ووطني الأول الذي فقدته وتحول اليوم إلى عالم من الرموز المبهمة، لا وجود له إلا داخل اللغة والأحاسيس العميقة. وذلك منفاي، إذ كلما تذكرته تمنيت أن أراه ثانية فقط لأقول ما خبأته حينها، وأفعل ما لم أستطع فعله وقتها، تقبيل تلك اليد الغامضة التي منحتني فرصة لا تعوض للجنون وللسخرية من وهم اليقين المطلق.

أنا لم أعرف المدينة إلا ممزوجة في ماء الخوف. كنت صغيراً عندما

دخلت، للمرة الأولى، تلمسان، مدينة أجدادي الأندلسيين والصوفي سيدي بومدين لمغيث. كان بيني وبينها شيء من جبروت المدن الكبيرة. لم آلف معها، في البداية، علاقة ود كتلك التي في القرية. سبع سنوات قضيتها في النظام الداخلي، في ثانوية الحكيم بن زرجب، تشبه الانضباط العسكري في كل شيء، في الدراسة، والأكل والشرب والملبس وأحياناً حتى في التفكير وردود الفعل. يصبح الإنسان موقتاً مثل الساعة الحائطية القديمة. لم يكن بافلوف مخطئاً في نظريته. كان يمكن أن نشكل نموذجه الذي لا يخون نظريته. كنا نتحرك وفق شرطية انعكاسية محددة سلفاً. تستيقظ الساعة السادسة تلقائياً. نغتسل ثم ننزل إلى قاعات العمل في الساعة السابعة صباحاً. تستيقظ فينا حواس الجوع. نشرب قهوتنا ثم نركض نحو قاعات الدرس. يكون اليوم قد بدأ. عندما يرن جرس الثانية عشرة إلا ربعاً، نكون قد اصطففنا في خط مستقيم، على طول المطعم. نأكل ثم نعود إلى الدروس. الخامسة مساء، ندخل إلى قاعات العمل من جديد، قبل أن تحل الساعة السابعة حيث تبدأ الأمعاء في نداءاتها الجائعة. نخرج. نأكل ثم نعود إلى قاعات العمل. تبدأ أعيننا في الانكسار. الكثير منا ينام على الطاولة. الساعة التاسعة نكون قد انغمسنا في نوم عميق في أسرتنا. كل يوم يشبه أخاه.

ليلي الحبيبة.

كل شيء بدأ بصدفة جميلة ليست بعيدة عن صدفة كتاب ألف ليلة وليلة. عندما خرجت الجريدة في ذلك الصباح، من صيف سنة ١٩٦٧، كنت حزيناً. بحثت أكثر من مائة مرة، عن اسمي ضمن قائمة الناجحين في امتحانات السيزيام، المتراصة في استقامة ووضوح، لم أعثر عليه. بحثت من بين الأسطر والأسماء المبهمة، لم أر شيئاً يشبهني مع أني ظللت أكرر كالمجنون أمام أصدقائي الذين نجحوا: كنت الوحيد من أبناء القرية الذي فك العملية الحسابية بشكل صحيح ووجد النتيجة النهائية: ٤.٧ التي أعلن عنها مركز الامتحانات. كلكم أخطأتم، كيف نجحتم وأخفقت أنا؟ عبثاً بكيت إذ لم يسمعني أحدٌ ما عدا أمي وجدتي. مع الأيام، بدأت أهيئ نفسي لمجابهة صعوباتِ الحياة. الفلاحة والتهريب. لم يكن امتحان السيزيام[٨] الذي بنيت عليه أحلاماً كثيرة، هذه المرة من حظي. بكيت وحزنت. ليس فقط لأني

رسبت في أول وأهم امتحان في حياتي، ولكن لأني شعرت أني خذلت أبي في قبره وأبكيت أمي وكسرت أشواق حنا وثقلتها تجاهي. الصدفة مرة أخرى تنقذني من تلاش بدا لي حتمياً. كان زوج خالتي الحاج أحمد، في زيارة لسليمان المير، أحد أقاربه الذي كان يسكن في مدينة الحناية، ضاحية من ضواحي تلمسان. أثناء الحديث بينهما، قال سليمان المير لزوج خالتي: مبروك على ميزار (اسم أمي) نجاح ابنها في السيزيام. فرد زوج خالتي: ربما أخطأت! لا. لا. لقد رسب. لم يكن له حظ أخيه الأكبر. فرد سليمان المير: لقد نجح. وجدت ذلك بالصدفة في صحيفة[٨١] لف لي البائع فيها قطعة كتان اشتريتها من عنده. و أنا أتسلى بقراءة قوائم الناجحين في تلمسان، وجدت اسم ابنها واسيني. أنا متأكد من ذلك. بحث عن الجريدة، وكان يمكن أن لا يجدها ويتبخر كل شيء في الهواء. و أعطاها لزوج خالتي. أمي لم تنتظر طويلاً عندما عرفت أن اسمي موجود ضمن قوائم الناجحين في تلمسان، لأن أبناء الشهداء وضعوا في هذه القائمة حتى يستفيدوا من النظام الداخلي، وهو ما لم نكن نعرفه. أخذتني أمي من يدي وركبنا أول حافلة متجهة إلى تلمسان. عندما فتحت أبواب ثانوية الحكيم ابن زرجب كنا أول من يستقبلهم المراقب العام. عندما بدأ يقلب بسرعة البطاقات ليتأكد من نجاحي ووجودي في هذه الثانوية، قفز على اسمي. فصرخت: اسمي... اسمي يا سيدي، لقد تجاوزته. أول شيء تأكدت منه هو تاريخ الميلاد، إذ حتى تلك اللحظة لم أكن متأكداً من أي شيء. قلت وأنا لا أستطيع كتم سعادتي: واسيني... واسيني... أنا يا سيدي المراقب العام وهذا تاريخ ميلادي. لا يمكن أن يكون شخص غيري. وحياتك يا سيدي لا يمكن. ضحك وسحب البطاقة وسجلت في الثانوية. عند الباب انفجرت بكاء. كانت الحرقة فوق أن تقاوم. إلى اليوم، كلما تذكرت الحادثة انفتحت شهيتي للبكاء. عندما عدت إلى الدار، بكيت أيضاً لمدة يومين وبعدها نسيت كل شيء. عدت إلى تلمسان للدراسة في مدينة لم تعد تخيفني. أتساءل أحياناً عن غرابة هذه الصدفة التي أخرجتني من دفء القرية ومن بؤسها وفقرها. ماذا كان سيحدث لي لولاها؟ لم أفرح في حياتي بشهادة مثل فرحي بنجاحي في امتحان السيزيام. السنة أولى متوسط. حتى شهادات: السرتافيكا[٨٢] والبروفي[٨٣] (شهادة التعليم العام)

والباكالوريا، والليسانس، والماجستير، والدكتوراه المزدوجة بين دمشق وباريس، لم تحسسني بأي شيء، سوى أنها منحت لي بعض الأمان في حياتي لا أكثر. مجتمعة، لا تساوي شيئاً أمام هزة السيزيام.

اليوم، مات معظم أبطالي وهم لا يعلمون بالخير الذي قدموه لي: جدتي التي منحتني سحر الحكاية بخرافاتها وقصص أجدادها الأندلسيين. سيدي سعيد، فقيه القرية الطيب، الذي لم يكن يغفل أبداً عن السؤال عن الربعية (ربع دينار) صباح كل يوم أربعاء. زوج خالتي أحمد بن حمو الذي أصر على البحث عن القصاصة الصحفية التي لفّ فيها سليمان المير قطعة الكتان. المراقب العام الذي سجلني وهو لا يدري وهو يتخطى اسمي سهواً في البطاقات التي كان يتفحصها، أنه كان يرميني في قبر بارد لو قال لي: معتذر، اسمك غير موجود. حتى القرية لم تعد القرية، ولم أعد أعرف ناسها إلا القلة القليلة. ومحت كتل الاسمنت المسلح كل ضياعها وحدائقها ومائها الذي كانت تئز به الأرض. مات الكثير من أبطالي وسقطت حجارة الولي الصالح سيدي بوجنان، الذي ظل يحمي القرية من الكوارث الطبيعية. ولم يبق إلا قرآني، كتاب ألف ليلة وليلة، في طبعته البولاقية الحجرية القديمة، برائحته التي حافظت عليها بين أوراقه، وهو كل زادي في سنوات الترحال الأخيرة.

كلها كانت منافي صغيرة، هيأتني للمنفى الأكبر وتلك قصة أخرى، إذ فجأة انفجر المرض الذي نام فينا طويلاً قبل أن يتحول إلى قنبلة موقوتة لم تمنحنا أية فرصة للتفكير والتأمل.

ليلى...

كنت أظن أن المنفى مجرد كذبة نجمّل بها النصوص. لم أكن أعرف أن لعبة الكتابة ستصبح فعلاً جدياً. وأن الكتاب الأول الذي نشرته في حياتي الأدبية، ألم الكتابة عن أحزان المنفى[٨٤]، سيضعني أمام اختبار صعب. كنت أتصوّره مجرد لغة أو لعبة لفظية حاسبني عليها الأصدقاء وقتها وقالوا بأني كنت أتحدث عن شيء لا أعرفه. لم يكن المنفى كذبة، كان جرحاً سرياً بليغاً. قرأت عن حياة كبار الكتاب والفنانين في الحرب

الأهلية الإسبانية والحرب العالمية الثانية وغيرهم من الذين سحقتهم الطاحونة الفرانكاوية[٨٥] أو الذين اضطرتهم المهلكة النازية إلى الخروج، وعن الخراب الذي أحدثته الماكارثية في الفنانين والمثقفين الأمريكيين وغيرهم. وظننت جازماً، في أعماقي الطيبة، أن ذلك لا يحدث إلا للآخرين وأني لست معنياً بهذه التفاصيل التي تسرق من تحت رجلي إنسان أرضه وحنينه وأشواقه، وحتى مواطنته إذا توفرت. كنت أظنني بعيداً عن رياح هؤلاء الناس العظام الذين، بسبب فكرة صغيرة اسمها الحرية، تركوا كل شيء وظلوا أوفياء لكتاباتهم وفنهم. لم أكن أعلم أني سأجد نفسي ذات شتاء بارد أبحث عن مسلك المنفى القاسي بعد أن تركت كل شيء ورائي ولم ألتفت لكي لا أصاب برغبة العودة والتراجع. لم أكن أحمل إلا حبنا الضائع، ووجهك الحزين، وابني، باسم وريما، وحقيبة صغيرة فيها كتاب ألف ليلة و ليلة في طبعته البولاقية، وبعض دمى ريم التي تركت الباقي في البيت، لأني كذبت عليهما وقلت بأنها مجرد عطلة شهر ونعود. ريما وباسم ظلا صامتين. كانا يمارسان معي ما كنت أفعله وأنا صغير مع أمي وجدتي وأبي. يعرفان الحقيقة ويخبئانها لكي لا أحزن. ماذا بقي اليوم من تلك اللحظة؟ لا شيء، سوى روايات وحياة موازية تشهد أن الألم يومها كان كبيراً. ولكني كنت أخفقه بالقول: مؤقت! متى كان المنفى فعلاً مؤقتاً؟ جدي الموريسكي لم يكن مخطئاً؛ فقد عرف ذلك في وقت مبكر. غياب السنة صار فجأة خمس سنوات، ثم عشر سنوات انمحت بسرعة عجيبة، ثم خمس عشرة سنة مرت كالريح تاركة أثرها على القلب والجسد ثم... لا سنة تشبه أختها أبداً. فجأة تكتشف، و أنت أمام المرآة الطويلة التي تحتل وسط الخزانة، تصفف ما تبقى من شعرك، أو تحلق وجهك المتعب، أن كل شيء تغير: أنت نفسك لم تعد أنت. فجأة تكتشف في المرآة، أن شعرك صار أبيض بسرعة. ثم بشعرك يسقط كأوراق خريفية ماتت بفعل الغربة. تقترب من المرآة أكثر، يغطيها بخار تنفسك. ترى وراءك ابنتك ريما التي جاءت صغيرة وهي لا تعرف سوى اللغة العربية، قد تعطلت لغتها قليلاً وتعرفت على لغات عدة. وأن الطفلة التي كانت تعشق الدمى والتي ما زالت في رأسك، تركتها وراءك يوم خرجت من أرضك. ترى ملامحها الطيبة وهي ترسم آخر وجه، أو وهي

ترتب الكاميرا لتنتهي من تركيب شريطها عن أطفال الضواحي الباريسية. تفرح ولكنك تقول في أعماقك: هل هذه هي ريما التي اشتهت أن تكون ممرضة لتساعد المتعبين؟ تتعمق رؤاك في المرآة، فترى من وراء الضباب الهارب، «باسم»، ابنك البكر، الذي دخل باريس وهو يحسب الأيام التي تمضي لكي يعود بسرعة إلى مدرسته وأصدقائه في الجزائر. وقد أصبح اليوم منشغلاً بالدكتوراه التي تأكل كل وقته وبحثه المستديم في العلاقات الدولية. تتساءل وأنت تعرف سلفاً بأنك لن تحصل على أية إجابة مقنعة: ماذا كان يمكن أن يحصل لو بقيا هناك؟ ما ثمن تلك الكذبة المهدئة التي طمأنتهما بها: سنعود بعد العطلة. وأنت تعرف أنه لا وجود لأي منفى مؤقت في الدنيا. عطلة بدأت اليوم تزحف نحو العقدين! ألم تكسر حياتهما العميقة بعد أن فرضت عليهما منفى لم يكونا مهيئين له؟

أي ألم أيتها الغالية تشعر به ونحن نخسر فجأة ، وبلا مقدمات مهدئة، حياة بكاملها بنينا عليها كل أحلامنا وأشواقنا، ونفتح أبواباً جديدة من الخوف، لا نعرف أبداً ما يتخفى وراءها من هزات عنيفة وأسرار لن نتحمل وقعها طويلاً؟

ليلى الحبيبة،

سأنتني عن شططي، وعليك أن تتحمليه حتى النهاية. لا تشيحي بوجهك صوب بياض الستائر، لكي تبكي بعيداً عني. أرجوك. أريدك في فرحك وأشتهيك أيضاً في حزنك. استمعي حتى النهاية، لم يبق الكثير لأقصه عليك، وبعدها نامي إذا شئت، فلن أغضب منك.

من جديد، أحاول أن أمحو الضباب الذي على المرآة، فأرى وجهي المتعب. يبدو لي المنفى مجموعة لا تحصى من الخسارات المتتالية. أشرع، بلهفة وخوف، في عملية العد مثلما كان يفعل تشيخوف Tchekov وهو يعدد ميزات الكتابة في قصته القصيرة جداً. أستطيع اليوم، و بعد قرابة الخمسين سنة من العمر، وأكثر ربع قرن من ممارسة جنون عظيم اسمه الكتابة، أن أقول إن رهان المنفى مثل رهان الكتابة، خاسر في كل شيء إلا في جوهره الأعمق: الحرية.

خاسر، لأنه سرق مني ما تبقى من عفويتي واغتصب طفولتي في وقت مبكر.

خاسر، لأنه وضع حائلاً بيني و بين أهلي. عندما كنت أكتب في الظروف الحالكة التي مرت بها البلاد، كان علي أن أحذر وأحافظ على اسم العائلة، لأنه ليس ملكي وحدي، ميراث جماعي لا حق لي في الاستفراد به. ولأني لم أكن قادراً على فعل ذلك، فكرت منذ البداية أن أتخلى عن اسم العائلة ولا أحتفظ إلا باسمي الشخصي لأنه ملكي. لم تكن العائلة مضطرة إلى أن تتحمل حماقاتي وجنوني ككاتب، خصوصاً في الفترة التي أصبح فيها القتل الأعمى عملاً يومياً ومازلت إلى اليوم أفكر في التخلص من هذا الميراث ولا أحتفظ إلا بما يخصني، لأمنح نفسي حريتها القصوى، ليس خوفاً على مصير العائلة، فالأمور من هذه الناحية تحسنت كثيراً، ولكن رغبة في الانتساب إلى الكتابة بشكل نهائي و أبدي وكلي.

خاسر لأن الكتابة وضعت حاجزاً بيني وبين النفاق الاجتماعي المعمم وحسن السلوك الوهمي. كذبت في الحياة وأنا صغير للدفاع عن حقي في الحب و الحقد. كذبت بلا هوادة على البشر الذين لم أكن أحبهم وأنا في بداية العمر، لأن الكذب كان وسيلتي للانتقام منهم جميعاً وأقسمت كما يقسم الكبار، أن لا أكون صادقاً مع أي واحد منهم. ولكني لم أكن قادراً على الكذب على الكلمات، ولهذا اخترت الخروج في ذلك الشتاء القاسي، وبدأت أبحث عن أرض أخرى، اسميها اليوم وطن الكتابة الحقيقي[٨٦].

خاسر، لأني عندما اكتشفت لأول مرة نص ألف ليلة وليلة في الجامع، ورحت أنقل قصصه المثيرة وأدعي أمام أصدقائي أنها قصصي، لم أكن أعلم أن لعنة هذا النص المسروق ستتبعني إلى آخر العمر. أستطيع اليوم أن أقول لصاحبه الذي خبأه بين المصاحف، ووضع له غلافاً قرآنياً وهمياً: هنيئاً لك يا سيدي، إن دعوتك قد أصابتني في الصميم. فقد نقلتني من الانتظام والاستجابة للشرطية الاجتماعية إلى سؤال الفوضى وجنون المتخيل. وبسبب عدوى الأدب التي أورثنيها كتابك المسحور، دخلت في عمق الحياة الموازية، الأكثر عنفاً، التي لا نصير فيها لنا إلا اللغة التي تتأسس عليها

فوراء كل نص يتخفى شيء عميق. الكاتب وحده يعرف أسراره و مفاتنه وبياضه.

خاسر لأن الذي فكر في قتلي ذات خريف من سنة ١٩٨٥ وأنا خارج من مقر جريدة المساء التي كانت تنشر روايتي: الشاهد الأخير على اغتيال مدن البحر، كان أبله وأمياً. ليس لأنه لم يقرأ ولكن لأن قتلي غير مفيد له أبداً. فقد رأى صورة خطيئته في النص واقتنع أن البطل لن يكون إلا أنا. و لكي تغيضه صديقته أكثر (عرفت هذه التفاصيل فيما بعد)، وتثير حقده، وتفتح كل جراحاته، أكدت له علاقتها بصاحب الرواية. كان يمكن أن أقتل بسبب غباوة لا مسؤولية لي فيها، لولا مدير الجريدة وإقناعه لهذا الرجل الذي لا أعرفه أبداً، بأني طوال العشر سنوات الماضية كنت في دمشق، وأنه لا علاقة لي بما كان يحدث له، وقرأ على مسامعه نهاية الرواية لأن الرجل اشترط أن تقرأ عليه. الخسارة أنه في بلادنا يمكنك أن تُقتل وأنت لا تعرف بالضبط لماذا!! هذه المرة كذلك لم تتخل الكتابة عني ولكنها أظهرت لي أي مجتمع كنت فيه! وأي منفى كنت أعيشه وأنا لا أعلم! لا تزال أمامنا سنوات طويلة لندرك أن الكتابة هي نفس إلهي **Un souffle divin**، محرمة ومقدسة إلى أقصى الحدود، حتى في أكثر صورها جرأة وتمادياً. كل مس لها هو مس لروح الله.

خاسر، عندما اضطررت لترك بيتي الذي شيدته بحب على مدار عشر سنوات، بشوق كبير وحنين لا يضاهى، ورتبت حياتي لكي أسافر مع أبنائي في كل سنة داخل الوطن، وفي كل مرة نكتشف مدينة حتى نعرف الوطن كاملاً ونحبه أكثر. كان حلماً طوباوياً مستهتراً لا يعرف الحقائق المخفية. بلادنا كانت جميلة كعباد الشمس، تقتفي خطوات النور كلما مال نحو الانطفاء لاستعادته من جديد. فاحترقت بنفطها وزيتها وخيرها وجهل ساستها. وإلى اليوم لا أرض لي مثلما أشتهي بسبب الكتابة، سوى وطن اللغة الذي شيدته حجرة، حجرة ونفساً، نفساً، وجرحاً، جرحاً لأن الذين وضعوا اسمي في قائمة المطلوبين للقتل في سنوات الظلام، لم يسألوني يوماً عن نواياي الطيبة تجاه الناس والبلاد، ولا عن طفولتي التي أحرقتها الشمس الجافة

انتابتني حالة من الكآبة والصمت.

- ماذا يعني هذا الكلام؟

- يجب أن تحذر، أو ربما أخطأوا فيك! من يدري.

القائمة كتبها باسم بانتظام، هكذا تعود أن يفعل هو وريما، منذ أن وضعنا رقمنا في القائمة الحمراء، ولا يملكه إلا الأصدقاء المقربون. الاسم الثاني، صديق مسرحي منفي، يقيم في مدينة أفنيون بعد أن ارتبط بعقد سنوي جيد، مع مسرحها كمخرج. كان أهم مسرحي جزائري. كنت قد بدأت أفهم ما حدث.

- كما ترى، عمر الشقي باقي.

- بصراحة لم أفهم، رجل يمد رجليه إلى أقصى الحدود، بين ضفتين. استقر يا أخي في مكان حتى نعرف أين تقيم. وحكاية القتلة هذه؟ أنبت نفسي أني حلمت دائماً أن أخرج إحدى رواياتك للمسرح ولكني لم أفعل للأسف. وشعرت كم كنت تافهاً أننا لم نلتق ولم نتحدث. المنفى طاحونة قاسية وقاتلة. خبر قتلك أذيع على كبريات القنوات الإذاعية وعليك أن تنتهي من بوهيميتك. في لحظة من اللحظات صدقته لأني قلت في خاطري: هذاك المجنون يفعلها، ولن يترددوا في قتله إذا صادفوه.

التفت صوب باسم وريما. كانا منهمكين في عملهما. عادة يطلبان مني المساعدة. في ذلك اليوم تركاني مع التليفون فقط. الثالث في القائمة كانت ريحانة، راقصة الباليه الرائعة. الوحيدة التي كلمتني من الجزائر بعدك. عندما فاتحتها، انهالت عليَّ كالسيل.

- والله لو كنت زوجتك لقتلتك. معقول؟ تدفن نفسك هناك وتنسى أن هناك مخلوقات تعيش على وقعك، وتتعايش مع الموت اليومي وتنتظر صوتك. أعيش على صوتك فقط. يمنحني بعض القدرة على الحياة بعدما خسرنا كل شيء، الدار والدوار.

- «واش تحبي يا ريحانة! الدنيا بنت كلب».

- ما أسوأ عذرك. لعنتك آلاف المرات ولكني سعدت عندما عرفت أنك ما زلت حياً. هل تدري ما معنى أن تتنفس الحرية؟ أن تنتظر صوت رجل من بعيد وأنتَ تعرف أنه لن يأتي هذا المساء، ولكنك تستأنس على الأقل أنه لايزال حياً ووجوده يمنحك بعض القدرة على الاستمرار. هذه المرة شعرت بذنب عميق وبرغبة للجلوس بقربك مثلما كنا نفعل في الشتاءات المسالمة، في بيتك، نسمع الموسيقى، تحضنني من الوراء، أحس بك عميقاً. تشعرني بوجودي وأنني امرأة لاتزال مشتهاة. عندما تتوقف الشهوة، تنهض الشيخوخة. لم تسألني يوماً عن زوجي ولم أسألك يوماً عن زوجتك. لم يكن ذلك شأنك ولا شأني. ونتذكر بعض حماقات الدنيا، وقصتي المبتئسة مع زوجي الذي لم يتحمل أن يعيش مع لبوءة وليس امرأة كما كان يقول دائماً. قال أنا أريد ريحانة لي. تعبق بعطرها عليَّ وحدي، وليس للأوبرا الوطنية. كرهت حياتي وأنا أجوب الأسواق والمحلات وهم يرددون: شفت البارح ريحانة؟ كانت مذهلة! ريحانة ربي أعطاها الزين والجسد الغض، كانت طائرة في السماء كعصفور الجنة! ربي يحفظها من العين... قلت له: يفترض أن يثير فخرك بدل انكسارك. قال: زوجتي في البيت وليس على ألسنة الناس في الشوارع. «عند اللي يسوى واللي ما يسواش». قلت له ببرودة: أعتقد أننا أخطأنا بعضنا بعضاً. في ليلة كان مسود الوجه. بعدما عاد من صلاة المغرب، ممتلئاً بالضغينة. لم أفهم تمتماته: قال بدءاً من الغد توقفين حكاية الباليه والرقص. حاولت أن أقنعه أن الأوبرا هي حياتي وأن انفصالي عنها معناه موتي المؤكد. لم يفهم شيئاً. قلت بصرامة: لا، لا أدري ماذا حدث. ضربني حتى سقطت أرضاً. وشعرت في لحظة من اللحظات، برأسي ينفصل عن جسدي. لأول مرة أرى الموت في وجه زوجي. مثل الخرقة البالية رماني على السرير وهو يصرخ بشكل هستيري: سترين اليوم من أكون يا فاجرة المسرح ومحظية العسكر. شعرت به وهو يغتصبني بكل ما أوتي من عنف. بدأ لحمي يموت شيئاً فشيئاً حتى أني لم أعد أحس بأي شيء. بعد لحظات، لم أدر كم دامت، رأيت وجهه من وراء كومة الضباب يبكي، ويصرخ بأعلى صوته: يا ربي سيدي ماذا فعلت في حق زوجتي؟ «واش درت؟ الله الشيطان ولد الحرامي؟». كنت غارقة في دمي وهو يعتذر ويسلم على رجلي. نمت

على بياض، ولم أفطن إلا في اليوم التالي. قمت بصعوبة. اغتسلت من كل شيء حتى من نظراته التي ظلت ترقبني. أراد أن يعتذر مرة أخرى. لم أقل شيئاً. خرجت. لم آخذ أي شيء، ولم أعد له أبداً حتى فكنا القضاء.

- يا الله. خسرت قيداً وربحت حياتك.

- الوحدة قاسية، ولكني مسؤولة وسعيدة لما قمت به. أرجوك حافظ على نفسك. القتلة يبحثون عن أية روح حية. أنا نفسي غادرت بيتي وأقيم عند أختي.

كان نوع من البياض يلف ذاكرتي. شعرت كأني كنت أمارس لعبة بها رائحة تشبه إلى حد كبير رائحة الموت. ربما وباسم تركا العمل قليلاً وانهمكا في متابعة فيلم مغامرات. كانا داخل عالم نبهناه بسرعة، أكثر مني.

- وحق ربي ظننت أنك قتلت. سمعت الخبر في إذاعة ميدي الدولية. سحبت نفسي وذهبت عند أخيك عزيز وأخبرته بما سمعته. طمأنني قليلاً أنك في باريس. ولكنه هو كذلك انتابته شكوك كبيرة لأنه يراك دائماً تتحرك بين ضفتين. ذهبنا عند حسان، أخيك الكبير لنرى كيف نخبر الوالدة. من حظنا أنه كان قد كلمك وعرف القصة.

- يبدو أن الله سيمنحنا عمراً آخر. شكراً عبد الله.

- «يا خويا طول العمر، تهلا في روحك. والسلامة في الراس».

عبد الله ابن عمي. قروي طيب. شبعان من الدنيا، وهو لا يملك قوت يومه. كان مرهقاً ولم يكن يريد أن يثقل عليّ بالحديث.

وضعت عليه خطاً في القائمة وبحثت عن رقمها. باسم وضع رقمها أمام اسمها.

- صوفيا، عاش من سمع صوتك.

فجأة أجهشت بالبكاء إذ وجدت صعوبة كبيرة في الحديث إليها وإسكاتها.

- يا مهبول، ليس من حقك أن ترمي بنفسك إلى التهلكة. وحياتك صرت معلقة على نشرات الأخبار منذ أن بدؤوا حملة الإبادة. نسيت قتلهم لأساتذة اللغة الفرنسيةّ والتاريخ والشعر والرواية، وبدأت أعيش على وقعك! في البداية قلت في خاطري، هذا الرجل تركنا وخرج في ظرف كنا في حاجة ماسة له ولم يخبر أحداً من محيطه، يجب أن لا أسأل عليه وأن أخرجه نهائياً من ذاكرتي وذاكرة أصدقائنا. وأخرجتك من ذاكرتي وانهمكت في حياتي الزوجية، عملي وبناتي الثلاث، إلى أن فجر فيّ لغم غيابك إحساساً غامضاً كنت أظنه مات وانتهى. لا أدري إذا كان الموت يكبر الأشياء في أعيننا، ولكني شعرت أني فقدت عيناً كنت أرى من خلالها نفسي كلما أظلمت الدنيا عليّ. الأغرب من ذلك كله، عندما سألني زوجي عما أصابني، بطيبته المعهودة، ربما مجرد كذبة. الناس هذه الأيام يقتلون بالكلام أكثر من الرصاص... زاد انشدادي إليك على الرغم من أني غاضبة منك جداً... جداً... طبعاً لا نغضب إلا ممن نحب. طلبت من أخيك رقمك الجديد الذي ترددت أمامه كثيراً. العديد من المرات عندما كانت تظلم الدنيا في عيني. ثم قلت ليكن. ولكني لم أسمع إلا صوت ابنك الذي يشبهك. كدت أجهش بالبكاء لولا أنه نبهني أنه ابنك وأنك في إيطاليا وأنك بخير.

- يا الله لنقل إنها ضربة جاءت في الفراغ.

- الحمد لله على سلامتك. لا تنس أن لك وراء المتوسط من يحبك... ولو أن ليلى الوهرانية أخذتك منا نهائياً...

ضحكت. عرفت بسرعة مراميها.

- ليلى الوهرانية...

- تضحك طبعاً... اضحك يا خويا... قلبك بارد.

- لا... تكرتني كلمة ليلى الوهرانية بأسماء الشيخات... حبيبة العباسية... الرميقي الغليزانية... الجنية السعيدية...

- الحمد لله أنك مازلت قادراً على الضحك والتنكيت في بلد كدنا ننسى فيه أن الدنيا لاتزال قائمة، وأن الجزائري لايزال قادراً على الحب والضحك.

لم أعلم بالساعة إلا عندما شعرت بحرارة ربما وهي تطبع على جبهتي

قبلتها المعتادة كما تعودت أن تفعل قبل أن تنام. وباسم يعطيني خده الساخن ووجهه المحمر، قبل أن ينسحب نحو فراشه بكتابه الذي لا ينام إلا به: أمير الخواتم، لطوليكن[87]. انتهى من قراءة جزئه الأول: جماعة الخاتم، القلعتان، وهو بصدد الانتهاء من: عودة الملك.

– تصبح على خير بابا.
– تصبحون على ألف خير.

كنت سعيداً أن الناس الذين يكرهونني، أشد على يكرهونني، لأني في أعماقي، لا أحمل أية ضغينة لأي شخص. لم يكونوا من ضمن قائمة من سأل عني. قد لا أحب بعضهم ولكني لا أكرههم. ولا أتمنى لهم أي مكروه. فأنا لا أملك الموهبة الكافية لذلك. لا أحد منهم سأل عني. فأعفوني بالتالي من جهد تغيير رأيي فيهم.

كنت أستعد للمرور إلى رقم آخر، عندما رن التليفون. كان لأحد الأصدقاء الصحفيين من الذين هاجروا فيما بعد، إلى أمريكا بعد أن قتلت زوجته عند باب المدرسة لأنها أستاذة رسم وفنانة. لا أدري في أي شيء كان يفكر قاتلها؟ وهل كان يفكر أصلاً؟ ماذا فعلت سوى أنها جعلتنا نمتلك الحلم، وكيف نضعه في جيوبنا ونركض به كالأطفال من بيت لبيت، ونصر على أننا أصبحنا بقدرة قادر سحرة وبإمكاننا أن نحمل الألوان والسماء والبحر في جيوبنا، أو في أكف أيدينا. وعندما تثقلنا الألوان، نضعها في أعيننا، ونركض صوب الشمس.

– أتمنى أن لا أكون قد أزعجتك أخي واثيني (واسيني)؟
عرفته من عضة لسانه عندما ينطق حرف السين. مالك.
– لا أبداً يا مالك. من أين تتلفن.
– من قسنطينة.
– كنت أفكر في أن أتصل بك غداً. كيف جريدة النصر؟ كيف حالكم مع الطاقم الجديد. احذر من القتلة. دمويون ولن يرحموا أحداً.
– بوف أصبحنا قدريين. كنت أريد فقط أن أعتذر منك. حاولت الاتصال

بك بكل الوسائل ولكنني لم أفلح. الصحافة حمقاء أحياناً. لكن القتلة سرقوا منا عقولنا وأصبح المستحيل ممكناً. أعتذر أخي العزيز وأرجوك أن لا تؤاخذني.

– لم أفهم جيداً.

– على كل حال النية كانت طيبة. وهي تغطية موت صديق عزيز قضى عمره يناضل من أجل حداثة يبدو أنها مستحيلة في هذه البلاد. البارحة نشرنا مانشيت على الصفحة الأولى تخص اغتيالك. وصلنا الخبر عن طريق وكالة الأنباء، وهذه صيغته أقرأها عليك حتى تعرف كل شيء مني، قبل أن تسمعه من غيري: اغتيل صباح اليوم الكاتب الروائي واسيني الأعرج وهو في طريقه إلى عمله. وكان واسيني إضافة إلى كونه أستاذاً في الجامعة، كان موظفاً في إحدى مؤسسات منظمة الأمم المتحدة.

– ولكنك تعرف بأنه لا علاقة لي بحكاية الأمم المتحدة هذه. عجيب كيف تصنع لك صورة أنت آخر العالمين بها. ليكن؟

– الخير مازال الكرام (القدام). قالها بلهجته الجيجلية:

– كتبت عنك صفحة كاملة اشترك فيها عن طريق التليفون كل من يحبك ويحب شجاعتك وكتاباتك. واخترت للصفحة الأولى صورة لك وأنت تلقي محاضرة في قاعة النفق الجامعي، ومانشيت بعنوان: اغتيال الروائي واسيني، لن يقهر القتلة، صوتك الكبير. ثم صورة ثانية لك في مقبرة عين البيضاء بوهران، يوم دفن الفنان عبد القادر علولة، وأنت تلتفت صوب جبل وهران وسانتا كروث.

كان يتحدث كمن يصف مشهداً سينمائياً. لم أصدق. كيف تزداد أهمية الإنسان ميتاً أكثر منه حياً. ولهذا، علينا أن نموت جميعاً لكي نحصل على الأوسمة والتكريمات. لم أرد أن أوذيه واحتفظت بردي في داخلي وأضفته إلى بيتي الكبير، في داخلي والذي أسميه بيت الأسرار.

لا أدري كم كانت الساعة، ولكن كل شيء كان ساكناً، حتى حركة الشباب الذين تعودوا أن يلعبوا لعبة القط والفأر مع الشرطة، في هذا الحي الباريسي العمالي المكتظ بالبشر. كلما كلمت شخصاً لأعتذر له أنني ما زلت على قيد الحياة، كانت القائمة تطول أكثر، فأكثر. فجأة أدركت أن المنفى على الرغم من مرارته، لم يكن فقط خسارات متتالية.

ها هو عمر آخر يضاف بسخاء إلى العمر المسروق. إذ كان يفترض أن أموت قبل هذه الفترة بكثير. وأكثر الأصدقاء تفاؤلاً لم يكن يعطيني أكثر من عمر حشرة، ناموسة أو فراشة، من شهر إلى سنة، في سنوات الظلام الأولى. وها هو العمر يطول ليتخطى كل الحسابات والفرضيات. أي حظ هذا؟! وأي عمر جميل يمكن أن يعاش خارج رشقات الرصاص، وحفيف السكاكين وهي تذهب وتجيء في حركة دائمة ومخيفة؛

كثيراً ما نكره الصدف، لكن بعضها استثنائي كالذي يلاقينا بامرأة تعيد صياغة حياتنا. أو كما حدث لي، ودفع بأصدقائي في كل مكان، إلى الاتصال بي فقط ليتأكدوا من أن ما سمعوه عني لم يكن صحيحاً.

ليلى الحبيبة. صدفتي المذهلة.

أنا ابن الصدفة وعليّ أن أشيّد لها تمثالاً عظيماً في قلبي. هذه المرة أيضاً، أنقذتني من موت مؤكد. غيرت مسارات القدر نحو مسالك أخرى. غريب أن يقرأ الإنسان خبر موته في إحدى الجرائد الوطنية، ويسمعه في إذاعة ميدي الدولية المغربية الفرنسية، وفرانس-أنفو الفرنسية. تذكرت يومها صديقي الشهيد، الكاتب علي فوده، الفلسطيني الطيب، الذي قرأ خبر موته وهو في أحد مستشفيات بيروت في اجتياح ١٩٨٢ الإسرائيلي. قاوم باستماتة الاحتلال الإسرائيلي ووزع جريدة المعركة التي كان يصدرها محمود درويش كأي مناضل ملتزم بخياراته

أسترجع ذهنياً المانشيت التي قرأها علي صديقي مالك، في جريدة النصر: اغتيال الروائي واسيني. لن يقهر القتلة صوتك الكبير. أشعر بشيء من الزهو الغريب والافتخار وكأن موتي الافتراضي زاد من قيمتي قليلاً في

مجتمع لا يعترف بك إلا إذا قتلك. ثم ينتابني خوف عميق. أول شيء قمت به هو إخبار أهلي، أمي خصوصاً وتكذيب الخبر وطمأنة كل الأصدقاء الذين كانوا يعرفون مكان إقامتي.

في أعماقي أشعر بعقدة ذنب لا أستطيع مقاومتها أبداً. لابد أن يكون قد حدث خطأ ما. في لحظة ما القتلة يخطئون أيضاً. أشعر دائماً بأن هناك رجلاً حماني بصدره ليمنحني كل هذا الزمن. وأنا مدين له بالرغم من أنه لا يدري لماذا قتل بالضبط؛ الرجل الذي قتل، كان موظفاً بسيطاً في الأمم المتحدة، يمر كل صباح بالقرب من الجامعة، يشرب قهوته في لابراس La Brasse المقابلة للجامعة، يتبادل أطراف الحديث مع أصدقائه من الجامعة، ثم يتوجه إلى عمله في منظمة الأمم المتحدة. لم يكن بين اسمي واسمه إلا بعض القلب. من مدينتي الأصلية نفسها. كان اسمه: واسيني الأحرش. حرفان كلفاه رصاصة في الرأس لم تمهله ثانية واحدة لكي يعلن عن الخطأ، وأنه ليس هو المعني. لم يكن يعرف وهو يخرج في ذلك الصباح، أنه سيقتل في مكان رجل آخر لم يره إلا بالصدفة في مقهى الجامعة عندما سمع باسمه: واسيني. اندهش. قال وهو يضحك:

– لابد أن تكون من ولاية تلمسان. هذا الاسم ليس وطنياً.

قلت له: نعم.

– كنت أعرف ذلك. معرفة خير. أنا أيضاً اسمي واسيني، وأعمل بالولايات المتحدة.

دفع لي ثمن القهوة وخرج. منذ ذلك اليوم لم أسمع به إلا عندما عرفت أنه قتل في مكاني. كان على العكس مني، هادئاً وزوجاً صالحاً، وعاملاً مواظباً على عمله، ولا يحشر أنفه في السياسة. صراعي مع القتلة كان صراعاً يتعلق بغريزة البقاء. كم أشتهي أن يمنحني الله بعض العمر فقط لأقف على قبره قليلاً وأعتذر منه، لأن الأقدار التي وضعته أمامي ليقي صدري من الرصاص القاتل، لم تسأله في ذلك الصباح الباكر عن رأيه ولم تدقق أبداً في هويته ولا حتى في وجهه الطيب.

لن أضيف إلى ما تعرفينه عني شيئاً جديداً إذا قلت لك إن المنفى سمح



لي أن أرى مدناً صنعتها الحياة والكتابة، وأن أحلم مئات الأحلام التي لم تكن الكوابيس بها إلا صوراً زائلة. المنفى علمني أيضاً أن لا شيء يضاهي الجلوس في أية شرفة و في أية مدينة في الدنيا، وشرب كأس، شاي أو نبيذ لا يهم، بدون أدنى تفكير فيما يحيط بنا، وتأمل غروب شمس أو التمادي في بحر نيلي يذكرك بعالمك اللغوي الذي لا يموت. السعادة أحياناً وربما دائماً لا تتطلب الكثير، سوى بعض الحب والسخاء، وقليل من الحرية.

صحيح أني خسرت أرضاً جرحت ذاكرتي، ولكني ربحت وطناً عظيماً، هو وطن الكتابة. أرضي الوحيدة والنهائية. وحدها الأصدق. وحدها الأبقى عندما ينكرك الآخرون ويخرجونك من ذاكرتهم.

صحيح أن أقسى ما في المنافي هو أن تعرف بأنك ستموت وحيداً في العزلة، خارج وطنك وخارج أرضك ولكن، الصحيح أيضاً أن المنفى يمنحك حياة لم تتخيلها، ووطناً تنشئه بسهرك وأظافرك وخوفك. لا يشبه الأوطان كلها، لأنه ملكك وحدك. وطن الكتابة. لن تتخلى عنه مهما كان الثمن غالياً وعسيراً. تظل تحصر وتقاتل من أجل أن تظل شوارع، وأنفاق، ودروب هذا الوطن مضاءة ومنارة، ليلاً ونهاراً مهما كانت الخيبات كبيرة وشروط الحياة قاسية إلى أقصى الدرجات، والثمن غالياً.

ليلي... عمري...
حبيبتي وعناني الجميل.
أتساءل اليوم وأنا في قمة صفائي الذهني الذي لا أضمنه بعد سنوات قادمة، هل خسرت وطناً حقاً عندما خرجت في ذلك اليوم الشتوي القاسي مستجيباً لرغبة عميقة فيك، ولم ألتفت ورائي لكي لا أتراجع؟ لكي لا أرى؟ لكي لا أندم؟ بالضبط لا أدري.

ربما كنت أصلاً لا أريد أن أعلم.

أحبك وأحزن لبعض أسئلتك غير السارة.
ياسين، الدوحة، ربيع ٢٠٠٦

-١-

- ياه! نسيت تماماً. غبية أنا. وهل هناك قهوة توقظ الحنين الميت وتفتح العيون* أحلى من قهوة الفجر؟

سحبت ترمس القهوة برجلي اليمنى، من زاوية المكتب، حيث وضعته منذ لحظة دخولي إلى السكريبتوريوم. الرشفة الأولى، شعرت بها كأنها تنزل في بطن فارغ. كانت قوية ودافئة. تتبعت مسارها حتى النهاية. شعرت بانتعاش غريب. الثانية أحسست بلذتها. الثالثة... الرابعة... بدأت سكرة التعب تنسحب شيئاً فشيئاً.

الفجر يتزلق نحو السكريبتوريوم في غفلة مني، والليل ينسحب بهدوء وسكينة.

توغّل نور خفيف من وراء فجوة الكوة نصف المفتوحة، فتسربت رائحة المطر الممزوجة بتربة الحديقة وزهر الرمان، إلى عمق المكان. لا أعرف ما العلاقة بالضبط، ولكني شعرت بلذة ما على رأس لساني.

أتحسس أشيائي المحيطة بي.

لا شيء سوى الذبابة التي كانت تحسسني بوجودها من حين لآخر بطنينها الحاد. كنت أظنها ماتت أو انسحبت، ولكنها عادت إلى الدوران الفارغ وكأن النور المتسرب من فجوة الكوة الصغيرة، أيقظها. بدأت تزعجني وتمنعني من التركيز، على الرغم من أني لم أعد مهتمة بالزمن كثيراً لأني كنت خارجه. كان يذوب كقطعة ثلج تحت أشعة شمس حارقة.

لا ورق على الطاولة في الجهة اليمنى، إلا الرسالة الأخيرة التي بعثها لي واسيني قبل أن يتركني في مطار روما لأعود إلى برلين، ويسافر هو إلى الدوحة لحضور ندوة الأدب والمنفى. كانت على وجهه مسحة حزن، لا أريد اليوم أن أراها في عيني واسيني عندما يسافر، لأنها تقهره في الأعماق وتظل عالقة في ذاكرته وتطحنه بعنف. أعرف أنه هش جداً ولا يتحمل قسوة

الصمت. ربما كنت الوحيدة في الدنيا التي تستطيع أن تقول ما أقوله، لأني عبرته من الداخل واكتشفت كل دهاليزه المضاءة بنور الحياة.

أحاول أن أسترجع بعض أنفاسي الضائعة وسط هذه العزلة التي تتكاثف من حولي لتضغط عليّ بقوة، كليمونة.

يبدو أن الانفصال بيني وبين مريم أصبح كاملاً. والعداوة استفحلت نهائياً. لأول مرة أشعر بقوة، وبلا أدنى ندم، أني لم أكن مريم، وأني كنت أيضاً بعيدة عن ليلى البسيطة، المهبولة، ذات العينين الطفوليتين، الملينتين بالغيرة عندما تداس أرضها، والقادرة على ارتكاب كل الحماقات حتى في حق نفسها.

لست امرأة مثالية. لست قديسة، وأرفض أن أكونها.

طنين الذبابة الزرقاء يمنعني من التركيز، لكنه لا يمنعني من الكتابة والقراءة. انتبهت فجأة، وسط فوضى المكتب، إلى أن المسدس كان مصوباً هذه المرة باتجاه اللاشيء، وربما باتجاه كل شيء.

أغمضت عيني وحاولت أن أهمل وجوده لكي أتمكن من التقدم. تحسسه يورثني بعض الاطمئنان، لكنه في الوقت نفسه، يخيفني لا أدري لماذا!

-٢-

أغمضت عيني وحاولت أن أنسى وجودي قليلاً داخل السكريبتوريوم.

لم نفكر أنا وواسيني، ولا لحظة واحدة في الزواج إلا عندما داهمني خوف بفقدانه. طبعاً، واسيني، كعادته في كتاباته، لم يقل الحقيقة في وقع الأحذية الخشنة، أو على الأقل لم يقل حقيقتنا، ولا حتى في طوق الياسمين، التي كتبها بعد عشرين سنة من الأولى، وانتظرت أن يقول العنفوان الذي كان في قلبي.

أقول اليوم بصراحة، بعدما هزمه قلبه، لم ينصفني واسيني أبداً. كان قاسياً علي. فأنا لم أتزوج لأني كنت أرغب في الزواج، أو لأن العمر بدأ

يخذلني. عندما حدث ذلك كنت ما أزال شهية كتفاحة، وشابة مليئة بالأشواق والرغبة في اكتشاف الحياة وقضمها وعدم الاكتفاء بهوامشها. كنت مثله تماماً، أعرف أن الزواج في صورته المهيمنة، مؤسسة قاتلة، واختيار خاسر، واختبار فاسد للحواس، وخاتمة لرعشة قوية نريدها عبثاً أن تظل في ألقها وعنفوانها.

أتذكر أني سألته يومها سؤالاً طفولياً، ربما لم يكن بريئاً:

– واسيني، هل تحبني؟
– وهل في الله شك؟
قالها بسخريته المعهودة.
– لا أريد هذه الإجابة الفضفاضة. هل تحبني؟
– نعم.. أنا أحبك حباً جماً، وإذن أنا موجود يا سيدتي ويا أميرتي..
– لسنا في مدرسة، وكن جاداً لمرة واحدة في حياتك.
– نعم يا ليلي، أحبك. أحبك. أحبك..
– وتريد أن ننجب مايا؟
– طبعاً. يبدو أن المسألة أكثر جدية مما تصورت؟
– طيب، قل لي فقط كيف سنفعل؟ نورني، فأنا لم أعد أفهم شيئاً. نعيش في بلاد متخلفة، شرط إنجاب الأطفال فيها مربوط بوثيقة؟
– مثلما فعل الله مع مريم. نفخ فيها شيئاً من روحه. وأنا أفعل ذلك يومياً. هل المسألة صعبة إلى هذا الحد؟
– عدنا إلى السخرية؟ يبدو أنك تهرب من أسئلتي.
– ليلي. عمري. عذراً. أريد فقط أن نخرج من هذا الجو المشحون. فهمتك جيداً. ولكني لست مؤهلاً للزواج. لم أر شيئاً من الحياة. لو تزوجتك الآن، سأخونك غداً. أنا جاد ولا أمزح. أحبك، وأريدك أنت بالذات أن تظلي معي طوال عمري. لا أعرف إذا كان الحظ سيحالفني للالتقاء بامرأة مثلك.
– كيف نجعل من الحلم حقيقة، كما جعلنا من الرغبة وجداناً لا يموت؟
انكسرت عيناه. صمت طويلاً وكأنه أدرك فجأة أن المسألة جدية، وأن ما

سيحدث سيكون خطيراً وقاسياً. شعرت من عينيه، كأن ثقل العالم كله نزل على صدره، وضاق نفسه بشكل ملحوظ. رأيته يتنفس بصعوبة كبيرة.

ثم قال:

– ليلي حبيبتي، طريقنا منذ البداية كان واضحاً وصريحاً. اخترنا مسلكاً جميلاً ولكنه صعب، إما أن نواصل فيه وإما...

ثم سكت من جديد. ساعدته على إتمام سؤاله. كنت مجروحة في الصميم:

– وإما... قلها «ما تخافش». وإلا نفترق؟ هكذا إذن أهُون عليك إلى هذا الحد؟ واسيني، هل جربت أن تكون امرأة في عالم ذكوري معتوه، يجرك كل صباح بخطوة جديدة نحو العصر الحجري حتى لا أقول القبر، ويسحبك نحو فراش المومس، ويقتل شهوتك في اللحظة التي يلمسك فيها؟ هل جربت أن تحني رأسك فقط لأنك لا تعرف كيف تخفي حبك أمام الآخرين الذين يعرفون حقيقتك؟ هل جربت مثلاً، أن تكون ليوم واحد فقط، امرأة في مجتمع قامع يعيش على كذبة كبيرة اسمها العفة؟ مستعدة أن أواجه كل دبابات العالم وقنابله الذرية، مقابل لحظة واحدة أعيشها معك بحرية، ولن أضطر في كل لفتة، إلى تبرير وضعي. هل فكرت في ذلك قليلاً؟ طبعاً لا. أعرف. أنت مرتاح في عالمك الرائع الذي لا يكلفك شيئاً كبيراً للأسف. لا تنفرد في هذا عن بقية الرجال.

شعرت بأني كسرت شيئاً عميقاً فيه.
هذه المرة كذلك لم يرد. توغل في صمته كمن يدخل نفقاً لانهاية له.
دخن سيجارة، بدون أن يتكلم. سيجارتين. ثم ثلاث سيجارات. عشر. امتلأت الغرفة بالدخان. انتظرته طويلاً حتى ظننت أنه نسي أني كنت معه. إلى أن نطق بهدوء ويقين وصفاء مؤلم. ليته صمت:

– عمري.. أحبك. كل شيء في الدنيا يقودني نحوك. ولا أعتقد أن الأقدار تلاقيني بمن هو بقدر سماحتك وغناك الداخلي وألقك ورهافتك. سأفقد فيك

حباً لن يتكرر أبداً. ولكن يبدو لي أني لست مؤهلاً لأن أكون زوجاً جيداً. ثم.. أنت أفضل مني بكثير. لا أصلح مطلقاً لا شيء يقيدك بي. من حقك أن تذهبي وراء حياتك وحلمك. أنت الآن حرة. افعلي ما تشائين.

بقيت للحظة خارج أي شيء كان يحيط بي. شعرت بفجوة في دماغي اتسعت بسرعة. كل شيء أصبح رخواً تحت قدمي. كنت أقف بصعوبة كبيرة على حافة لا حدود لأخدودها: حافة النار وحافة الجحيم. أحسست بشيء غريب لم أفهمه جيداً. كيف يمكن لواسيني أن يتخلص مني بهذه السهولة؟ لا يعقل. هل يقبل أن يقذف بي هكذا، بين ذراعي شخص آخر، لا يحبه كثيراً، ولا تتحرك فيه حتى حاسة الغيرة؟ لابد أن يكون قد جن! حاولت أن أتماسك بصعوبة.

واسيني لم يجن، ولكنه كان في عالم وحده كان يعرف قسوته. كان يختبر سره الدفين وأشواقه وقدراته على تحمل غيابي.

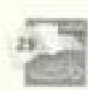
كان ينزف داخل صمته وجنون قراره وحريته.

الكلمات الأخيرة التي شدد عليها كانت قاسية وكأنه فتح فجأة أمامي كل أبواب جهنم دفعة واحدة. أردت أن أصرخ بأقاصي ألمي، ولكني في آخر لحظة أحجمت لكي لا أخسره نهائياً. كنت أدرك أنه كان يداري جبناً يخاف من نتائجه. كان واسيني ضحية ارتباك داخلي لم يكن قادراً على مقاومته.

–٣–

ليلتها لم أنم.
لم أسأله كثيراً عن أشياء وددت لو يسمعها مني ولكني لم أستطع. لم أبك. لم أتكلم. عندما خرجت، ذهبت نحو أقرب قاعة سينما، سينما الكوليزي الأنيقة والواسعة، واندفنت فيها طويلاً. بكيت مدة ساعتين في الظلمة. ثم خرجت مرتاحة من ثقل كبير، وبصفاء ذهني جميل. عندما سألتني عائشة ونحن عند الباب:

– ما رأيك في الفيلم؟



التفت نحوها. ولم أستطع كتم ضحكتي المليئة بالدموع:

– الله يخرب بيتك؟ هذا حالة واحدة رأت فيلماً؟

– أريدك أن تخرجي من حالة الحزن. واسيني يحبك. ستتغير الأمور. أنا متأكدة من ذلك. ولكن...

– ماذا ولكن؟

– لم تقولي لي رأيك في الفيلم.

التفت نحو عائشة مرة أخرى. رأيت عينيها اللتين تشبهان عيني عصفور ضائع. عدت إلى الضحك مرة أخرى بشكل يكاد يكون هستيرياً.

– توقفي يا عائشة.. أرجوك. أنت راح تهبليني بأسئلتك.

في الطريق، تأكد لي أنه لكي نحزن لا نحتاج إلا إلى هزة غير منتظرة، ولكي نضحك، نحتاج حتما إلى نظرات عائشة التي لا تستطيع أن تخبئ سخريتها المبطنة من الحياة. ضحكت مثلما لم أضحك أبداً في حياتي.

عندما وصلت إلى البيت، كنت قد استوعبت داخلياً فكرة إمكانية مغادرة واسيني. لم أكن أسمع لعائشة وهي تحاول أن تخفف من ثقل ما حدث بيني وبينه وتعتبره مجرد حالة طارئة، ولكنني كنت غارقة في نداءات بعيدة كانت تسحبني نحو عقل افتقدته في كل الزمن الذي مضى. أو على الأقل هكذا تصورت.

الأيام التي مضت أكدت لي مسلكي. انتابني صفاء غريب، وأجبت أمي التي ظلت زمناً طويلاً تنتظر إجابتي، بأنني سأقبل الزواج من ابن عمي رياض الذي لم يتوقف عن المجيء والذهاب إلى الدار، حاملاً الهدايا والعطور الغالية. سمعت أمي يومها تزغرد بأقصى ما تملك من قوة.

– سي ناصر سيكون أسعد ميت في الدنيا.

كنت أعرف أن والدي كان أكثر حزناً مني. كان منكسراً لحزني. رأيت وجهه لحظتها وقد علته سمرة طاحنة غيرت كل ملامحه. أدرك جيداً أنه لو

كَتَبَ له عمر آخر، وتعرّف واسيني لأحبه بعمق.

أمي المسكينة، قصة أخرى. لم تكن تعرف أنها كانت تولول لجنازتي القادمة.

عندما أخبرت واسيني بقراري، لم يقل شيئاً. انتظرت لحظات طويلة أن يطلب مني منحه دقيقة، ساعة، يوماً، شهراً، سنة، قرناً للتفكير، لكنه لم يفعل. لم يكن سعيداً وهو يحني عينيه المنكسرين نحو الأرض، لكي لا يراني وأنا أغادر بيته للمرة الأخيرة، تاركة ورائي كل شيء، كتبي، وفوطي، حقائب سفري، ألبستي الداخلية وأصداء قصة ماتت على عتبة بيت كان بارداً جداً في ذلك الصباح.

رسالة واسيني بينت لي أنه كان في عز انكساره. جبروت اللحظة وضعه أمام استحالة لم يحسبها. ربما لم يفهمها أصلاً لأن فداحتها كانت كبيرة.

* * *

اذهب، ما دام هذا خيارك...

أشواقي المعطوبة
مريم الحبيبة... مجنونتي
من أين أبدأ هذا الخوف؟

من أين أبدأ هذا الجنون، وكيف أدخل ضبابك الكثيف وغموضك المذهل؟

خريف[٨٨] فراقنا الأول يأتي دامياً وقاسياً

عندما خرجتِ في آخر مرة باتجاه غامض، سحبتِ وراءك كل شيء، حتى احتمالات العودة. لم تلتفتي أبداً. فقد كان حريقك قاسياً. تركتِ وراءك شوارع مشتعلة، وحكومة وطنية جداً، لم تخرج أسلحتها بعد الاستقلال إلا لكسر الانقلابات أو لقتل أطفال الأحياء الشعبية. إنه خريف الحزن أيتها الغالية. كل شيء يسقط: الأوراق، الأحلام، العشاق، والهاربون من تاريخ، بدل أن يحررهم، قتلهم في غفلة منهم.

الساعة الآن تزحف نحو وقتها المعتاد. لا أرى شيئاً من وراء هذه النافذة المشرّعة باتّساع إلاّ هذه الشجرات العملاقة المصطفّة مثل جنود منكسرين، تتمايل. أشعر بأوراقها وهي تغادرها لتتعرّى داخل هذا القفر الذي يشبه مدينة. أوّل مرّة أمضي هذه الفصول عارياً منك، من رائحتك، من ضحكك، من خوفك. تعرفين أن جوّاً مثل هذا، وفصلاً مثل هذا، يرميني بعيداً نحو طفولتي الأولى وأنا أركض في تلك المدينة البعيدة التي علّمتني الذهول والدهشة. أتذكر أستاذ الرسم وكلماته الجميلة: من يعرف رسم ورقة البلاطان؟ أهجم عليه بصراخي وأصابعي. معلّم أنا، معلم أنا. ثم أخطّها بكل تفاصيلها الرقيقة وألوانها وانكساراتها الجانبية.

ها أنا ذا في هذا الصباح الحزين، أراها وهي تهتزّ لرياح الشوارع التي

تصلني هسهساتها داخل هذه القاعة الدافئة ولا شوق لي إلاّ رسم وجهك واستعادة ملامحك... وربّما بعدها تأتي استعادة تفاصيل الورقة.
أنتِ هناك بعيدة.
وأنا هنا، في هذا المكان، أكثر بعداً، وانتفاءً.

الساعة تزحف بقوة، نحو ما لا أرغب فيه مطلقاً. قوة الرياح في الخارج، تزداد عنفاً. أغلقت النافذة، ومع ذلك تأتيني هسهسات شجرة البلاطان العملاقة. لا بدّ أن تكون فصول هذه السنة باردة. أشعر بوخز داخلي، ثم أقول ليكن. الزمن صعب، لنخرج منه بانكسارات أقلّ في الظهر، وبرؤوس مرفوعة ولو قليلاً.

هذا اليوم الخريفي، يعطيني رغبة قصوى للتجوّل داخل المدينة، للمغامرة داخل شرايينها، لكنكِ بعيدة. ثم أقول في خاطري ليكن. سأتخيّلك وسأعشقك. أتدحرج معك داخل كلّ التفاصيل الممنوعة. لكن خوفاً يخرسني فجأة، فتملأني برودة لا أدري من أين كانت تأتي.

تصوّري يا مريم، أنا المحب لك ولهذه المدينة، وللحياة. لم تعد العزلة تعنيني كثيراً. لقد أصبحت تأكل معي في الإناء نفسه، وتشرب في الكأس التي أشرب فيها. أراها وتراني. ألعنها، وتلعنني. أسخر منها، تكزّ على أسنانها وتلعنني. ثم في الأخير نتصالح.

الشجرة العملاقة المواجهة للنافذة، لاتزال من حين لآخر تنقر الزجاج. تهتزّ. تتسامق. تريد أن تدخل إلى هذه القاعة. أفتح النافذة التي أغلقتها قبل قليل. تدخل رائحة الورق دفعة واحدة، والأتربة والمطر.

يا الله... للمطر رائحة في هذه البلاد... مثل تلك البلاد التي صارت بعيدة عندما كنّا ننزل إلى ساحاتها، نختبئ تحت ألبستنا من غزارة الأمطار، ونصرخ بأعلى أصواتنا ونحن نمسح ماء الأنف الذي يسيل بكثافة على الشفة العليا.

«يا النّوّصني

ما تصبّيش عليّ.
حتّى يجي خُويَا حمُو.
ويغطيّني بالزّربية.»

ما أجمل مدننا وقرانا حتى في لحظات فقرها وتصحرها. ما أجمل نساءنا ونوافذ بيوتنا العتيقة. ما أجمل شوارعنا وروائح الأتربة التي يعطّرها المطر. لقد ربينا على الأفراح الصغيرة والدهشات التي لا تتركنا حتى لحظة الشهقة الأخيرة.

كيف أنتِ اليوم؟ كيف ستواجهين الصباح. لا بدّ أن يكون خوفك أكثر من خوفي. فأنا أعيش هذا الخوف في التفاصيل وأنتِ تعيشينه داخل نشرات الأخبار والصحف اليومية التي تضخّم استشهاداتنا اليومية البسيطة وموتنا المتكرّر. هل تتذكرين ما أتذكّره. هل تعرفين أننا مجبرون على إدمان أقراص الآمل حتى لا نموت بالشهقة القاتلة. وحتى عندما يتحوّل الأمل مجرّد حلم نتشبث به في الفراغ.

أسمع صوتك داخل نقرات هذا المطر. أحزن. أشعر بغربة كبيرة. أصرخ بحسرة. يا الله لماذا ضيّعتنا الأسئلة وتُهنا داخل الأجوبة المستحيلة؟ لماذا لم نأخذ الحياة من رقبتها كما تسلّمناها منذ أوّل لحظة، ونُدخلها معنا في فراشنا، ونذيقها خلوتنا وفراغنا وخوفنا بدل أن ندخل معها في عراك لا يُفضي إلاّ إلى موت مؤكّد؟ أتساءل وأنا أستحضرك داخل هذه الخيبة التي لا أدري إن كانت حزناً أم شيئاً يشبهه.

ماذا تقرئين أيتها الحبيبة التي لا تغادر الكف إلا لتسكن الروح؟
ماذا تكتبين؟
أو بكل بساطة، ماذا تفعلين الآن؟
أنا سعيد بهذه الحالة المؤذية. أحبّ الأوراق والحبر والأقلام، والألوان البنفسجية بكل تدرجاتها. أحلم بيأس أن أقبض على هذه اللحظة وأنت معي. لا أستطيع أن أستحضرك وأنا أعبر دروب الخوف ورعشة الموت. ماذا سيحدث بعد قليل؟ هل سيسعفني الحظ لأضع الرسالة في صندوق البريد؟

أم ستمتصني رصاصة طائشة؟ حتى هذه اللحظة لا أعرف ما سيحدث بعد قليل. الشيء الوحيد المؤكد، أني سأخرج من هنا باتجاه مسالك المدينة ومعابرها الصغيرة علّني أمرّ بدون أن أثير أي انتباه. مشاريعي كثيرة، ولكنّي معطوب الجنون. لا شيء أمامي إلا وجهك الذي يتمادى في الفراغات مشتتاً ومرتبكاً قبل أن يعود بكل امتلاءاته المعهودة. يذكرني بحياتنا المسروقة. ماذا يساوي الحلم في غيابك؟ ومع ذلك لا أملك داخل هذا الموت إلاّ أن أحلم، وأحلم باستمرار حتى لا أنقرض مثل حيوان خرافي. تصوري! أخالني ديناصوراً كان يُفترض أن ينقرض ولكنه عن طريق الصدفة بقي حيّاً حتى إشعار آخر. فصيلتي تنقرض بهدوء وبصمت الجميع. أصدقائي يموتون الواحد بعد الآخر، وأنا أبحث عبثاً عمّا يمكن أن يعطي استمراراً لحياتي في الكتابة. أبحث عنك. معقلي الأخير، ضد رياح الخوف، ولكني كنت كل يوم أخسرك قليلاً، حتى أفتقدك نهائياً. أحاول عبثاً أن أنسى ما حدث لنا لكي أستطيع أن أعيش وأستمر في التفكير فيك.

مريم الحبيبة

فرحتي، وبعض شقائي، وما تبقى من حلمي.

في القلب أشياء كثيرة أريد أن أقولها قبل لحظة الأفول. لكنها تستعصي على الخروج.

يا ترى، هل سيحالفنا حظّ منسي، لنشرب كأساً مسروقة على هذه الأرض التي صارت بعيدة؟ هل سيعطينا الزمن القاسي مهلة لنتعرّى ونقرأ بعيون الأطفال أوشام أجسادنا؟ هل سيُكتب لي مرّة أخرى أن أستمع إلى تقطّعات تنهّداتك وهي تتمزّق على صدري وتقبض بجنون على أقبل لحظة مشعّة في أعماقنا؟ هل سيمكنني بعد اليوم أن أمدّ يدي إليك وأدخلك دفعة واحدة في قلبي وذاكرتي؟ هل سأشعل من جديد سيجارتك وأنقر كأسك وأنا أضحك بأعلى صوتي: «هاه نكاية في أولاد الكلب»! لنشرب حتى تهلكة الفرح، بدون ندم أو ذنب؟ هل سنقطع معاً معابر هذه المدينة، وطريق الساحل ونحن في السيارة، نقصّ الحكايات ونضحك ونتمتع بالأمطار؟ هل سأقبض على يدك ونعبر أطول شارع في هذه المدينة بلذّة استثنائية؟

هل سيسعفني الموت لأراك ثانية مثلما أشتهي؟ وهل ستقبلين العودة إلى قلبي الذي جرحك ولم يرحم صمتك وشوقك؟ أسألك بيأس وخوف. أي حرف أركب؟ أي لغة ألبس لألمس قلبك وتعرفين أنّي أحبك. وأني وحيد مثل الفجوة في بحر خسر كلّ ألوانه؟

تندفع في أعماقي حجارة قريتي البيضاء المتفانية في ظلّ جبل يطلّ عليها من فوق. وصوت القطارات الخشبية التي كلما سمعتُ صفيرها، اختبأتُ وراء الصخور خوفاً من أن تسحبني في أثرها. ووجه المدينة الساحلية المعلّقة كشعاع لا يموت في عمق ذاكرة ترتعش كلما لامَسَتْها موجة هاربة أو لحظة ذهول.

ماذا أقول؟ تقولين: تكلم. فأنا أتلذذ بالاستماع إلى أبجدياتك الخائفة. ها أنا ذا أقول. هل أستطيع تخيّل لحظات الفاجعة في غيابك؟ إني أشعر بحريقك أنت التي تعيشين لقلق عظيم اسمه الخيبة. ينزلق بين الرعشة والرعشة، والخوف والخوف، والدهشة والدهشة. تفتحين النافذة لتنسي شطط الخسارة القاسية. تبدو لك المدينة غارقة في ألوانها واحتفالاتها. تلعنين فجأة هذا الجيل - اللعنة. الذي اختار الحرائق والموت بدل الحياة. أتخيّل حجم الحرائق التي تنشب في داخلك الذي جففته الأحزان. أي حياة؟ رجل أعشقه وهو مستحيل. لا ألقاه حتى في الحلم بحرية. ويوم التقيت به، انزلق من يدي كالظل الهارب! لابد أن يكون في هذه الدنيا شيء يسير بشكل معكوس!

مريم. من أين يأتي صوت هذه الرعود؟ ما هذه الأمطار العاصفة التي تنقر الزجاج بقوة؟ إنها اللحظة تماماً. التي أتأمل فيها بهدوء وصمت. أعشق هذه الحالة لكنّي عاجز عن تحمّلِ هذا الجمال الموحش كله وحدي. أنا هكذا، مثلما كنت تقولين عنّي دائماً بابتسامة ماكرة:

- Grand comme un peuplier, fragile comme les ailes dun papillon[89].

أضحك معك ببلاهة ولا أسألك. وكم أتمنّى الآن أن لا أسألك مطلقاً وأن

أعوض كلّ سؤال برعشة قبلة. لمسة يد. إشراق ابتسامة. أتبعثر كلما سمعت قطعة موسيقية شفافة. أو غرقت في لون بنفسجي. أو صاحبت في الطيران، نورساً هارباً من بندقية صياد أعمى. كان يتأمل البحر من سماء كلما عبرها، شعر بعمقها واتساع فراغها.

حبيبتي وفقداني الكبير.

في هذه البلاد. أشعر كأن لا شيء تغيّر مطلقاً. ما زلت على هذه الحافّة المؤدية إلى الفراغ. فراغ يشبه شاطئاً أو بحراً منسياً. أرسم أوجهاً وعلامات للمستحيل داخل الغيمة التي نفرت من فضاءاتها. أحياناً أقول. هذه اللغة ما أرخصها مثل الحماقة. لا حدود للذتها. من ٢٨ حرفاً فقط أصنعك. أحبك. أعيدك. أبنيك كلمة كلمة. ولحظة لحظة. أُدخلك الذاكرة وأُخرجك. من ٢٨ حرفاً فقط أكتب روايات عنك وعن حزنك. أصنع أدوات العبادة والصبابة والخوف وجمل الحنين. من ٢٨ حرفاً أشتت الدنيا. أفككها مثل اللعبة. أبعثر أجزاءها ثم أعيد تجميعها بلذة تفوق أية لذة أخرى. هي ذي اللغة القاسية. عندما ينتهي وخزها. تموت. لغة لا تذكرني بقسوة الوحدة وبرودتها، وضياع البلاد والعباد. تستأهل أن توضع في النار أو تُردم حيّة. هي ذي. لمسُها إذ تأتيني مرتعشة مثل بحر يغمرني دفعة واحدة بزرقته. مريم. أسمع رعشتها ودمدماتها. تتسلّل إلى فراشي. تمتماتها تملأ أذنيّ: حبيبي! مثلك أشعر بقسوة البرد والخوف. ضمني إليك حبيبي. لا تتركني أموت في صمت الخوف. بهاؤك يملأني. ضعني داخل صدرك واتركني أنتهي هناك داخل نورك. وخوفك. وأحزانك. أمدّ يدي إلى شفتيها. مريم تتأوه ألماً وحنيناً. لماذا تركتني كل هذا الزمن؟ أقول بهدوء. «أششششت»... يجب أن نسكت أمام الأقدار القاسية لكي لا نستفزها أكثر. أنساب مثل الماء الدافئ النازل من الوديان الموحشة. إني أقرأ في عينيك كلّ حيرتك وحيرتي من زمن صنعه غيرنا، وخذلنا في النهاية. كنا نحلم ببلاد نمشي فيها على الورد ونستقبل كل صباح نور شمسها بجيش من الأولاد المفتوحين على المستقبل. ففتحنا أعيننا على عصابة الورثة الذي باعوا كل شيء لجحيم المال حتى تاريخهم وتاريخ الذين ماتوا بين أيديهم مضرجين بدمائهم. لا أريد أن أعرف من أين جاؤوا وأي زمن مجنون صنعهم؟ يكفيني أن قلبي الذي غادرك ذات خوف،

لا ينبض إلا على وقعك. وقلبي الخائف من ظلاله والمفتون بك، لا يدق إلا لأناشيدك الخفية التي كلما مستها الضراير، تذكرت أن الشمس تبزغ كل صباح.

مريم. أضع يدي على قلبي. أحاول أن أقرأ تفاصيلك لحظة. لحظة. قطعة. قطعة. شوقاً. شوقاً. أخاف عليك جداً من قلبي. عندما يتعلّق يصبح حزيناً وتائهاً. عندما يحبّ، يفقد رزانته ويتحول إلى طفل.

عندما يكتب شعراً، يصير حزيناً.
عندما يكون هو، يصير حزيناً.
عندما يمتلئ بك يصير حزيناً.
عندما يشتهي دروب هذه المدينة المسروقة ومطاعمها، يصير حزيناً.
عندما يعرف أنه سينتهي مبكّراً عند عتبات هذا الخوف، وهذه الوجوه التي فقدت كل ملامحها وخسرت كلّ علاماتها، يصير حزيناً.
عندما ينتابه اليقين، بأنه رمّل قلبك مبكراً، يصير حزيناً.
و عندما يرفع كأسك ولا يجدك بجانبه، يصير حزيناً.
هل قلتُ لك ما كنت أنوي قوله؛

وهل عندما جلست على الطاولة، كنت أعرف ماذا سأقول وأنا أفتح النافذة على شارع المدينة وعلى شجرات البلاطان العملاقة؛ منذ أن ذهبتِ، أصبحت هذه المدينة كلّ يوم تسرق منّي قليلاً. وغيابك يجعلها معشوقة مستحيلة. أقفز أحياناً من نومي مذعوراً، بعد كابوس خرافي. أبحث عنك. أتساءل داخل حيرتي وقلقي. قبل قليل كنتِ مهنا؛ أين أنت الآن؛ أين تختبئين؛ حتى مكانك في الفراش لايزال دافئاً. ثم أستعيد هدوئي شيئاً فشيئاً مع مرور حالة الهذيان والسكر. أنت بعيدة ولكنك هاهنا. داخل القلب المرتّق مثل خرقة بالية ترفض أن تموت. لم نُصنَع لهذا القدر فهو ليس لنا.

مريم. حرقة هذه الخسارة الفادحة. وخبلها الضائع المجنون.

ماذا تفعلين الآن ؛ كيف تعيشين هذه البرودة والغيمات المثقلة. أنت

عاشقة البحر والشمس؛ كيف تخرجين وكيف تدخلين؛ هل تواجهين الموت الخفي مثلي كل صباح؛ أحياناً عندما ننسى طقوسنا القاسية نتبلّد ونشعر كأننا لم نُصنَع لهذا الخوف. تصوري! في أي شيء تفكرين الآن؛ في هذا الخوف الذي أعيشه ممزوجاً بفقدان لا يعوض أبداً؛ أو في مدينة تسحبك بالقوة نحو فضائها وسحرها؛ أما زال في قلبك ذلك الرّجل الذي عبر ذات يوم جهنّم بكاملها كالنيزك المحروق، ليصل إليك وهو لا يحمل شيئاً قبل أن يخذل أحلامك الطفولية ويقتل أمومتك؛ عندما نلتقي في حاضرنا، نحرقه بالأسئلة عن الماضي، وعندما يصير الحاضر ماضياً منكسراً، نتشوّق لأصغر لحظاته. هل هو قدر العاشق، أم قدر الكتابة ذاتها. أكُتِبَتْ علينا لعنة الاستقرار على نار البراكين والخوف والحنين؛ بدأت أعوّد نفسي على الجلوس وحيداً داخل كلّ المخابئ التي تقاسمناها سوياً. أعدّ الأيام بمزيد من اليأس والإصرار. أعدّ الطيور التي، على الرغم من دكنة السماء، لم توقف شدوها مطلقاً.

أنسى. أو أحاول أن أنسى الأسعد للحظة وحتى لا أخسر توازني نهائياً. لكني كلما حاولتُ فتح عينيّ عن آخرهما بعد سكرة مجنونة. أتلمّس هول الفاجعة. هل تعرف هذه البلاد التي تعوّدت على الموت، أن ما يحدث بها، كارثة؛ لقد تساقط الكثير من العشاق في عزّ الغفلة والدهشة. الأرصفة التي كانت تحمي خطاهم من الموت صمتت. المقاهي التي شربوا فيها قهوتهم المظلمة، اندثرت أو سكّرت أبوابها. المسافات التي كانوا يقطعونها يومياً داخل شرايين المدينة القديمة، تقلصت وصارت مربعاً ضيّقاً عاجزاً عن حمايتنا. مع ذلك، كلما عزمت على اختراق الدروب الضيقة، شعرت بأصواتهم التي لا تموت في كلّ مكان. ها هنا تضاحكوا طويلاً على نكتة انزلقت من أكثرهم صمتاً. وها هنا شربوا شايهم وقهوتهم ثمّ انسحبوا نحو أقرب بار نكاية في الموت الذي يتربّص بهم في كلّ مكان. ثم ها هنا. في هذه الزاوية سمع الكثيرون صرخاتهم الممزوجة برشقات الرصاص. فأغلقوا نوافذهم وتأملوا المشهد من وراء فجوات الأخشاب. يلومهم الأصدقاء البعيدون على هبلهم. المجنون في حاجة ماسة إلى أن يصدق نفسه من حين لآخر بأنه أعقل الناس حتى يستطيع الخروج. في حاجة كذلك إلى أن



يضحك من سذاجة الآخرين ومن طفولتهم وهم يبحثون عن حطامهم الضائعة ومن خوف الوحدة ورعشتها.

مريم الحبيبة انكساري.

لو تعرفين الآن ضخامة الشعلة التي تسكنني في غيابك!

بي شوق كبير إلى كلِّ الدنيا التي غادرتها وغادرتني. بي شوق لصوتك، ولعينيك، ولجسدك، لحزنك، لعزلتنا، لحميمياتنا الصغيرة ولخوفك عليَّ، ناسية ثقل المأساة التي تحملينها على رقبتك. بي حزن لا يُحدّ من هذه الدنيا التي تفتك بجسدي كلما لمستها أو اقتربت منها. إنها طاغية بعض الشيء وتدهشني ألوانها وإشاراتها الخجولة التي تضحكني أحياناً سذاجتها. ثمَّ أقول في خاطري إذ أتذكرك بقسوة: ما أوحش هذه الوحدة... ماذا لو كنت هنا؟ أليست فرصة جميلة للضحك والسخرية. هذه المدينة تأسرني بذكائها وخبلها، بسحرها المدهش، وكذبها اليومي، وحتى بعنفها.

أحزن عندما أكتشف نفسي متمترساً داخل زاوية لا أعرفها. ولا أتذكر أنّي عبرتها ذات يوم. أحزن، لأن بلادي التي في قلبي، ومراهقاتي الأولى، تتخلّى عنّي دفعة واحدة. المدينة التي تعارفنا فيها لأوّل مرّة، تنسانا بعنف يصعب علينا تحمّله.

الكثير من أصدقائي ماتوا. أعرف أنك حزنت وأنت تقرئين أخبارهم وتستعيدين صورهم. لمستِ وجوههم التي صارت فجأة رمادية. لمستِ عيونهم المغلقة التي لن تنفتح أبداً، وجراحاتهم، وبقايا الدّم المتجمد بين شفاههم.

كم تمنّيت أن أرجع إلى الوراء ولا أرى ذلك، وأن أحتفظ بآخر صور البشاشة والجنون التي أعرفها عنهم. لست أدري لماذا ننتظر موتهم أو فقدانهم، لندرك كم كنّا مخطئين. ألم يكن من الأفضل أن نعيشهم بعمق قبل اندثارهم كالحكاية الجميلة؟

كلما تذكرتك داخل هذه المدينة المتهالكة يومياً، وداخل جنوني

وحماقاتي وأشواقي، أقول في خاطري: هل تمتلكين، بعد كلّ هذا اليأس، القدرة على مقاومة خوف المدن البعيدة والرعب القاتل؟ وهل ستصبرين على أضواء، ولَثْغة، ولون البحر في مدينتنا التي ضمّت كلّ أحزاننا وأفراحنا الصغيرة؟

قلت لك ذات مرة بيأس: تصوّري! منذ أن افترقنا، خسرتُ الحلم بالألوان. لم أعد أرى إلاّ الأبيض والأسود. ضحكتِ طويلاً. قلت: أمّا أنا فلم أعد أرى شيئاً. وعندما أرى، لا أعرف مطلقاً ما رأيته. يبدو أنّي أعيش بتوقيت الخوف. المدينة هامنا، توهمنا أحياناً بطمأنينة زائفة. طمأنينة القاتل لضحيته. أقاومها كلما شعرت بغمرة النوم. لأشدّ ما أخشى أن أموت نائمة. أعيش معك بتوقيت كلّ المصاعب والانشغالات. ولكني ألومك حتى آخر شهقة من حياتي: لقد تركتني أموت وحدي.

ما العمل إذن؟

لا شيء. كل الأعمدة انكسرت. لم يبق سوى التفكير أحياناً بجنون كبير بالذهاب إلى أقرب مطار والسّفر في أوّل طائرة إلى جهة مجهولة. الخروج من هذه المدينة بأقصى سرعة. لم أعد قادراً على تحمل ضياعك أمامي. ثم أقول في خاطري إنها مخاطرة المراهقين. وأفكر جدياً في الذهاب إلى العاصمة. لا أحبها كثيراً ولكنها تمنحني فرصة راحة البعد عنك والإقرار بهول الكارثة.

هل تدرين يا مريم أنك انتحاري السعيد؟

في حاجة إليك. حاجة مجنونة إلى صمتك. إلى صراخك. إلى قلقك منّي وخوفك عليّ. إلى شتائمك. إلى غيرتك. إلى تقطّعات أنفاسك على صدري. إلى كلماتك التي تنزلق داخل الكف كحبات الرمل الساخنة. كالجمرات التي لا يموت اتقادها. إلى غضبك وأنت تهربين بعينيك صوب البحر تصرخين: عفني يرحمْ والديك. تعبتُ منك. خلّيني في حالي. عندما نلتقي ثانية بعد فراق يوم حزين، أقصّ عليك آخر نكتة سمعتها في مدينة لا تعرف التنكيت. تكتمين الضحكة. أتمادى في كشف خبايا النكتة. تصطنعين صرامة غير مقنعة ثم سرعان ما تنكسرين وتنسين أننا كنّا متخاصمين مثل صبيين نقيقه. تموت ضحكاً. ثم ننسى عندما تتقاطع بيننا الضحكات والحكايات.

توشوشين في أذني.

- أليس عبثاً، تضييع كلّ هذا الزمن، في سخافات لا معنى لها؟ الموت يتربص بنا في كلّ الزوايا ولا نملك قدرة أخرى لمقاومته إلاّ الحياة والإصرار عليها باستمرار.

إني أتنفس كلّ هذه الحكايات والضحكات. أتنفس البارات التي شربنا فيها كؤوسنا الأولى، والحدائق التي سرقنا قُبلنا داخلها قبل الطفولة. أتنفّس هذه الشوارع وهذه المدينة . تنتابني لذة الكتابة ولكنها لا تطاوعني بسهولة. الكلمات تستعصي مثل الفرحة في هذه البلاد. ماذا يبقى للإنسان عندما يخسر أشواقه وأحبابه وألوانه؟ كلّ شيء يخرج الآن من دمي مدجّجاً بالخوف والضّغينة والحب والغموض.

بُعدك يرميني إلى بُعد آخر يشبه فراغات الذاكرة. يملأني في غفلتي هذه، صوت أليس فيتوسي، يأتي من بعيد، يبحث عن حيطان المدينة الضائعة. مملوءاً بالقهر والحنين. لو تعرفين ! لقد سرقوا الأشواق، والنور وها هم يبيدون الذاكرة قطعة قطعة ويأكلونها بهدوء وثبات كدود الخشب. أين اختبأتْ أليس فيتوسي كلّ هذا الوقت؟ كانت جدتي في ذلك الزمن البعيد كلما حزنت، تحرّك الفونوغراف بيدها النحيفة، ثم تدير «المانيفال» لمدة دقيقة، وبعدها تنزل رأس الشوكة على الأسطوانة الفحمية فيأتي الأنين حزيناً، مصحوباً بـ «خرخشة». جميلة. جدّتي لم تكن تعرف أن أليس ابنة قسنطينة، لكنّها كانت تدرك جيداً أن صوتها يحفر قلبها كلما سمعتها. أين اختبأت أليس كلّ هذا الزمن. ثلاثون سنة وهي ممنوعة في الإذاعة والتلفزيون. من أعطى الحق لحكامنا الوطنيين المنحدرين من أحجار الجبال والقفر، أن يمنعونا من أصوات بلادنا؟ ألم يكن من حقي أن أستمع إلى هذا الأنين قبل ثلاثين سنة؟ لم يصنعوا لنا إلا ذاكرة فارغة، بل قعراً محشواً بالرّماد والظلام والخوف. كم من الضغينات سكنت أعماقنا بجهل! ألم يكن من الأخف أن نسمع حنيننا داخل أرضنا قبل أن يتحوّل كلّ شيء إلى منفى، ونتحول نحن إلى باحثين عن توازن ما في دوائر الفراغ المدوخة؟

هذه المرة كذلك سأكون وحيداً وأكتشف هذه الأسرار الصغيرة وأدعك وحدك للكتابة والبعد والجروح. وأتنكر أنا داخل مدينة متنكّرة عن آخرها. سأكتشف داخل جنازة الصمت وجهك الهارب وأتشبث بأسئلتك القلقة وأشواقك الدفينة وأمومتك الهاربة. عندما وقفت على العتبة وكررت جملتي القاتلة:

- عمري... أحبك. كل شيء في الدنيا يقودني نحوك. ولا أعتقد أن الأقدار تلاقيني بمن هو بقدر سماحتك وغناك الداخلي وألقك ورهافتك. سأفقد فيك حباً لا يتكرر دائماً. ولكن يبدو لي لست مؤهلاً لأن أكون زوجاً جيداً. ثم... لا شيء يقيدك بي. أنت الآن حرة. افعلي ما تشائين...

كنتِ مرهقة. عيناك كئيبتان. ثم وضعتِ رأسك بين يديك بيأس ظاهر، وقلتِ:

- اذهب، ما دام هذا خيارك الوحيد والأوحد.

- وهل نملك غير هذا الحلّ؟

- نملك غيره لو تشاء. اذهب. سألتفت بدءاً من اليوم نحو حقيقتي وأخرج من هذا السراب القلق. شكراً لك. فقد منحتني حياة جميلة، تستحق أن أتذكرها.

ها أنا ذا أصرخ بمنتهى قلبي. لست سعيداً. ولكن لا خيار لي غير العيش داخل هذه الحيطان الهرمة وهذه الوجوه التي فقدت الكثير من ألقها. أحاول أن أنسى التفاصيل. أن أغرق في اللون، والكتابة. لم يبق الشيء الكثير في هذا العمر المرهق. الوحدة تضخّم حالة الألم وتزيد من حدّتها ومن حدة صفائها، وشفافيتها. أحبّ هذا الفضاء الذي يغرقني في غيمة أو في كأس نبيذ وطني. أحبّ أن أنتحر داخل جحيم امرأة بدل العيش في جنة رجالية تافهة. أحب أن أنهار بين نهدي معشوقة مستحيلة كاللغة أو كاللعنة.

هل يعرف القتلة قوة هذه السعادة وقوة هذه الفتنة الداخلية؟ لا أعتقد.

لو عرفوها لما قتلوا الأطفال التائهين في شوارع لم تعد تعني لهم الشيء الكثير، على الرغم من أنها موشاة بأسماء الشهداء سيضحكون كثيراً من غبائنا عندما يسمعون حكاياتنا. ولكننا نحن كذلك سنضحك، وربما نبكي من ضحكهم علينا.

لو فقط يعرفون.. ولكنهم، بكل تأكيد لا يعرفون.

حبيبك دائماً، حتى في غيابك الصعب.
وهران، خريف ١٩٨٨

-١-

الزمن الشتوي كان هنا..

«مريم.. أحس بها في كل مكان، ولكني لا أراها».

هذا لا يشغلني مطلقاً، ولا يغير شيئاً من عزيمتي. كلما تسربت الثواني والدقائق وحتى الساعات، زاد يقيني بأن أوقات مريم أصبحت معدودة، وأن مصيرها الذي تلفه غيمة داكنة من المبهم والخوف، اتضح أكثر.

تراقصت الأوراق والرسائل بين يدي.

عاد أنين سوزان لونديفغ ملتبساً بالنور المتسرب من الكوة الصغيرة، الذي غلف فجأة سطح أشيائي النائمة. كان يحفر عميقاً في أخدود الذاكرة، فيزداد جرحي اتساعاً وعمقاً. كنت أتحسس برؤوس أصابعي المرتعشة، هول الفراغ الذي كان يلفني. لم يكن أبداً فراغاً بلا رائحة.

فجأة، عرفت سر الرجفة الحادة التي انتابتني من رأسي حتى أخمص قدمي، قبل قليل. انتبهت إلى أن فتحة الكوة الخلفية، الصغيرة، كانت قد توسعت قليلاً، وأصبح هواء الفجر يتسرب نحو ظهري بسهولة كبيرة. كان بارداً مثل خيط مستقيم، عبث حتى بالأوراق المتراكمة، وبكل ما كان يغطي المكتب، فتعرى المسدس البارد من كل شيء كان يغطيه، ليتحول في شكله، إلى مجرد لعبة. فوهته السوداء التي أصبحت الآن موجهة نحوي، غطت على بياض قبضته الفضية.

-٢-

تفحصت الرسالة التي فرضت نفسها علي بحبرها الأسود الذي جف منذ زمن بعيد. كانت في غاية الألم والحزن. لم تعطني حركات حروفها وانتظامها الغريب، حتى مهلة محدودة للتفكير والتأمل وإمكانية الفهم. لم أتعود على هذا الإيهاع الذي بدأ يخنقني بسرعته.

ما تصورته مجرد لحظة حسمت في وقتها، وتحملت تبعاتها التي كنت

لو عرفوها لما قتلوا الأطفال التائهين في شوارع لم تعد تعني لهم الشيء الكثير، على الرغم من أنها موشاة بأسماء الشهداء سيضحكون كثيراً من غبائنا عندما يسمعون حكاياتنا! ولكننا نحن كذلك سنضحك، وربما نبكي من ضحكهم علينا.

لو فقط يعرفون.. ولكنهم، بكل تأكيد لا يعرفون.

حبيبك دائماً، حتى في غيابك الصعب.
وهران. خريف ١٩٨٨

-١-

الزمن الشتوي كان هنا..

«مريم.. أحس بها في كل مكان، ولكني لا أراها».

هذا لا يشغلني مطلقاً، ولا يغير شيئاً من عزيمتي. كلما تسربت الثواني والدقائق وحتى الساعات، زاد يقيني بأن أوقات مريم أصبحت معدودة، وأن مصيرها الذي تلفه غيمة داكنة من المبهم والخوف، اتضح أكثر.

تراقصت الأوراق والرسائل بين يدي.

عاد أنين سوزان لونديفغ ملتبساً بالنور المتسرب من الكوة الصغيرة، الذي غلف فجأة سطح أشيائي النائمة. كان يحفر عميقاً في أخدود الذاكرة، فيزداد جرحي اتساعاً وعمقاً. كنت أتحسس برؤوس أصابعي المرتعشة، هول الفراغ الذي كان يلفني. لم يكن أبداً فراغاً بلا رائحة.

فجأة، عرفت سر الرجفة الحادة التي انتابتني من رأسي حتى أخمص قدمي، قبل قليل. انتبهت إلى أن فتحة الكوة الخلفية، الصغيرة، كانت قد توسعت قليلاً، وأصبح هواء الفجر يتسرب نحو ظهري بسهولة كبيرة. كان بارداً مثل خيط مستقيم، عبث حتى بالأوراق المتراكمة، وبكل ما كان يغطي المكتب، فتعرى المسدس البارد من كل شيء كان يغطيه، ليتحول في شكله، إلى مجرد لعبة. فوهته السوداء التي أصبحت الآن موجهة نحوي، غطت على بياض قبضته الفضية.

-٢-

تفحصت الرسالة التي فرضت نفسها علي بحبرها الأسود الذي جف منذ زمن بعيد. كانت في غاية الألم والحزن. لم تعطني حركات حروفها وانتظامها الغريب، حتى مهلة محدودة للتفكير والتأمل وإمكانية الفهم. لم أتعود على هذا الإيقاع الذي بدأ يخنقني بسرعته.

ما تصورته مجرد لحظة حسمت في وقتها، وتحملت تبعاتها التي كنت

أعرف جزءاً منها سلفاً. كان أقسى وأمر، وسيحكم طويلاً حياتي في كل تفاصيلها الجنائزية الدقيقة. لم يرتد لها واسيني قفازات بيضاء لملامستها والحديث عنها.

بمجرد زواجي من رياض وإسعاد أمي بتلبية رغبتها الدفينة، دخلت في دوامة التلاشي كأني كنت أستقبل موتاً جديداً. في كل خطوة كانت كلمات واسيني تسبقني وتضعني داخل طوقها القاسي: **هل ننسى عندما نريد، أم عندما نشتهي الذاكرة؟** شعرت كأن أول ضحية لي، لم يكن واسيني كما تصورت منذ أن افترقنا، ولكنه كان زوجي رياض، الذي قبلت به بدون قناعة مسبقة. تساءلت طويلاً في أعماقي: لماذا قبلت به بعد أن قضى زمناً طويلاً يحوم حولي بلا جدوى؟ كان رياض شماعتي أمام مجتمع يستمتع بنفاقه المريح، أكثر منه زوجي وشريكي. كل شيء انكسر بسرعة، وشعرت فجأة بأني كنت أغرق في دوامة بلا نهاية، حاولت أن لا أستسلم لها أبداً. في شهر العسل، ذهبنا إلى جزيرة كريت اليونانية. أنا من اختار المكان. لم أكن في حاجة إلى انتظار زمن طويل، ولا إلى ذكاء كبير، لأدرك بأن لاشعوري خانني، وأن الخيار نفسه لم يكن بريئاً. أول ما نزلنا في مطار كريت، بدأت أبحث كالمجنونة عن كل ما له صلة بنيكوس كازانتزاكي الذي لم تكتف أبداً تسمية مطار الجزيرة باسمه. طوال شهر العسل، لم أفعل شيئاً سوى اقتفاء الخطوات التي كان واسيني قد تركها فيّ منذ زرنا للمرة الأولى هذه الجزيرة. كان واسيني مجنوناً بالتفاصيل الصغيرة الخاصة بها التي أنجبت عظيمين شكلا جزءاً من ذاكرتنا المشتركة: كازانتزاكي والغريكو، الذي ولد هو كذلك بكريت، وتوفي بأجمل مدينة تمنيت أن أعيش فيها، أو على الأقل، أدفن فيها: طليطلة، مدينة القلب المفتوح وقلة الأحقاد. تماديت وأنا أحكي، ونسيت دهشة رياض الذي تساءل كطفل:

– تتحدثين وكأنك يونانية حقيقية؟

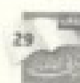
– أحياناً لا نعلم جيداً ما الذي يقودنا نحو مدن يتراءى لنا أننا نعرفها جيداً، بل عاشرنا أناسها وعظماءها. أشعر مثلاً بأن طليطلة مدينتي الافتراضية التي كان يجب أن أولد فيها، لأن عاطفتي نحوها لا تحد. من

حين لآخر، وأنا أجوب مرتفعات كريت ومعابرها الضيقة، ينتابني الإحساس الغريب، بأني أعرف الغريكو معرفة عميقة. أكثر من ذلك، أرى فيه أحد أجدادي الضائعين الذين استقروا بهذه الجزيرة. قد أبدو لك مخبولة، ولكني كلما تأملت ما أنجزه، أشتهي أن أكون إحدى أيقوناته. أن أكون عشيقته جيرونيما دي لاس كويفاس التي منحته ابناً جميلاً: جورجي مانويل، في طليطلة. لقد كان ملك إسبانيا فيليب الثاني، غبياً حينما رفض أن توضع لوحة: **شهيد سان موريس**، في قصر الإسكوريال، مع أنه هو من طالبه بإنجازها. رفضها لأنها لم تكن وفية للحقيقة التاريخية، ونسي الملك الغبي أن الغريكو كان فوق أن يوضع داخل ترسانة من الأوامر. تأمل بسيط للوحته: **نهب المسيح**، الموجودة في كاتدرائية طليطلة، يبين أناقته في اللون، وقدرته على استخراج أسرار القصص الديني. أو لوحته: **جنازة كونت أورغازيا** التي أبدع في ألوانها وموضوعها الذي استقاه من فلسفة فينيسيا، التي كانت تقسم العالم إلى تحت وفوق، جسد وروح، أرض وسماء. أما كازانتزاكي، الحديث عنه يطول. لم يكن يونانياً فقط، ولكنه كان نبياً عظيماً. لقد غاص في النفس البشرية بعمق لم يجاره فيه أحد. خرج بسرعة من أسر الإيديولوجية التي كانت تتحكم في أنفاس الفنانين. أخطأته الجوائز الكبرى، وربحته قلوبنا إلى الأبد.

– لا أعرف الغريكو. ولم أقرأ أي كتاب لكازانتزاكي، ولكني رأيت فيلمين مأخوذين عن رواياته: **زوربا اليوناني**، مع أنطوني كوين، **وغواية المسيح الأخيرة** الذي أخرجه مارتن سكورسيز، ومنع المتطرفون عرضه في صالات باريس. رأيت الفيلم يومها في إحدى صالات سان ميشال، نكاية بالذين كانوا يظنون أنهم مُلاك الحقيقة الدينية. شعرت بخشونة كبيرة في شخصياته.

– يجب أن تقرأه لتلمس إنسانيته العميقة. السينما جميلة، لكنها مجرد تأويل لشيء يمكن أن نقرأه بطريقتنا الخاصة.

كنت أسعد امرأة وأنا أعبر تلال هيراكليون، وأرى بقايا السفن التي حارب بها الكريتيون فلول الأتراك. لقد عبرت كل هذه المسالك مع واسيني ذات زمن، لاتزال عليها بعض أصدائنا. زرت الكنائس البيزنطية، والقصور الفينيسية، والسواقي التركية. ورأيت بأم عيني الدمار الذي خلفته الآلة



الجاهلة للزمرة العسكرية التي هدمت الكثير من البيوتات الفينيسية التي لم تكن تتطلب إلا ترميماً صغيراً. شعرت وقتها أن زمرهم لم تكن أقل جهلاً من زمرنا التي أبادت موروثاً عمرانياً مدهشاً باسم معاداة الاستعمار. صعدت حتى صخرة السماء، وتأملت من الأعالي زرقة البحر الداكنة. لم أر شيئاً غير لباسي البنفسجي الذي كانت رياح كريت الشمالية تريد نزعه مني، ولم أحس بأي شيء آخر، سوى بطعم القبلة الممزوجة بملوحة البحر، وضحكة واسيني التي تلونت بالزرقة، وهو يتمتم في أذني:

- «راح تجنني هذا المهبول. بالجمالك. ما ألذك!».

على الرغم من كل محاولاتي للتواصل مع رياض، فقد فشلت. كنت طوال مدة طوافي في الجزيرة، مع واسيني. لم أكن أريد أن أنغص على رياض حالة زهوه وانتصاره وفوزه بي أخيراً. طوال شهر العسل، ظللت حذرة بأن لا أنطق باسم واسيني. كلما هزني شيء جميل في كريت، عن الغريكو أو كازانتزاكي، أصمت، أعض على لساني لكي لا أصرخ من فرط الدهشة والجمال.

-٣-

الغريب أن كل ما حدث، كأنه كان منظماً سلفاً. تزوجت بسرعة وكأني حضرتُ لذلك سنوات طويلة. على الضفة الأخرى، لم تكن قصة واسيني أحسن من قصتي. لم ينتظرني طويلاً. لم يحزن ثانية واحدة. لم يبكني مثلما بكيته. كأني خرجت من ضلعه كاللعنة التي التصقت به زمناً طويلاً بالرغم منه. فقد تزوج في السنة نفسها، بل في الشهر نفسه، في اليوم نفسه وربما في الدقيقة نفسها، من امرأة لم يحدثني عنها إلا مرة واحدة. قال إنها صديقة قريبة، تقاسما معاً الأيام المرة، والأيام الجميلة. أتساءل أحياناً بغرابة العاقل: هل من الضروري أن نقدم على حماقة الزواج لندرك متأخرين عمق الفجوة، وقوة الحماقة غير المحسوبة التي كان علينا تفاديها في اللحظة الحاسمة، ولم نفعل؟

أعرفه جيداً كما أعرف نفسي الذي بدأ يضيق كل يوم قليلاً. لم يكن واسيني مؤهلاً للزواج، فكيف غيّر رأيه؟ هل تزوج انتقاماً من جنوني الذي

كسرني في العمق؟ وهل تزوجت إشعالاً لغيرته؟ لا الجنون ولا الغيرة أعطيا هذه المرة شيئاً يستحق الذكر. كل ما حدث، هو أن الحياة استمرت بدون أشواقنا وأحزاننا وانكساراتنا الخفية. شيء واحد ظل يحفر فيّ بعنف: وجهه الطفولي واستحالة محو لون عينيه من دهشة ما كان يسمعه ويراه.

«... هكذا الدنيا عمري... لا تحزن كثيراً. منطق الأقدار وسطوتها أقوى من أي شيء. نحسب، ونحسب، ثم نحسب، ونعيد الحساب لكي نقلل من فجوة الخسارات، ولكننا ننتهي دائماً تحت سطوة قسمتها وجمعها وطرحها. هي سيدة القرار في النهاية. اهدأ حبيبي، وانظر للأشياء كما تعودت أن تفعل. ألم نقل أن لا شيء يستحق أن نحزن من أجله...

- إلا الفقدان...

صحح كلامي وكأنه رمى حفنة من الملح على الجرح المفتوح.

- كنت أول من أدرك مبكراً، أني كنت عاجزة عن مقاومة فقدانك.»

-٤-

انتهيت بين يديه مرة أخرى كالتفاحة المسروقة.

لم أكن في حاجة إلى أي شيطان يسحبني من أنفي نحوه، حبي له كان غوايتي التي استحالت عليّ مقاومتها. لم أعد أسأل لماذا قبلت بهذه الحماقة الغريبة؟ فقد كنت أعيشها وأنا في حالة دوار دائم، ولم تكن تهمني النتائج كثيراً. كنت أتدرج بحذر بين رياض، وحبي لواسيني، متفادية لغماً خطيراً، كنت كل يوم أحاذيه بخوف، اسمه الخيانة الزوجية.

صحيح أن مخي كان فارغاً تماماً من فكرة الخيانة. فأنا، في النهاية، ظللت وفية لرجل واحد حتى وأنا في فراش غيره.

منذ اللحظة الأولى، في جزيرة كريت، استيقظ فيّ دفعة واحدة. كنت ابتسم لرياض، وأنصاع لرغباته، وأخونه بكل حواسي، وهو غائب في رعشة اللذة. لا أدري كم مرة؟ أخونه في حركاتي اليومية الهاربة التي لم أكن قادرة

على مقاومتها. في النظرة لكل ما كان يحيط بي. كنت أخونه في جزيرة. شعرت فجأة أنها لم تكن إلا لي ولواسيني. الأقسى من ذلك كله، كنت أخونه في الفراش. حتى عندما أجهد نفسي لكي استسلم له، كان علي أن أدخل حالة الدوار والدوخة، وأراني بين يدي واسيني، في جسده، تحت رحمة أصابعه التي تجيد معرفة أسرار جسدي زاوية زاوية، لأتمكن على الأقل من إرضائه. لم تكن طلبات رياض كثيرة في الفراش، ومجنونة بالشكل الذي يرهقني. لا أحس بشيء إلا آلام التقلصات التي تنتابني من حين لآخر حين يسحبني نحوه بعنف، في اللحظة الأخيرة، التي كثيراً ما تكون قاسية. لكني كنت أزم شفتيّ لكي لا أصرخ بأعلى صوتي، وأرمي برياض خارج السرير، وخارج الحي.

أكبر شيء فيّ تهدم نهائياً، هو يقيني في نفسي وفي خياراتي. واسيني يتفادى الحديث عن هذه الكسورات العميقة، ولكنه يعرفها جيداً. الهزائم الروحية التي لا قوة في الدنيا تستطيع ترميمها، مدمرة عندما تتوغل بين العظم واللحم.

عندما عدت من كريت، كان وفاقي مع رياض قد انتهى، على الأقل في داخلي. أدركت في عمقي أني كنت عاجزة عن الخيانة، لا وفاء لرياض، ولكن لأني في النهاية من النوع الذي لم يُصنع إلا لرجل واحد.

-٥-

فجأة اكتشفنا كأن لحظة الحب بدأت الآن فقط.

تشبثت بواسيني، هذا المرة، كمن يلتصق بقشة النجاة. وضعت حياتي كلها لبس في كف عفريت، ولكن في عين قدر أعمى، لا أعلم متى ينقض عليّ.

لقد زاد اشتعالنا مع الأيام، وكأن الرباط المقدس لم يفعل شيئاً سوى أنه ألهب كل حواسنا النائمة. مجانين. القبلة الجميلة، أصبحت مستحيلة ولكنها ألذ وأعمق وكأن ما كنا نحصل عليه اليوم، سيصبح مستحيلاً غداً! التدحرج

في الشوارع في آخر الليل بعد عرض مسرحي أو سينمائي لم يعد إلا حلماً هارباً. لكننا عندما نحصل عليه، نلتصق به لكي لا يفلت من بين أيدينا. وما كنا نحصل عليه بمجرد الرغبة فيه، أصبحنا نتحايل عليه أياماً متتالية، لكي نملك جزءاً صغيراً منه، ونحن في أقاصي السعادة. وبمقدار التعب، كانت تأتي اللذة المسروقة استثنائية ومتعبة ومنهكة للقوى، ولكننا كنا نحس بها وبقوتها. كنا سعداء لذلك، وكأن كل ما كان ينهب من لحظات جميلة، كان له طعم فاكهة الجنة. ليس لأن كل ممنوع مرغوب، فهذه جملة مستهلكة ومعروفة وثقيلة جداً وفجة، ولكن لأن في كل جسد قنبلة موقوتة لا تفككها إلا يد ساحرة واحدة، وأنامل من ندى، ولمسات من ضباب ونظرات من غيم. كل الأصابع التي تمر عليه ولا تعرف سره، باردة وميتة.

من الأحمق الذي قال إنه يمكن الاتكال على توبة العاشقين؟

ما كنت أخافه، بدأ يصل إلى رياض. أكدت له أن ما سمعه مجرد كذبة طائشة. وبدأت أشعر كلما خطوت خطوة، أن شيئاً ورائي يقتفي خطاي.

كانت عيون رياض كثيرة، مزروعة في كل مكان، لهذا أصبح ثمن القبلة أسابيع من الخوف قبل الوصول إليها. وعندما أصل لها علي أن أحذر وأن أفعل ذلك كله خارج أمكنتنا المعروفة.

أول مرة قابلت واسيني بعد عودتي من جزيرة كريت، شعرت بلذة غريبة محت كل إحساس بالخيانة. بل إنها قذفت بي مباشرة إلى مرتفعات كريت وأنا في لباسي البنفسجي، تحت رحمة رياح ساحرة كانت تريد أن تسرقني من بين يديه، وهو «يوشوش» في أذني:

«- راح تجنني هذا المهبول. يالجمالك! ما ألذك».

أعتقد أني منذ تلك اللحظة المسروقة، دخلت في السرية والغموض. سرية العشاق الذين يخفون عبثاً جنونهم. لست نادمة أبداً على ذلك. كل ما عشناه مسروقاً إلى اليوم، كان هو جنتنا الوحيدة، وفردوسنا المسحور. ما تبقى، مجرد عادات مكرورة تشبه دورة الحياة المغلقة.

في لحظات العزلة، والانكسار العميق، أغضب بحدة من واسيني. ألعنه من أعماقي. بنية طيبة أو مبيتة، لا يهم، حولني إلى امرأة من ورق، لا وجود لها إلا داخل اللغة. بينما أستطيع أن أنشئ بمأساتي الداخلية، عرشاً من الأشواق المبتورة. لكني سرعان ما أعذره لشيء واحد ووحيد فقط، هو أيضاً كان يداوي جرحاً غائراً، بجرح آخر أكثر قسوة. وأعذره أحياناً أنه مد لي يداً رمتني في عمق جحيم اسمه اللغة. فقط لأنه كان يحبني ويخاف عليّ. علمني كيف أحب وأخرج منتصرة على نفسي وترددي، على الرغم من كل هزائمي الصغيرة.

هو هكذا، وربما كان ذلك أجمل شيء فيه. لا يستسلم لفجيعة اليأس. يغمض عينيه ويمضي. كأن المأساة لا تعنيه كثيراً، ولم يكن هو ضحيتها. حتى في أقسى الظروف، عندما وضع القتلة رأسه في قائمة الذين يجب أن يمحوا من على وجه الأرض، ظل يراهن على الحياة، ولم يقبل أبداً بقدر الموت الذي سلط عليه بعنف. كان يرى في الحياة وسيلته في المقاومة والاستمرار.

كان لذلك كله سحر العاشق الذي لم يستسلم لجبروت القدر.

« كنتُ أعشقه، وكان يحبني. كان هذا وحده يكفي لحياتنا الموازية. »

-٦-

« م... م... م... ما أحلى مرارتها، وما أدفأها. »

رشفت قطرة أخرى من القهوة. كانت بلا سكر. استعدت جزءًا آخر من صفائي الهارب من هزات الحياة الكثيرة.

لا شيء تغير سوى أن الضوء تمدد أكثر، واتضحت كل الأشكال التي كانت تحيط بي في سكينة كبيرة، وانمحى الكثير من الظلال، وبدأت الحياة تدب من جديد، في السكريبتوريوم الذي كأنه خرج من حرب نووية مدمرة.

فتحت عيني أكثر. شعرت بحدة الضوء الذي تسرب من الكوة مباشرة

باتجاه عيني المتعبتين. رأيته من وراء الأشعة المنكسرة، يقاوم الموت ويركض باتجاه شمس كانت كل يوم تزداد قرباً منه. يركض بلا يأس ولا ملل نحو حتفه. لم يكن خائفاً أبداً من حرائقها القاتلة. سألته وأنا ألمس وجهه المتعب بحرص شديد:

– حبيبي... قلل من خطايا الجنون. إنك تتجه نحو النار كالفراشة.

– أسابق الزمن، وما ينتظر كرتنا الأرضية بدورانها نحو الشمس. ستشتعل يوماً، وستتحول إلى رماد وإلى قفر، مثلها مثل بقية الكواكب. كبرياؤها الوحيد أنها منحت الحياة لمحيطها الجميل، قبل أن يصيبها دوار اللذة القاتل، وتنتهي في جاذبية حرائقه.

– مالي ومال الأرض. أخاف عليك من جنونك...

هو الآن تائه في مدن الله الواسعة، وأنا مسمرة في مكان اخترته، وأتحمل ضيقه وقهره. يونس ومايا، في الطابق العلوي، وأنا في السكريبتوريوم الجميل، أتصيد أنفاس واسيني الضائعة، وأحاول أن أتأمل بعين مجردة راياته المنكسة عند باب بيتنا الذي لم ير النور أبداً. لأن جنونه كان أقوى من كل شيء آخر، حتى من عقله. أو ربما العكس. في الحالتين يمكن أن يحدث الدمار نفسه.

يمكنني اليوم أن أدعي بلا تردد، أني أفضل من يعرف جيداً كل أسراره، ومنبت كتاباته السرية. من كثرة ارتباطي به، حتى مايا التي تشبهه كقطرة عسل، كلما رأته في التلفيزيون في برنامجه الأسبوعي: **أهل الكتاب**، أو في برنامج ثقافي عربي أو أجنبي آخر، صرخت بسعادة غريبة: **ماما... ماما... انظري... عمو واسيني**. ثم تجلس وتتبع البرنامج لحظة بلحظة، حتى النهاية. أراها وهي منغمسة في كلامه، الذي تحسه ولا تفهمه كله. في الأخير، تسألني عن الصغيرة والكبيرة. علمتني الحياة كيف أمثل، وأسخر أيضاً من كل الأكاذيب التي تحيط بي. أجلس بين ولدي كالطفلة المولعة بمعلمها، وأرى البرنامج معهما من البداية حتى النهاية. أمثل بحيادية مطلقة، وكأني لم أكن حاضرة مع واسيني في الأستوديو رقم واحد، يوم تسجيله الحصة،

ولم يدعْني لأن أكون ضيفة الظل، ولم أقبّله في صالة الماكياج ماسحة على وجهه بدفء كبير، قبل أن يلتحق بضيوفه، وأربت على كتفه بكلمة تعلمت أن أضعها في قلبه قبل أذنيه: حبيبي، فكر فيَّ دائماً، قلبي وروحي معك؟ وكأني لم أكن مرآته أبداً، ولم أرتب معطفه للمرة الأخيرة قبل أن يسد العمال باب الأستوديو رقم واحد الخشن والقديم الذي يذكر ببوابات القصور العتيقة، حيث لا شيء يُسمع أبداً.

هكذا علمتنا الحياة، وهكذا ربينا وسائل دفاعنا الخفية والفتاكة للدفاع عن أنفسنا، قبل التفكير في الدفاع عن غيرنا.

-٧-

هل أنا مجنونة إلى هذا الحد؟ ليكن، هذه هي أنا. أظهر للجميع ولنفسي أيضاً، لأول مرة، كما أنا. لا كما أشتهي، ولا حتى كما اشتهى واسيني أن يظهرني من خلال مريم التي احتلت كل رواياته، بمنحي حرية تتجاوزني أحياناً، وشجاعة لم أكن أهلاً لها دائماً.

أتعرى أمام نفسي، كما ولدتني أمي، لا لشيء سوى للإمعان في أن أكون أنا. أنا فقط امرأة خارج مسطرة النظام، وبعيداً عن لذة الأدب الطرية.

يوم مرض واسيني لم أسأله أي سؤال يمكن أن يؤذيه في جبروت الصمت والغيبوبة القاسية. وضعت كل شيء في كفة، وهو في الكفة الأخرى، وملت نحوه. حملت حقيبتي وسافرت إلى باريس. لا أحد من محيطي القريب كان يعرف سر هروبي المفاجئ إلى مدينة تعرف جيداً أسراري الدفينة إلا حبيبتي مايا التي كانت تدرك ذلك بحاستها الخفية. ونحن في المطار، قالت بوضوح وبلا تردد: ماما... هل قرأتِ جريدة الخبر؟ ولم تزد كلمة واحدة. من نظرتي، عرفت كل شيء. كانت تقصد الخبر الذي نشر عن واسيني، عندما أدخل إلى العناية المشددة، بعد الأزمة القلبية الفجائية التي ألمت به. من حزرتها فهمتها، ومن حيرتي أدركت كل شيء.

في باريس، هربت من الجميع، حتى من أخت زوجي التي قضيت الليل في بيتها حتى أتمكن من الهرب في اليوم التالي، بسهولة أكثر. كان واسيني

يعرف جيداً جنوني، واحتمال قدومي إلى باريس. كنت متأكدة من أنه كان ينتظرني. قال وأنا أكلمه في آخر الليل على هاتفه الذي سلمته لي ابنته: ليلي... **حبيبتي... سأقبض على الحياة بأسناني حتى تصلين.** هيأت نفسي لحداد فقدانه، لكني كنت أعرف جيداً، بل على يقين مطلق، بأنه لن يموت قبل أن يراني. في واسيني شيء غريب، عندما يشارف على النهايات، يزداد يقينه بالحياة.

جئته بعد أن رميت كل شيء ورائي، ولا أدري اليوم إذا كان هناك إنسان عاقل يخاف على بيته وأبنائه، يفعل ذلك؟ نسيت الكارتيل نفسه بأجهزته ومعتوهيه الذين جعلوا من خط باريس– الجزائر، مسارهم التقليدي الدائم.

لا أدري كيف كان شعوري، ولكني يومها كنت أريد أن أصرخ أمام الجميع بأن هذا الرجل قطعة من لحمي وليس فقط من لغتي. كتلة متناقضة من الهبل والعقل. كنت أعرف أن القلب لا يرحم، ويخطف صاحبه لحظة الغفلة. وكنت أعرف أيضاً أن واسيني ليس من النوع الذي يستسلم للموت بسهولة. مازلت أحفظ كلماته كلها عن ظهر قلب: **في داخل كل إنسان قوة مبطنة تستطيع أن تقوده نحو النجاة، وهو يواجه لحظاته الأخيرة، إذا عرف جدياً كيف يستدعيها في الوقت المناسب. وقد تقوده نحو الموت إذا استسلم لها.**

-٨-

افترضت الأسوأ.

على الرغم من إيماني بصلابته وقوته، بدأت أتهيأ لكل العوارض، وأفكر كيف أمارس حدادي بعد وفاته، وكيف أقول حقيقتي خارج لغة واسيني وخارج سلطانه. قلتُ في خاطري، لأذهب نحوه لآخر مرة وأقول له كل ما في قلبي. قد تتخبأ تحت جلدي الناعم سادية غير معروفة، أو «مازوكية» مضمرة! من يدري؟ ولكني فكرت أن لا أترك حياته بين أيدي القتلة، يعبثون بها كما يشاءون. أخدمه بعد موته. قلت وأنا أتحسس وجهه المتعب في ذاكرتي، أن أكتب مثلاً سيرته كما اشتهى كتابتها بكل شجاعة عندما كان في عز عنفوانه؟ كنت أملك كل ما يؤهلني لفعل ذلك. اللغة، الجنون، الحقيقة الصافية، الصراحة المرة، وتفاصيل الحياة التي حكاها لي عبر السنوات

الفائتة، بحنين دافئ كان يبكيني أحياناً، ويبكيه معي.

ما زلت أراه كما الآن، تحت لمبة ذابلة، وسط غلالة الويسكي وأدخنة السجائر وهو يحكي لي قصته بلا توقف:

- «أحياناً وأنا في لوس- أنجلس، مدينة الملائكة الهاربين من كثرة النور، أعبر شارع سونسيت بولفار[90]، غروب الشمس، الذي يمتد كنهر مليء بالألوان والجنون، بلا حد ولا ماء، قاطعاً المدينة إلى جزأين، أتساءل ببراءة: هل العابر هو حقيقة أنا؟ الطفل الذي ولد في قرية انتفت نهائياً من خرائط ما بعد الاستقلال، على يد امرأة ساحرة كان اسمها حنّا ربيحة. كانت دائماً تقول لأمي: إن ابنك سيشبهني في هبله. عندما كنت شابة كانوا ينادونني ربيحة لهْبيلة. سيقطع البحار والقفار ولا يسأل عن مخاطر السفر. سيعود محملاً بالخير. أتساءل إذا كان العابر هو حقيقة أنا؟ أم مجرد وهم جميل يشبهني، يركبني أحياناً في لحظة انزلاق نحو حلم سرعان ما يتبدد! هل ذاك الطفل الشبح هو أنا أم غيري؟ شخص آخر أكثر حظاً مني، حالفته الظروف الجميلة بأن يخرج من دائرة الضيق نحو ضوء قوي، كثيراً ما كان معمياً للأبصار من كثرة ألقه ونوره الحاد! هل كانت المرأة القابلة حنا ربيحة ذات اليدين الرشيقتين، وذات الشعر الأحمر، تدرك أنها كانت تورطني في الحياة وهي تخرجني من بطن أمي بلطف، وتقسم المسكينة برأس كل أولياء الله الصالحين، بأني لم أصرخ كأي مولود طبيعي، فقد أصبت بسعال خفيف، ثم أغمضت عيني على فرحة حنا ربيحة، وابتسمت وكأني كنت أعرفها وسعيد أنها كانت قابلة أمي. لم تكن حنا ربيحة تعلم أنها كانت تدفع بي عميقاً نحو حفر الحياة السحيقة، التي لم أكن مهيأً لها أبداً...»

مازلت أرى واسيني، كما في المرة الأولى، لزعر الحمصي، عندما فتح لي قلبه، وهو يتحدث عن شيء جمعنا وجعلنا نحلم كثيراً، وأحياناً نفكر كيف نجمع أشلاءنا الضائعة التي سرقتها حواف الدنيا الجميلة والصعبة. لم أعلم ولديّ، بالخصوص مايا، كيف يناديان رياض بكلمة: أبي، بدل مناداته باسمه الخاص. لا أدري مصدر ذلك، ولكني كنت سعيدة أن أكون خارج الكذبة المعممة.

* * *

المسيح يصعد إلى السماء

لزعر الحمصي، حبيبي[91]، معصيتي الجميلة

هذه المرة سأحفظك في عمق العين، وفي بؤبؤ الدهشة! ألم تتمنّ أن تسافر نحو مدينة تذكرك بجزء من مسروقاتك الأبدية؟

لا أدري لماذا أعود لأولى نداءاتي؟ ربما لأني بدأت أشعر بنوع من الأمومة نحوك منذ مرضك الأخير، عندما شارفت الأقدار أن تأخذك مني، لولا قوتك الداخلية الكبيرة. عندما أضحكتني وأنت تقول في لهجة شرقية ذكرتني بأيامنا المجنونة:

- «ولو.. أبداً حبيبتي. شو الموت على كيفه؛ لم أكن مستعداً يومها للانصياع له. وحياتك لم أخف. وكأني رتبت فقط، كل شيء لأرتاح قليلاً، لأراك في عزلة البياض، ثم أعود إلى بيتي كما كنت، وربما أكثر حيوية. هكذا نحن. نتمادى في عز الجنون كلما هزتنا النهايات الفجائية. فكلما هددنا القدر بالموت، واجهناه بسحر الكتابة، وصعدنا تهديدنا إلى الأقاصي».

سعدت كثيراً أنهم ما زالوا يفكرون في عزفي وأنا التي تصورت أني غرقت في تفاصيل الحياة القاسية. كما تلاحظ أنت بنفسك، حبيبتك أصبحت معروفة ويمكنها أن تنافسك في كثرة الأسفار والترحال والبوهيمية.

ترددت كثيراً قبل أن أقبل الدعوة وأسافر إلى القدس مع فرقة موسيقية إسبانية - عربية. كانوا يريدون نقل رائحة طليطلة المتسامحة إلى القدس، ليتعلم الناس قليلاً أن الحياة ممكنة في عز الاختلاف نفسه. مجرد رسالة سلام. وكان علي أن أعزف الكثير من إيقاعات أجدادي مع بيقونيا[92] التي كانت ترافقنا على آلتها القديمة، من موقعها كحفيدة لأسلاف مارانوس[93] قاسوا الأمرين من محاكم التفتيش المقدس، ومن موقعي كحفيدة موريسكية[94] لم

يسرق القتلة بهاءها الروحي. كان علي اتخاذ كل الاحتياطات الممكنة. لا تلمني حبيبي على صمتي. فأنا أحبك وتخونني نطقة لغتك التي وضعتها في رحمي قبل أن تخرج من هذه الأرض.

كم اشتهيت هذه المرة أن أكون أنا من يهرب بك نحو أكثر المدن سحراً. عندما ذكرت لك سفرة القدس. قلت لي اذهبي ولا تسألي إن كنت مقتنعة بما يجيش في قلبك. قلت لك: أريدك معي. أجبتني بحزن شديد: تلك الأرض سرقت مني ومن جدي الأندلسي سيدي بومدين لمغيث. لم أهضم بعد أن يكون من سلبها، هو نفسه الذي يضع ختماً على حقي في المرور نحو دروبها العتيقة وممراتها الضيقة. مدينة سرقت أمام الجميع، ولا أحد بريء من دمها. فهمت جيداً قصدك. فلم أناقشك. قلت لي اذهبي عمري وعودي بألف خير، واحك عن كل مشاهداتك. فأنا أشتهي سماعك وأنت تقصين عليّ أفراحك الصغيرة، وتطيرين بين أناملي كفراشة السواقي.

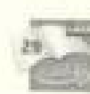
ذهبت وفي قلبي أحلام كثيرة ودهشة مخزنة عميقاً في بهاء الروح.

لم أبق طويلاً في القدس. هكذا كان الاتفاق منذ البداية. ثلاث سهرات وبعدها غادرنا مدينة الله. كانت كافية لأن تهزني من الداخل. كم اشتهيتك معي لنعبر معاً. كل شوارعها الضيقة، وأحياءها التي يسمح لنا بالمرور فيها، ومساجدها وكنائسها وجوامعها اليهودية. لكني أدركتُ بسرعة لماذا رفضتَ المجيء معي. لقد تركونا في مطار بن غوريون ننتظر أكثر من ست ساعات، مع أننا لم نكن نحمل قنابل، سوى بعض الآلات الموسيقية. الكثير منها كانت جودته، في قدامته فقط لم نكن قتلة ولم نرفع علماً يثير الشبهة حولنا. تأكدت من شيء واحد، هو أن الكثير ممن استضافونا كانوا مثلنا، من جماعة السلام الآن. لم يكونوا يريدون أكثر من العيش في سلام في محيط مشترك. ولكن الحلم الذي بدا قريباً، ابتعد بسرعة مخيفة. كان مشتركنا جميلاً. وجدت امرأة من وهران، أليس، غادرت الجزائر بعد الاستقلال. كلما عزفتُ نشيدي الأندلسي، غرقت في نوبات من البكاء المر. عدت بشيء واحد معي، هو العودة إلى كل يقينياتي التي كانت تحتاج إلى أن أهزها بعنف. لم تكن بيني وبين أليس أية مسافة. لا لغوية ولا مكانية ولا حتى روحية. ربما

كنت مخطئة، ولكن كان ذلك هو إحساسي العميق. تصور ماذا أكلنا عندما عزمت الفرقة كلها إلى بيتها؟ كسكسي وهراني مائة بالمائة، مثل الذي كنا نأكله عند ماما يُمينة في المدينة الجديدة، أيام السبت. عندما نهرب في قيض الشمس، نحو محلها المليء بروائح البهارات الهندية.

كانت الزيارة مؤلمة، ولكنها لم تكن خائبة. نحتاج إلى زمن آخر، أكثر تسامحاً لكي يعود الوضع إلى طبيعته الأولى. الضغائن اليوم في قمتها. لقد انتصر القتلة في كل مكان.

أنا الآن في فيينا مع رياض للمرة الثانية. كما قلت لك من قبل، مدينة مريحة وبلا خوف ويمكنك أن تأتي متى شئت، وتبقى هنا. رأيت أهم الأشياء فيها في زيارتي الأولى. تعال إذا استطعت. سأكون أسعد مجنونة. لقد تعودنا على سرقة اللحظات الجميلة ولا توجد قوة في الدنيا تمنعنا من جنوننا الجميل. أنا أيضاً قلبي أصبح مشدوداً إليك ولا أنسى، في لحظة سكينة، أن أحملك كل هذا الخراب المؤذي الذي يحصل لنا. قد يكون العمر أذبل الجسد قليلاً، وإن كنت ترفض رؤية ذلك. لكنك ستجد قلباً حياً بعمر اللحظة التي عرفتك فيها وأنت تقدم لي رسالة طفولية مرتجفة بين يديك، وتريدني أن أخرج من سطوة الحشمة، وأنت لا تدري أنني كنت ملتبسة بك ولا أنتظر مثل الفاكهة الناضجة إلا اليد الشهية التي تقطفني. منذ أكثر من ربع قرن وقلبي ينبض بشدة كلما سمع اسمك أو شم رائحة تشبهك. للذين نحبهم سر روائحهم وجبروت عطرهم علينا. لا تقلق، سأجد الوسيلة المناسبة لرؤيتك. سيتهمك القاصرون الآن أنك كنت عشيقاً لامرأة نازية باعت كل شيء للشيطان، أو حتى صهيونية، وزوجة تاجر مشكوك في إخلاصه للوطن[٩٥]. لكن: أنا لا أستطيع أن أحفظ من سفرتي إلا شهوتي لتنفس تربة مدينة سلكها الأنبياء الطيبون، والأجداد، والقتلة واللصوص، وباعة اللحم البشري. مدينة خارج كل منطق للحياة، فيها شيء غامض يقاوم النسيان وجبروت الأقوام المتقاتلة تحت أسوارها.



سيني، حبيبي وعمري.

مايا بخير وتحييك. يبدو أنها ورثت عنك ارتباكات القلب وحيرتك وشفافيتك. ولهذا فهي سريعة العطب. هي معي. وكل يوم تدفعني إلى التليفون إليك: ماما احك مع عمو واسيني. أعتقد أني ذات يوم سأقول لها حقيقتنا[٩٦]. لقد أصبحتَ جزءاً من ذاكرتها. هي مقياسي في مثل هذه الأشياء. تشبهك وأتساءل ماذا سيقول رياض إذا رآكما يوماً تقفان بجانب بعضكما البعض؟

مشتاقة إليك حبيبي. حاول أن تأتي.

أنتظرك. فالصباحات الجميلة لم تعد مظلمة كما كانت.

أهمس في أذنيك. أنا الآن كوراثون ميا، كما سميتني أول مرة عندما بدأنا ندرس الإسبانية سوياً بجامعة وهران. أنا ليلي التي أحبتك وتحبك دوماً. أحفظه جيداً وللمرة الأخيرة، لأن اسم مريم أكل كل شيء فينا واستبد بسلطانه فيَّ. دعه يسكن قلبك لكي تتذكرني كلما احتفت بك الأحزان والوحدة. انس نهائياً اسم مريم الذي أثث ذاكرتك زمناً طويلاً حتى أصبحتَ تصدق أنه حقيقة ملموسة، وليس مجرد لغة هاربة داخل رومانسية مثالية لا جذور لها.

•

مريم ماتت منذ أن غادرتُ مدينة الله، وعدتُ إلى اسمي، ليلى أو ليلي.

عيد ميلادك على الأبواب. مرة أخرى، أنت هناك وأنا هنا

المدينة جميلة ولا شيء فيها سوى الموسيقى وسحر الغموض الجميل

أنت لا تعرف مقدار الجنون الذي يملأني، لم تره أبداً في حياتك. لو يمنحني الله لحظة، لحظة واحدة للقاء بك، وبعدها فليأخذني إذا شاء. لا لشيء، سوى لأريك أني مازلت قادرة على تحويلك إلى ذرات كما كنت أفعل ونحن نقف على عتبة مدرج قسم الآداب، أو في ساحة الكونسرفتوار، بوهران. ياه... كم يبدو ذلك الزمن بعيداً! كم تمنيت هذه المرة أن أكون معك وحدي. أن لا أكون مرمية في جنة بعيدة عنك. فقدت كل معانيها الجميلة. أنا وأنت فقط في عزلة لا شيء فيها إلا الخضرة وثلج أواخر الشتاء، كما فعلنا ذات يومين في لانغا- لاند[٩٧]. عندما دعوتني وأنا لا أعرف أن ذلك كان من أجل الاحتفال بعيد ميلادي وحفل تدشين الأوبرا الجديدة.

لانغا-لاند؟

ياه، كم تنتهي الأشياء الجميلة بسرعة مخلفة وراءها جرحاً نازفاً بفرح.

فجأة وجدت يومها لزعر الحمصي الحساس جداً، الذي لطالما اشتهيت عفويته وطفولته المعاندة. كنت معك ليلتها أسعد امرأة، كأنني مراهقة خجولة من أول لقاء لها مع شاب تحبه وتشتهيه. كلما ابتعدت عنك قليلاً، وجدتك فيَّ كعطر جميل، تلتصق بجسدي! لا تقل أني أبالغ. فأنا مريضة بك.

كان لقاؤنا يومها جميلاً. قلتَ لي تعالي إلى باريس، وبعدها لا تسألي. وسافرنا من باريس إلى كوبنهاجن. كنتَ قد حضرتَ كل شيء، حتى بطاقات حضور حفل التدشين. كنت بجانبك أسعد امرأة وأكثرها حظاً. تمنيت في أعماقي أن أسمعك كل النشيج الذي كان بداخلي، لو كانت لدي فرصة لعزف افتتاحيات الحفل بالكمان. العازفة كانت رائعة ولكن أصابعها كانت ثقيلة. كانت تنقصها بعض القناعة الداخلية والكثير من الأحاسيس.

كانت الدانمرك دهشتك الجميلة، وكنتَ جنونك الذي يأسرك.

قضينا الليلة الأولى في كوبنهاجن. لم نفعل شيئاً سوى أننا استمعنا إلى النحيب المكتوم في دواخلنا، زمناً طويلاً. نمنا متقاطعين على سرير واحد وكأنك كنت تؤجل كل سحرنا المبطن إلى لانغا-لاند.

كنتَ قد رتبتَ كل شيء، ولم تترك أي تفصيل للصدفة. في الصباح، جاء إلى باب النزل، من يأخذنا إلى جزيرة لانغا- لاند! كانت دهشتي لا توصف من سحر الأمكنة خصوصاً، ونحن نتوغل في الجسر الطويل الرابط بين جزيرتين، حيث لاشيء إلا البحر والسماء باتجاه الجزر الأخرى.

ربما أنستك مشاغلك الكثيرة، ذلك كله. اشتهي أن أذكرك من حين لآخر بعالم إذا لم نوقفه سيموت بسرعة. من الصعب جداً أن نقفز على أجمل مكاسبنا الصغيرة في الحياة.

قلتَ لي يومها إن المكان يلائمنا لنسيان آلامنا ولو ليوم واحد. أعرف أنك اخترته بقصدية مسبقة، لكي لا ترانا أية عين حاقدة. لم تكن وحدك في ذلك. أنا أيضاً كنت أريدك لي ولا أشرك معي حتى نسمات البحر الهاربة، فما بالك بعيون الكارتل الحارقة؟ جئتك من بعيد ولم أسأل عما يمكن أن يحصل لي بعد العودة. كنت ممتلئة بك وبحبك. هذا وحده كان كافياً لأن يشعرني بأني كنتُ أسعد امرأة في الدنيا. لأول مرة أتأمل وجهك وأنا في كامل صفائي. شعرت بك هزيلاً ومنهكاً، ووجهك كان متعباً. تلك كانت علامات تعب القلب. أردت أن أنبهك: واسيني احذر، صحتك غالية علي. ولكن في ظرف ساحر كالذي كنا فيه، بدا لي كلامي سخيفاً وبلا أدنى قيمة. أجمل شيء كنا نحققه أننا كنا مع بعض. جئتك لأني أحبك وأشتهي أن أجدك كما تركتك في آخر مرة. ها أنا ذي حبيبي أتعرى أمامك من فرط شفافيتي. لم يكن يهمني شيء من الحياة غيرك، وغير صحتك لكي نستمر في جنون لا يموت، كلما استمرت الحياة، فتحنا جنوناً جديداً وطراوة أخرى في عمق جبروتها وقسوتها. لم يكن من حقك أن تهمل قلبك المتعب. كنت متأكدة في أعماقي من أنك كنت تسير على الحواف الخطيرة التي يمكن أن تسرقك مني في أية لحظة.

•

وصلنا ليلاً إلى لانغا-لاند. كنتَ قد حجزت البيت الخشبي على حافة البحر تماماً. وكان المهم أن يقع هذا البيت في خلاء موحش لكي نتمكن من العودة إلى أنفسنا المتعبة. البحر يجمعني بك مثل الرباط المقدس. طوبى لبحار تفصل بيننا، ولا تحرمنا من الحلم في عمق موجها. أفضل ألف مرة من نثار الصحاري وقحط الأراضي المشققة.

على الرغم من السكينة، كنت خائفة من أن يكون قد رآني أحد أصدقاء رياض. فهم كثر. كان يعرف أني بالدانمرك لغرض موسيقي يتعلق بتدشين الأوبرا الجديدة، حتى أنه كاد أن يرافقني ويخرب علينا كل شيء. كنت مرهقة وخائفة ليس فقط منه، ولكن أيضاً من شيء غامض كان يحفرني من الداخل، وينغص عليّ سكينتي الجميلة. هل تدري ماذا يعني أن تسافر امرأة متزوجة مع رجل، من أجل جنون جسدي هي نفسها لا تعرف عواقبه

الوخيمة؟ كنت متوترة ولا أعرف ما الذي أيقظ فيّ، ابنيّ ورياض. وهذا الهبل غير المحسوب؟ عندما وقفنا في محطة البنزين وشربنا قهوة ودخنّا سيجارة، قلت لي:"وأنت تبحث عن كلماتك التي لم تكن تسعفك، تصدق بصعوبة أني تركت كل شيء وركضت وراء سرابك المخيف: إذا لم نفعل هكذا ولم نسرق حقنا في الجنون، لن نرى بعضنا البعض. لن يمنحنا أحد ثانية واحدة للحب والسكينة. كل الأيادي تسرق منا أحلى ما يمكن أن يحصل بيننا. وأنا أتوغل في بؤبؤ عينيك، لمست إصراراً كبيراً على التمادي في الجنون. سألتك بخفوت: ألم يكن من الأجدى لو اخترنا مسلكاً غير هذا، أكثر لذة وأقل عذاباً؟ في لحظة غريبة تمنيت أن أوقف كل شيء، وأقول لك بكل بساطة: أعدني إلى المطار. لم أعد قادرة على تحمل كل هذا السراب. لم تقل شيئاً. قرأت كل شيء في عيني المتعبتين. سحبتني من يدي وتمتمت بحسرة وخيبة: ليكن. لم أكن أريد رؤيتك على هذه الحالة. بدا لي كأني أجبتك وأنا ما زلت مثبتة في عينيك: لا أستطيع حبيبي أن أغفر لك لحظة جنونك التي عصفت بكل سعادتنا. ألم يكن من الأجدى أن نهرب ونحن مع بعض مع مايا التي تعودت على تحمل هروبي وغيابي المتكرر. يونس أصبح يتساءل كلما رآني أهيئ حقيبتي: يما، متى تبقين قليلاً معنا. أصبحنا نشتاق إليك كثيراً. أما مايا، كلما رأتني في حيرة: قالت: ماما سافري وعودي لنا بسرعة. إذا صادفتِ عمو واسيني، سلمي لي عليه. أنا أيضاً أحبه. دهشت من جملتها العفوية: أنا أيضاً أحبه. ولكني لم أسألها عن التفاصيل. تحشرك في كل مكان. هذه الطفلة مدهشة وكأنها تقرأك في داخلي. لأنها بعدها بقليل واصلت غيها ورموزها، أو على الأقل هكذا بدا لي: منذ مدة لم نر عمو واسيني في التليفزيون... أصمت. تواصل: هل يذهب هو أيضاً لحضور حفل افتتاح الأوبرا الجديدة في كوبنهاجن؟ أكز على شفتي. لا أريد أن أكذب عليها هي بالذات. أعض على لساني لكي لا تخرج من فمي أية كلمة يمكن أن تدمر كل شيء. أضع يدي على قلبي لكي أحتفظ بالسر سنوات أخرى. ثم أصنع جواباً سريعاً. كانت مايا نفسها تعرف ضحالته: ربما لم يدع إلى ذلك. لا أعرف بالضبط.

المشوار إلى لانغا-لاند كان طويلاً جداً. استغرقنا وقتاً كبيراً في التفتيش

عن البيت الذي كان كأنه يتخفى في غابة استوائية. لا شيء فيها إلا الرياح، والبرد والبحر الذي ينام عند قدم البيت. عندما دخلناه لأول مرة كان بارداً وأردت أن أدفئه. قلت لك لا تفعل شيئاً، انا أعرف جيداً كيف أنشئ الحياة في أحشاء هذه المدفأة الباردة. حاولت ولكني لم أنجح. كنت فقط أريد أن أسعدك إلى أقصى حد ممكن، وأشركك في الفرحة التي منحتها لي. كنت مستعدة أن أحرق العالم مقابل أن أبقى في أحضانك، وليكن البرد قاتلاً إذا شاء. جلسنا. قلت لي بلغة تكاد تكون همساً: لنسمع إلى الموسيقى قليلاً، ربما أعطتنا بعض الدفء. سلمتك زادي الجميل من العزف على الكمان في قرص. قلت: لا أريد أن أسمع الموسيقى التي يشترك فيها الجميع. أريد فقط أن أسمعك. منحتني كأس كونياك. قلتَ وأنت تضحك من قلبك: في انتظار أن يشتعل الجسد. ثم انهمكتَ في تجريب القطع الخشبية الجافة، وقطعة المازوت المضغوط، البيضاء، التي تساعد على الاشتعال. فجأة التهبت الأخشاب. خفضت الضوء قليلاً. فبدت الصالة الواسعة التي لم يكن بها شيء إلا نحن، مليئة بالظلال الجميلة. شممنا رائحة خشب البلوط تأتي من عمق المدفأة. بدأ الدفء يرجع إلى البيت شيئاً فشيئاً. كنت أعرف أنك لا تتحمل البرد، ولا يكفيك حضن امرأة جميلة. ثم اتكأت علي وقلت لي مرة أخرى: أريد أن أسمعك. أخرجتُ الكمان الصغير من غمده. استقمت قليلاً في جلستي. وضعت خيطه في محول الكهرباء لكي يصبح صوته حاداً وناعماً، على الرغم من أن والدي كان يرى في ذلك تعدياً على حرمة الكمان، وتعبيراً عن عجز في الأصابع وليس في الآلة. كان يقول: عندما تكون الأصابع حية، ومليئة بالحنين، هي تعرف كيف تجعل الكمان يتكلم بكل أسراره. وعندما تكون الأصابع نفسها ميتة، تقتل أدفأ الأشياء فيه. الجمال هو لا شيء سوى تناسق الأصابع وخيوط الكمان في وحدة روحية متكاملة. الفجوة الخشبية مثل السجن العميق. إما أن تحرر كل الأصوات السجينة، وإما أن تزيد في دفنها.

عزفت لك ليلتها سوزان لونديبنغ، ليس لأني كنت أحبها، ولكن، لأني كنت أيضاً قريبة من النرويج، بلادها، ومن ثلجها وبحرها، وحنينها

كنا ثملين وخف وزننا فجأة. احتضنتك. اقتربت مني أكثر. كل شيء مر بسرعة. اشتعلت الحرائق في داخلنا. لكننا مارسنا الحب بخوف، أو هكذا شعرت. نمت ملتصقة بك مدة ثلاث ساعات. وبعدها قمت وأشعلت المدفأة التي بدأت تخبو في الصالون. كان الجو رائقاً على الرغم من برودته. تأملت وجهك في غفوتك. ابتسمت في أعماقي. كان لزغب الحمصي الملعون يبدو من وراء عينيك النائمتين. على الرغم من التعب، كان وجهك صافياً كفجر ربيعي. أردت أن أقبلك، ولكني خفت أن أوقظك. بقيت لحظات طويلة أتأملك، وأتأمل وجهك الذي انعكست عليه ألسنة لهب المدفأة في شكل خطوط ذهبية صغيرة اخترقت كل ملامحك. شعرت بتعبك العميق. فضلت أن أتركك نائماً، بينما خرجت نحو البحر. كانت قد ظهرت أولى علامات الفجر في أفق بدا صافياً على غير عادته. لبست «المانطو» الخشن الذي جئت به من آخر سفرة إلى إيطاليا. تنفست عميقاً. فجأة، شعرت بأني كنت ملكة على هذه الجزيرة. مشيت وحدي بين الأشجار، وتحت اللمبات الجميلة المعلقة التي لم تُطفأ بعد. لا شيء إلا أنا، وظلك الذي فيّ، وخشخشة الأوراق تحت رجلي، وانعكاسات النور القوية على بقايا كتل الثلج هنا وهناك. تمنيتك أن تكون معي لاستقبال أول شمس تجمعنا منذ زمن بعيد، ولكنك كنت متعباً. عذرتك، فأنت راجع للتو من سفر بعيد جداً، والتعب كان واضحاً على وجهك. لم يكن البحر مثلما تخيلته، عاصفاً في جزيرة لانغا-لاند، هادئاً وجميلاً ومستسلماً كان. على امتداد الساحل، وعلى الرغم من البرد، نزعت حذائي وبدأت أمشي قبل أن أركض بكامل قواي على امتداد الشاطئ. لم أكن أحس بأي شيء، سوى بدغدغة الأمواج الدافئة وهي تعترض ركضي. شعرت كأني طفلة صغيرة، صبية وهران العاشقة من شعرة رأسها حتى كعب حذائها. ركضت على الحافة بلا توقف أبداً. فتحت ذراعي وصرخت كالمجنونة، كما فعلت معك ذات تيه في ساحل وهران الواسع:

«شايف البحر شو كبير... كبر البحر بحبك.
شايف السماء شو بعيدة... بعد السماء بحبك.
كبر البحر... وبعد السماء... بحبك يا حبيبي...»

عندما اخترق عيني أول شعاع صباحي في لانغا-لاند، اتكأت على حائط صغير، ونمت واقفة، وتركت الأشعة تدغدغني وتهدهدني. كانت موسيقى جميلة تتوغل في داخلي في اللحظة نفسها التي كنت تحتضنني من ورائي، وتقبلني على رقبتي، وأنت تضحك:

– ويلك يا هرابة؟ حيّرتني عليك؟ من غير المعقول أن تكوني أنانية إلى هذا الحد وتسرقي الشمس، وتشربي الفجر، وحدك.

– عمري... كأنك كنت تسمع قلبي المليء بالنور وبك. في اللحظة هذه كنت أحلم بك. كنت أضمك إلى صدري وأغني لك فيروز التي كنت تعشقها بجنون، من صوتي.

احتضنتني بشدة أكثر، وقلتَ وأنت تشدني بقوة نحوك: دعيني أستفيد من ساعات الضوء القليلة. أن أرى وجهك في كامل صفائه. مدة الضوء في مدن الشمال قليلة. قليلة جداً إلى حد أننا نكتشف فجأة أن خطوط الظلمة بدأت ترتسم على الأشجار، والبحر والخلجان الصغيرة. أسوأ ما في هذه المدن،أن شمسها قليلة.

بقينا في الساحل الخالي حتى غطتنا الشمس كلياً. نمنا على الحافة متكئين على بعضنا البعض قبل أن نعود إلى البيت ممتلئين براحة داخلية لم نحسها من قبل.

شربت القهوة واستلقيت على الكنبة بجانبك. لم أشعر بالبرد هذه المرة.

لم تحدثني عن عيد ميلادي. كنت أحمق مثلي تنتظر اللحظة الجميلة التي تسقط فيها الأشياء في مواقعها الحقيقية. في المساء حضرتُ الطعام وكان رديئاً للغاية. أزعجني ذلك لأني كنت أريدك أن تأكل شيئاً خاصاً من يدي. ولكني كنت سعيدة أننا وصلنا أخيراً إلى بعضنا البعض. تمنيت أن تطول أمسيتنا دهراً كاملاً، وأن لا تسرق منا الغفلة لحظة واحدة. اللقاء معك يريحني كثيراً لأنه يجبرني على الوقوف في مواجهة مرايا الروح المنكسرة.

والتخلي عن عزة فارغة غير مجدية. لم أربط بين ما قلته لي عن طالبتك الروسية، آنيا، عاشقة الباليه، التي افترقت مع صديقها أوليغ. عندما سألتك ضاحكة عن مغامراتك، وعن حياتك الباريسية. أنت تعرف جيداً أن وجود هذه السيدة بجانبك يحرقني، لأني امرأة، وأعرف جيداً ما يتخفى داخل العيون. لأول مرة أفشيت لي بحقيقة خبأتها طويلاً. قلتَ لي إن صديقها كان يريد الزواج منها ولكنها رفضت، ويوم صرحتْ له بحبها العميق لك، خرج من بيتها ولم يعد أبداً بعد أن ترك لها ورقة يؤكد فيها أنه كان يعرف كل شيء، وأنه ينسحب من حياتها نهائياً.

– وأنت؟
– لا شيء، سوى بعض الحماقات الطارئة. آنيا امرأة ذكية.
– نمت معها؟
– مرات قليلة. اكتشفنا بعدها أننا لا نصلح أن نكون أكثر من صديقين رائعين.
– كل فتنتها لم تغرك لتواصل حماقاتك معها؟
– لأني بكل بساطة أحبك.
– تحبني وتنام مع امرأة أخرى؟

صمتَ. تذكرت فجأة ليلة روما البئيسة.

الغريب أني لأول مرة أصدقك في كلامك عن آنيا، أو آنيتا كما يسميها المقربون. ولأول مرة أشعر بسعادة غامرة على الرغم من الآلام القاسية التي كانت تأكلني من الداخل. بكيت بمرارة وانفصلت عنك، واتكأت على الحائط الملتصق بالمدفأة. كنت متيقنة من أن تلك المرأة ستقتلني لا محالة. ليليتها شاهدتني بكل عريي، وغيرتي الطاحنة، وربما حيرتي وخوفي من فقدانك. مع ذلك لم أكن مستعدة لتضييع تلك اللحظة وسط هذا الصمت الكبير مثلما فعلنا بغباء في روما. كنت أشعر برغبة كبيرة في أن أصل إلى غموضك ومدافئك العميقة لكي أجدك مرة أخرى كما أشتهي. فأنت تركض بسرعة ضوئية في الحياة، بينما كنت أعيش دورة مغلقة، ومكرورة بشكل دائم.

كلما صمتُ، سحبتني نحوك حتى أزلت عني غمامة آنيا وتخيلاتي



الشيطانية نحوها. هل تدري أني فكرت في قتلها لا لشيء سوى أنها فكرت يوماً أن تزيحني من قلبك. اغفر لها النوم معك. أغفر لك حماقاتك التي لا أعرف إلا بعضها، ولكني أكره الغطرسة واحتلال أمكنة الآخرين. كان قدرك أن تنهي حياتك معي وليس مع امرأة أخرى.

لم تكن ليلة ميلادي عادية. فقد أعدتني ليلتها إلى أولى حالات عشقنا المجنونة. كان الويسكي يسرع من درجة الجنون، ويقوي حالة العطش إلى الحب. شعرت بك تقتحمني وتملأني كلياً ونحن نتقلب بمحاذاة المدفأة القديمة التي كانت تشتعل مثلنا. مرة أخرى أرى في عينيك شعلات صافية ومطهرة من النار الملتهبة. على «الصوفة». أحسست أنها كانت عاجزة عن تحمل قبلنا وإبداعاتنا المجنونة. ثم على الأرض الدافئة. والتمرغ في الصالون المفروش بزربية قديمة لم نحس بخدوشاتها إلا عندما دخلنا إلى الحمام. الأمكنة تحررنا أحياناً من ثقل الذاكرة. لا خوف في القلب، ولا حارس لنا إلا الأوراق وخشخشات الخشب الذي كان يحترق داخل المدفأة، والكتب التي كانت تطوق البيت في شكل تاج جميل. كنت مذهلاً كلما انتابتني صرخة اللذة التي تدفع بي إلى الصراخ، لم تكتمها كما تعودت أن تفعل. لم تضع يدك على فمي، ولم تتمتم متقطع الأنفاس: ششششت.. لسنا وحدنا. وتركتني أتهاوى في عمق اللجة الصاخبة لا أسمع إلا أصداء صرختي البدائية وهي تعود نحوي وتلتصق بجسدي.

أتساءل اليوم. هل سيكتب لنا عمر آخر لنتمكن من استعادة الحياة الهاربة؟ شهوتي ما تزال معلقة في عينيك لأني أثق فيك وأحبك. وربما كنت مجنونة بدون أن أدري لأني أحب سراباً. كلما تجمع ماؤه بين أصابعي، انسحب حتى قبل أن أشرب وارتوي منه. أحبك. تأكد لي أني لن أكون لغيرك، ولا حتى للرجل الذي سرقني من غيابك.

في لانغا-لاند شعرت أني ولدت مرة أخرى. ليلة واحدة أنستني سنوات الشؤم، وأحزان أوبرا وهران الفارغة، وأحضان جبال المرجاجو، وبركة سيدي الهواري. عندما أسأل اليوم في الحوارات الصحفية، عن مكان ولادتي، أتردد كثيراً قبل أن أجيب. أصمت قليلاً. استرجع ليلتي لانغا-لاند اللتين كانتا

عمراً جديداً عشته هاربة من جسدي ومن أسئلتي وحتى من خوفي عليك وإليك. حلم أشعر بطعمه تحت لساني مثل الحلوى التركية. ليلتان كانتا جنتنا المدهشة.

سيتي.. عمري الهارب بسرعة البرق.

هل يمكنني أن أوقف الزمن على حواف لانغا-لاند؟

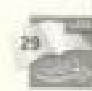
اليوم جمعة، و كل جمعة في يومياتنا. حزينة ومليئة بالتعب. أنت دائماً تهرب مني كالريح أو كالزئبق. أسأل نفسي ماذا لو كنت معك مجرد صحفية تحاورك في حماقاتك الخفية، وليس امرأة تعشقها وتجن عليها كلما أصابتك الوحدة والقرف مما يحيط بك.

كم أشتهي أن أظل معك. أن أظلل كل رحلاتك، وأعطر صباحاتك.

لا شيء هنا في فيينا حبيبي إلا البرد الشديد. لكن المدينة جميلة، بل مذهلة. أنتظر فقط أن تفاجئني بمجيئك. أعرف أننا لن نكون أحراراً كما في لانغا لاند، ولكن على الأقل يمكننا أن ننتهب ما نريد من ساعات الفرح. أقرأ مذكرات كازانتزاكي: تقرير إلى غريكو التي تقوي عندي شهية الركض نحوك مغمضة العينين. هل تدري عمق ما تفعله فيّ الكتب الجميلة؟

لقد خرجت باكراً من الفندق وبدأت أبحث عنك في أوجه المارة. أقول ربما ركبت رأسك كما تعودت أن تفعل، وجئت ركضاً نحوي! أعرف أنك تخاف عليّ من جنوني، ولكني أستطيع أن أشغل عقلي قليلاً للحفاظ على استمرار حماقاتنا الجميلة.

شوقي هو الذي يتكلم. أنتظر هزاتك وأتأمل عيون العابرين بلا جدوى. لا أحتاج لتفكير كبير لأني أعرف أن شيئاً في النهاية سيقودني نحوك دون أن يترك لي خيارات كثيرة. مع أن خوفاً ما يتملكني من خيبة ما لم أعد قادرة على تحملها. هل رأيت؟ أنا لا أتصرف كذلك لأن لدي وقتاً زائداً كما تقول، بل لأنني لا أملك غيرك في هذه الحياة. لا قدرة لي على التعامل مع الوقت الذي



لا يزدحم في ذهني بلا معنى، بطريقة خاصة أحدد فيها الأولويات، وأحدد ما يمكن أن يؤجل دون خسارة ويمكن استدراكه، وما لا يمكن تأجيله ببساطة لأنه سيموت إذ لا يمكن تعويضه. وجودك، بالنسبة لي على الأقل، لا يعوض. أحزن بشدة عندما أتذكر كل الزمن الذي مضى قبل أن نلتقي، وكل الزمن الذي سيمضي قبل أن نلتقي، وكل الزمن الذي ستقف فيه أنانيتك بعصاها القهرية أي إنسان طبيعي كان سييأس منك ويتخلى عن سرابه. ولأنني مجنونة بك، فأنا مازلت أصر على هذا الوهم الذي لا يخفق في صنع بداية جديدة دونكشوتية أخرى تصارع طواحينك الهوائية دون كلل.

تعال حبيبي، فاجئني، غير نظام دورة الرتابة، أعدني إلى أرضنا، لانغا-لاند. هل تدري، أيها الأحمق، أنك كنت الوحيد الذي يستطيع أن يقشر تلك المرأة الدائخة تحت وقع اللحظة وكأس الويسكي الرشيقة، كحبة برتقال ويتلذذ معها وبها بالرائحة والمذاق الحلو! عقلي في غيابك يشتغل بلا توقف. كنت دائماً أخطط للهرب بعيداً إلى ذلك المكان الذي يضم كل أشواقنا ولا يبوح بها إلا للبحر الذي يتسلل إلينا من الشرفة ويحرك مدافئنا، غيرة أو حباً، ويتواطأ معنا مثلما فعلنا في أمكنة أصبحت اليوم من أثاث الذاكرة الحي، إلى أن فتحنا نوافذ لانغا-لاند الجميلة. الأقدار هكذا حبيبي، ليست ظالمة إلى الحد الذي نتصوره، تفتح باباً حيثُ نظن أن كل شيء أصبح مستحيلاً، وتغلق أخرى مثلما يحلو لها.

كلما تذكرت ساحل لانغا لاند، أحسست بشيء ما في داخلي يلعن كل شيء في الدنيا يجعلنا نتصرف ونبدو على غير ما نحن عليه. كنت دائماً أنتظر فرصة الذهاب بعيداً. وهيأت نفسي، قبل السفر لارتداء أجمل ثوب عندي والتزين بطريقة مثيرة، فقط لأرى تلك الابتسامة الجميلة على وجهك، وأنت تستقبلني كما يجدر برجل أن يستقبل امرأة يحبها، لم يلتقيا منذ زمن طويل. امرأة يعثر عليها داخل كلماته ويضيعها في زخم الحياة الذي لا يرحم، ولا يعطي أهمية لأولئك الذين يقفون على الحواف. نستمع إلى بعضنا البعض بحب، أنظر إلى عينيك اللتين اشتقت إلى أن أنظر إليهما دون أن أخاف منهما ولا عليهما. أسألهما عن كل ما أريد وتجيبان بالصدق

ذاته الذي جعلني أتعلق بهما ذات يوم. تحكي لي عن المجنونة الروسية، أنيا، التي تلتصقُ بك كقدر جديد، عن أسفارك الأخيرة وحتى تلك التي تتهيأ لها، عن كتاباتك التي تسكنك، عن مشاريعك القادمة، عن أحلام جديدة تولد داخل الصدف الجميلة وداخل مشتركنا المعاند، عن آخر الكتب التي قرأتها وأحببتها، عن آخر موسيقى هزتك من الأعماق، ولمَ لا عن آخر امرأة أدهشتك، وجعلتك مشدوداً أياماً طويلة إلى سحرها قبل أن أطفو على السطح ويصبح ذهنك ورقة بيضاء، عن قلبك الهش الذي أنهكته كثيراً ولم ترحمه، عن ذلك الإحساس العميق بالغبن واليأس من حياة نشتهيها، ولكنها لم تعد ممكنة. تحكي لي بدون خوف من جرحي، خلف سيجارة تدخنها بأناقة، وكأس شيفاز رائقة، احتفالاً بيومي أنا التي لا أحس به إلا في وجودك. وتسمع مني قليلاً من الخوف والأشواق والأحلام الصغيرة والجميلة، والصراعات المتواترة مع محيط لا يرحم، لكي أبقى حية وأحبك كل يوم أكثر، قبل أن أسحب يدي وأترك السماء تنزل علي وعلى من حولي. تخيل امرأة تحمل سماء بيديها فقط لكي يمر الذين تحبهم بسلام! أنت، مايا وأنا. وننسى بعدها كل شيء، حتى ارتطام السماء العنيف، التي هربت من ظلالها الداكنة. نحكي النكات العارية والملعونة، التي تملك منها الكثير. أراك وأنت تضحك حد البكاء. ونستمع إلى الموسيقى. وأتمتم في أذنك القريبة إلى قلبك:

– «تعال حبيبي.. سأسمعك إيقاعات ساحرة سحبتها وراني من بلاد الثلج والعزلة».

تستسلم لي، ثم تغمض عينيك. أجلسك على الكنبة العريضة، وتنتظر كطفل وديع ما سأفعله. يأتي صوت الكمان دافئاً وهادئاً I am your lady. صممتُ بعناد الشقية أن أكون امرأتك الوحيدة في تلك الأراضي البكر. أنظر في عينيك اللتين صارتا أكثر ليناً. أسحبك نحوي بالنظرات وأهدهدك إلى أن تغرق في النعومة واللذة التي لا تقاوم. عندما أتعب، أضع رأسي على صدرك، ويدي تحاور يدك داخل الموسيقى، حتى يصعد من داخلنا إيقاع مشترك يليه الأنين قليلاً. يتمتم كالسكران، وأنا غارقة داخل عالم بلا حدود، يعوم في ضوء بلّوري مغشي للأبصار.

«- أما زلت تحبينني؟
أرفع رأسي وأفتح عيني بابتسامة صغيرة وماكرة، وأنا على صدرك:
- هل هناك غيري؟
- هذه هي اللحظة الأنسب للإجابة عن سؤال كهذا.
أتوغل في عينيك، وأنظر إليك بإصرار معاند:
- أحبك، لو تدري فقط كم أحبك، لما تجرأت أيها الأحمق على طرح هذا السؤال».

نتهاوى على إيقاعات I am your lady. ندور في مكاننا، ننحدر أكثر فأكثر نحو فجوات لدنة وناعمة مثل الحرير. هل هناك جنة أجمل من هذه اللحظة؟ تنام شفتاك على شفتي دون أن تكسر إيقاع الأغنية ولا إيقاع الرقصة.

حبيبي، كم تكون لذيذاً حينما تكون عاشقاً ومرتاحاً، لا وجود لأي حسابات وأحزان في رأسك، حين تطرد كل شيء ولا تبقي إلا على ذلك الطفل الشقي الذي استطاع أن يهرب من جبروت عقلك، ويحافظ على عفويته الأولى، وعلى عشقه رغم كل شيء.

- «تعالي...»

تهمس في أذني. تحملني بين ذراعيك «كمشة» من نور هش. يبدو البحر من بعيد كغيمة زرقاء هاربة نحو أفق غير مضمون. تنثر على جسدي العاري كل باقة الورد الأحمر التي استقبلتني بها في باريس. أبدو لك شهية وطفلة شقية تعلمت كل الحماقات ولم تعد مغمضة العينين كما كانت في أول لقاء معك. تقبلني طويلاً وأنا أفك أزرار قميصك زراً.. زراً، بلهفة كبيرة. كنت أريد أن أعريك بيدي، وأحفظ كامل تفاصيل جسدك، كمن يفعل ذلك للمرة الأخيرة. أقبل كل نقطة فيك، من رأسك حتى أخمص قدميك، كما تفعل أنت، قبل أن نندغم كحرفين متشابهين، أو كحلقة موسيقية لا حدود لتبدلاتها وتنوعاتها.

- «أحبك يا مهبول، لو كنتَ تدري كم أحبك، لما تجرأت أيها الأحمق على

طرح هذا السؤال».

كل شيء مدوخ وساحر. كل ما كان يحيط بي وأنا في أراضي لانغا-لاند، يجعلني أخف من ريشة. رائحة جسدك، حنين الكمان، الورد، النرجس، الشمعة التي تشتعل فوق رؤوسنا وتتلوى معنا وتحرس عرينا وجنوننا. كم حاولنا أن نطيل تلك اللحظة وأن نجددها، لتكون قادرة على تحمل ما ذهب وما سيأتي، لكنها ككل الأشياء الجميلة، انتهت بسرعة لتبقى معلقة بين حاضر متعب، وذاكرة ترفض أن تتخلى عن أشواقها. أنزلق على جسدك كأنك فجأة صرت ملكي وحدي. أغمض عيني كالأطفال كي لا أرى إلا ما أشتهي. تبقى معلقاً في السقف. أتساءل: فيم تفكر يا ترى؟ فيّ؟ ربما تقول بخوف إنه ما كان عليك أن تقود هذه الطفلة الحمقاء إلى كل هذا الجنون، في هذه الأراضي البكر، الخالية من أية أنفاس أخرى سوى أنفاس النباتات والأشجار العملاقة والبحر! أدير وجهك نحوي، لأقطع تفكيرك دون أن أقول شيئاً آخر.

- أحبك يا أجمل مهبول في الدنيا. أحبك، فهل تسمعني؟

تضمني بقوة نحوك. تقبل كل ما تصل إليه شفتاك من جسدي الذي مازال حاراً. قبلات صغيرة وهاربة. نبقى لحظات مستلقين كما لو أننا كنا نملك العالم. يدك في يدي. تضاءلت بيننا كل أزمنة الوحشة والخراب. ثم لا شيء سوى مسافة للجنون، وأخرى، أريدها أن تظل بعيدة وأن لا أفكر فيها أبداً. يمكن أن تكون للموت.

قلت لي وأنا أغمس يدي داخل صدرك:

- أحبك ولا أريد أن أقنع قلبي بضرورة الاستكانة والراحة».

حبيبي،
أقول في صمت الخائف عليك من هزة عنيفة تسرقك مني.

أعرف ذلك. أعرف أنك تعيش داخل الزمن وخارجه، وعليك أن تجد أجندة

تحمل الزمنيين معاً، وهي غير موجودة على الإطلاق. أعرف أن في داخلك يتصارع العاشق، والزوج، والحبيب، والكاتب، والمجنون، والعاقل، والمقيم داخل التيه، والراحل نحو أرض مستحيلة. أعرف أن الوجوه التي تحيط بك أصبحت من فولاذ، ولم تعد قادراً على تحملها أنت الذي لا يتحمل الأشياء الباردة. إذا لم تكن تعرف كيف تموت الابتسامة، فعليك أن تنظر إلى نفسك في المرآة مباشرة عندما تكون منكسراً، أو خارجاً من حمام الناس الذين يعيشون بجوارك. لابد أن تكون زوجتك تكرمني. معها حق. الربع قرن الذي عشته معها، لم يمح صورتي من مخيلتك أبداً. ماذا إذن لو استيقظت يوماً ولم تجدني بجوارك؟

-«أششششت.. أرجوك».

أرأيت؟ ترفض حتى التفكير في الإمكانية التي ليست بعيدة. ما رأيك في امرأة تعيش على وقع تحولات جسد هش لرجل مجنون لا يعير اهتماماً كبيراً لراحته؟

تلبسني ملابسي مثلما نزعتها قطعة قطعة. تحضر لي شاياً كالعادة، بسعادة كبيرة وخفة، وكأنك أخيراً تخلصت من كل شيء، دفعة واحدة، حتى من الثقل الذي كان يغطي علاقتنا طوال الأيام الماضية بسبب حضور أنيا بيننا. أنا مثل عصافير الجنة، أغرد بسعادة بدل أن أتحدث، وأطير بدل أن أمشي عل الأرض لأني من فرط السعادة، كنت أخف من الريشة.

في الصالة وضعتَ رأسك على ركبتي واستلقيتَ على طول الكنبة، وبقيتَ تروي لي كل ما يثقل صدرك وكل ما يجعله غنياً وقوياً أيضاً. كنا نبحث عن حلول لمشاكلنا بطريقة مضحكة، كأن تعتذر لأنانيتك وتطلب منها أن لا تحجر عليك لأنك لا تزال بكامل قواك العقلية، ونضحك كثيراً حتى نقلل من حجم المشاكل. تمنيت أن تتوقف الكرة الأرضية يومها عن الدوران حتى لا تقترب الشمس من الأفق الذي يعلن النهاية السريعة لواحد من أجمل الأيام في حياتي.

توشوش في أذني:

- «نخرج.

أرد بدون أدنى تفكير:

- نخرج».

تلبسني معطفي الإيطالي الخشن، ثم ننزلق خارج البيت الخشبي الرائع.

أتنفس الهواء البارد. أشعر بانتعاش غريب في رئتي. تأخذني من يدي وتسحبني نحو ضباب البحر لكي أملأ عيني بسحر لانغا-لاند للمرة الأخيرة، ربما.

ماذا بعد أيها الرجل العنيد والمهبول؟

ما زلت أتحايل عليك فقط لرؤيتك والشبع من وجهك. أراودك ضد غي الكسل، وأنتظر أن تفاجئني في فيينا كما تعودت أن تفعل عندما تصمم على الجنون المشترك. ها أنا ذي مثل شهرزاد، أتحايل عليك كي تبقى قريباً مني، وتنسى ذلك السكين الحاد الذي يذبحني به غيابك كل يوم ألف مرة. أكتب الألف صفحة، والألف رسالة التي وعدتك بها منذ لقائنا الأخير في لانغا-لاند. فقط لأقاوم ساديتك الملعونة، وجنونك الذي لا يقاوم. ولا أدري بعد كل هذا، إذا ما كنت سأنجح في إقناعك بالركض نحو سكينة هذه المدينة الطيبة. أشتهي أيها المجنون، أن أستقبلك في مطار فيينا. فلا تخذلني. أريد للحظة واحدة، وعلى الرغم من العسس الذي يتحسس كل مساء نبضي وتنفسي، أن أكون عروسك التي تركض نحوك أول ما تنزل من الطائرة، وأسرقك نحو أقرب نزل وهناك أمارس عليك كل الجنون الذي دفنه غيابك في جسدي. أريد حبيبي، أن أكون أول من يراك في فيينا، وأول من يقبلك بحرارة، وآخر من يودعك. أنتظرك عمري، ولن أمل من ذلك.

أحبك

ليلي، حبيبتك التي تشبهك في كل شيء، حتى في هبلها.

القدس، فيينا. خريف ٢٠٠٧.

الفصل الثالث

بَهَاءُ الظِلِّ

-١-

الجو بارد.

«الصباح النيلي يتفتح في الخارج كوردة مثقلة بالماء والعطر».

عندما فتحت الباب، تسربت رائحة زهر البنفسج إلى عمق السكريبتوريوم بقوة. شعرت بها تدخل مندّاة بعطر الفجر. بعثتْ فيَّ حالة خاصة من الانتشاء الجميل. قبل قليل، عدت من غرفتي يونس ومايا. كل شيء على ما يرام. ينامان كملاكين. ابتسامة مايا لم تتغير. وحزن يونس لم ينسحب من على ملامحه الذابلة. غطيتهما، ثم نزلت بهدوء نحو السكريبتوريوم. كانت ملامح الصباح قد اتضحت كلها. تأملت طويلاً الأفق النيلي. كان جميلاً على الرغم من كتل الضباب الثقيلة التي كانت من حين لآخر تغطيه، زارعة ظلمتها على كل المحيط. كان صباحنا يشبه تماماً مساء جزيرة لانغا-لاند.

منذ البداية، راودتني فكرة جهنمية. أحلم بكثير من كتاب عن سيرة واسيني الذي نويت إنجازه بعد تأكدي من غرقه في غيبوبة طويلة. تأكد لي مع الزمن، أن سيرة واسيني الأولى والأخيرة، والأكثر شفافية، موجودة في كتاباته، حتى ولو تعنت ولم يعترف بذلك. قلت في خاطري: هناك حل آخر، أقوى وأصدق. لماذا لا أجمع كل رسائله الجميلة أو على الأقل بعضها، التي كتبها لي. وتلك التي تلقاها مني، وأضعها بين أيدي قرائه الذين أحبوه؟ وضعت شرطاً واحداً حددته لنفسي، هو أن لا أتدخل فيها، ولا أغير حرفاً واحداً فيها مثلما فعل هو سابقاً. أنشرها كما هي، حتى ولو اضطرني ذلك إلى أن أضغط بين أسناني، على سكين الغيرة بقوة، لكي لا أتألم بشكل مفضوح، ولا أعوي مثل ذئبة مجروحة في صدرها.

لكني فجأة، عدلت عن هذه الفكرة، عندما عرفت أنه تماثل للشفاء، وعاد إلى الحياة أكثر إصراراً على مواصلة قدره الجميل.

ما حصل لي بعدها هو شيء غريب يضاهي الحالة المرضية. أصبت بخيبة ممزوجة بفرح دفين، لأني كنت قد حضرت كل شيء للحداد. حتى اللباس الأسود الذي اشتهيت ارتداءه ذات ليلة حزينة في حضرة واسيني،

الذي حرمني تعنته من لبس بياض العرس. فكرت حتى في نص الشاهدة الذي توضع على قبره، على رأس جبل جده، في عزلة وسكينة تامة، حيث لا شيء، إلا الفراغ والبحر الذي يذهب ويجيء عند قدميه: **على هذه الحافة الصامتة ينام واسيني، الطفل الذي قضى العمر كله يبحث عن البنفسج البري، ويسابق ظله الراكض صوب البحر، ويحاول أن يملأ كفه بأشعة الشمس وفراشات النور.** وصية غير رسمية، ومع ذلك حفظتها عن ظهر قلب. قالها لي ذات ليلة مسروقة على حافة نهر التايمز، في لندن، وهو في أجمل لحظات التيه. عيناه ليلتها كانتا مليئتين بالنور والألق، وبعض الحزن. ضحك كثيراً ولم ينم إلا عندما أصابتني إغفاءة الفجر على صدره.

ألغيت بسرعة فكرة الرسائل، لأنها فقدت جدواها، قبل أن أعود لها ثانية بلا سبب ظاهر. ربما انتقاماً من واسيني نفسه. قلت لم لا أواصل الجنون الذي افترضته منذ البداية؟ نشر الرسائل؟ الجنون الذي يخرجني من نعت سيدة الظل والورق، ويقربني أكثر من امرأة الحياة اليومية التي لها جسد وروح وأحاسيس؟ هذه المرة لم تنتبني أية لحظة تردد أو تأنيب ضمير. قلت لنفسي: واسيني نشر بعضها متخفياً وراء فن الرواية، وأنا أنشرها كما وردت في أصلها، ولست في حاجة إلى التخفي إذ ليس لدي ما أخسره إلا قيود الحياة الثقيلة.

طبعاً، لن ألبس صوتاً ذكورياً لحماية نفسي من الخوف، ولكي أتمكن من التعبير عن أشواقي وشططي مثلما تفعل الكثيرات من الكاتبات العربيات لتمرير حماقاتهن الخفية، ولكني سأكون أنا بكل إرثي العشقي الذي يشفع لي هذا الجنون، المؤذي ربما، لي وله، ولكن هذا أيضاً هو رهان الكتابة القاسي. فأنا في محيط من المقتلات، إذا لم يقتلني واسيني، وهو لن يفعل ذلك، لن أنجو من مخالب رياض، الهادئ والصبور، ولكنه عندما ينفجر، سيأخذ كل شيء في طريقه كالطوفان. وإذا غفرت لي مايا التي تحس بألمي المضمر، لا أعتقد أن يونس عندما يكبر قليلاً، يتحمل عيون القتلة المحيطين به والمدججين بالدين والسياسة والتقاليد المريضة. لن ترحمني القبيلة التي ينتمي لها والدي لأني أفسدت نسلها، وأدخلت عليه ما ليس منه. ولا قبيلة

زوجي المفتخرة بنقائها العرقي، التي أدخلت عليها جينات غريبة.

أعتذر لواسيني أني صنعت كتاباً كاملاً من رسائلنا، وحتى من بعض رسائل غيرنا، التي لا يبدو عليها أنها نصوص أدبية فقط كما يتبدى ذلك في رواياته، وكما يوهمني أحياناً. كان يكفيني أن أتوغل في عينيه لأكتشف كذبته الجميلة: **هذه الحرارة الوجدانية لا يمكن أن تكون أدبية فقط يا واسيني!** ينظر إلي. يبتسم كعادته، ثم ينهمك في أدخنته وكأسه. أفهم دلالة كل حركة تصدر من أصابعه، من يده، من نفسه، من ملامحه، من هزة رأسه، من قيامه وقعوده، من حركاته... كل شيء فيه كان لغة لا أحد يتقنها غيري. أدرك جيداً أنها بعض من الخديعات الدفينة التي يحاول واسيني تكميمها خوفاً ربما من محيط لا يرحم، أو بكل بساطة حفاظاً على دواخله التي يرفض أن يطأها الآخرون. هو يدرك جيداً أني لست متفقة معه وأسمي هذا جبناً ذكورياً لا أكثر، ولكني أعذره.

- «ليعذرني واسيني، مرة أخرى».

فقد تلصصت، وعلى مدار ربع قرن، على أنفاسه، ونبضات جسده، وعلى كل نصوصه، بل وعلى ظروف كتابتها، واستطعت أن أقيس بميزان الخوف الذي لا أحد يملكه غيري، درجة العشق المبطن فيها. استطعت في النهاية أن أجمع منها هذا الكتاب الذي لم يقل في نهاية المطاف إلا شوقاً خفياً ظللت أشعر أني معنية به بقوة حتى عندما كان يوجّه لغيري من حين لآخر. وليذهب إلى الجحيم سدنة الأخلاق والسير المزيفة، والكذب. فهذا ليس شأني. وليعذرني واسيني أني قلت حقيقته، حقيقتنا، بدون إذنه. لم أر ضرورة استئذانه أبداً. ما له، كان لي.

لم... من منا يستأذن الآخر، عندما يتعلق الأمر بحماقة الحب؟

«واسيني، يا رجلي الهارب مني إلي، طوبى لتلك اليد المرتعشة صدقاً ورهبة، يدك، التي دفعت بي في عمق الجحيم المقدس الذي اسمه التيه والحب الذي لا شيء يضبطه إلا إيقاع الجنون».

-٢-

يتصور الجميع في بيتي، أن الطابق السفلي الشبيه بالقبو، لا يصلح إلا لرمي الزوائد، ما عدا حبيبتي مايا، فهي تعرف أنه مكاني الأليف. كلما رأتني حزينة، قالت لي: انزلي ماما إلى الكهف وارتاحي قليلاً.. **اكتبي أو اسمعي إلى الموسيقى، أنت في حاجة إلى أن تكوني وحيدة.** يظنون أن هذا المكان ليس أكثر من الذاكرة المهملة للبيت، وينسون أنه أيضاً ذاكرتي. كلما نزلت نحو أعماقه، ارتجف جسدي بقوة. أول لمسة من واسيني بعد زواجي كانت في هذا المكان. اشتهيته أن يأتي. كان رياض يقايض خيط الحرير الصناعي في اليابان. نمنا على سرير حديدي قديم جداً. لايزال صوته يضج في رأسي. تلمسته وأنا أشعر أن جسدي كان يقشعر بقوة لأن يدي لم تكن يدي، ولكنها كانت يده التي كانت تعبر جسدي وتنزلق عليه كثعبان الغواية. لم أشعر بالألم. بت ملتصقة به حتى الصباح، ولم تنتبني ولا ذرة خوف.

فتحت الخزانة القديمة، التي أغلقها دائماً. قفزت في البداية المنشفة الزرقاء الطويلة التي تغطينا بها عندما خرجنا من الحمام المشترك. هو لا يحب الحمام المشترك، ولكني أجبرته على التعري والاستحمام معي. عندما انغمس في لحظ الحب، نسي كل شيء، ولم يعد يأبه بما كان يحيط به.

فتحت صناديقها الداخلية التي بها ألبستي الخاصة. «تيشورت» برتقالي، قمصان نوم أغلبها لم ألبسها له لأني أصبحت أراه خارج المدينة، وفي أمكنة بعيدة. فنقلت جزءاً منها إلى بيته الخاص على الحافة، في العاصمة. قميص واحد ارتبط بذاكرتي. لونه بحري، مائل نحو زرقة حليبية. لايزال التمزق الموجود في جانبه الأيسر يبين عنف اللحظة التي دفعت به إلى تمزيقه علي. وجدت في صوت التمزق متعة غريبة كأنه كان ينزع عني غشاء العفة التافه. تركته على حاله. لم أخيطه، بل لم أغسله من عرق تدفق ليلة بكاملها على حواشيه الأكثر حساسية. رائحته مازالت كما في المرة الأولى عندما اختلط جسدانا. اشتريته من روما هو أيضاً، في رحلة آذتني كثيراً بسبب حضور طالبته الروسية آنيا. الغريب أني عندما رأيته، انزلقت بسرعة داخل المحل. لم يسألني واسيني ماذا كنت أفعل، كان يعرف جيداً أن جنياً أحمر كان

قد ركبني. ثم هذا اللباس الأسود الذي ارتديته عندما كانت البلاد تحترق. اشتريته من باريس. سألني يومها: ماذا تفعلين يا مجنونة؟ قلت له أريد أن أموت وأنا جميلة ومجللة بالسواد. لبسته يومها في المحل وخرجت به. بعدها التصق اللون بجلدي ولم أستطع نزعه أبداً. في كل لباسي شيء من السواد حتى ولو من أجل كسر اللون الواحد.

تعلمت الرقص لا لأكون راقصة محترفة، ولكن لأن طبيبي نصحني بذلك لتفادي السمنة وأمراض الوزن الزائد. طبعاً لم أكن راقصة في حياتي. ما قاله عني واسيني في سيدة المقام، لم يكن إلا لعبة أدبية استوحاها من حالتين: حالة راقصة حقيقية عرفها في دمشق، في مهرجان الموسيقى الكلاسيكية في مسرح بصرى، وحالات متعددة أخرى، ربما كان واسيني أكفأ مني للحديث عنها. أنا اليوم صممت أن أتحدث عن حياتي بلا وسائط كما أنا. كما اشتهيت أن أكون. أو على الأقل، كما كنت في الحقيقة وليس على الورق.

فجأة سمعت همس واسيني في أذني يأتيني من مكان ما من زوايا البيت:

- «يا دينك ما أحلاك؟

نبهته.

- أشششششش... قلتها بهدوء «شوف واش كاين قدامك».

كان حارسان من حراس النوايا يعبران الطريق، ولست أدري ما هي القوة التي منعتهم من أن يطلبا مني أن أظهر لهما أوراقي الثبوتية، والدفتر العائلي الذي تعودوا على طلبه من كل الشباب والشابات الذين يصادفونهم في الطريق. كنت مهبولة، لأن تلك الليلة التي أصبحت اليوم بعيدة، لم نعد إلى البيت ولكننا ذهبنا عند صديق قضينا بقية الليل بصحبته.

سحبت الدرج الصغير، رأيت كل تشكيلة قناني العطور الفارغة، المصطفة كأدوات متحفية غالية. أستطيع اليوم أن أعدها كاملة. منذ أكثر من عشرين سنة وأنا أحافظ عليها كالذي يحافظ على كنز ثمين: **كوكو شانيل، بوازون، إيف روشي، فان كليف، سينيما، جادور، لانكوم، نينا ريتشي، غوتشي، غوتييه، إيف سان لوران**..

كان متحفي السري.

عثرت على الكثير من أشيائي الصغيرة. حتى صندوق الرسائل الأندلسي الذي استعدته من البنك برضا واسيني. كان في البداية بهذه الخزانة قبل أن أسحبه نحو مكتبي. أحفظه في عمق بؤبؤ العين لكي لا يلمسه نفس آخر غير أشواقي. الرسائل هي كنزي الثمين. البعض منها مرره واسيني بحذق بين نصوصه الروائية لكي لا يتنبه له أحد، بعد أن أجرى تغييرات كثيرة في هياكلها، بعضها الآخر بعث به في شكل رسائل سرية مشفرة كانت تصلني تباعاً، عبر الانترنت. يقول واسيني إن هذا الصندوق هو آخر ما تبقى من مكتبة جده الأندلسي. أعز شيء لديه ولهذا دفن فيه أسرارنا، وربما أسرار نساء أخريات، لا أريد أن أعرف. «أريح» لي وله. كان تحت المخدر بين الإغفاءة واليقظة، في مستشفى الأمراض القلبية: كوشان سان فانسون دو بول Cochin-Saint Vincent de Paul، بباريس في جناح العناية المشددة. أفهمته أني بحاجة لكل ما يخصه. فهمني بعينيه وأدرك الحماقة التي كنت بصدد ارتكابها، أو هكذا بدا لي على الأقل. كنت أملك مفتاح البنك الذي وضع فيه كل أسراره. استل ضحكة متعبة وهو يفضي لي بالسر: اذهبي للبنك. فأنت شريكي الأول في الهبل ووريثي الوحيد. خذي كل شيء. لن تجدي أموالاً كثيرة باستثناء ميداليات ذهبية من اليونيسكو وأخرى خاصة بجوائزي الأدبية المتواضعة. ذخيرتك الوحيدة، رسائلك ورسائل أخرى... لقد أصبحنا كياناً واحداً. احتفظي بها، وإن شئتِ أحرقيها، سأعذرك. لا يهم. فهي لك. حافظي على نبضك وعلى هشاشة الآخرين.

- «لا تنتهي من هبلك حتى وأنت على حافة الموت! قصدك نساء أخريات! هل في الدنيا حبيب يوصي حبيبته بالرفق بنسائه السريات؟ عائشة نفسها لم تستطع تحمل هذا الشطط مع ماريا القبطية. فلماذا تطلب مني ذلك؟

- ليس هذا ما أعنيه... عندما تقرئين الرسائل تعرفين سر النداءات الداخلية. نحن نلتقي ليس فقط اشتهاء، ولكن أيضاً لأننا في حاجة إلى أمان نفقده في حياتنا اليومية. يلبسنا خوف لا نعرف مصدره، ونحتاج لمن يفككه معنا.

- حتى في الموت، لا تتخلى عن كونك روائياً» ؟

يبتسم ثم يغيب في غفوته كأني لم أكن موجودة.

عندما دخلت عليه أول وآخر مرة، وعبرت جناح الأمراض القلبية والشريانية الذي يديره البروفيسور فيبر، الأستاذ المختص بجامعة باريس الرابعة، قادمة من بعيد، وبعد أن هربت من أخت زوجي، لم يعرفني واسيني في البداية. لكنه، كما قال لي فيما بعد، إنه شم عطري، ورائحة جسدي عندما انحنيت عليه بصدر كان يعرف خفاياه جيداً، لأقبل بشهية، شفتيه اليابستين، تمتم: ليلي حبيبتي. كانت المرة الوحيدة التي أشعر فيها بالفعل بلذة استرجاع اسمي، بدل اسم مريم الذي قهرني.

- «لماذا تناديني ليلي؟ ألست مريمتك؟

تساءلت بخبث مقصود.

- مريم لن تكونك أبداً. أبداً. أبداً...

لم أعرف لماذا فعل ذلك.

ثم صمت وكأنه تعب من قول كلمتين خرجتا من قلب منهك.

وضعت عنواني الإلكتروني الجديد في عمق كف يده.

- واسيني... حبيبي. عندما تستطيع القيام أجب عن رسائلي الكثيرة.

- ليلي... عمري... أنا بخير... سأقوم قريباً».

كأنه قرأ خوفي الضامر في عيني.

قبلته. نسمة فقط بللت شفتيه اليابستين. ثم انسحبت من المستشفى قبل أن يصل شخص يعرفني. فلا وضع اعتبارياً لي في هذا المكان بالذات. خفت، على الرغم من أن اليوم لم يكن يوم زيارات، ولا حتى الوقت المناسب. حتى عندما رأتني طبيبة القلب الشابة الحامل، الدكتورة مانزو شيرمان، وأنا أتحسس وجهه وملامحه التي انكسرت قليلاً، فوجئتُ بوجودي. قلتُ لها بلغة فرنسية فيها الكثير من التردد:

- Je m'excuse, c'est mon mari. Mon mari. Je viens de très loin pour le voir[98].



زوجي. زوجي.

كررتها مرتين. حاولت أن لا أظهر أي ارتباك في كلامي. فتحت الطبيبة الشابة والأنيقة عينيها قليلاً، فهي، بدون شك، تعرف زوجته الحقيقية.

شعرت أنها امرأة ملعونة حقيقة. ابتسمتُ.

عرفتْ كل شيء من عينيها ومن كلماتها.

- Ah bon, je ne savais pas. Surtout ne tardez pas[99].

لكن واسيني خفف من الوضع بتمتمات خرجت بصعوبة من جرح صدره:

- Ne craignez rien madame, Mylie, n'est pas ma femme, c'est mon souffle divin[100].

ابتسمت وقالت: طيب... سأعود بعد قليل.

وهي تمر بالقرب مني، عرفت من رائحة العطر الذي كان على جسدها، اسمه، على الرغم من رائحة الأدوية القوية. أردت أن أستفز واسيني الذي يحب كثيراً عطور إيف سان- لوران، ولكني عدلت عن الفكرة. كان الوقت ضدي.

انسحبت بعدها بقليل. مازلت امرأة الظل، ولا يجب أن يراني أحد.

لا أتذكر الشيء الكثير من تلك اللحظة.

كانت إغفاءة واسيني طفولية، حتى وهو في فراش الغيبوبة، مسيَّجاً بالأنابيب والخيوط والأجهزة المعقدة. كان يمكنْ أن يموت لولا التدخل السريع، ولولا هذه الأجهزة التي كانت تمده بالاكسجين، وتراقب سيولة دمه، ونبضه، ودقات قلبه الهش. كانت هذه أول وآخر مرة أراه فيها في المستشفى.

اليوم، كلما اشتقت إلى واسيني، وكلما اشتهيت البكاء في دفئه، انسحبت نحو السكريبتوريوم، وبقيت هناك الوقت الذي أشاء. أخرج بعدها مرتاحة القلب والذاكرة.

-٣-

«هل قلت كل ما كنت أنوي قوله؟ لا أدري بالضبط».

من حق واسيني أن يطلق النار عليَّ برواية مجنونة، كما تعود أن يفعل معي كلما أحرقه غيابي، وحتى مع غيري، أو يرفع ضدي دعوى قضائية. فقد قررت من تلقاء نفسي، أن أخرج كل شيء من نظامه الخامل، وأخترق عذرية الظلام، وأضع هذه الرسائل بين أيدي قرائه الذين يحبونه ويحبهم بصدق.

أعرف أيضاً أن بعض الذين لم يكن لهم حظه في الحياة، ولا يحبونه لهذا السبب، سيقرؤون هذه الرسائل بشغف الحسود، وسيسعدون جداً بها، لأنها توفر لهم مادة خاماً يقضون فيها سنة ينحتون فيها فشلهم وخيباتهم. هذا كله لا يهم أبداً، ولا يشغلني. إن القوة التي تلف هذه الرسائل هي أصدق لحظة لا يستطيع أن يعيشها جميع البشر. سيصمت الأعداء بعد العاصفة الأولى، لأنه ببساطة، أن تكون بهذه القوة من الأحاسيس، عليك أولاً أن تكون إنساناً، أو على الأقل مؤهلا لذلك.

-٤-

لم أبذل جهداً كبيراً لإيجاد عنوان لهذا الكتاب سوى رسالته الأخيرة التي بعث لي بها يوم خروجه من المستشفى، والتي كانت تحمل عنواناً جميلاً: ليلي.. فلُّ الوردة.. أنثى السراب. لقيمتها ولرشاقتها أيضاً على الأقل بالنسبة لي، لأنها توقظ فيَّ بعض نرجسيتي الدفينة، وبهائي الداخلي. اخترتها من بين عشرات الرسائل التي انتخبتها من مخزونات الصندوق الخشبي.

وأنا أرتب ألبستي الكثيرة، تذكرت أحزن رسالة كنت قد خبأتها تحتها. كتبها واسيني يوم افتقد عزيزاً، أخاه. كلما اشتقت لواسيني في صفائه وطفولته الأولى، ذهبت نحوها وقرأتها من جديد، وكأني أقرأها للمرة الأولى. أبكي ثم أخبئها.

لها مكانها في هذا الكتاب. أعرف جيداً درجة حب واسيني لأخيه الذي غادرنا في وقت مبكر. كان عزيز أيضاً صديقي وحليفي في الأيام الصعبة. كلما انغلقت علي سبل الدنيا، أو جرحني واسيني، أو هز يقيني فيه، كنت



-١-

الجو بارد.

«الصباح النيلي يتفتح في الخارج كوردة مثقلة بالماء والعطر».

عندما فتحت الباب، تسربت رائحة زهر البنفسج إلى عمق السكريبتوريوم بقوة. شعرت بها تدخل مندّاة بعطر الفجر. بعثتْ فيَّ حالة خاصة من الانتشاء الجميل. قبل قليل، عدت من غرفتي يونس ومايا. كل شيء على ما يرام. يناماني كملاكين. ابتسامة مايا لم تتغير. وحزن يونس لم ينسحب من على ملامحه الذابلة. غطيتهما، ثم نزلت بهدوء نحو السكريبتوريوم. كانت ملامح الصباح قد اتضحت كلها. تأملت طويلاً الأفق النيلي. كان جميلاً على الرغم من كتل الضباب الثقيلة التي كانت من حين لآخر تغطيه، زارعة ظلمتها على كل المحيط. كان صباحنا يشبه تماماً مساء جزيرة لامبا-لاند.

منذ البداية، راودتني فكرة جهنمية، أحلى بكثير من كتاب عن سيرة واسيني الذي نويت إنجازه بعد تأكدي من غرقه في غيبوبة طويلة. تأكد لي مع الزمن، أن سيرة واسيني الأولى والأخيرة، والأكثر شفافية، موجودة في كتاباته، حتى ولو تعنت ولم يعترف بذلك. قلت في خاطري: هناك حل آخر، أقوى وأصدق. لماذا لا أجمع كل رسائله الجميلة أو على الأقل بعضها، التي كتبها لي، وتلك التي تلقاها مني، وأضعها بين أيدي قرائه الذين أحبوه؟ وضعت شرطاً واحداً حددته لنفسي، هو أن لا أتدخل فيها، ولا أغير حرفاً واحداً فيها مثلما فعل هو سابقاً. أنشرها كما هي، حتى ولو اضطرني ذلك إلى أن أضغط بين أسناني، على سكين الغيرة بقوة، لكي لا أتألم بشكل مفضوح، ولا أعوي مثل ذئبة مجروحة في صدرها.

لكني فجأة، عدلت عن هذه الفكرة، عندما عرفت أنه تماثل للشفاء، وعاد إلى الحياة أكثر إصراراً على مواصلة قدره الجميل.

ما حصل لي بعدها هو شيء غريب يضاهي الحالة المرضية. أصبت بخيبة ممزوجة بفرح دفين، لأني كنت قد حضرت كل شيء للحداد. حتى اللباس الأسود الذي اشتهيت ارتداءه ذات ليلة حزينة في حضرة واسيني،

الذي حرمني تعنته من لبس بياض العرس. فكرت حتى في نص الشاهدة الذي توضع على قبره، على رأس جبل جده، في عزلة وسكينة تامة، حيث لا شيء، إلا الفراغ والبحر الذي يذهب ويجيء عند قدميه: **على هذه الحافة الصامتة ينام واسيني، الطفل الذي قضى العمر كله يبحث عن البنفسج البري، ويسابق ظله الراكض صوب البحر، ويحاول أن يملأ كفه بأشعة الشمس وفراشات النور.** وصية غير رسمية، ومع ذلك حفظتها عن ظهر قلب. قالها لي ذات ليلة مسروقة على حافة نهر التايمز، في لندن، وهو في أجمل لحظات التيه. عيناه ليلتها كانتا مليئتين بالنور والألق، وبعض الحزن. ضحك كثيراً ولم ينم إلا عندما أصابتني إغفاءة الفجر على صدره.

ألغيت بسرعة فكرة الرسائل، لأنها فقدت جدواها، قبل أن أعود لها ثانية بلا سبب ظاهر. ربما انتقاماً من واسيني نفسه. قلت لم لا أواصل الجنون الذي افترضته منذ البداية؟ نشر الرسائل؟ الجنون الذي يخرجني من نعت سيدة الظل والورق، ويقربني أكثر من امرأة الحياة اليومية التي لها جسد وروح وأحاسيس؟ هذه المرة لم تنتبني أية لحظة تردد أو تأنيب ضمير. قلت لنفسي، واسيني نشر بعضها متخفياً وراء فن الرواية، وأنا أنشرها كما وردت في أصلها، ولست في حاجة إلى التخفي إذ ليس لدي ما أخسره إلا قيود الحياة الثقيلة.

طبعاً، لن ألبس صوتاً ذكورياً لحماية نفسي من الخوف، ولكي أتمكن من التعبير عن أشواقي وشططي مثلما تفعل الكثيرات من الكاتبات العربيات لتمرير حماقاتهن الخفية، ولكني سأكون أنا بكل إرثي العشقي الذي يشفع لي هذا الجنون، المؤذي ربما، لي وله، ولكن هذا أيضاً هو رهان الكتابة القاسي. فأنا في محيط من المقتلات. إذا لم يقتلني واسيني، وهو لن يفعل ذلك، لن أنجو من مخالب رياض، الهادئ والصبور، ولكنه عندما ينفجر، سيأخذ كل شيء في طريقه كالطوفان. وإذا غفرت لي مايا التي تحس بألمي المضمر، لا أعتقد أن يونس عندما يكبر قليلاً، يتحمل عيون القتلة المحيطين به والمدججين بالدين والسياسة والتقاليد المريضة. لن ترحمني القبيلة التي ينتمي لها والدي لأني أفسدت نسلها، وأدخلت عليه ما ليس منه. ولا قبيلة

زوجي المفتخرة بنقائها العرقي، التي أدخلت عليها جينات غريبة.

أعتذر لواسيني أني صنعت كتاباً كاملاً من رسائلنا، وحتى من بعض رسائل غيرنا، التي لا يبدو عليها أنها نصوص أدبية فقط كما يتبدى ذلك في رواياته، وكما يوهمني أحياناً. كان يكفيني أن أتوغل في عينيه لأكتشف كذبته الجميلة: **هذه الحرارة الوجدانية لا يمكن أن تكون أدبية فقط يا واسيني!** ينظر إلي. يبتسم كعادته، ثم ينهمك في أدخنته وكأسه. أفهم دلالة كل حركة تصدر من أصابعه، من يده، من نفسه، من ملامحه، من هزة رأسه، من قيامه وقعوده، من حركاته... كل شيء فيه كان لغة لا أحد يتقنها غيري. أدرك جيداً أنها بعض من الخديعات الدفينة التي يحاول واسيني تكميمها خوفاً ربما من محيط لا يرحم، أو بكل بساطة حفاظاً على دواخله التي يرفض أن يطأها الآخرون. هو يدرك جيداً أني لست متفقة معه وأسمي هذا جبناً ذكورياً لا أكثر، ولكني أعذره.

– «ليعذرني واسيني، مرة أخرى».

فقد تلصصت، وعلى مدار ربع قرن، على أنفاسه، ونبضات جسده، وعلى كل نصوصه، بل وعلى ظروف كتابتها، واستطعت أن أقيس بميزان الخوف الذي لا أحد يملكه غيري، درجة العشق المبطن فيها. استطعت في النهاية أن أجمع منها هذا الكتاب الذي لم يقل في نهاية المطاف إلا شوقاً خفياً ظللت أشعر أني معنية به بقوة حتى عندما كان يوجّه لغيري من حين لآخر. وليذهب إلى الجحيم سدنة الأخلاق والسير المزيفة، والكذب، فهذا ليس شأني. وليعذرني واسيني أني قلت حقيقته، حقيقتنا، بدون إذنه. لم أر ضرورة استئذانه أبداً. ما له، كان لي.

لم... من منا يستأذن الآخر، عندما يتعلق الأمر بحماقة الحب؟

«واسيني، يا رجلي الهارب مني إلي، طوبى لتلك اليد المرتعشة صدقاً ورهبة. يدك، التي دفعت بي في عمق الجحيم المقدس الذي اسمه التيه والحب الذي لا شيء يضبطه إلا إيقاع الجنون».

-٢-

يتصور الجميع في بيتي، أن الطابق السفلي الشبيه بالقبو، لا يصلح إلا لرمي الزوائد، ما عدا حبيبتي مايا، فهي تعرف أنه مكاني الأليف. كلما رأتني حزينة، قالت لي: **انزلي ماما إلى الكهف وارتاحي قليلاً.. اكتبي أو اسمعي إلى الموسيقى. أنت في حاجة إلى أن تكوني وحيدة.** يظنون أن هذا المكان ليس أكثر من الذاكرة المهملة للبيت، وينسون أنه أيضاً ذاكرتي. كلما نزلت نحو أعماقه، ارتجف جسدي بقوة. أول لمسة من واسيني بعد زواجي كانت في هذا المكان. اشتهيته أن يأتي. كان رياض يقايض خيط الحرير الصناعي في اليابان. نمنا على سرير حديدي قديم جداً. لايزال صوته يضج في رأسي. تلمسته وأنا أشعر أن جسدي كان يقشعر بقوة لأن يدي لم تكن يدي، ولكنها كانت يده التي كانت تعبر جسدي وتنزلق عليه كثعبان الغواية. لم أشعر بالألم. بت ملتصقة به حتى الصباح، ولم تنتبني ولا ذرة خوف.

فتحت الخزانة القديمة، التي أغلقها دائماً. قفزت في البداية المنشفة الزرقاء الطويلة التي تغطينا بها عندما خرجنا من الحمام المشترك. هو لا يحب الحمام المشترك، ولكني أجبرته على التعري والاستحمام معي. عندما انغمس في لحظ الحب، نسي كل شيء، ولم يعد يأبه بما كان يحيط به.

فتحت صناديقها الداخلية التي بها ألبستي الخاصة. «تيشورت» برتقالي، قمصان نوم أغلبها لم ألبسها له لأني أصبحت أراه خارج المدينة، وفي أمكنة بعيدة. فنقلت جزءاً منها إلى بيته الخاص على الحافة، في العاصمة. قميص واحد ارتبط بذاكرتي. لونه بحري، مائل نحو زرقة حليبية. لايزال التمزق الموجود في جانبه الأيسر يبين عنف اللحظة التي دفعت به إلى تمزيقه علي. وجدت في صوت التمزق متعة غريبة كأنه كان ينزع عني غشاء العفة التافه. تركته على حاله. لم أخيطه، بل لم أغسله من عرق تدفق ليلة بكاملها على حواشيه الأكثر حساسية. رائحته مازالت كما في المرة الأولى عندما اختلط جسدانا. اشتريته من روما هو أيضاً، في رحلة آذتني كثيراً بسبب حضور طالبته الروسية آنيا. الغريب أني عندما رأيته، انزلقت بسرعة داخل المحل. لم يسألني واسيني ماذا كنت أفعل. كان يعرف جيداً أن جنياً أحمر كان

قد ركبني. ثم هذا اللباس الأسود الذي ارتديته عندما كانت البلاد تحترق. اشتريته من باريس. سألني يومها: ماذا تفعلين يا مجنونة؟ قلت له أريد أن أموت وأنا جميلة ومجللة بالسواد. لبسته يومها في المحل وخرجت به. بعدها التصق اللون بجلدي ولم أستطع نزعه أبداً. في كل لباسي شيء من السواد حتى ولو من أجل كسر اللون الواحد.

تعلمت الرقص لا لأكون راقصة محترفة، ولكن لأن طبيبي نصحني بذلك لتفادي السمنة وأمراض الوزن الزائد. طبعاً لم أكن راقصة في حياتي. ما قاله عني واسيني في سيدة المقام، لم يكن إلا لعبة أدبية استوحاها من حالتين: حالة راقصة حقيقية عرفها في دمشق، في مهرجان الموسيقى الكلاسيكية في مسرح بصرى، وحالات متعددة أخرى. ربما كان واسيني أكفأ مني للحديث عنها. أنا اليوم صممت أن أتحدث عن حياتي بلا وسائط كما أنا. كما اشتهيت أن أكون. أو على الأقل، كما كنت في الحقيقة وليس على الورق.

فجأة سمعت همس واسيني في أذني يأتيني من مكان ما من زوايا البيت:

- **«يا دينك ما أحلاك؟**

نبهته.

- أشششششش... قلتها بهدوء **«شوف واش كاين قدامك».**

كان حارسان من حراس النوايا يعبران الطريق، ولست أدري ما هي القوة التي منعتهم من أن يطلبا مني أن أظهر لهما أوراقي الثبوتية، والدفتر العائلي الذي تعودوا على طلبه من كل الشباب والشابات الذين يصادفونهم في الطريق. كنت مهبولة، لأن تلك الليلة التي أصبحت اليوم بعيدة، لم نعد إلى البيت ولكننا ذهبنا عند صديق قضينا بقية الليل بصحبته.

سحبت الدرج الصغير، رأيت كل تشكيلة قناني العطور الفارغة، المصطفة كأدوات متحفية غالية. أستطيع اليوم أن أعدها كاملة. منذ أكثر من عشرين سنة وأنا أحافظ عليها كالذي يحافظ على كنز ثمين: **كوكو شانيل، بوازون، إيف روشي، فان كليف، سيتيما، جادور، لانكوم، نينا ريتشي، غوتشي، غوتنتيه، إيف سان لوران..**

كان متحفي السري.

عثرت على الكثير من أشيائي الصغيرة. حتى صندوق الرسائل الأندلسي الذي استعدته من البنك برضا واسيني. كان في البداية بهذه الخزانة قبل أن أسحبه نحو مكتبي. أحفظه في عمق بؤبؤ العين لكي لا يلمسه نفس آخر غير أشواقي. الرسائل هي كنزي الثمين. البعض منها مرره واسيني بحذق بين نصوصه الروائية لكي لا يتنبه له أحد، بعد أن أجرى تغييرات كثيرة في هياكلها، بعضها الآخر بعث به في شكل رسائل سرية مشفرة كانت تصلني تباعاً، عبر الانترنت. يقول واسيني إن هذا الصندوق هو آخر ما تبقى من مكتبة جده الأندلسي. أعز شيء لديه ولهذا دفن فيه أسرارنا، وربما أسرار نساء أخريات، لا أريد أن أعرف. «أريح» لي وله. كان تحت المخدر بين الإغفاءة واليقظة، في مستشفى الأمراض القلبية: كوشان سان فانسون دو بول Cochin-Saint Vincent de Paul، بباريس في جناح العناية المشددة. أفهمته أني بحاجة لكل ما يخصه. فهمني بعينيه وأدرك الحماقة التي كنت بصدد ارتكابها، أو هكذا بدا لي على الأقل. كنت أملك مفتاح البنك الذي وضع فيه كل أسراره. استل ضحكة متعبة وهو يفضي لي بالسر: اذهبي للبنك. فأنت شريكي الأول في الهبل ووريثي الوحيد. خذي كل شيء. لن تجدي أموالاً كثيرة باستثناء ميداليات ذهبية من اليونيسكو وأخرى خاصة بجوائزي الأدبية المتواضعة. ذخيرتك الوحيدة، رسائلك ورسائل أخرى. لقد أصبحنا كياناً واحداً. احتفظي بها، وإن شئتِ أحرقيها، سأعذرك. لا يهم. فهي لك. حافظي على نبضك وعلى هشاشة الآخرين.

- «لا تنتهي من هبلك حتى وأنت على حافة الموت! قصدك نساء أخريات! هل في الدنيا حبيب يوصي حبيبته بالرفق بنسائه السريات؟ عائشة نفسها لم تستطع تحمل هذا الشطط مع ماريا القبطية. فلماذا تطلب مني ذلك؟

- ليس هذا ما أعنيه.. عندما تقرئين الرسائل تعرفين سر النداءات الداخلية. نحن نلتقي ليس فقط اشتهاء، ولكن أيضاً لأننا في حاجة إلى أمان نفقده في حياتنا اليومية. يلبسنا خوف لا نعرف مصدره، ونحتاج لمن يفككه معنا.

- حتى في الموت، لا تتخلى عن كونك روائياً»؟

يبتسم ثم يغيب في غفوته كأني لم أكن موجودة.

عندما دخلت عليه أول وآخر مرة، وعبرت جناح الأمراض القلبية والشريانية الذي يديره البروفيسور فيبر، الأستاذ المختص بجامعة باريس الرابعة، قادمة من بعيد، وبعد أن هربت من أخت زوجي، لم يعرفني واسيني في البداية. لكنه، كما قال لي فيما بعد، إنه شم عطري، ورائحة جسدي عندما انحنيت عليه بصدر كان يعرف خفاياه جيداً، لأقبل بشهية، شفتيه اليابستين، تمتم: ليلي حبيبتي. كانت المرة الوحيدة التي أشعر فيها بالفعل بلذة استرجاع اسمي، بدل اسم مريم الذي قهرني.

- «لماذا تناديني ليلي؟ ألست مريمتك؟

تساءلت بخبث مقصود.

- مريم لن تكونك أبداً. أبداً. أبداً...

لم أعرف لماذا فعل ذلك.

ثم صمت وكأنه تعب من قول كلمتين خرجتا من قلب منهك.

وضعت عنواني الإلكتروني الجديد في عمق كف يده.

- واسيني.. حبيبي. عندما تستطيع القيام أجب عن رسائلي الكثيرة.

- ليلي.. عمري.. أنا بخير.. سأقوم قريباً».

كأنه قرأ خوفي الضامر في عيني.

قبلته. نسمة فقط بللت شفتيه اليابستين، ثم انسحبت من المستشفى قبل أن يصل شخص يعرفني. فلا وضع اعتبارياً لي في هذا المكان بالذات. خفت، على الرغم من أن اليوم لم يكن يوم زيارات، ولا حتى الوقت المناسب. حتى عندما رأتني طبيبة القلب الشابة الحامل، الدكتورة مانزو شيرمان، وأنا أتحسس وجهه وملامحه التي انكسرت قليلاً، فوجئتْ بوجودي. قلتُ لها بلغة فرنسية فيها الكثير من التردد:

- Je m'excuse, c'est mon mari. Mon mari. Je viens de très loin pour le voir[98].



زوجي. زوجي.

كررتها مرتين. حاولت أن لا أظهر أي ارتباك في كلامي. فتحت الطبيبة الشابة والأنيقة عينيها قليلاً، فهي، بدون شك، تعرف زوجته الحقيقية.

شعرت أنها امرأة ملعونة حقيقة. ابتسمتُ.

عرفتُ كل شيء من عينيها ومن كلماتها.

- Ah bon, je ne savais pas. Surtout ne tardez pas[99].

لكن واسيني خفف من الوضع بتمتمات خرجت بصعوبة من جرح صدره:

- Ne craignez rien madame, Mylie, n'est pas ma femme, c'est mon souffle divin[100].

ابتسمت وقالت: طيب... سأعود بعد قليل.

وهي تمر بالقرب مني، عرفت من رائحة العطر الذي كان على جسدها، اسمه، على الرغم من رائحة الأدوية القوية. أردت أن أستفز واسيني الذي يحب كثيراً عطور إيف سان- لوران، ولكني عدلت عن الفكرة. كان الوقت ضدي.

انسحبت بعدها بقليل. مازلت امرأة الظل، ولا يجب أن يراني أحد.

لا أتذكر الشيء الكثير من تلك اللحظة.

كانت إغفاءة واسيني طفولية، حتى وهو في فراش الغيبوبة، مسيّجاً بالأنابيب والخيوط والأجهزة المعقدة. كان يمكن أن يموت لولا التدخل السريع، ولولا هذه الأجهزة التي كانت تمده بالاكسجين، وتراقب سيولة دمه، ونبضه، ودقات قلبه الهش. كانت هذه أول وآخر مرة أراه فيها في المستشفى.

اليوم، كلما اشتقت إلى واسيني، وكلما اشتهيت البكاء في دفئه، انسحبت نحو السكريبتوريوم، وبقيت هناك الوقت الذي أشاء، أخرج بعدها مرتاحة القلب والذاكرة.

-٣-

«هل قلت كل ما كنت أنوي قوله؟ لا أدري بالضبط».

من حق واسيني أن يطلق النار عليّ برواية مجنونة، كما تعود أن يفعل معي كلما أحرقه غيابي، وحتى مع غيري، أو يرفع ضدي دعوى قضائية. فقد قررت من تلقاء نفسي، أن أخرج كل شيء من نظامه الخامل، وأخترق عذرية الظلام، وأضع هذه الرسائل بين أيدي قرائه الذين يحبونه ويحبهم بصدق.

أعرف أيضاً أن بعض الذين لم يكن لهم حظه في الحياة، ولا يحبونه لهذا السبب، سيقرؤون هذه الرسائل بشغف الحسود، وسيسعدون جداً بها، لأنها توفر لهم مادة خاماً يقضون فيها سنة ينحتون فيها فشلهم وخيباتهم. هذا كله لا يهم أبداً، ولا يشغلني. إن القوة التي تلف هذه الرسائل هي أصدق لحظة لا يستطيع أن يعيشها جميع البشر. سيصمت الأعداء بعد العاصفة الأولى، لأنه ببساطة، أن تكون بهذه القوة من الأحاسيس، عليك أولاً أن تكون إنساناً، أو على الأقل مؤهلاً لذلك.

-٤-

لم أبذل جهداً كبيراً لإيجاد عنوان لهذا الكتاب سوى رسالته الأخيرة التي بعث لي بها يوم خروجه من المستشفى، والتي كانت تحمل عنواناً جميلاً: ليلي.. فلُ الوردة.. أنثى السراب. لقيمتها ولرشاقتها أيضاً على الأقل بالنسبة لي، لأنها توقظ فيّ بعض نرجسيتي الدفينة، وبهائي الداخلي. اخترتها من بين عشرات الرسائل التي انتخبتها من مخزونات الصندوق الخشبي.

وأنا أرتب ألبستي الكثيرة، تذكرت أحزن رسالة كنت قد خبأتها تحتها. كتبها واسيني يوم افتقد عزيزاً، أخاه. كلما اشتقت لواسيني في صفائه وطفولته الأولى، ذهبت نحوها وقرأتها من جديد، وكأني أقرأها للمرة الأولى. أبكي ثم أخبئها.

لها مكانها في هذا الكتاب. أعرف جيداً درجة حب واسيني لأخيه الذي غادرنا في وقت مبكر. كان عزيز أيضاً صديقي وحليفي في الأيام الصعبة. كلما انغلقت علي سبل الدنيا، أو جرحني واسيني، أو هز يقيني فيه، كنت

أذهب نحوه، وأقول له كل ما في قلبي. عزيز، كان الوحيد الذي يعرف أنيني العميق وتمزقي. ويعرف جيداً كيف يصغي إليّ، ويمنحني هدوءاً ينسيني كل آلامي وجراحاتي.

بكلمة واحدة، كان عزيز بصبره ولطفه، يرجعني إلى أحضان واسيني:

- «ليلى. واسيني لا يحبك فقط. ولكنه يتنفسك ويحيا بك. تأكدي أنك إذا تركته سيموت اختناقاً.

أبكي بحزن، فينشف بأصابعه الملكوتية دمعي، وأحياناً يبكي معي.

- أنا أيضاً لا أرى حياتي خارج حياته.. فلماذا يؤذيني إذن؟

- أنا أعرف جيداً أنه يوم يفتقدك، لن يعود إلى الحياة حتى ولو سيجته ألف امرأة غيرك. أنت مداره الوحيد. في أعماقه طفل عنيد يصعب ترويضه وقهر حريته الداخلية. وحدك تفهمينه بالشكل الذي يليق بهذا الحب. أنت مقياسه في السعادة. كلما كان معك، شعرت أنه بخير، وأن حياته جميلة. وكلما ابتعد عنك، أحسست أن شيئاً فيه انكسر، ويحتاج إلى تجبير سريع».

أي سحر كانت تفتحه كلمات عزيز فيّ؟ وأية قوة كانت تدفعني مغمضة العينين نحو هذا الرجل.

- «تنتابني أحياناً أفكار شيطانية: لو لم يكن واسيني، لأحببت عزيزاً».

كان يشبهه في كل شيء، حتى في طفولته التي لم تقتلها الأيام. رفض أن يغادر القرية، ليس فقط للبقاء بجانب أمه التي كانت مرجعه الأول والأخير في الحياة، ولكن لكي لا يخسر ذرة واحدة من طفولته، وعطرها، وعفويتها. المدينة سرقت الكثير منها، من واسيني.

كلما رأيت عزيزاً، استحضرت بسهولة واسيني في خامته الأولى الأكثر صدقاً، والأقل ارتباكاً واهتزازاً وجنوناً.

* * *

مسالك الغريب[10]

عذراً عزيز، حبيبي الغالي. لقد نسيت أن لك قبراً مازال ينبض فيّ

-١-

حبيبي الغالي عزيز:

أنت دائماً هكذا. لم تتغير إلا قليلاً.

لم تكن فجيعة الموت هي المخيفة. تعودنا عليها حتى في أكثر صورها ألماً، وتحملناها مثل الذي يركض مغمض العينين على الحافة فقط ليستحم بالشمس، وهو يعرف جيداً، أنه في يوم ما، ستأكله الهاوية بلا رحمة. وليس ذهابك هو الأصعب على الرغم من قسوته وصرامته. لكن الفجوة المعتمة، التي خلفتها وراءك، وابتسامتك الهاربة، وضحكاتك المسروقة، ونظراتك الشجية التي تخفي بصعوبة قلقها الوجودي، هي المؤذية.

عزيز..

كنتَ دائماً تريد أن تخرج باكراً لتكتشف أسرار هذه الدنيا الغامضة ولا تعود إلا ومعك كل الإجابات المستعصية. وها أنت تفعل ذلك بلا أدنى تردد ولكن هذه المرة لكي لا تعود أبداً فتخبرنا عن حصيلتك التي ركضت وراءها عمراً بكامله. كل الذين سبقوك إلى هذه الرحلة المخيفة، لم يعودوا أبداً. فلماذا لم تطرح على نفسك هذا السؤال القلق؟ هل باغتك الموت في منتصف الرحلة؟ أنت سيد العارفين أن الركض الدائم على حواف الشمس يحرق، أو يدفع نحو الهاوية التي أكلت كل من اختار مأوى الأسئلة المستعصية!

ربما كنتَ الآن في أعالي مرتفعات الروح تتأملنا جميعاً وتضحك من فقر معرفتنا، ولكننا هنا نفتقدك بمرارة كبيرة ولا حل لنا إلا قبولك كما أنت. لا تضحك مني كثيراً أيها الشقي، ولا تغريك بنيتي الصلبة، ولا جسدي المتمادي في غيّه، فأنا هش كدمعة، ومرتج كقصر من رمال. لمسة واحدة تكفي لأن تجعلني مجرد حطام.

حبيبي، مثل التوحيدي الذي عشقت عزلته وخيبته الدائمة. عشتَ وحيداً، وعدتَ كما اشتهيت، وحيداً. لم يكن عبورك على هذه الدنيا إلا لمعة خاطفة في سماء ظلت دائماً ملبدة ولم تمنحك الصفاء الذي اشتهيته دائماً. كنت عندما تظلم الدنيا في عينيك تأتيني راكضاً وأنت تبحث كصبي شقي يريد أن يقنع كل من يحب، بخياراته:

– هل تدري لمَ أحرق أبو حيان التوحيدي كل كتبه؟ هل تدري؟ لا تقل لي كما يقول الآخرون: خوفاً أو تقرباً من حكم الأغبياء. الوزراء كانوا آخر ما يشغله. مثالب الوزيرين لم يكتبه حقداً ولكن سخرية من السلطان وحكم الجور. الوزيران، هما أول من أشاع عنه فكرة الرغبة في التقرب منهما. اختبرهما، فعرف فراش الهشاشة الذي كانا ينامان عليه.

أستفزك بقصدية فقط لتخرج ما في ذاكرتك المتقدة:

– ليس هذا ما يقوله العارفون!!

– عن أي عارفين تتحدث؟ لقد تعب. لم يكن الزمن زمنه. كان يريد أن يخترق المسالك الصعبة، نحو سماء أخرى غير السماء العادية التي حولها الأغبياء إلى طاولة للأكل واللعب. الإشارات الإلهية دليل على أنه عاد بأسراره الكامنة فيه. وحده كان القادر على استنطاقها. أحرق كل شيء لأنه كان يعرف أنهم لن يستطيعوا فهمه، وأنه كان بعيداً بسنوات ضوئية كثيرة عن أغبياء عصره الذين ملكوا الدولة والقرار. كان التوحيدي أجمل هشاشة القرن العاشر المليء بالتصلب والموت واليقين.[١٠٢]

عزيز..

كم هي مضنية مسالكك أيها الغريب.

لا أريد أن أسألك عن مخبئك الآن. لم أعد مهتماً لأني أعرف أن هذه الغيبة لا تشبه السابقة. غيبة التمادي في الجنون حتى المنتهى. لكن حبيبي، هذه المرة فعلتها لأن اللعبة أتعبتك كثيراً ولم تعد قادراً على التمثيل مثلما نفعل يومياً في حياتنا المتكررة بشكل مقلق ومخيف، وأحياناً سخيف. لكن

حبيبي، لا تقلق. تصرفك أفهمه جيداً وإن كان يؤذيني في الصميم. لا يمكنني أن أتخيل أبداً أن هذا المساء لن أسمع محرك سيارتك وهو يتوقف عند الباب، وأرى يوسف متلوعاً بسمر وسحر وهم يركضون نحوك بفرح شديد، يفتشون جيبك قبل أن ترتسم على ملامحهم علامات الانتصار بعد أن وجدوا ضالتهم، ثم صوتك الذي يسبقك: يما... هل تعرفين ماذا حدث لي اليوم...؟ وتجيبك أمي بطيبتها المسيردية المعهودة: خير وسلامة يا وليدي... خير وسلامة... ربما أكون قد فقدت ذلك منذ زمن بعيد، ولكن الإحساس بوجودك وحده كاف بإعادتي إلى الأيام التي انسحبت بسرعة قبل أن تسحبك وراءها.

هل كان من الضروري أن تفعل ذلك كله فقط لتقنعنا بأن لعبة الموت مثل صدفة الحياة تماماً، جنون جاد وخطير؟

هكذا إذن ننسحب من الدنيا بصمت مثلما جئناها. بدون ضجيج، على إيقاع نحيب خافت لأم دفنت منذ أربعين عاماً زوجها وابنتها وانتظرت شرف النزع الأخير بين يدي الابن الوحيد الذي رفض أن تبدد حنينه مغريات المدن الخادعة، وبقي بجانبها كما اشتهته أن يكون. وعلى الرغم من زواجه، كانت كل صباح تقوم مع آذان الفجر، تحضر قهوته وفطوره قبل أن ينسحب نحو العمل. في المساء، لا تنام إلا إذا سمعته يغلق باب غرفته التي تعودت على صوتها ويغلق بالمفتاح. عندما يصفو كل شيء، تغمض عينيها بحثاً عن نوم تحركه قطرة ندى متدحرجة من الأعالي، أو حفيفاً لورقتين من أوراق الدالية التي تخترق صحن الدار، اتكأتا على بعضهما البعض.

عزيز..

لا شيء حبيبي.

أبكيك يا عمري المنكسر ويا خوفي الهارب مني إلي. أبكيك، ولا شيء يملأ القلب الآن إلا بقايا صورة لوالد لم يمهله الموت ولم يعطه الوقت الكافي ليمارس حبه الأبوي. فهل تدري يا عزيز فداحة الخسارة وقسوة اللعبة؟ ذهب ولم يمنحه القتلة فرصة رسم القبلة الأخيرة على جبين زوجته أو خدي ابنيه.

حبيبي المستعصي على الفهم، وأنا داخل هذا كله!

هل كان من الضروري أن تمنحني رغبة الكتابة مقابل موتك؟ لم تكن في حاجة إلى ذلك كله لتثبت لي أن الدنيا مجرد سيجارة تندثر بالحرقة، وأنها لعبة طارئة لا تمارس إلا باستثنائية، وأن كل شيء طارئ في هذه الدنيا، الموت وحده هو المطلق والباقي أعرف هذا، فلماذا جربت في نفسك يا عمري؟

عزيز..

أيها الغريب في قربه، والبعيد في غربته.

ضفافنا ضاقت حتى أصبحت مثل آخر نفس قبل التسليم بالموت، والقلب لم يعد كما كان، فقد سُرقت منه كل أزمنته الجميلة. المحنة زادت واتسعت ساحات حربها القاسية، والدنيا ضاقت حتى صار اتساعها أقل من خرم إبرة. السبل الممكنة توارت والليل صار فينا، يمارس خلوته مع كأس القهوة الأولى التي نشربها قبل أن نفتح أعيننا على الناس. هل تداعى الحلم الذي كنا نفتح له قلوبنا عن آخرها لنكتشفه ونتقاسم أسراره؟ الحلم كان بيتنا وسقفنا الجميل الذي يجعلنا ننزل ركضاً ونحيط «بيمًا» ونطلب منها أن تشرحه لنا. تضحك وهي ترده: لقد ذهبت حنا التي كانت سيدة السر ولا أملك إلا هوامشه. نصرخ بصوت مشترك: اشرحي لنا الهوامش. وتدخلنا في ممرات ومسالك نغيب في سحرها، حتى توصلنا إلى نقطة السر وتكشفها، فيبرق النور أخيراً في أعيننا"[١٠٣]. وكنتَ كلما رأيتني أراوده وأنت صغير، جلستَ تستمع لتسألني في النهاية: هل يمكن أن يحدث ذلك كله بكل هذه الدهشة؟ وأكثر، كنتُ أجيبك. كنت تحلم بأن تكبر بسرعة لكي تستطيع أن تقطف نجمة هاربة وتدفنها في كفك خوفاً عليها من التلاشي، وأن تستعير من السماء زرقتها كلما تلبدت الدنيا في عينيك ومسح السواد أشواق الأرض والسماء بحروبه الطاحنة. كان يكفي أن تفتح عينيك لترى النور والألوان المدهشة قبل أن تغرق في حبات المطر الناعمة.

عزيز..

منذ مدة لم أرك كما أشتهي، ولم ترني لتخبرني بأن البلاد تغيرت كثيراً

وأن الحزن لا يمكن أن نعيشه إلا فرادى. منْ من الناس يعرف أنك منهك وأشياءك الصغيرة مطحونة، إذ تواجههم كل يوم في منعطفات المدينة وأنت ذاهب لموعد فاشل أو لعمل ممل، يسألونك:

- كيف الدنيا؟

ترد وأنت ترسم ابتسامة تسخر بها من انكسارك، وتحاول أن تحافظ بها على ما تبقى من خلوتك:

-Heureusement qu'il y a le rêve, sinon c'est la perte totale de tout sens.

يردون عليك بعبثية:

- Il n y a plus de gout. La vie qui existait est morte depuis longtemps.

- Mais non, rien ne meurt, c'est juste nous qui mourront un peu[104].

منذ أن دفنا عمتي في هذه التربة، في ذلك الشتاء الموحش، واختارت هي الموت لتختصر خمسين سنة من المنفى، لم ألتفت إلى هذا المكان. شعرت أن كل شيء تغير أبداً وما كنا نعرفه لم يعد لنا وربما لم نعد له. صرنا لا نعرف المكان وصار المكان لا يعرفنا. حتى أني تساءلت يوماً وأنا أنظر لعينيك الحارتين: ما معنى كلمة عودة؟ هل حقيقة نعود إلى المكان الذي تخلى عنا، وتركناه ذات زمن؟ كل شيء يتبدل. ومثلما لا نمر على النهر نفسه مرتين، فنحن لا نعود أبداً إلى المكان نفسه. كل الذين اشتهوا أمكنتهم الأولى وعادوا لها، تركوها من جديد بحسرة. لم يعرفوها ولم تعرفهم. يقولون تنكرت لهم ولكن في الحقيقة لا شيء يتنكر لشيء آخر إلا إذا لم يعرفه. كل شيء يتغير، والبشر ليسوا هم البشر! المقابر ليست هي المقابر! الأسطح التي تعودنا الركض عليها، تغيرت وأصبحت بنايات عالية تشبه السجون! والسجون القديمة صارت قبوراً! هل هو قدر الإنسان الأبدي؟ ها أنا ذا اليوم أعود بعد ست سنوات غياب فقط لأقنع نفسي عبثاً أنك رحلت، وأن أشياءك الصغيرة غيرت أمكنتها، وأنك ابتداء من اليوم لن ترابط في شرفتك.

ولن تظل منها لتقول لنا: صباح الخير يا سكان الطوابق السفلى، صباح النور يا سكان البحر الذي يختبئ وراء المرتفع الصغير.

علي اليوم أن أروض نفسي كثيراً لتقبل الكارثة ولأقتنع، ربما للمرة الألف، بأن ما حدث لك كان من فرط الصدفة المميتة ضمن ألف احتمال للحياة. في لحظة حزن قاسية ويأس متكسر، صرخت وأنت تضرب على جبهتك: طيب.. ولماذا أنا بالذات وليس غيري من ٩٩٩ حالة احتمالية؟ ثم تمتمت بحسرة بعد أن أغمضت عينيك: طيب.. ولماذا الآخرون أيضاً؟ لابد أن يكون هناك ظلم في الطبيعة! قلتها ثم صمتّ طويلاً.

هناك ظلم في الطبيعة حبيبي. ظلم يصل أحياناً حد السادية المفرطة؛ لا قوة لنا أمام عبثيتها وعماها.

عزيز..

أنت دائماً هكذا. لم تتغير إلا قليلاً. مازلت تستدرجنا نحو قدر وحدك تعرف مخاطره ونهاياته. وتتمادى في غيك وأنت لا تعرف أن اللعبة يمكن أن تصبح مؤذية عندما تتكرر. كلما سألتك عن التوقف عن استدراج القدر نحوك بجنون وشهية طفولية، تضحك بسماحة وأنت تمحو أوراق الرهان الرياضي الذي كنت تحبه. تحك رأسك من تحت شاشيتك الزرقاء التي تشبه شاشية صيادي ميناء الغزوات، وتحرق سجارة وعيناك شاخصتان في يوسف وفي إطار صورة مبهمة لوالد لم تعرفه إلا من حكايات أمك، والذين عرفوه عن قرب:

– لا بد أن أربح يوماً هذا الرهان المنحوس. يمكن أن أكون ذلك الواحد في الألف أو المليون الذي يربح! لمَ لا؟ لا بد أن يمل مني سوء الحظ ذات يوم، وأنتزع منه الفرصة الوحيدة الممكنة. الحظ ليس خطاً مكتوباً بالأخضر على جباه الآخرين الذين كتب لهم أن يربحوا باستمرار. صحيح أن من يجرب يتعب كثيراً ولكنه سيصل يوماً، ربما بعد دقيقة أو بعد قرن من الزمن. وظز إذا لم يربح. الحياة كيف الريح في البريما، كما يقول الشيخ العفريت. يكون على الأقل قد منّى نفسه عمراً بكامله حتى النهاية وهو يعتقد في الخبطة

العظيمة التي ستغير حياته رأساً على عقب.

– جميل أن يتمنى الإنسان في عالم لم يؤهلنا منذ البداية على الأمل أو على تحمل الكدمات القاسية والخيبات المتتالية.

– هل تدري ماذا فعل أبو حيان التوحيدي يوم انكسرت أشواقه على جدران سدنة القصور، وسادة السيف والكذب والأوهام؟

– لعن الذي لم يمنحه منصباً ومالاً. كتب مثالب الوزيرين.

– ها قد عدنا للحكاية نفسها التي أشاعها عنه الوزيران المعنيان بنقده، الصاحب بن عباد وابن العميد! هذا اختزال. لم يكن التوحيدي هكذا، بهذه البساطة. لقد أحرق كل كتبه، وعرك الأبجدية الساخنة في كف يده كمن يحك مسحوقاً ليحوله إلى دواء، ثم فتح أبواب النور في داخله الذي عتّمته الخيبات المتتالية من بشر لم يكونوا يستحقون مناصبهم، ليبدأ رحلة الباطن الذي لم يكن قد عرفه بعد. الإشارات الالهية ليست إلا وسيلته للدخول إلى دهاليز الروح المظلمة التي ظل غبار الدنيا يغطيها، قبل أن يجد الفجوة الصغيرة التي تقوده نحو النور. أنا متأكد مائة بالمائة أن التوحيدي كان واحداً من إخوان الصفاء، يحملون آراءه وأفكاره في الوجود نفسها. بل حتى أن هناك التباساً بين لغتهم ولغته. يا الله.. اللي يتمنى يا خويا، خير من الذي يقطع اليأس[١٠٥]. وإلا سنصبح ضحايا الحياة نفسها.

أرأيت يا عزيزي خويا، قسوة اللعبة! لقد خذلتك السنوات بسرعة يا ابن أمي. لم تكن تعلم أن الموت سيقلب كل المعادلات ويمزق ما كان يبدو يقيناً إلى ملايين الذرات، ويختارك أنت لتكون الرقم الواحد في الألف. لكن هذه المرة في لعبة الموت. عندما دخلت إلى المستشفى لم تكن تفكر مطلقاً في الاحتمال الأوحد للموت. ولكنك فكرت باستماتة في ٩٩٩ فرصة للحياة. أرأيت؟

رهانات الدنيا غير مأمونة، وتماديك في اللعبة كانت عواقبه كبيرة

عزيز..
يا سيد الأشواق المسروقة

أيها الغريب الطيب، الذي لا يلتفت وراءه أبداً حين يلعب مع الدنيا لعبة الانتقاء، أما آن لك أن تنسى هذه المخاطرة؟ أما آن لك أن تترجل قليلاً وتفكر لحظة واحدة فقط في أن الموت طاحونة الأتقياء والعظماء والأبطال، وأن هشاشتنا لم تعد قادرة على تحمله؟ ألم يحن الوقت بعد لتدرك أنك طوال الثلاثين سنة التي عشتها كنتَ فقط تتدرب كيف يمكنك أن تملك قدرك بين يديك وتلوح به كالفراشات الملونة التي تملأ كفك عندما يصير سجيناً لنزواتك، ثم تغمض عينيك وتنسى كل شيء ولا ترى إلا الفراشات التي تنتقل من الخارج إلى داخلك المتعب، لتلونه وتحوله إلى لوحة كنتَ الوحيد الذي يشعر بوجودها.

يا ابن أمي الصغير، يا روح الأتقياء والصالحين، ويا زهو العاشقين. أيها الطفل الطيب الساحر والمسحور، الذي وشوش ذات صباح في أذن الموجة الهاربة التي ارتعشت في حضنه، كلاماً مبهماً لم يفهمه أحد غيرهما، ثم شدها من ذراعها الأيمن ورماها في عرض البحر وهو يصرخ بأعلى صوته: ارجعي من حيث زلت قدماك، وزاغ بصرك وغامت رؤاك. اذهبي ولا تلتفتي وراءك. القتلة يتربصون بك لتيتيمك. بعد زمنٍ سينفرك أقرب الأقرباء. فلا مكان لك إلا البحر، ولا روح لك إلا الماء، ولا حبيب لك إلا ملحك، ولا سقف لك إلا سماؤك. اذهبي فأنت الحقيقة الطليقة. الانطفاء على صخرة الشط المهجور أهون لك من أن يملكك الذي يبددك لأنه لا يعرفك ولا يحس بشجنك العميق.

ويا ابن أمي الذي وضع بذرة النور في كفه ورماها في برية القفر ليجعل منها صاحبة أبدية للرمل. أيها الغريب الذي مشى نحو زمن، وحده كان يعرف قسوته، وسار نحو شمس سال ظلامها على الدنيا. من يعلمني نحوك أيها الحبيب؟ من يفك الآن حروفك المبهمة لتضيء القفر؟ من يعطي لأبجدياتك معانيها الخفية ويبدد الضيق والعلة؟ من يأتيك بحفنة تراب لتغرس وردتك الأخيرة ورجلاك في الماء؟ من يعرف لغتك ليدرك كم خسر حينما ضيعك؟

من يعيدك إلي فقط لأشبع قليلاً من وجهك. ألتمس ملامحك للمرة الأخيرة وأزهو بابتسامة أشتهي أن أحتفظ بها، غير تلك التي رأيتها لآخر مرة، وأنا أدرك خطأً، أني سأراك ثانية.

وحدك أيها الغريب تعرف كم الدنيا خادعة، ولهذا تقابلها بصمتك وبضحكاتك الساخرة وسحرك الذي لا يفنى. وحدك إذ تحزن تضع الموجة في جيبك، وحقيبتك الوحيدة في عينيك، وتسافر وأنت لا تعرف إلى أين تتجه. كل المساحات ملكك وكل السموات مآلك.

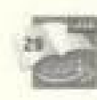
– إلى أين تهاجر وحدك هكذا أيها الطفل العنيد؟ الطرقات موصدة، واليقين لم يعد يقيناً، والخوف أصبح سيد الريح، والأرض التي فقدت توازنها أصبحت كرة تعوم داخل فراغات الهلاك. توقف قليلاً يا ابن أمي، إلى أين أنت ذاهب؟

تسمع النداءات التي تأتيك من بعد سحيق. تصيخ السمع أكثر. تهز رأسك وتواصل وكأن الخوف لم يعد يعنيك، وأن لا شيء في رأسك إلا الذهاب، حد التهلكة، وراء لعبة الموت. تتوقف قليلاً. تتأمل الأرض والسماء والعصافير والفراشات الهاربة من البرد الذي هجم فجأة. لا تلتفت. تواصل انحدارك بصمت لأنك تعرف مسبقاً أن لا أحد يملك القدرة على السير معك إلى منتهى الرحلة. تستهويك يا ابن أمي غوايات النهايات وشطط اللعبة المبهمة. لو تتوقف قليلاً فقط وتستمع إلى نداءات العصافير التي تغطيك، وحفيف الفراشات التي تغلق طريقك، ونغمة المطر الذي يغسل أشواقك المنكسرة وحزنك.

لو فقط تتوقف للحظة، وتلتفت صوب كل ما يحيط بك ويحضنك.

– إلى أين يا ابن أمي؟

كلمة واحدة منك كانت كافية لتوقفك من خديعة الوهم. تتوقف قليلاً مرة أخرى. تهز رأسك ثم تواصل سيرك بصمت أقل، وكأنك لم تكن معنياً بالأيادي التي كانت



تحضر جنازتك السرية. تتمتم.

- Boof, La vie c?est comme les mots, toujours fragile et éphémere[105]

عزيز..

لك أيها الغريب كل ضفاف الدنيا الجميلة إذ تمضي حيث يشاء انتشاؤك. لا حيث يشاء قدر الله. لك الفرحة المسروقة من عيون اليتامى التي لا قوة في الدنيا تطفئ بريقها الأبدي. لك رمشة المعشوقة إذ تنام باستكانة وأمان بين ذراعي حبيبها بعدما خذلها الملكوت والكتب العارفة والله. الله يا ابن أمي لم يعد يسأل عن أحد. لقد أحرق سلطانه و توسد الرماد وشاهد الموت.

لم تكن المسيح يا ابن أمي، ولكنك كنتَ شبيهه. فلا تطلب سلطان الله. فقد تخلى عن كل شيء للرياح الساخنة التي قادتك نحو يتم الفراغ.

هل تدري يا ابن أمي أن الحياة أصبحت قوساً طارئاً في جملة غير مفيدة. فتحته يد رقيقة وأغلقته يد ليست حتماً هي اليد الأولى نفسها!

-٢-

وحدك أيها الغريب الذي قَبِل أن يتوضأ بالنوْر، ويولد بين مرارة موتين.

عندما كنتَ نطفة عمرها سبعة أشهر، كان الوالد قد احترق قبل مجيئك بشهور مع المواكب الأولى التي حلمت طويلاً بوطن سرق منها ومن أبنائها مع الطلقات الأخيرة من الحرب الميتة. وعندما جئت أنت إلى الدنيا، ذهبت زليخة بعد ولادتك بسنة. هي كذلك لم تلتفت وراءها عندما اختارت الذهاب. لم تكن تؤمن كثيراً بالحلول الوسطى، لم تعطها الحياة أكثر من مهلة صغيرة. يوماً واحداً في الفراش، ثم انطفأت.

وُلدتَ عارياً بين ألمين وشوقين مستحيلين.

فتحت عينيك في خلاء موحش، وحيداً كنبي ضائع وككتاب ممنوع.

أراك الآن تعود من أكثر من ثلاثين سنة. عندما جئت لأول مرة إلى الدنيا، كان ذلك داخل خيمة قديمة. كلما اصطكت الرياح الشتوية، تسابقنا إليها جميعاً. ماما ڤيزار، خيرة، زليخة، زهور، حسن. نقبض على عمود الارتكاز حتى لا تقتلع الخيمة. كنتَ صغيراً. لا شيء في عينيك سوى الدهشة الأولى. تسترق السمع إلى تمزقات الرياح في الخارج وتتأملنا بعينين دافئتين وتظننا نلعب. فتناغي وتضحك وتظل الليل بكامله والقفين. وعندما تتبدد العاصفة، يكون النوم قد أخذك بعيداً.

عندما بدأتَ تكبر، لم تتحمل ثقل الكلمات الغائبة. لم تجد في حضرتك إلا أما. عندما سألتها عن أبيك، وضعتك على صدرها. كان حليبها مراً. ثم نظرت إلى السماء الفارغة ولم تقل شيئاً أبداً. وظللت تؤمن طوال حياتك أن أمك تشبه والدك. كانت مثله تماماً، بل هو في كل تفاصيله. تأخذ الإطار الأوحد الذي به صورة الوالد، وتبدأ في تفحصه لتنتهي إلى جملتك الوحيدة:

– شفتوا ! سبحان الله. قطرتان من نور!

واستفززتك:

«– وين راك تشوف الشبه؟»

تضحك. لا تعرف شيئاً آخر إلا الضحك. عندما تزعل ويمتلئ قلبك بالرماد، تضحك أو تصمت لترد كل جحيم الغليان إليك وحدك.

«– أنتم ما تعرفوا والو.»

لم تعرف إلا بعد سنوات أنك كنت تصنع أشياءك مثلما تشاء. مثلما يصنع الغريب وطناً من اللغة ليمكث فيه بعيداً عن الأنظار التي تذكره بأرض لم تعد له. وطن لا يبلا ولا يموت، ولا يستعمره أحد. وحده يملك مفاتيح السر والشبهة وتخطي العتبات.

أيها الغريب..

وحدك خضت غمار البداية. ومثلما فتحت أقواسك بيدك اليسرى، أغلقتها بيمناك متحدياً جبروت الله. قلت في وله الأنبياء: الذي لا يعرف اختيار موته، لا يعرف أبداً كيف يختار ميقات حياته.

-٣-

عزيز..

أيها الغريب.

هكذا أنت دائماً.

ألم تجد وقتاً مناسباً للانسحاب الهادئ غير هذا؟

هذه المرة لم تكن تمزح أبداً. كنت جاداً إلى حد الانسحاب من كل الأمكنة التي تعودت ارتيادها. اليوم لم أعد أملك القوة الكافية التي تؤهلني لتقبل خروجك. فقد نسيت أن تغلق الباب وراءك لتذكرني دائماً أنك خرجت. منذ أن تركتها، أمكنتك فقدت أسماءها من فرط التصاقها بك.

تصور حبيبي، كنت خائفاً عليك من موت آخر صار كل من يحلم يخشاه، ولكنه دائماً تفاجئنا وتأتي حيث لا أحد ينتظرك. حتى في الموت لا تنس أن تكون صوفياً وبسيطاً وخطيراً كالماء.

يكفي، الدنيا ليست بهذا القصور. البارحة عندما فتحت الخزانة وجدت بعض ألبستك المتداخلة. معاطفك الصوفية وكوفياتك الكثيرة. طاقمك الذي لا تلبسه إلا في المناسبات والأعراس. جواربك المبعثرة عبر رفوف الخزانة. كل شيء يقول بأنك كنت هاهنا، قبل ثوان قليلة. تتهيأ لموعد وحدك كنت تعرف اتجاهه. قلتُ في خاطري وأنا ألمس فوضاك الجميلة: هذا الطفل لا يتربى أبداً. عزيز! يكفيك من الفوضى، «مانيش عارف سروالك من سروالي، نظم روحك شويه.» أرجوك. وعندما ألتفتُ نحوك، أراك بجديتك الصارمة تقاوم ابتسامة ملعونة ترتسم في عينيك الصافيتين. أنت هنا. كل شيء يتنفسك. الزهور التي نسيت هذا الصباح أن تسقيها. العصافير التي تعودت أن تأكل من كفيك. بساطتك وصوفيتك العالية التي لا تطلب من الدنيا الشيء الكثير. قهقهاتك الأخيرة وأنت تستمع إلى آخر نكتة قالها حسن، وأنت تكرر بدون أن تستطيع كتم ضحكتك التي كانت تتفرقع كحبة الملح عندما توضع في النار: «باباباباباباباباً.. يا يما واش هذا؟» ورمشات عينيك الخائفة من شيء مبهم كنتَ وحدك تحسه. في لحظة هرب كل شيء من وجهك. واختبأت العصافير والفراشات. رأيت انكساراً يمر كالسحابة على وجهك المتعب.

وأنت تستمع إلى طبيب جراحة الأعصاب وهو يشرح لي العملية وتعقداتها. حتى في هذه اللحظة لم تنس أن تستل ابتسامة مرة من أعماقك: يبدو أن العملية معقدةٌ جداً يا خويا؟ الله يستر. أتمنى فقط أن يتركوا يدي سالمتين على الأقل.

كاد قلبي أن ينفجر وكدت أن آخذك وأهرب بك خارج المستشفى. لو فعلت ربما كنت أنقذتك من موت كان ينتظرك على طاولة العمليات.

أربعون يوماً مضت وأنت غائب كيوسف.

كل الذين يمرون بالقرب من بيتك يسألون عنك ولا أحد يرد إلا ابنك الصغير: سيعود غداً أو بعد غد. مازال يظن أنك تأخرت في العمل كما تعودت أن تفعل أحياناً. بابك مازال مفتوحاً. وأصدقاؤك الحميمون صامتون. كلما مروا عليك، انحنوا قليلاً عند نافذتك التي تطل على الشارع ثم انسحبوا بصمت. وفي اليوم التالي يعودون بالدمعة والملامح المنكسرة نفسها.

-٤-

أيها الغريب في أرض التيه والقلق والنسيان السريع.

هل تدري أني أحترق وأن تذكاراً مراً، يشبه الرماد، أصبح يملأ القلب والذاكرة؟ ربما كانت بقايا قصصنا الطفولية التي أخذتها معك، ولم تترك لي إلا أصداءها الشقية.

أرى ركضك الآن، وخوفك، وبكاءك، وسعادتك.

أراك مرتسماً على وجه أمٍّ لم تذهب إلى المقبرة لكي لا تصدق أنك خرجت للمرة الأخيرة، ولن تعود أبداً.

أرى أسئلتك الهاربة عن والد تأخر كثيراً مجيئه، بعد رحلة النار والخوف.

أراك لِمَ لا يراك غيري، وسط غيمة هاربة، بلا راحة ولا توقف ولا مطر

أراك حيث لا قلب غير قلبي يفهمك حتى في انغلاق سرك.

قلت لي ذات يوم: كيف هو منام الشهيد؟ وجهه، مشيته، كلامه، ملامحه ولغته؟ جرحه وحزنه وأسئلته؟ شوقه وحبه وخوفه؟ حنينه ودمعه ووحدته؟ كنتُ دائماً أشتهي رؤية والدي في لباسه العسكري. أتحسس يديه الناعمتين أو الخشنتين بفعل القسوة. لا يهم. أشتهي أن أشم فيه رائحة شجر التين البري واللوز والصنوبر والحلفاء، وأشتهي أن يضعني في حجره ويقص علي كل قصص الموت التي نفذ منها بأعجوبة. يقال إنه كان حكّاء رائعاً مثل حنا فاطنة التي لم أعرفها إلا قليلاً. أشتهي لو أراه ثانية واحدة لأحفظ إلى الأبد ملامحه. أشتهي...

لكن الموت اشتهاك قبلهم جميعهم وسرق عنفوان طفولتك.

تتكلم كأنك عشت كل الأزمنة. مثلك، بابا أحمد، عندما امتلأ قلبه بالنور، احترق. ليست الشهادة في النهاية إلا لحظة اختيار المسلك الصعب نحو لمعة حارقة. حتى هو عندما خرج ولم يعد، لم يقل الشيء الكثير لأمي. قال لها سأعود الليلة أو بعد ليلتين. قالت: أنت تخبئ سراً. التفت صوب الحائط الرمادي لكي لا يعكس وجهه ولا قلقه، ثم خرج ولم يلتفت. عندما وصلها خبر استشهاده، سألت عن قبره. قيل لها أنهم أخرجوه من سجن السواني في ذلك الليل الصيفي الحارق. كان عطشاً وحزيناً. طلب السجانون منه أن يترك ألبسته، ولا يأخذ منها إلا شيئاً خفيفاً. كومها عند الزاوية وقال لعمي البوحفصي المرتكن في الزاوية المقابلة: قل لميزار أن تضع الأولاد في عينيها، وأن لا تنسى أن بيننا شباك النبي، لن أنساها أبداً. قل لها أن تسهر فقط على تعليمهم وتحفظهم لغة أجدادهم. قل لها بلا خوف ولا خجل، أن تعيد زواجها إذا شاءت، فلن أحزن، هي جميلة والحياة فرصة. من يومها لم يعد. أمي كل يوم، منذ أن عرفتها، تقف على قبر منسي كل صباح وتقرأ الفاتحة، تترحم على الميت وعلى والدي، ثم تنسحب من المقبرة.

عزيزي...

ماذا يمكنني أن أفعل الآن غير التوغل في الحزن؟ غير انتظارك؟ غير

الوقوف على قبرك وانتظار عودتك مسرجاً بالحلم ولحظات السهو، صافي الوجه كما كنت؟

مررت هذا الفجر على قبرك أنا وابني البكر باسم وريما ويوسف ابنك. كنا نريد أن نزرع بذور الورد التي اشترتها ريما من مشتلة باريسية جميلة. قالت وهي تستر دمعة شاردة: لم أشبع من وجه عمي عزيز. لا أتذكر سوى أنه كان يحملني بين ذراعيه كلما بكيت أو غضبت ويدغدغني. لم تبق من وجهه إلا بعض الصور الهاربة. كنت متأكداً من أننا عندما نعود في موسم الربيع، وربما قبل ذلك بقليل، سنجد النوار قد أزهر على قبرك والورود قد تفتحت وغطتك كلياً، وكستك الألوان التي كنتَ تشتهي رؤيتها.

يقولون إن الزيارة قبل الفجر تسمح لمن في القبور بسماعنا. في الفجر تتفتح كل الحواس. أعتقد أنك الآن تسخر من سذاجتي التي لن أشفى منها أبداً، ومن عجزي في استدراجك نحوي لتقبيل جبهتك.

كانت التربة في كامل طراوتها في ذلك الفجر البارد.

ريما ويوسف منهمكان في الحفر في الأعماق لدفن بذور الورد عميقاً، خوفاً من لعنة الطير الذي يعرف كيف يتصيدها. سألني يوسف وهو يمسح ملامحه من الأتربة التي علقت بها:

- «عمي؟
- نعم يا قلبي.
- هذا الذي ينام تحت التراب هو بابا عزيز.
- عزيز يستريح من تعب أنهكه كثيراً».

لست أدري ما الذي دعاني إلى ترتيب هذا الجواب. ربما لأنني كنت في حقل لا يحد من النوار والنباتات السحرية، في أرض المهايا، أرضنا الطيبة. أركض وراء عزيز الذي كان عمره لا يتجاوز الخمس سنوات، وأدعوه إلى أن

لا يبتعد كثيراً لكي لا يغرق في عمق الحشائش العالية. ويتيه في غمرة النوار والسنابل السامقة وشجر اللوز الذي كان نواره الأبيض والبنفسجي البارد يغطي كل شيء. كنت لا أرى إلا شعره الأصفر الذي يتعالى كلما ركض بعيداً قبل أن يغيب نهائياً. وأصرخ وراءه بأعلى صوتي ولكنه لا يجيب. أخاف عليه. أجري صوب شجرة اللوز العالية. أجده منهمكا في عش حجلة وجده أمامه. كان يحاول أن يلملم صغارها في حضنه خوفاً من البرد على أجسامهم الهشة العارية. أقول له: عزيز. سيموتون إذا أخذتهم إلى البيت. يرد بلا أدنى تفكير: لكنهم عراة. أقول: ستأتي أمهم وتحضنهم. وإذا بقينا هنا سيموتون لأن أمهم الخائفة منا. لن تأتي. يرجعهم إلى عشهم كما كانوا في المرة الأولى. ثم ننسحب ويراقب حركة أمهم من بعيد. وفجأة يأتيني راكضاً:

– «خلاص لقد التحقت بأبنائها. هي تنام الآن معهم بعد أن شبعوا.

– لنتركهم حبيبي يرتاحون قليلاً. لا يتحملون حركتنا وضجيجنا.»

أنتبه إلى يوسف الواقف باستقامة كما في المدرسة. قبل الدخول الصباحي والاستماع إلى النشيد الوطني. ينتظر امتداداً لإجابتي. ويمسح وجهه من الأتربة العالقة في يديه:

– الرجل الذي ينام تحت هذه التربة الدافئة. هو أخي الصغير الذي ظل معلقاً في بطن أمي ولم يخرج إلا ليمنحها بعض الصبر. بعد استشهاد والدي. أخي الصغير الذي تعود أن يفاجئنا في كل صباح بشيء جديد يرتاح قليلاً هنا.

– «هو عزيز إذن؟

قالت ربما موجهة كلامها ليوسف!

هو عزيز الذي لم ينس أبداً أن يلعب لنا الأدوار الشقية. ويدفع بنا إلى التمادي لقبول موته. وهل تموت الملائكة؟

تمتم يوسف لباسم وكأنه كان يفضي له بسر جميل:

– إذن عندما يستيقظ عزيز سيجد نفسه مكللاً بالنوار والورود. لقد وضعنا على رأسه كأساً رخامية تمتلئ بالماء كلما سقط المطر، لكي تشرب منها العصافير العطشانة يا عمي. أو العابرة من هنا، كما حكت لي حنا ميزار.

– الطيور تهاجر وتعطش هي أيضاً في رحلتها الطويلة. لن تجد مكاناً أجمل من نوار عزيز ومائه وظلاله الدافئة وحديقته التي ستكبر وتتلون أكثر. لقد كان عزيز طيباً ولن يزرع إلا الخير والمحبة حتى وهو على الضفة الأخرى من الحياة.»

كانت الشمس الهاربة قد خرجت من دكنة الغيم الأسود والثقيل.

واصل الجميع دفن حبيبات النوار عميقاً حتى لا تأكلها الطيور الهاربة من خوف المجاعات، ولا يقتلها الصقيع الذي كان يكسو كل المحيط. بينما كانت أشعة الشمس المنداة بمياه البحر القريب من حواف المقبرة، وبأمطار ليلة البارحة، قد بدأت تخترق الجبل الوحيد الذي كان يسدها عنا من حين لآخر، وأشجار السرو العملاقة التي غرسها العابرون نحو البحر في سفرة الموت والحياة، والصنوبر الحلبي الذي يحوط بحزام أخضر كل المقبرة ويزرع فيها الحياة في كل ربيع[١٠٧].

روحي تنتظرك لتصحبك نحو مدينتك الجميلة، المدينة النيلية التي تقع في صلب البحر.

الجزائر العاصمة، شتاء ١٩٩٩

-١-

بدأت أشعر بقليل من التعب.

غريب! فجأة أدركت كأني كنت ألهث، بلا توقف، وراء شيء غامض يصعب القبض عليه؟ شيء يشبه السراب ولم يكن سراباً أبداً.

أحاول أن أنسى كل التفاصيل الهامشية وأعود إلى الوضعية التي أنا فيها. أشتهي إعادة ترتيبها لفهمها أكثر.

أنا لا أدري أصلاً ما الذي أيقظ شهوتي في الذهاب نحو ذاكرتي المرهقة؟ لم تكن مريم وحدها. حربي معها كانت واضحة، وكنت أعرف جيداً ما كنت أريده منها بالضبط. رهاناتي معها لا يشوبها أي غموض: يا أنا، يا هي.

لم أنم. ولم أتساءل ما هي القوة الجبارة التي قادتني نحو الطابق السفلي من بيتي، مخبأ أسراري الذي لم أرتده منذ سنوات إلا قليلاً، قبل اكتشاف الانترنت الذي يخبئ رسائلنا بدون أن نضطر إلى البحث لها عن مكان آمن، يضمن السرية ويخفف علينا مشقة الذهاب إلى البريد.

كلما اتضحت ملامح الفجر، شعرت بأني شارفت على الانتهاء من مهمتي.

أنا أيضاً لدي حساسيتي تجاه الأشياء الاستثنائية، وأشعر بقوتها الداخلية التي لا يلمسها الناس العاديون. كأني أصبحت الآن أكثر صفاء، وأقل حقداً.

لست بكل تلك النرجسية الوهمية. أعرف أن واسيني يحبني ويدرك جيداً أنه لن يتخلص مني حتى ولو شاء. لكني لا أشك مطلقاً في أن كل ما قاله واسيني عني، قد ينطبق أيضاً على الكثير من نسائه اللواتي لسن في النهاية إلا استعارات لامرأة واحدة ووحيدة ركّبها واسيني من كل تفاصيله الحياتية، ومن امرأة شكلت كل مدار حياته. أنا لا أرمي الورود لنفسي، ولكني مشبعة بتواضع الحقيقة المستسلمة ليقينها. أستطيع أن أجزم أن واسيني لم يحب امرأة غيري. سيدور زمناً طويلاً، وربما طويلاً جداً، قبل أن يعود مثل العصفور

الجريح ليموت بين ذراعي مثلما فعل أوناسيس مع السوبرانو ماريا كالاس، أياماً قبل موته. وسيجدني في انتظاره، ولن أسأله أبداً أين كان؟ ومع من؟ سأحك على رأسه، وأنظف وجهه من أتربة السفر وغبار المسافات، ثم أتركه ينام على ركبتي أو على صدري. وعندما تريكه رعشة الكوابيس، سأقبله وأسقيه من فمي، قطرات الويسكي، ليستعيد لذة هدوئه.

-٢-

سأضع هذه الرسائل بين أيدي من يشتهي قراءتها. أعتقد أن لي حقاً كبيراً فيها مثل واسيني، وربما أكثر منه لأني أنا من يملكها الآن. بها شوق لا يموت أبداً وأنين مشترك. سأستغل الفرصة لتصحيح بعض حماقات واسيني، وأخطائه المقصودة، حول وجهة الرسائل ومنابعها، وأمكنة كتابتها وأرجعها إلى أصولها. من الأليق أن تُنشر هذه الرسائل كما كُتبت في المرة الأولى، وليس كما دخلت في رواياته لتفقد جزءاً من خصوصيتها. وظيفتي الآن، أن أعيد الحقيقة إلى مسارها الذي محته شخصية ورقية لم تعرف أنها تحت رحمة من يملك القلم، ومن أعطتها جسدها وشقتيها وأفراحها الصغيرة. لكنها، للأسف، عندما فتحت عينيها، بدل أن تشكرها على تضحياتها، وتفهمها الكبير، وجدتها متمددة في فراشها كالأميرة، تلبس ألبستها، وتنتعل كعبها العالي، بل تنام في ألبستها الداخلية ذات الألوان الدافئة، وتتمرغ في لونها البنفسجي. عندما صرختْ بأعلى صوتها:

- «مريم! هذا ليس مكانك... اطلعي برا!!!!!!!... »

قهقهتْ في وجهها، ثم التفتت صوب بياض الحائط لكي لا تسمعها ولا تراها وهي تصرخ بأعلى صوتها. تعوي.

فجأة رأيت البياض نفسه الذي تماهت فيه مريم في ذلك اليوم.

لست أدري ما الذي ذكرني بسفيان، صديق واسيني.

كنت أريدها منكسرة. يوم زرت واسيني في المستشفى لم أعد مباشرة إلى وهران. قلت سأذهب إلى فرانكفورت ليوم فقط أو حتى أقل، لتنفيذ جنون

كان قد ركبني. عندما فاتحت سفيان عن المشروع، قال تعالي. أنتظرك. بدا لي يومها وأنا في محطة فرانكفورت، كأن كل المسافرين كانوا متجهين نحو المكان نفسه وفي القطار السريع نفسه، الكآبة نفسها التي تعبر الملامح والنقص في النوم. أكدت لسفيان أني لن أبقى كثيراً في فرانكفورت وأني مضطرة للعودة في اليوم نفسه نحو باريس. كان يريد أن يسألني بالتفصيل عن حالة واسيني الصحية، وكنت أريد أن أسأله إذا ما كان مستعداً للذهاب معي في جنوني إلى أقصى الحدود. وفر علي كل متاعب الرحلة. ذهبنا مباشرة إلى نزل ماريتيم[١٠٩]، الذي كان به مقهى مريح، وفضاء جميل يمكن الاستراحة فيه.

فاتحته بموضوع لم يفهمه جيداً يوم حادثته في التليفون. قلت له وأنا جادة:

– أنا مريم يا سفيان!

– أعرف أنك مريم، وأعرف أنك صديقة واسيني. طمئنيني، كيف حالته؟ ذهبتُ إليه حتى المستشفى يوم مرض، ومنعوني من الدخول. قالوا لي هو في العناية المركزة، والزيارات ممنوعة حتى يخرج من حالة الخطر.

– وضعه يتحسن كثيراً. ولكني لم آت من أجل هذا.

ثم عاودت تأكيدي:

– أنا مريم؟!

– أعرف، قال ضاحكاً، بدأت أشك في مخي؟

– حبيبته التي تحدث عنها كثيراً في نصوصه!

ضحك سفيان مرة أخرى، وكأنه كان يحاول أن يدخل معي لعبة لم يكن قادراً عليها. حك على رأسه ولحيته الفوضوية، قليلاً، قبل أن يفتح عينيه عن آخرهما.

– سأزوره في الأسبوع المقبل، نحن نعد معاً لمشروع الأعمال الكاملة. أزحنا كل الغيوم الداكنة التي كانت بيننا وسوء الفهم.

– ليس هذا أيضاً ما جئت من أجله. أنا هنا من أجل شيء آخر، ربما كان أكثر خطورة من حالة واسيني نفسها.

– حيرتني يا مريم؟!

– حتى هذه أخطأت فيها أيضاً. أنا ليلى ولم أعد مريم.

– غريب... هذا لم أكن أعرفه أبداً. أنا لم أسمع إلا اسم مريم من فم واسيني والأصدقاء المشتركين.

– أرأيت يا سفيان، حتى أنت! كلكم لا تعرفون إلا المرأة الورقية، سيدة الحبر والحلفاء والخمائر الميتة، ولا أحد كلف نفسه معرفة امرأة من لحم ودم، لم يكن لها دائماً حظ مريم.

– في هذه معك حق. أعترف لك بجهلي وأميتي. ولكنك لست هنا فقط لتعلميني أنك ليلى ولست مريم. أعتقد أن الموضوع أكثر خطورة.

– هل هناك أخطر من إنسان يسرق منه اسمه؟ هويته؟ ويحول بلمسة قلم إلى مجرد كيانات لغوية لا حياة لها.

–... ... ...

ظل سفيان صامتاً قبل أن أفاجئه بسؤال آخر، لم يكن أبداً ينتظره مني:

– هل أنت مستعد لطباعة كتابي عن علاقتي بواسيني؟

– دوختني يا مريم... عفواً ليلى، قالها كما يفخمها عادة العراقيون. والله دوختني. قلت إنها مزحة لتنسى ما حدث لواسيني، وها أنا أجد نفسي أمام امرأة، يفترض أنها مجرد امرأة ورقية ولغة لا أكثر، تصر على كيانها المسروق، أكثر من ذلك، طباعة كتاب عن علاقتها مع رجل بين الموت والحياة. هل واسيني بخير.

– في وضع أحسن، بإمكانك أن تزوره. قضيتي بسيطة وعليك أن تبذل

جهداً خاصاً لفهمها. أريد أن أثبت للناس جميعاً، أني لست امرأة ورقية، ولكني امرأة حقيقية، وأن صورتي التي أظهر بها في كتاباته ليست هي الحقيقة. شيء آخر أكثر صعوبة وقسوة.

عندما حكيتُ له تصوري الكامل، وما كنت أنوي القيام به، بقيتْ عيناه تدوران في محجريهما كأنهما كانتا معاطتين بالفراغ. لم يستطيع مقاومة دهشته.

– هل فكرتِ جيداً في الموضوع. أليست صدمة واسيني هي السبب؟ ألا تخافي أن تقهري هذا الرجل بكشف كل ما خفي من سيرته؟

– الأمر يخصني ولا يخصه إلا بشكل هامشي. الكل يناديه واسيني، ولا أحد يناديه بغير هذا الاسم. أنا لم أعد المرأة التي أرادها أن تكون في رواياته، وشهّت الكثير من النساء والرجال على حد سواء، فيّ.

– أدخلتني في دوامة غريبة. أنا مندهش أولاً لفكرة مذهلة من الناحية الأدبية، امرأة ورقية تريد أن تسترجع هويتها، لكني خائف على واسيني مما يمكن أن يلحقه من ضرر، جراء ذلك.

– هو من سلمني كل الرسائل.

– ولكنه لم يوصيك بنشرها بهذه الطريقة.

– أية طريقة؟ أريد أن يعرف الناس عذابات امرأة الظل، وما أكثرهن في حياتنا اليوم. لم ينتبه لهن أحد، فأنا أخت لهن. هل أنت موافق.

– أريد أن أعرف رأي واسيني، قبل أي قرار.

– شغلك. إذا لم ترد، لن أحرجك، سأرى ناشراً غيرك. فضلتك لأن كل أعمال واسيني عندك، مما يسهل مجيء القراء نحوك.

كنت أعرف سلفاً أن لعبة مثل هذه ستغريه، وستدفع به إلى القبول، هو المغرم بالممنوعات والكتابات التي تخرج عن المعتاد.

همست في أذنه للمرة الأخيرة:

– موافق إذن.

«– خوش قصة. نجرب.»

أعرف أن سفيان كان جاداً إلى حد بعيد. فرصة أن أعود إلى طبيعتي الفنية. أنا امرأة فنانة، وعازفة كمان، قبل أن أكون مجرد شخصية لروايات يعشقها الناس، أو يشتهونها، أو حتى يكرهونها.

قد يكون فعلي مشيناً إلى أقسى الحدود، لأنه لا يسيء إلى واسيني وحده، ولكن إلى كل محيطه المباشر. ربما قد أموت في قلبه وذاكرته وحواسه نهائياً، بعد أن يطلع على حماقتي التي تواطأت فيها مع ناشره المهبول مثله، سفيان، الذي التقينا به، أنا وواسيني، آخر مرة، في معرض فرانكفورت للكتاب. يترك لنا دائماً بيته لمدة أسبوع، ويتيه في الشوارع والبارات، قبل أن ينتهي بين أحضان صديقته الألمانية التي طلقها، أو طلقته، منذ أكثر من عشر سنوات.

قبل أن أعود في قطارات فرانكفورت–باريس السريعة الليلية، أكدت لسفيان، أن ما كنت بصدد القيام به، ليس فيه أي أذى لكاتبه وصديقه. مجرد هزة عنيفة لواسيني كي يعود من جديد إلى الحياة، ويعيدني إلى وضعي الأول كما كنت دائماً، حبيبته التي فتح عينيه، وجسده، وكراس خطاياه معها وعليها.

– يجب أن تصدق أني تعبت من أن أظل فقط امرأة من ورق، أتخبط في ظل بارد بدأت الرطوبة تأكله وتغطيه برمادها الأخضر.

–٣–

انتبهت الآن فقط أني كنت في شهره الذي يحبه.

تأتيني دندنة صوته ناعمة ووفية، مرافقة لوحدتي وخوفي، مغموسة في نشيدي المر الذي كان يشتهي دائماً سماعه عندما يغالبه التيه والمبهم:

«رجع أيلول وأنت بعيد
بغيمة حزينة..
نبقى حبيبي غريبة وغريب،
أنا وأيلول.»

– «تحمّلني حبيبي، لا حل لدي إلا الحقيقة التي تخرجني الآن من أوهام مريم، وترجع لي جنون ليلي الذي ظل دفيناً تحت ركام اللغة الشهية والقاتلة أيضاً».

من يعرف أنه وراء لغته الجميلة التي برع في صنعها، ضحية في نزفها الأخير لا تطلب شيئاً سوى أن يُسمع صوتها الخافت جداً؟ واسيني لم يكن يدري أنه كلما كتب كتاباً، دفن عزيزاً غالياً عليه بين أوراقه، بحثاً عن أكثر الوسائل جنوناً، لنسيانه! لقد تعبتُ. نمتُ طويلاً بين دفتي كتاب، كأهل الكهف، وها أنا ذي أقوم اليوم من نفس الكهف، ومن غبار السنين المنهكة، ولا يهم إذا لم يفهمني الناس ولم أفهمهم، بإمكاني أن أتعلم معه كل شيء من الصفر، حتى ولو كان العمر لا يسعف كثيراً. ليتحملني فقط ولا ينسى أبداً أن لي قلباً ممتلئاً به، أني أحبه.

– «عمري.. لقد انتهى كل شيء، ونسيت اليوم أني مريم، وأني كنت قبل لحظات فقط، مجرد كائن ورقي. استرجعت لحمي، ثم دمي، وأخيراً أنفاسي التي تقطعت أمامي لسنوات قبل أن أتمكن من تجميعها».

ما زلت امرأة مهبولة لم تغيرها السنين والتكنولوجيا إلا قليلاً. تحب أن يتذكرها حبيبها في أيام الاحتفالات والأعياد، وتشتهي أن تقف بمتعة، في الطابور فقط لترسل رسالة إليه، ولا يهم إذا اعتبرها بعض رواد البريد المركزي في المدينة، متخلفة ودقّة قديمة. هم لا يعرفون أبداً، أن للرسائل طعماً خاصاً، لا يشبه في شيء رائحة الكمبيوتر المشتركة بين الناس جميعاً، ورائحة الحبر، ولذة الخوف من رسائل قد ترجع نحو مرسلها، ويُكتشف بالصدفة القاتلة، سرها. لا تحمل قوة «الإيمايل» الذي يغطي بشكل محكم على كل حماقاتنا، ودسائسنا الصغيرة.

* * *

على حافة الساحل المنسي

سيني الغالي،

اعذرني، المطر يعيدني إلى أيامنا القديمة. بي شهوة لا تقاوم للكتابة لك على الورق. نعم الورق، مثل أية مجنونة عليها أن تبدع يومياً حياتها لكي لا يقتلها التكرار. صممت أن أخترق النظام الجديد الذي ألفته وعودني على السهولة. أريد أن أكتب لك على الورق، أن أنتقل إلى البريد المركزي بوسط المدينة، أن أتعب للحصول على طابع بريدي من بائع غبي يفرض علي عشر طوابع لكي يسهل علي مهمة الحياة القاسية.

– «أسهل لك يا مدام. أحسن من الوقوف في طابور لا ينتهي في كل مرة.

– لكني أجد لذة في ذلك.

– «مش معقول!؟ مع هؤلاء البشر الذين يترافسون من أجل لاشيء؟»

– نعم مع هؤلاء البشر الذين يترافسون من أجل الفراغ، أنا منهم، وأنت أيضاً.

– أعوذ بالله! أنا مع نفسي، ومع نفسي فقط».

كان يقصد طبعاً الفلاحين والعمال الذين يشكلون الطابور الواقف من أجل طابع بريدي. ولا تسمع إلا الجمل المتكررة أبداً: خويا.. يرحم والديك اعطيني تانبر۱۰۹ لفرنسا! واحد لبلجيكا. حبيبي من فضلك طابع لكندا. خويا عندك طوابع للماريكان؟ «ما نعرفش وين جات أستراليا». ولكن أحتاج إلى طابع لتلك البلاد، ولِدي وزوجته هناك. فرحت أنه تزوج، وأنا كنت أظنه قد مات وكلاه البحر. الحمد يا رب العالمين، راه في استراليا، وتزوج من امرأة مسلمة. أحسن من أن يضيع نهائياً! استراليا ولا بلاد ميكي هذه...

أشعر أحياناً وأنا أسمع الناس البسطاء وهم يطلبون طوابع بريدية لمختلف بلدان العالم، أن الجزائر بكاملها هاجرت، ولم يعد بها ما يجير على البقاء. شراء الطوابع يفضح بشكل واضح، فشل ساستنا الذين لا ينظرون إلى أبعد من كروشهم المنتفخة. لم أكن أعرف ذلك أبداً. لقد هجر الشباب، والمثقفون، طوابير البريد المركزي. لم يعد الطابع البريدي إلا شيئاً قديماً ملتصقاً بطبقة لم تعد تعرف شيئاً خارج الكمبيوتر. زمن نحبه لأنه يسهل حياتنا ويضع العالم في جيوبنا، ونكرهه لأنه يسرق كل خصوصياتنا الجميلة.

في إحدى المرات، سألني شاب، وأنا أتصبب عرقاً للحصول على طابع بريدي. لا أعرق ولا أنهك نفسي طبعاً من أجل شخص آخر غيرك. أستكثر فيهم جميعاً هذا الجهد:

- «وعلاش بك يا أختي؟ ألا يكفي الإيمايل؟ اشتري كمبيوتر وستربن الراحة التي يوفرها لك!

- لم أفهم. واش هو الكمبيوتر؟

قلت بنبرة ساخرة لم يدركها.

التفت نحو صديقه وهو يضحك.

- وين أختي؟ أنتِ من بلاد الواق الواق وإلا من الجزائر؟

- لا لا. من الجزائر. من وهران تحديداً. وين جات بلاد الواق الواق؟

صمت قليلاً. لم يعرف بماذا يجيبني. فقلت له:

- عندما تعرف وين جات بلاد الواق الواق، أخبرني الله يحفظك».

ذهبت وتركته مع حيرته. هو لا يعرف طبعاً أن بلية الكمبيوتر غزت بيتي بكامله، وأن وقوفي في البريد هو لذتي الوحيدة التي تصل حد الانتشاء، لكسر الرتابة الكبيرة. أجد متعة في الوقوف فقط، وتأمل الوجوه، والتعب

من أجل رسالة أوصلها إلى الصندوق البريدي، وأظل معلقة لمدة شهر، يدي على قلبي، أنتظر أن تخبرني أنها وصلتك وقرأتها. وأشد أحياناً على رعشة جسدي خوفاً مِن أن يعيدها ساعي البريد، بسبب تغيير عنوانك مثلاً! أو أنها لم تجد من يستلمها، وتسقط بين يدي رياض مثلاً! صرت، في المدة الأخيرة، لا أضع عنواني على القفا، وأتركها تضيع في فراغات الدنيا. أفضل من أن توقظ الوحش الكامن فيمن يستلمها في غيابي. في البريد يسألني بائع الطوابع، وأنا أسلمه الرسالة بعد أن ألصق عليها طابعاً اشتريته من عنده:

- «فرنسا؟

- نعم. فرنسا خويا.

- لا يوجد عنوانك في الخلفية!

- ما نحبش نحط عنواني.

- ولو كان تضيع الرسالة؟

- خليها تضيع! ما عليهش. سأكتب أخرى.. ثم أخرى.. وسأظل أكتب حتى تصل واحدة منها على الأقل إلى المصدر. أنت تعرف أنّ الإصرار يفل الحديد!

- هذا شيء آخر. شغلك يا مدام».

يبتسم ثم يضعها في سلة الرسائل الجاهزة للإرسال.

شعرت أنه فهمني هذه المرة بسرعة. ولهذا أصبحت اشتري طابعاً بريدياً، ألصقه على الرسالة، ثم أرميها في الصندوق الخارجي الملتصق بالبريد المركزي، وأتفادى بذلك أي سؤال لا أشتهي سماعه.

أحاسيس بدأنا نفقدها ونتحول إلى نسخ مكررة. نكتب بالطريقة نفسها نحكي ونحلم.. نمارس حباً بالطريقة نفسها. مع أن الحياة إبداع مستمر

وعندما تكف عن أن تكون كذلك، تسقط كأوراق خريفية، وتموت. لا أريد لأحاسيسي العميقة أن تموت على يدي، فأنا أحبها وأحاول أن أحافظ عليها بطريقتي الخاصة.

حمقاء؟ نعم! حمقاء إلى أقصى الحدود، ولست نادمة على ذلك.

سيئي حبيبي.

حلمي الأعلى والأغلى. يا وطناً يسكنني، دون حدود ودون خرائط.

حكيت لك بعضاً من حماقاتي وخياراتي، أنت شريكي الوحيد فيها، والقادر على فهمها.

لم تأت دائماً حين لا أنتظرك؟ أهو أسلوب خاص في صنع الفرح أم تراها لعنة من لعناتك الجميلة. لا أعرف بأي الكلمات أشكرك على الاتصال اليوم. فصوتك كان أكثر ما كنت أريد سماعه، ولفرط ما سعدت به، لم أعرف ما أقوله لك. ولو كان الهاتف قادراً على نقل رجفاتنا، لأحسست بارتعاش يدي وقلبي وشفتي وأنا أحدثك. لم يكن صوتي فقط. كان علي أن أخفي انفعالي، وتلك الدمعات الخفية التي نزلت من عيني. حاولت أن أصدق بأن ذلك الصوت كان لك ولم يكن لغيرك، وبأن كلماتك كانت لي أنا فقط.

اعتذر كثيراً حبيبي لأني، منذ أن غادرتك، لم أتصل خوفاً عليك مني. أنا سعيدة لأنك بخير، وكنت أعرف أنك ستقاوم باستماتة، ومتأكدة من أنه لم يحن الأوان بعد، لتهرب من يدي. وأن هذه الهزة العنيفة جاءت فقط لتحذيرك من تفريطك بنفسك. لقد كان قلبك محقاً، فأنت أرهقته كثيراً. من حقه أن يهزك بعنف، ويحتج عليك، وينبهك بقوة إلى تخليك عنه.

لن ألومك مطلقاً على تساهلك وقسوتك معه. أريدك أن تعرف أن قلبي لم يتركك ولا لحظة واحدة في عزلة الخوف من الموت. قلت لي إن علاقتك بالموت أصبحت غير مرعبة. لك أن تظن ما تشاء، لكني كلما تذكرت تلك اللحظة، شعرت كأني أخرجتك من فم غول كاد أن يسرقك مني. الحمد لله أني

لم أغفل عليك. لو تعرف كم بكيت، وأي حداد أعلنت على نفسي، وكيف أصبح كل شيء غريب عليّ؟ أتعجب مثلاً كيف يضحك الناس دون مبالاة، وكأنه على كل المخلوقات أن تحزن معي، وأن تعرف ما حدث لك؟ لم أفهم مثل البلهاء أنه من حق الناس أن يواصلوا حياتهم بالشكل الذي يشاءونه. أسئلة سخيفة، ولكنها كانت هنا، في قلبي، حيث كل شيء أصبح غريباً ومنكسراً. لقد كنت أحترق عليك ومن أجلك. هل تعلم حبيبي، أني أعلنت الحداد قبل الأوان. منذ يوم مرضك إلى الآن، لم أضع ذرة ماكياج واحدة على وجهي، ولم ألبس إلا السواد. وهل تعرف لماذا ؟ ببساطة، لأن إحساسي بنفسي كان منعدماً لحظتها! لأول مرة أشعر بعبث الحياة. سؤالي لاسترجاع هويتي الضائعة منك، هو وسيلتي الجديدة لأتمكن من الحياة من جديد. أقبل أن تموت مريم لتعيش ليلى وتواصل الموسيقى، والكتابة أحياناً، واستحضارك كلما اشتقت إليك.

مجنونة؟

معك حق حبيبي، ولكنك لا تعرف، كم وكيف، تحبك هذه المجنونة؟ وكيف ركعت على قدميها، وقبلت الأرض ليال طوال، وتوسلت بصوت مذبوح إلى الله، وغرزت أظافرها في أديم التربة حتى يمنع عنك الله قدراً ثقيلاً كان يحوم حولك بحقد دفين. لقد أخطأك الموت كثيراً، فلا تمنحه فرصة سخية. لقد كنت عاجزة تماماً، ولم أعرف كيف أتصرف. فجأة أحسست أنك كنت قريباً من الموت أكثر من أي زمن مضى. على الرغم من أني لبست حدادي قبل الوقت لأني كنت على يقين من أن الموت الذي أخطأك مرات كثيرة، سيكون شرساً في المرات القادمة. على الرغم من ذلك، لم أفقد الأمل، ولا الثقة، في أن القلب الذي يدن، هو القلب الذي يحب. لذلك سيقاوم باستماتة، لأن الحب أقوى.

لقد كنت على حق، وها أنت مثل عصفور الجنة تخرج إلى النور وتملأ الحياة ألواناً ودهشة. من حق أي امرأة أن تحبك حبيبي، أنا لا ألومهن. من حق أنيا أو أنيتا أن تترك رجلها من أجل سرابك. ومن حقك أن تعيش في الضفة الأخرى، وتحب وتصرخ، لأنك الوحيد الذي يصنع هذه الفجوات في



القدر، ويحرفه نحو مسارات أخرى، قد تكون أجمل وأدفأ. لكن ليس من حقك أن لا تفكر فيمن يفكرون فيك بألم وصمت.

طوال أيام غيبوبتك، كنت كل يوم أكتب لك الرسالة تلو الرسالة، وأنتظر أن تجيب عنها، أن تقوم من سريرك الهادئ، وتحدثني عن أسرارك الصغيرة. كان عليك أن تفعل ذلك حتى لا تسحبني وراءك أنا أيضاً. هل تتخيلني حية بعدك؟ ستكون غبياً إذا ظننت ذلك. أنت قلبي حبيبي. وأنت هو الشريان المتبقي فيّ نابضاً، الذي يربطني إلى الحياة بإصرار كبير، ويمنحني فرصة العيش والمقاومة وعدم الاستسلام.

لا أمنحك فرصة التخلص مني أبداً. استمرارك في الحياة هو أكبر انتقام لي من قدر تستدرجه في كل مرة بكثرة حماقاتك.

لقد استعدت أثناء مرضك، في الليالي التي لا تنتهي، كل اللحظات التي عشناها معاً. وأحسست بفداحة ما لم نعشه. كان بإمكاننا أن نعيش اللحظات بجمال أكثر ونجعلها أسعد لحظات العمر. لماذا يذكرنا الموت دائماً بقصورنا وتقصيرنا في حق الآخر؟ هل لأنه على الحافة وعلينا أن نعتذر له بطريقتنا قبل فوات الأوان؟ تذكرت ذلك كله دفعة واحدة حتى كاد يخنقني. أعرف أن في داخلك من الجنون ما يكفي لجعل كل الأحلام حقيقة. وعليك أن تعرف، ومتأكدة من أنك تعرف، أن في داخلي امرأة مجنونة كلياً بإمكانها أن تهبك كل شيء دون أدنى تردد ولا خوف، ودون أن تجبرك على البقاء معها طوال حياتك. لو التقينا في زمن آخر، ولو لم نرتكب حماقة موت فُرض علينا، لرسمنا أجمل قصة حب يمكن أن تملأ وحدها حياة بكاملها.

يا دينك، لو تدري كم أحبك وكم أشتهيك، لتركت سرير المرض وركضت إلى أحضاني. ولكنك لم تدرك ذلك لأنك منشغل بقسوة خفية وحدك تدرك سرها. كلما فكرت فيك أحسست، بأنه ما عاد ممكناً الاختباء داخل الخوف والوهم، ونحن نتعرى من كل خوف ووهم. ما عاد ممكناً أن أتركك تمر هكذا في حياتي دون أن أحتفظ بك في أعمق نقطة فيّ. وكلما تحسست بطني، أحسست بشيء منك يتكور فيّ هنا، وينتظر لفترة طويلة داخل رحم الحلم.

لقد كبر يونس ومايا، وأشتهي أن يأتي ما يملأ عزلتي. هل تعرف أن مايا كانت حياتنا المشتركة، ولهذا فهي الفراشة الدائمة التي تجعلني أتشبث بالحياة. مثلك أشتهي أن أتحرر من كل مخاوفي وألتقي بك، وأعريك بيدي وأقبل كل نقطة في جسدك، وحين أغمض عيني وأنت تتوغل عميقاً فيّ، لا أرى شيئاً سوى تلك الألوان التي تملأنا والأنوار التي تغلف حميمياتنا، ولا أسمع سوى أنفاسك المجنونة وهي تتقطع على جسدي الممنوح لك بكل عنفوانه، وموسيقى الليل التي نحبها. لا لن يموت العمر ولن تنتفي هذه اللحظات. أعرف أنها ستستمر طويلاً ولو كان ذلك دائماً على حواف الهبل. سيمنحنا الله مزيداً من العمر، ومزيداً من الجنون لنمارس ما تبقى من حياتنا، كما نريد، وحين نشبع، ونحن لا نشبع أبداً منها، سنذهب نحو الله بأيدٍ متشابكة ونشكره مثل الأولاد الطيبين، ونطلب منه أن يكمل معروفه ولا يحرمنا متعة أن نبقى معاً، ولو كان ذلك على الحواف التي يشاؤها.

رسالتك الأخيرة أعطتني جرعة زائدة من الجنون، والحب والرغبة في العزف. وصوتك أصبح أحلى وأغلى رهان لاستمرار حياتنا مع بعض. أحبك. وأنتظر أن تتعافى تماماً. وأنتظر أن تعود إلى حافة الساحل لنختبئ مرة أخرى وأمسح عن جسدك كل الأذى الذي لحق بك في غيابي. شوقي لك دون حد، لكن خوفي عليك كبير أيضاً. قل فقط لقلبك المجنون إني لن أسمح له ثانية أن يلعب هذه اللعبة الخطرة. كلما أحسستَ بالضيق، تنفسني حبيبي، فأنا عطرك الصباحي قبل أن تبدأ المدينة حياتها. وكلما أحسست بالتعب أرح رأسك على صدري وأغمض عينيك وسترى كل ما تشتهيه، وكلما أحسست بالحزن، تذكر أن في هذه الدنيا، على الضفة الأخرى من البحر الذي شاخ قبل الأوان، إنساناً يضع حياته كلها بين يديك، ويحيا بحياتك. وحين يؤذيك الآخرون أو ينقبض قلبك، افتحه لي وأفرغ المرارة والحسرة على عالم ليس رحيماً دائماً. وسأمسح من على وجهك كل الانكسارات، وأقبل جبينك وأضمك إليّ حتى تأخذك غفوة اللذة.

أحبك يا سيني حبيبي، طفلي العنيد والمكابر باستمرار. أحبك يا كمشة نور وألوانٍ متشابكة. يا عود الياسمين البري الذي يقاوم باستماتة لكي لا

ينكسر ولا يستسلم للبرد والعزلة ومنافي الروح. أحبك وأنتظر أن تضمني إليك، وتضغط على شفتي «بلا مزية حدا»، وتعرك جسدي كما تشتهي. «بلا مزية حدا»، وتأكلني كما يبدو لك. «بلا مزية حدا»... ولا حبيبي، ما معنى هذه النداءات المجنونة التي تأتي من أعمق نقطة فينا؟

أحبك، وأموووووووووووت فيك يا ملعون. أرجوك حبيبي، تفاد فقط، في المرات القادمة أن تعاود لعبة خطيرة كهذه، لأن القدر قد لا يمنح جنونك فرصاً أبدية.

إذا كانت صرختك مجنونة، فهل تظن أني أملك عقلاً لمقاومتها؟

حبيبتك التي تنتظرك على حافة ساحلنا المنسي.

وهران، ربيع- ٢٠٠٨

-١-

«هذا واسيني إذن، كما شاء أن يكون. هذه أنا كما قررت».

تأملت المسدس. سبع رصاصات، وقبضة أصبحت الآن دافئة.

غاب الكمان نهائياً ولم يبدُ إلا ظله، بعدما وضعته في الزاوية الخلفية من المكتب الذي يحتل جزءاً كبيراً من السكريبتوريوم. أدرك الآن بعد كل هذا التعب الخفي الذي أرهقني، أن أصعب شيء نمارسه هو قتل امرأة ورقية، خرجت من سلطاننا وأصبحت كياناً مستقلاً.

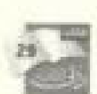
لقد كبرت مريم بجانبي مثلما يكبر المرض.

- «لا دم في يدي ولكني أعتقد أني حشرت مريم في أضيق زاوية، مثلما كان يفعل واسيني كلما شعر بالحزن ورغب في عيش حداده للمرة الأخيرة».

إذا اضطررت إلى أن أطلق النار عليها، فلن أتردد ثانية واحدة. سأقتلها، وأتلذذ بالرصاصات الصغيرة وهي تحدث ثقوباً متتالية في جسدها الغض الذي سرق مني سعادتي وتوازني. سأشفي غليل ربع قرن من الصمت.

لا يهم بعدها إذا استيقظ واسيني من غفوته الطويلة أو لم يستيقظ. عندما يعود إلى الحياة الطبيعية، سيجد كل شيء قد انتهى.

اليوم، لا أشك أبداً في أن واسيني أحبني بصدق، ولهذا قبلت بلعبة مريم التي حلت محلي بعد أن ألبسها كل الأقنعة الجميلة التي جعلت منها امرأة استثنائية. لكنها أخطأت في قدراتي على الشر. مع الزمن، تأكد لها أنها أصبحت امرأة لا يمكن تخطيها، وأنها دخلت في أعماق الناس، ولن تموت أبداً. فكل من يستقر في الذاكرة يظل حياً. ثم انفردت به وبفراشي، وأحلامي، وحديقتي، وورودي، ومحت وحاولت محو جودي نهائياً حتى من ذاكرة واسيني نفسه. لولا الأسفار المسروقة وطيراني مع واسيني عبر العالم، الذي قربني منه بعمق، لأحرقتني. أشكر الأقدار بلا تردد أنها وضعت في مسالكنا



صدف الأسفار الجميلة التي وازنت وضعاً كان يسير نحو الانكسار الحتمي.

لقد أخطأت مريم خطأً قاتلاً لأن الأحقاد تعمي. وأنا الآن عمياء.

عندما اتخذت قراراً لاشعورياً لإطلاق النار عليها، لم يكن خياري عبثياً. فقد قتلني واسيني العديد من المرات فقط ليمنحها حياة أطول في أعماق من التقوا بها صدفة في بيوتهم، أو في الكتب. قتلني حينما نشف دمي ولحمي مثل مومياء فرعونية، وحولني إلى مريم، مجرد كائن ورقي لا أكثر، تزوره عيون القراء في متاحف الكتب، والمواقع، يقضي العمر كله معلقاً على ورقة ميتة أو على صفحات افتراضية، لا ماء فيها ولا حياة. قتلني في حادث سيارة غير مرقمة، في ضمير الغائب، وكنت دائماً أنبهه من مخاطر اللعبة. ولكنه كان يضحك مصراً على فكرته الثابتة التي لم أستطع تغييرها: الأدب أكبر من الحياة. ثم بلمسة ساحر لغوي، حولني إلى طالبة في العلوم السياسية، وأنا لا علاقة لي بذلك مطلقاً، في فاجعة الليلة السابعة بعد الألف. صحيح أني درست شهوراً قليلة في الجامعة، في قسم الأدب في وهران، قبل أن التحق بكونسرفتوار المدينة، ربطني بالبشير الموريسكي الهائم. عرفت مصدر الحكاية طبعاً. فقد استثمر علاقتنا الجميلة مع عمي البشير الحاج علي، شاعر الأندلس التائه، الذي أجهز عليه زبانية النظام بالتعذيب والسطل الألماني، فأفقدوه الذاكرة والحركة. كان عمي البشير جميلاً مثل شمس ربيعية، وهشاً مثل فتيلة قنديل، في مهب العواصف البحرية. صديقة عمي البشير ومرافقته، هي الفنانة مريم بان[110]، ولست أنا. وتوهني واسيني، سامحه الله، في مدينة مبهمة، لم أعرف هل هي مدينة شرقية أم غربية في مصرع أحلام مريم الوديعة وتركني في سوق غريبة بعد أن سرق مني بوصلتي الوحيدة في الدنيا: قلبي. أحياناً أرى في تلك السوق، سوق الحميدية الشعبية، وفي أحيان أخرى أراها سوقاً مبهمة بلا هوية. وجعلني أموت في مستشفى بارد، على وقع كلماته الأخيرة في سيدة المقام. حسدت مريم على جرأتها وموتها الاستثنائي بين ذراعي الرجل الذي أحبته أبداً، وعلى وقع الكلمات الجميلة. وضع في رأسي رصاصة صدئة سماها رصاصة خريف الغضب الذي عم البلاد في سنة ١٩٨٨، ثم جعلني

مجنونة على رمسكي كورساكوف. كنت حقيقة مهبولة على هذا الموسيقي العظيم، ولكني لم أكن أبداً راقصة في حياتي. أعرف جيداً مصادر الاستعارة. الجميل في واسيني هو أنه كان يحكي لي عن كل التفاصيل. ربما سأرويها يوماً عندما أستريح من الشطط الذي أعاني منه. فقد تعرف على راقصة باليه في دمشق، وجاب معها جزءاً من مدن الشرق بحثاً عن سحر شهرزاد الذي التصق بلحمها، قبل أن يفترقا على أجمل ليلة. اكتفى كل واحد منهما بحياة كان يصنعها بشطط غريب. رآها يوماً على شاشة التليفزيون وقد فقد جسدها كل نضارته، وهي تطلب من وزير الثقافة أن يهتم بها وبأولادها، بعد أن تركها زوجها وهرب معها إلى المغرب. بكى واسيني ليلتها، ومسح بسرعة تلك الصورة من عينيه وفضل أن يعيش على صورته التي صنعها معها. إلى اليوم يرفض أن يراها. كان يعلق صورتها في بيته وهي تطير في الفضاء كالفراشة، وسط عرس من الألوان المضاءة. ثم رماني في باريس، في أيام الشدة الكبرى، في شتاء ١٩٩٣، مع ابنته ريما في ذاكرة الماء. وغيَّر الرسالة التي بعثتها له من بيروت وكنت ممتلئة به، أدعوه فيها إلى أن يرفض منصب وزير الثقافة الذي سمعت أنه اقترح عليه، حتى قبل أن أسافر. كنت أراه دائماً فوق كل هذه التفاصيل التي لا تشرفه. أفرحني عندما سمعت أنه هرب إلى تونس بدعوة من جامعة القيروان، لكي لا يواجه غوايات الأصدقاء، ولم يعد إلا عندما تم تعيين الحكومة الجديدة. ثم دفع بي نحو مغارات الموت، في طوق الياسمين، مع ابنتي سارة، في مشهد جنائزي جعلني أصدق ما فعله بي. لست أدري من أين اخترع واسيني اسم سارة؟ ونسي أو تناسى، أن الطفلة الوحيدة التي سرقناها من العسس وقتلة هذا الزمن، هي مايا. مايا التي ورثت نبضه ونبضي، وتحس بكل التفاصيل الخفية التي تخترقنا. السحَّارة، كما اسميها ويروق لها ذلك. المرة الوحيدة التي ذكرني فيها باسم غير اسم مريم، كان ذلك في وقع الأحذية الخشنة. ربما لأنها كانت البدايات. والغريب أنها الرواية الوحيدة التي ألحقت بي وبه ضرراً كبيراً. فقد حولها أصدقاؤه الذين كنت أعرفهم، وأعداؤه أيضاً، إلى مضغة وجد كل واحد منهم فيها ضالته المريضة. الغريب أني يومها لم أغضب من واسيني. بل كنت سعيدة في أعماقي، أني ألهمته وحركت حواسه الداخلية أنا التي كنت أعشقه على الرغم

من عيون حساده، قبل أن أنتهي بين أحضان أحدهم، رياض، بسبب حماقات واسيني التي لا تحصى. كل امرأة طبيعية تهتز لذلك عندما تتحول إلى أيقونة في قلب وخيال رجل. تراجع على الرغم من أني تمنيته أن يتشبث بما فعله معي. منذ ذلك اليوم، وفي ذلك الخراب القاسي، وعالم الشكوك والريبة، وُلِدَ قناعي، وُلِد اسم مريم الذي لازمني أكثر من ربع قرن. أكذب إذا قلت إني لم أكن سعيدة بكل ذلك الألق الذي أضفاه علي من خلال مريم، ومتواطئة معه إلى أقصى الحدود. كنت قارئته الأولى. مريم لم تكن أنا بالضبط، لكني كنت فرحة بشيء وحيد، هو صورتي المذهلة في أعماقه الخفية، قبل أن يتحول ذلك كله إلى كابوس قاتل. تكذب من تقول إن ذلك لا يدغدغ حواسها الدفينة بأنها امرأة مشتهاة، ويحبها الآخرون. تكذب ولا تقول الحقيقة. الكثير ممن عرفتهن، تمنين أن يكنّ في مكان مريم، أي في مكاني، إلا أنا، فقد تعبت مع الزمن من هذا الحمل الثقيل. كل هذا النور المذهل الذي كان يخرج من الكلمات، وهذا الألق الغريب الذي يجتاح داخلي ليحوله إلى قطعة زجاج شفافة، وهذه الغوايات التي لا حد لحريتها وسلطانها على الناس، كانت على حساب إنسان حقيقي دُفِن مع الزمن حياً: ليلى. ليلى.

-٢-

في مرة من المرات، ولكي يقلل من غضبي وجراحي، أخذني واسيني من يدي وأجلسني على ركبته اليسرى مثلما نفعل عادة مع طفل صغير نريد استرضاءه، ثم نثر أمامي عدداً كبيراً من الرسائل. كانت رسائل من قراء وصديقات، حتى أن هناك بعضها لكاتبات أجنبيات وعربيات معروفات، ثم قال لي:

– انظري عمري ماذا تساوين في عيون الناس، أو ماذا تساوي روحك العميقة.

لم أفهمه جيداً. ثم بدأ يقرأ عليّ بعضها. لكني أوقفته كمن ينزل سكينة باردة على أوردة كانت تنبض بالحياة قبل لحظة.

– عمري... أنا متعبة. ماذا أساوي في عيون الجميع؟ زوجتك؟ لا. محظيتك؟

لا. حبيبتك؟ لا أحد غيرك وغيري يعرف هذه الحقيقة. فأنا أولاً وأخيراً، زوجة رياض! لستُ أكثر من امرأة ورقية، يلمسها كل الناس. مشاعة للجميع. يحلم بها من يشاء. وربما ينام معها ذهنياً من يشاء أيضاً. تحت رحمة كل القراء، من العاقل والجميل، إلى القارئ المأزوم، الذي قبل أن ينام، يغمض عينيه على جنونها الذي لا يجده في زوجته، ولا حتى في أية امرأة أخرى، ويستمني عليها. حبيبي، لست أكثر من امرأة الظل، تعطي كل شيء، بما في ذلك جسدها، ولا حق لها في أن تعلن عن حبها. قناعها، مريم، له كل الحق في أن يفعل ما يشاء! الكثير من الناس يحبون مريم، والكثير منهم أيضاً يحبون إصرارها على الحياة، ويجدون كل المبررات لخياناتها الصغيرة والمتكررة. يبررون قبحها لأنهم يرتمون بسرعة في أحضانها ويتحولون في رمشة عين إليها هي، قبل أن تخذلهم الحياة من جديد. لكنهم، عندما يسمعون بليلى تقوم بالشيء نفسه الذي تلذذوا به وأحبوه، سيعرّونها، ويرجمونها باللذة نفسها، وبتهمة الخيانة الزوجية. هل فكرتَ في هذه الازدواجية وأنت تسرق مني اسمي وروحي وتمنحهما لمريم؟

– أفهمك جيداً. لسنا في النهاية إلا داخل مساحة افتراضية ليس أكثر. اللغة لا تنزف، ولا تقطر دماً، ولا تخلف أي أثر على الطاولات التي تكتب عليها! مريم ليست أكثر من ذلك. اسمعي كيف تنتقل الأشياء من الافتراضية إلى الحياة. الناس في النهاية يبحثون عن قليل من التوازن في عالم فقد كل شيء، وليسوا بكل هذا السوء. اسمعي هذا...

وقرأ لي أجزاء من رسالة كان قد سطر على الكثير من جملها بالأحمر:

«عندما انتهيت من قراءة الكتاب بكيت على مريم، ولم أستطع كفكفة دموعي. أشعر أن ما حدث لها يمسني، وأني معنية بها بقوة. مصيرها، مصيري. مريم ليست أدباً ولكنها جزءنا الخفي الذي نخاف من أن نقوله. ربما كنت أنا أيضاً مريم، أبحث عن مثل أعلى سرق مني في وضح النهار. الشاهدون على المقتلة أبي وزوجي وإخوتي».

ثم وضع الرسالة جانباً، وأخذ رسالة أخرى كانت مطرزة بمختلف الألوان، وقرأ عليّ الجمل الذي وضع تحتها سطراً أحمر.

29
الإصدار ٢٩، أكتوبر ٢٠٠٩

«لا أومن كثيراً بالإسقاطات. إذ لكل إنسان تجربته الخاصة في الحياة لكني وجدتني في مريم. ثم في فتنة. وعلى فكرة هما الشخصية نفسها. لأنك عندما هربت من مريم سقطت من جديد في شبيهها. يجب أن تعرف أني أشبه مريم في ألبستها. في حركاتها. بل حتى في القلادة التي وضعتها على صدرها. وحتى في رغباتها المجنونة في الرقص وتحدي عالم أصبح لا يعرف كيف يفرح. تشبهني حتى في اللباس الأحمر الذي تشتهي ارتداءه. وفي لونها البنفسجي الذي تفضله على كل الألوان».

ضحكت بمرارة:

– هل تدري هذه المسكينة الطيبة، التي توهمتْها، أن اللون البنفسجي هو لونك؟

– الألوان ملك مشاع، مثل نور الشمس. ثم إنه لم يعد لوني منذ أن سرقته مني ووضعته في متناول جميع النساء... اللون مثل العطر حبيبي، لمسة ترفض أية امرأة عاقلة، حالة الشراكة فيها.

– لم أسرقه، مريم كانت مهبولة. ملأت مسبحاً كاملاً به، وعامت فيه ليلة بكل ساعاتها، وفي الفجر عندما خرجت منه، كان جسدها مثل جسد فراشة بنفسجية.

– أنت من سلمه لها، فهي لا شيء بدون لمستك وأناملك، وهبلك الداخلي.

فهم واسيني قصدي جيداً. سحبني نحوه وأنا مازلت على ركبته اليسرى، وقبلني.

كنت مستسلمة له كصبية لم تكن تنتظر إلا من يهتم بها، وسعيدة أنه فكر، في لحظة من اللحظات، أن يسألني عن النار التي كانت تلتهمني من الداخل كالحطب اليابس. جاء في وقته، لأني كنت قد بدأت أشعر أني كنت وحيدة في آلامي وخوفي، كاليتيمة في عالم لم يعد يأبه بها، ولم تعد تعرفه.

– اسمعي هذه الشامية، المفروض أن تستثير مرآة نرسيس فيك:

«انزعجت من سامي خطيبي. لم أكلمه. قلت له: اقرأ مريم في طوق الياسمين وتعال نتحدث. أنا غير قادرة على أن أقول له بالتفصيل الممل ما يشتعل في قلبي. أهديتها له. عندما قرأها جاءني ذات صباح وهو يبحث عن كلماته التي كانت تهرب منه. كان طفلاً. أحسست أنه فهمني جيداً. لأول مرة ينسى سامي كبرياءه، ويأتي نحوي كما اشتهيته، رجلاً هشاً وجميلاً».

ثم قرأ رسالة أخرى، أضحكتني قليلاً:

«قرأت شرفات بحر الشمال سبع عشرة مرة. وفي كل مرة أرى مريم بشكل مخالف. لقد أصبحت إيقونتي التي أضعها كل ليلة عند رأسي».

– يعطيها الصحة. لابد أن يوقظ ذلك فيك بعض مدافن الغرور!

– قليلاً من الغرور لا يؤذي أحداً، ولكن ليس هذا هو المهم.

– هذا لا يمنعك أن تشعر بزهو كبير وأنت تقرأ عليَّ هذه المقاطع. وتنسى حبيبي، أن وراء تلك السعادات العابرة، مصير امرأة، كل يوم تموت قليلاً.

– الكتابة شيء آخر، أكثر تعقيداً، وليست مجرد صدى لحياة الناس.

– «طَبْطَبْ!» لن تقنعني أبداً بأن مريم بريئة من دمي ومن سعادتي المسروقة ومن سجني. دعني أشهد لك أولا بالحنكة في التسلي بمصائر مخلوقاتك اللغوية. ولكني أنا... نعم أنا... إنسانة ولست مخلوقة أدبية. عندما أحزن، لي قلب من لحم ودم لا يمكن رتقه. وعندما أموت، فأنا سأموت نهائياً، وليس قليلاً. مثل شخصياتك العديدة التي يمكنك أن تستعيدها متى شئت وكيفما يحلو لك. إله. مساحتك الورق، ودواتك اللغة. هذا الإله لا يناسبني حبيبي. في حاجة إلى إله لا يشرك بي شيئاً.

– مريم هي أنت، ولكن مرممة. لقد أضفت لك كل ما كان ينقصك. حولتك الى راقصة باليه وأنت سوبرانو وعازفة كمان. مَنْ مِنَ القراء يعرف قصة

الراقصة التي صادفتها في دمشق وسحت معها في المدينة مدة شهر داخل كل مرافئ الجنون الممكنة؟ شهر واحد كان كافياً لأن يهز كل قناعاتي في الحياة، ويقينياتي وحتى أوهامي! ربما احتجنا إلى وضع آخر غير هذا، لكي ندرك أن دنيا الأدب ليست أجمل من الحياة وليست دونها، ولكنها هي حياة أخرى. لحظة مثقلة بصمت اللغة وضجيجها، تأتي عندما تتوقف الحياة الاعتيادية من أن تكون كما نشتهيها. طبعاً مخاطر الحياة الموازية أقسى، لأنك لا تعرف من أين، ومتى تأتيك الضربة القاسية من شخص لا تعرفه سوى أنه تخيل، في لحظة من اللحظات، أنه هو المعني الأول بروايتك. كل الناس أصدقاؤك، لكن يمكنهم أن يكونوا أيضاً أعداءك. شخصية ورقية لا تعيرها اعتبارات كبيرة، يمكنها أن تحملك شأناً قاسياً من شؤون الحياة. تتذكرين قصة ذلك الرجل الذي رأى في ساسافندا، في ضمير الغائب، شبها لخطيبته المناضلة في الاتحاد النسائي؟ ظل يتردد على جريدة المساء التي كانت تنشر الرواية مسلسلة في خريف ١٩٨٦، ويترصدني خطوة، خطوة، حتى عرف كل حركاتي، قبل أن يدخل إلى الجريدة ويلتقي بمديرها، الذي أقنعه بأنه لا علاقة للرواية بخطيبته أبداً. وأني من وهران، ولست من الجزائر العاصمة، مما أبطل كل شكوكه. وأصر هذا الرجل الغريب الذي كأنه خرج من رواية، أن تُقرأ على مسمعه نهاية الرواية ليطمئن قلبه أكثر. فاكتشف أن لا علاقة للنهاية بما عاشه مع صديقته التي افترق عنها وظل متعلقاً بها. عندما نهض للخروج، وضع سكينة الجزارين الطويلة على المكتب، وتدحرج خارج مكتب المدير، وهو يكرر: **والله عمره طويل هذاك الحرّاز**[111]. كنت أنوي أن أدفنها في ظهره صباح السبت المقبل عندما يغادر مباشرة الجريدة. القتل يوم السبت يحرمه من الجنة، ويضعه في صف اليهود. يومها أدركت أن الخطر ليس في رقابة تعرفها جيداً، ولكن في القارئ المحتمل. الناس يحتاجون إلى من يعطيهم يقيناً لحياتهم الجافة والباردة. حتى عندما يقدمون على ارتكاب جريمة قتل، يظنون أنهم في حالة من القتل الافتراضي التي لا علاقة لها بالحقيقة.

– لكنني يا عمري، لست كائناً افتراضياً. أنا امرأة من لحم ودم وألم.

-٣-

كل هذا لم يحل مشكلتي العميقة، بل عمق القرار الذي اتخذته قبل مدة.

لا أضيف شيئاً من عندي. أقسمت أن لا أقول إلا الحقيقة، ولا شيء يجبرني الآن على الأقل، على فعل ذلك سوى حرقتي الداخلية. لقد تأخرت كثيراً. لم أفهم كيف أخرجتني مريم، قناعي السري، من دائرة الحياة، واحتلت مكاني في كل شيء؟ سرقت مدني الجميلة التي زرتها خفية مع واسيني! سكنت ألواني التي اشتهيتها، خصوصا البنفسجي والأزرق! في النهاية، استولت حتى على جسدي وسكنته مثل الجني، بكل ما فيه من حماقات وجنون، وتعطش وحرية مكبوحة؛ لا أغفر لها أنها نامت في فراشي مع رجال لا أعرفهم، وشممت رائحة عطرها التي كانت من عطري! تباهت بألبستي الحميمية أمام حبيبها وهي في أقاصي السكر الجميل، تماماً مثلما أفعل! وصل بها الجنون إلى أنها فتشت خزانتي الخاصة وأخرجت منها كل شفافيتي وألصقتها بجسدها في لحظات العنفوان! على مدار أكثر من عشرين سنة وهي، تسرق مني مساحة جميلة، أو شيئاً ثميناً، قبل أن تأخذني بكلي. كانت تفعل ذلك على مرأى مني ومن واسيني.

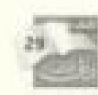
– **«غيبوبتك أعطتني كل مبررات الانتقام»**.

لقد أصبحت هي أيضاً وحيدة بدون واسيني النائم في غيبوبته. لقد صمتت فجأة وتكومت على نفسها، واندفنت في سرها الخفي. لم أعد أراها كما تعودت أن تفعل معي، كل صباح، في فراشي وهي تتمطط، في حالة قصوى من الكسل الليلي، بقامتها الرشيقة. كانت أحياناً تصطنع ذلك إمعاناً في إيذائي.

-٤-

أشعر أن اللغة التي سرقت جسدي، كانت دون حرائقي الحقيقية.

ما زلت على قيد الحياة، وممتلئة بالنور وبقدر لا يضاهى من الجنون، كما في لقائنا الأول، ولكني تغيرت كثيراً عما كنت عليه في السابق. ربما



لأني قتلت واسيني قبل الأوان، في مستشفى الأمراض القلبية بباريس، يوم استعديت لاستقبال موته بصبر وأناة، فأصبحت مستعدة للتمرد عليه أيضاً. فعلت ذلك لا لأني كنت أريد موته، فأنا لا أحبه فقط، ولكني رهنت حياتي من أجل إسعاده.

كنت في حاجة لصمته، لأتفرغ لحربي المصيرية ضد مريم. ولم أجد أفضل من لحظة غيبوبته التي تمنيتها في أعماقي أن تطول حتى أنهي مهمتي، ولكي لا يمنعني مما نويت ممارسته ضد مريم التي أحرقت فيّ كل ما هو عميق.

لقد تعبت، ولم يكن لدي خيار آخر غير ذلك.

ليجرب قليلاً، هو المعتاد في السنوات الأخيرة، على الأضواء الملونة، والجوائز، وفنادق الخمس والست نجوم الفخمة، والقصور، وأسفار البريميوم والدرجة الأولى، ليجرب للحظة واحدة، ما معنى أن يقضي الإنسان أكثر من عشرين سنة، في الظل، بدرجة أقل من سارق؛ محجوزاً في بيت، أو بين دفتي كتاب؛ لا يستطيع أن يصرخ بأجمل حظ وأجمل صدفة في حياته: حبه. أعرف جيداً أن واسيني خارج كل هذا البهرج الشكلي، ولا يهمه مطلقاً ذلك، فقد اختار الحياة البسيطة لأنها تشبهه. لكن... ليجرب ذلك فقط من أجلي. أن يأخذ مكاني يوماً واحداً فقط ويعيش كامرأة الظل. كما أعرفه، أعتقد جازمة أنه لن يستمر في الحياة أكثر من يوم. سيجده العابرون على حافة الطريق العام، يقطع ملابسه بجنون، أو منتحراً في مكتبه، بعد أن يكتب جملة واحدة على الورقة الملطخة بدمه: اعذروني، تعبت. لقد سئمت من يوم واحد لا حياة فيه إلا التكرار.

- «نعم عمري... قلتها، أو تخيلتك قلتها: لقد سئمت من يوم واحد لا حياة فيه إلا التكرار. لهذا صممت حبيبي، أن أخرج من دورة التكرار القاتلة، وأدخل في عمق المعنى، وأمارس شهوتي الدفينة بالقتل. متأخرة؟ ربما. لكن كما يقول المثل الفرنسي: Il nest jamais trop tard pour bien faire[112]».

نشر هذه الرسائل ليس إلا الخطوة الأولى نحو حماقة أعظم، هي في طور التكوين كالبركان. فقد خلتني يوم بداية غيبوبته، أن أحمل قلمه وأستمر في الكتابة كأنّ شيئاً لم يكن. أكتب زاويتَيْ «ياسبوراه»، و «أهل الكتاب»، في يوميتي الخبر والوطن، باسمه، أو حتى باسم مستعار، لا يهم. الأكثر أهمية أن يظل واسيني حياً. أعتقد أنني أملك النار الداخلية التي أنشئ بها الكيانات الحية. فقد أصبت بعدواه في وقت مبكر من تجربتنا، وأصيب هو أيضاً بجنوني الموسيقي.

قد يكون ما أقوم به الآن هو مجرد بروفا قاسية، لكتابة امرأة فاض عليها ظل قاتل، لامرأة من ورق. ظل الموت.

رسائل واسيني هي أجمل ميراثي وهي من أيقظ فيّ هذه الرغبة، وإن كان ضعفها القاسي والهش، أنها ليست أكثر من لغة. كلما عثرت على رسالة له، تذكرت ما قاله لي يوماً في إحداها: كلما كتبت عن الحب، كانت الرسائل لعبتي المفضلة في الكتابة على الرغم من كونها لعبة غير مأمونة المسالك. لم أفعل الشيء الكثير سوى أني استعملت حيلة الكتابة لأجعل من المستحيل ممكناً. في قلبي رسائل أشعر بالدهشة كلما قرأتها، ولهذا، كل ما أنشره في الروايات هو حقيقة محاطة بأجمل كذبة هي الأدب. عندما نجمع كل الأيام التي عشناها، أكتشف فجأة أننا لم نعش زمناً طويلاً، ولكنه كاف لأن يجعلنا نتشبث بحقنا في الحياة والسعادة. الحب هو أجمل اكتشاف للحمقى، وإلا لكانت الدنيا مجرد صخرة لا شيء يحركها سوى التآكل اليومي (...) ليست ليلى، ولا حتى مريم التي سرقت كل وجداني، هي امرأة واحدة. هي مرجع الحياة والحب واللذة التي ترفض أن تسقط في دائرة التكرار القاتل. (...) أشتهي لو كنت أسن القوانين أن أغير نظام هذه الكذبة التي نعوم فيها جميعاً، أن أقبل بالحل الوسط ما دام الزواج مجرد عقد ليتفق الاثنان، المرأة والرجل معاً، على احترام الرباط الذي يصبح مقدساً. ولكن بشرط احترام كل البنود، وربما كان أهمها تحديد مدة الزواج، خمس سنوات مثلاً، عشر أو حتى خمس عشرة سنة، لا يهم. ولنضع في خاتمة العقد جملة مكتوبة بشكل نافر ومميز: عقد قابل للفسخ بعد انتهاء

المدة، أو للتجديد بتراضي الطرفين. بهذه الطريقة يستعيد الحب ألقه. إذ لا يمكنه أن ينشأ خارج الإحساس العميق بالحرية والصدق. غياب الحرية في أية علاقة هو قتل لها.

أهز رأسي حزناً وأمضي داخل صمتي وعزلتي.

تسبقني ابتسامة لا أستطيع كتمها.

لا أكتم ردة فعلي الداخلية.

– **«يا روحي لو فقط كنتَ تدري خطر ما كنتَ تقوله لأحجمتَ عنه. سيلتف بسرعة حول عنقك كالثعبان القاتل، ويخنقك. احذر من لغتك. فلن ترحمك حتى أنت».**

أضحك بمرارة من هذا الجنون المتمادي في غيه وجبروت اندفاعه. قد يكون واسيني نظَّر كثيراً في شيء هو نفسه غير قادر على تطبيقه، ولكنه محق في جوهره. تجربتي معه مجنونة، وجنونها الكبير في مخاطرها وأسرارها.

أعلم جيداً أن سدنة الشَّرع، وحراس ميزان الأخلاق، وجمعيات الحفاظ على العائلة، ومؤسسات استمرار صفاء النسل النَّازية، وكَذَبةُ الأمة الميامين، وجمعيات الرفق بالحيوان... سيطالبون كلهم بحرقي، أو بوضع رقبتي داخل أنشوطة مشنقة مصنوعة بإتقان. وقد ألعن حتى من واسيني الأقرب من قلبي إليّ، لأني وضعت سراً كامناً على الورق الشفاف، بين أيدي قرائه الذين يحبونه، أو الذين يتصيدون هفواته، وهم كثر. عندنا في هذا السياق، مثل يقول: الغيرة تشطح ميرا، وترد الشارفة صغيرة. أو كما كان يقول واسيني دائماً، كلما قرأ شتائم الذين تخصصوا فيه، أو سمع شيئاً منهم يخصه:

« Il est difficile d'etre aimé par des cons.[113] »

أعتذر منه أني وضعت رسائله الحميمة في الهواء الطلق، لترى بعض النور، وتخرج من الظلمة. وأنا لا أعلم قوة اليد التي سحبتني نحو الصندوق الخشبي لجده الأندلسي الذي كان يخبئ فيه أشواقه وأسراره، وإفراغه عن

آخره. عندما سقطت الرسائل، في المرة الأولى، لم أسمع خشخشة، ولكني سمعت أنيناً مخنوقاً يأتي من بعيد. فهمت لحظتها لماذا قال لي واسيني وهو ينبهني في المستشفى: ... **لقد أصبحنا كياناً واحداً. احتفظي بها. وإن شئتِ أحرقتِها، سأعذرك. لا يهم. فهي لك. حافظي على نبض الآخرين. لا أريد أن يلحق أذى بمن وضع سره وقلبه في عمق كفي، وبين أصابعي.**

أفهم اليوم جيداً، لماذا قال ذلك قبل أن يندفن في غيبوبته الطويلة.

هناك رسائل تشبهني في كل شيء، حتى في التفاصيل الصغيرة، ولكنها ليست لي. أحببتها في غفوة ما، وغرت منها وخفت أن تكون وراءها امرأة حقيقية بدأت تسرقه مني. كل الأمكنة التي ذكرها واسيني عشنا فيها قسطاً من حياتنا الهاربة وكنت سعيدة أننا زرناها ونحن خارج نظام الزواج القاتل والخانق. كنا عاشقين فقط. وإلا لزرناها هاربين من أنفسنا وذواتنا المنكسرة. لم نكن نسأل عن أي شيء. كنا فقط ننهب من الحياة أجمل ما فيها. لم يكن الزمن قادراً على احتضان أشواقنا وأسرارنا الجميلة. ولهذا، بقدر غضبي منه أننا لم نتزوج، وتخليه عني لمصلحة حريته، وإنجابي مايا منه بشكل مسروق، يظل شيء مجنون لا أعرف سره، يقودني نحوه. لا أدري إذا ما كنت سأتمكن يوماً أن أقول لمايا بصوت عال: **هذا أبوك الذي منحك أجمل شيء، الحياة، وفي أجمل الأمكنة التي لا نراها إلا في الأحلام، تحت أجمل سماء في الدنيا وأصفاها، وفي أدفأ غابة لا تعيش فيها الثعابين والأفاعي. صدقاً، لا تعيش فيها الزواحف المؤذية.**

جرحي الصامت هذا، لن يشفى أبداً، وسيزيد اتساعه مع الأيام بحيث يصبح رتقه مستحيلاً. اعتقد أني سأحمله معي إلى صمت أكبر منه، القبر. وأحتاج إلى حياة أخرى، غير هذه، لكي أتمكن من قول كل ما ينغص عليّ سعادتي.

أحتاج إلى رئةٍ أوسع، وقلب أصلب، وجسد لا يشبع أبداً من الدنيا.

• • •

الحياة داخل حقيبة سفر

سيني حبيبي،

شتاء يمضي، وآخر يجيء، وما زال قلبانا مشدودين إلى المستحيل.

كلما استعدت وجهك، ارتعشت من شدة خوفي عليك.

لم أستطع أن أقول خفف من جنونك، وقلل من السفر. أعرف عنادك، ولكني أعرف أيضاً عناد الموت القاسي الذي لا يسألنا مطلقاً عن أحاسيسنا عندما يصمم على فعل ارتكاب جرائمه التي لا تنتهي. لو كان الموت إنساناً لحاكمته حبيبي، ولأنزلت عليه عقوبة النفي الأبدي إلى اللامكان، حيث يموت غيضاً، لأنه لن يجد وقتها ما يسرقه من حياة. ولكنه، للأسف، مبهم يسكن ذواتنا، ويتوزع عبر مسامات جلدنا، فيعبث بأجسادنا كما يشاء، ويفجر في داخلها كل قنابله الموقوتة.

سيني الغالي،

اعذرني، هذه المرة أيضاً ستكون وحدك. ليس لأني لا أريد أن نلتقي، لكن شيئاً أصبح يقودني حول فقدان غريب لم أكن مهيأة له. أريد فقط أن أهدأ قليلاً. كنت أتمناك أن تأتي لنحتفل بجنوننا تحت أجمل سماء أعطتنا شمسها. مايا، ولكن الظروف منعتنا من ذلك. أنا مدعوة للوس أنجلس لبعض الوقت، للمشاركة في سهرات مشتركة بين فرق عربية أمريكية وعازفين عرب، يأتون من البلاد العربية. شيء جميل. لأول مرة أدرك أنه يمكننا أن نعيش ولو مؤقتاً، حياتين مختلفتين في زمن واحد.

سعيدة حبيبي أن الغيبوبة لم تترك فيك أي أثر جانبي.

وأسعد لأن الغفوة نفسها، أرجعتني إلى حواسي الميتة.

هذه الزاوية التي أتخفى فيها داخل مترو لوس أنجلس، تمنحني فرصة العودة إلى نفسي على الرغم من الضجيج وحركة البشر. الآن تمكنت من أن أجعل كل شيءٍ ورائي، وأن لا أبقي في المشهد المباشر إلا وجهك.

الناس هنا يبدو التعب واضحاً على أوجههم: واحد، لأن الدنيا منحته أكثر من قدرته على التحمل. آخر، لأنها نزعت منه أكثر مما يتحمل. ملتفون حول أنفسهم وفي عيونهم جزع ما يقرأ بوضوح وبدون جهد كبير. في دواخلهم ينكمش كل شيء. يأتي صفير القطارات حاداً، مختلطاً بتوقف العجلات التي تلتصق بالحديد بقوة، ممزوجاً بإيقاعات الكونتري وصوت كيني روجرز الدافئ والحالم. يتغرس في لحمي بقوة وينفذ إلى الأعماق. أنت تعرف هذه الأحاسيس جيداً وتتقن الإصغاء إليها. حزن يذبح في العمق. ورائحة الرحيل تفوح من السكك الحديدية. وحزن موسيقى الغياب والأفول الدائم الذي يشبه عجلة تدور وتدور، ولا تتوقف أبداً، طاحنة في طريقها الأقدار والأشواق والأحزان. مزيج من الخوف والسعادة. أشعر كأني أسافر للمرة الأولى. لا شيء تغير في هذه المدينة العظيمة منذ لقائنا الذي أصبح اليوم بعيداً، سوى أن الوقت يمضي بسرعة مرعبة.

أفكر فيك الآن وأنت تستقل طائراتك بسهولة، والأسئلة المبهمة التي تنتابك قبل أن تغلق الأبواب وتحلق في الفضاءات العالية حيث لا شيء إلا سكينة الصدفة القاتلة. تنسى كل شيء، أو تحاول على الأقل فعل ذلك. فترحل بالوجه الذي تعود به. لا شيء تغير بالنسبة لك لأنك تحمل حياتك داخل حقيبتك دائماً، أينما حللت. فثمة حياة مدهشة يمكن أن تعيشها وتجعلها جميلة في النهاية. لو أحصيت الزمن الذي عشته على الأرض ستجده أقل بكثير من الزمن الذي قضيته هارباً من الجاذبية، في الفضاءات والمدن البعيدة، بين أيدي أقدار لم تكن لتسأل عن نتائجها، حتى كادت أن تسرقك. معك حق حبيبي، كل رحلة هي موت مؤقت حتى الوصول لحظة انسلاخ الروح عن الجسد لزمن محدود.

لست بعيداً عني في هذه اللحظة. قد تكون جالساً في البيسترو المقابل! أو في المطعم الموجود عند مخرج الميترو! أو حتى في المحطة المقابلة!

29
الإصدار ٤٩٠، أكتوبر ٢٠٠٩

فترة غيابك، الذي يطول ويقصر، وأستعد مرة أخرى لاستقبالك لا في بيتي، ولا حتى في كهفي، ولكن في المطارات وغرف الفنادق الطارئة. وفي اللحظة التي أراك فيها، أهيئ نفسي لتوديعك بآلام مضمرة، وأحزان، لكي لا تعود إلى منفاك منكسراً. أصنع كل الابتسامات الجميلة التي تريحك في رحلتك وتطمئنك عني. هل مر بذهنك أن المرأة التي ترتدي السواد وتحبك بجنون، كلما ودعتك، عادت منكسرة إلى برودة كهفها؟ وحتى لا تموت بغصة خانقة، تهيئ نفسها لاستقبالك أو اللقاء بك، وهي لا تدري أنك لست في النهاية إلا شبحاً عابراً؟

أسفة حبيبي، على هذه اللغة الحزينة وأنا في مدينة عشقنا وصفائنا.

أتمنى أن نسرق وقتاً جميلاً نتحدث فيه عن أجمل الأشياء، ولا أريد أن أنغص عليك سعادتك، كما يحدث معي عادة وكأني لم أعد قادرة على تحمل سطوة السعادة! أشعر أحياناً أننا لن نجد متسعاً لذلك لأن ذلك الظل الأسود الذي كثيراً ما ينزل فجأة على قلبينا، يمنع حتى عيوننا من الارتعاش في لحظة صدق. ظل قصتنا الذي يزداد كل يوم ثقلاً. لماذا يصر البشر على أن يكونوا أنانيين إلى حد العمى؟ ماذا لو يكونون بسطاء ويفتحون قلوبهم على اتساعها؟ لمَ يصر الجميع على صنع كذبة كبيرة، قد تكون جميلة، ثم يصدقونها ويستميتون من أجلها، قبل أن تتحول إلى كابوس مرعب ينسف كل شيء في طريقه؟ لمَ تحرمني المدينة من أن أمارس صدقي الذي لا أريد غيره، أن أنظر إليك فقط كما أشتهي، أقبل عينيك بدون خوف من المارة، أضع وجهك بين يدي وأمسح من عليه نثار الأسفار المتعبة؟

لا تدري كم أشتاق إليك. جئتك هذا الصباح ركضاً فقط لأحس بك في هذه المحطة وأنتظر قدومك، لأسعد بوهم اللقاء بك مرة أخرى. قاومت هذا الصباح، رغبة طفولية كبيرة في النوم، وجئت فقط لألقاك في هذه المحطة وأنا مدركة سلفاً أنك لن تأتي، لأنك في هذه اللحظة بالذات، في استوكهلم، بين أصدقائك وربما مع مترجمتك السويدية الأنيقة. في قلبي آخر جملة قلتها لي عندما دعوتني أن أسافر معك: مثلك، أريد النوم على صدرك، على الجهة اليسرى، المليئة بالهشاشة والحب، أن أسمع نبض قلبك وأغفو على

موسيقى سوزان لونديغ التي تعشقينها حد الهبل. ثم لا شيء إلا أنفاسنا التي تنقطع قبل أن تستقر داخل رحلة نوم لذيذة لا شيء يحرك راحتها الأبدية.

اعذرني حبيبي أني لست معك. لا يهم. احملني فقط في قلبك، وسأحملك أنا أيضاً في قلبي كل ما تبقى من عمري. لا تهتم. الباقي سيأتي من تلقاء نفسه. كلما أغمضت عينيك على وجهي، وجدتني أمامك. أسحبك نحوي بابتسامة ملعونة. أدفعك نحو شلالات النور، وأغرقك في عرس من الألوان، وأملأك بعطر البحر، لأراك في أبهى شهواتك.

أتركك الآن حبيبي. قطار لوس أنجلس يصفر للمرة الألف. أسمع نحيبه في الأنفاق يأتي ممزوجاً بهذا المذاق المر الذي اسمه الحياة، وبأنين الكمان، وبأزيز الطائرة التي سرقتنا، كل واحد في اتجاه، قبل أن نستسلم للمسافات المهلكة وللمحركات النفاثة التي تخترق هدأة السماوات العالية.

سيني، داني ودواني.

أحبك. لا أعتقد أن هناك كلمة أكثر جمالاً وأكثر خراباً منها. أ...حـ...بـ...ك. أربعة حروف مختلفة وملونة، قادرة على منح الدفء إلى ملايين القلوب المتعبة، وعلى إشعال حرائق لا حدود لخرابها، في النفوس. لا تنس أبداً أن كل مدني لك بما فيها مدن الجسد، وكل دروبي لك بما فيها معاريج الروح. لا تنسني كثيراً. تذكر فقط أنه في مدينة ما، وراء هدير المحيطات، قلب ينبض لك ويعيش على توقيتك وعلى وقعك القاسي.

حب مجنون وهبل لا يحد، وقبلة خانقة أحفظها للقائنا القادم.

لوس أنجلس، ديسمبر ٢٠٠٨



أشواق استوكهلم

ليلي الغالية، هل تشعرين بما أشعر به الآن؟

«أنا متعبة، حبيبي وأشعر كأن زمناً ثقيلاً يضغط على قلبي المنهك متعبة...»

كلمتك لاتزال تطن في رأسي عندما افترقنا، في آخر مرة.

كنت سعيداً أني عثرت عليك من جديد بعد أن كدت أضيعك. وجدتك، ولكني رأيتك حزينة وخفت عليك من مريم، من نفسك. لأول مرة تفتحين الموضوع معي بهذه الجدية المريكة. لم تكوني في حاجة إلى ذلك. لو سألتني من قبل لقلت لك بلا تردد: كل مريمات الدنيا لا تساوين دمعة واحدة تنزل من عينيك. مريم ليست إلا استعارة للعجز المستشري في محيطنا. عجزنا، وجانبنا الخفي الذي نريده جميلاً، ولكن قوة طاغية تسحقه أمام أعيننا بدون أن نستطيع فعل أي شيء، في مجتمع ينام على أعظم الكذبات، لا حلَّ لنا إلا الدخول في اللعبة والتحول إلى بهلوانات سخيفة، أو المقاومة حتى ولو كانت وسائلنا بدائية. مريم قناعنا ضد حياة ليست سهلة ووجوه قاتلة تنتظرنا في الجانب الخلفي من جنوننا. احذري عمري... أخاف عليك من استحالة تقود بسرعة غير منتظرة نحو جنون آخر، يصعب فهمه وتفسيره.

كنا في حاجة إلى هذا الهروب، حتى ولو ذهب كل واحد في اتجاه. عندما نخرج من موت أكيد، نحتاج إلى أن يسمعنا الآخرون لنقول لهم ما في القلب، وكنا نخاف أن يسرقنا الموت بدون أن نتمكن من قوله. وها أنا ذا أشكر الحياة أنها وضعتنا في المسالك التي اشتهيناها. لم يكن الكلام مهماً في حضرتك. قلت لك: لقد خرجت من الغيبوبة الطويلة، فقط لأحبك أكثر، وأتمادى في غي الجنون حتى الأقاصي. هروبنا الأخير، كل واحد نحو مدينة،

أراك الآن بكل تفاصيلك وكأنك هنا، بالقرب من وجهي وأنت تتأملين ملامحي التي بدت لك كأبية ومنهكة، وجسدي الذي بدأ يخسر من وزنه، والخطوط التي ارتسمت بسرعة على خدين كانا مشرقين قبل وقت قصير. تتحسسينني كمن يكتشفني للمرة الأولى. كانت كلها علامات يقينية على أن الخطر القاتل الذي كان في الخارج، أو على الحواف، أصبح الآن داخل الجسد بعد أن زرع كل رماده على الوجه.

قلتِ وأنت لا تعرفين اللغة التي كان عليك اتباعها معي:

- أرجوك حبيبي، قلل من خطايا الويسكي والسفر المتواتر والسهر. ألم ينصحك الطبيب بذلك؟ فلا تكن أحمق وتواصل استدراج الموت نحوك بجنونك المعهود. أرجوك... لا يمكن للأقدار التي أخطأتك مرات عديدة، أن تظل مستمرة في ذلك! أرجوك.

- ليلي، هل تدرين بأني بلا سفر، رجل مقتول! عندما عدت للطبيب متعباً ومرهقاً، قال لي: المؤكد هذا شأن سفرة طويلة! أين؟

- الخليج، أبو ظبي ودبي.

- ثماني ساعات فقط؟ ما أشجعك يا أخي.

أجبته بثقة لم أكن في عمقي واثقاً منها:

- لقد لبست الجوارب الضاغطة كما نصحتني، أحقن نفسي بإبرة، تحت جلد البطن، بعيداً عن الصرة قليلاً، بدواء Lovenox 400 UI-Xa/0,4 ml كلما تجاوزت السفرة الأربع ساعات، بعد أن أوقفت نهائياً إبرة Innohep 18000 UI anti-xa/0,9 ml بعد ستة أشهر من المواظبة المستميتة والجدية. وبعد أن أوقفت نهائياً تناول حبات Le Préviscan الخاصة بتمييع الدم لمنع تكون الجلطات في الأوعية، وعوضتها بشيء خفيف هو مسحوق Kardegic 75 mg لتفادي مضاعفات توقيف الدواء بشكل فجائي. لدي حساسية من

الأسبرين، ولكن نسبتها القليلة لا تضرني أبداً.

لكن الطبيب الذي كان يعرف، هبلي، أجاب:

– كان من المفروض أن أحرمك نهائياً من السفر، لأنه أفضل لحياتك ولكني أعرف أيضاً أني سأقتلك في الأربع وعشرين ساعة التالية، إذا منعتك من السفر، ولهذا طلبت منك أن تخفف قليلاً. مرة أخرى أرجوك، من أجل حياتك، أن تكون عاقلاً ولو بعض الشيء.

أي عقل عمري؟ وأنا كلما سافرت، لم أفكر في شيء آخر، إلا في القدر من الحرية التي سنعيشها مع بعض، ودوخة الجنون التي تدفعنا إلى إعادة اكتشاف أنفسنا من جديد.

صمتِّ يومها ولم تقولي شيئاً ثم تمتمت وأنت تحاولين أن تنسي بعض جنوني:

– هل تدرك حبيبي ما أحس به الآن؟ ربما كنت لا تعرف هذه القوة الساحقة التي تملأني بك وتعيدني نحوك كلما ابتعدت قليلاً! أليس من الأفضل أن توقف سفراتك لمدة سنة، ترتاح، وبعدها نرى كيف ستتطور الوضعية إيجابياً أكيد.

هاهي ذي التفاصيل تندفع نحوي بقوة وأنا داخل هذا المقهى أنتظر وصول مترجمتي. أمطار استوكهلم باردة في هذا الفصل. ياه كم أشتهي أن أخرج أنا وأنت، وأن نركض تحتها كما لم نفعل أبداً في حياتنا! مهما كانت باردة، فهي تورث إحساساً غريباً بالدفء مثل أمطار جزر الكاريبي. يمكننا أن نجعل منها ثوبنا الملون ولو لمدة ساعات، ونعود بعدها إلى غرفتنا في الفندق الدافئ، المعلق على جبل يحتضن المدينة الناعمة كلها، ونعري أجسادنا بحذر العاشق الذي يريد أن يديم لحظته اللذيذة حتى الموت.

قلت لك هل تأتين؟ أنا في حاجة إلى نفسك، ملامسك، إلى عطرك وكلامك.

– إني مدعو من مكتبة استوكهلم الدولية، ومركز الأبحاث المتوسطية، فهل يغريك ذلك؟ أريد أن نكتشف مع بعض مدينة لا نعرفها إلا من كتابها ومن جائزة نوبل؟

كنت أغريك بالمكان، رشوة العاشق الوحيدة.

شعرت بك لحظتها تضغطين بقوة على أسنانك لكي لا تصرخي بأعلى صوتك: أرجوك أوقف هذا الدمار المتعمد ضد صحتك.

– حبيبي، لا أستطيع السفر معك ولا حتى منعك من السفر. لقد يئست من ذلك واستسلمت للأقدار التي أتمنى من قلبي أن تحفظك لي. اهتم فقط بصحتك. كما تعرف، لا أستطيع إلغاء السهرة، فأنا ضمن فرقة أمريكية عربية في لوس أنجلس. لو كانت المسافات قريبة لجئتك بلا تردد أبداً، كما فعلنا دائماً. لكن هذه المرة...

البارحة زرت مرتفعات المدينة الملكية مع مترجمتي، حيث يوجد القصر الملكي الذي يفرض نفسه من بعيد على النظر، وأكاديمية جائزة نوبل وملحقاتها بما في ذلك متحفها الصغير. بدت لي كمجلس قضائي دولي لا يختلف كثيراً عن TPI المحكمة الدولية في لاهاي. رأيت المكان الجميل الذي تحكم فيه مصائر الأدب العالمي، ورأيت وجوه المحظوظين الذين كانوا يملأون المكان ولم تبق إلا ظلالهم الخالدة. كان وجه ألبرت اينشتاين وعملياته الحسابية حول النسبية، صوره تملأ المداخل الرئيسية والفرعية. بشرتني مترجمتي ومرافقتي بسعادة بدت واضحة في عينيها، بأن اسم محمود درويش الذي ترجم إلى العديد من لغات العالم، بدأ يتكرر كثيراً في الأوساط النافذة، وأنه يحتمل أن يكون هو الفائز هذه السنة. أكدتْ أن الخبر وصلها عن طريق شبه رسمي، ولكن... سألتها بعفوية طفل مشاكس حتى في المسلمات، أو ما يبدو كذلك: لماذا كلمة لكن؟ قالت: الصراع على أشده مع أسماء أخرى. طبعاً لم يكن ذلك غريباً. فالجائزة تشتغل بهذه الطريقة دائماً، وهذا جزء من رهانها. قلت: صعب أن تمني الناس بشيء غير صحيح في النهاية. كازانتزاكي كان يظن أنه أخذها، وظل ملتصقاً بها بعد



أن وصلته الأخبار من كل الجهات، ولكنه في النهاية عاد إلى التراب بدون أن يحصل عليها. يبدو أن بعض الكبار يعمون بنورهم الحاد حتى رجال الأكاديمية أنفسهم. الجائزة هي التي أخطأته، وليس هو. مثله في ذلك مثل إله عظيم كتولستوي. الأمر بدا لي متسرعاً ولا فائدة من ورائه، إذ كثيراً ما دفع بالأسماء فقط لتحسس ردود فعل المحيط الثقافي العالمي المليء بالارتباكات السياسية والأسئلة المعقدة التي لم يتوصل إلى حلها أبداً. ومع ذلك، لم أخبئ سعادتي وأسئلتي أيضاً. فقلت لمترجمتي الطيبة والنبيلة: لا أدري إذا ما كانوا جادين في اقتراحهم، ولكن المؤكد أن الجائزة بذهابها إلى درويش، ستضيف إلى ذاكرتها المرتبكة قيمة إنسانية عظيمة. إن درويش، قبل أن يكون فلسطينياً أو عربياً، هو قيمة إنسانية نادرة في عالم لايزال تحت سطوة الظلم والغطرسة. ألم يكن نوبل يحلم بأن يجعل من جائزته وسيلته الإنسانية لمحو عقدة الذنب والإشادة بالإنسان كقيمة متعالية، بعد أن أصبح البارود هو لغة العصر؟ كانت أرض درويش طيبة وتسع الجميع، المسلم والمسيحي واليهودي. كانت كلمة فلسطين هوية مرتبطة بالمكان المشترك وبالتنوع الثقافي والديني، فاختزل كل شيء، وغيرت الجغرافية والتاريخ. أضافت مترجمتي: هم جادون هذه المرة. ولكن هناك إشكال يستيقظ دائماً كلما تعلق الأمر بعربي، وتحديداً بفلسطيني. لم أسأل كثيراً، فقد كنت أعرف الإجابات. قالت: بجانب درويش مرشح آخر هو آموز عوز Almos Oz. قلت بعفوية مرة أخرى: ليكن. فهو روائي كبير كتب روايات كثيرة أحدثت أثراً طيباً بموضوعاتها الإنسانية وبخياراتها الطيبة التي لا ترى في الفلسطيني دائماً عدواً لا يعرف شيئاً آخر إلا محو اليهودي. معظم رواياته: هناك ربما (١٩٧١)، عزيزي ميخائيل (١٩٧٣)، حتى الموت (١٩٧٤)، لمس الماء، لمس الرياح (١٩٧٦)، الاستراحة الأكثر عدلاً (١٩٨٦)، وغيرها من الروايات التي تركت أثراً كبيراً في نفسية القراء بقيمتها الإنسانية المدافعة عن الحق في العيش الكريم، ثم كتابه الذي يظهر فيه نضاله من أجل تقارب عربي إسرائيلي: أصوات إسرائيل (١٩٨٣). قالت: طبعاً. كلامك صحيح. سعيدة أنك تفكر بهذه الطريقة، إذ كثيراً ما صادفت عرباً يرفضون حتى من هم مع قضيتهم. قلت: إن الجرح كبير، وواسع ومفتوح على النزف بشكل دائم،

ونحتاج إلى زمن آخر لندرك أننا أخطأنا كثيراً، ولكن الذين أخطأوا في حقنا كانوا كثراً أيضاً، وجعلوا العقل المفكر أقلية في أرضه. قالت: أشخاص مثل درويش وألموسْ عوز يجب أن يُحتفى بهم لأنهم ندرة الندرة في زماننا الظالم والهش. يستحقانها، ويستحقان حتى جائزة السلام. ولكن هل من الضروري هذه الازدواجية الدائمة؟ ألا يمكن التفكير في الواحد بشكل عمودي وعميق؟ ألا يوجد تفكير له إمكانية الانفصال عن هذه الازدواجية المقيتة ، والتفكير مباشرة في القيمة الإنسانية والأدبية أولاً وأخيراً؟ فقد خسرت جائزة نوبل، بسبب هذه الازدواجية، مواعيد كثيرة عظيمة في رحلتها التي تخترقها دائماً الحسابات التي لا تفضي بالضرورة إلى نتائج تثبت القيمة قبل أي شيء آخر. لقد خسرت نوبل مواعيد عظيمة. أخطأت ليون تولستوي في ١٩٠١، عندما كانت تبحث عن مسالكها الأولى، وسُلّمت لسولي برودهوم Sully Prudhomme الذي لم يكن شيئاً مطلقاً في الكتابة الأدبية، لا في الثقافة الفرنسية ولا الإنسانية، سوى أن شخصية تقليدية من الأكاديمية فرضته قبل أن يدرك بقية الأعضاء الكارثة التي وقعوا فيها. كانت البداية فجائعية لأن تولستوي سحب كل حصانره وانسحب نحو الداتشا التي كانت تخبئ كل جنونه وأشواقه العظيمة. أخطأت أيضاً كاتباً عظيماً مثل جيمس جويس، غيّر نظام الكتابة ومنحها معبراً جديداً للحياة والاستمرارية، ولم تدرك نوبل حماقتها الكبرى إلا عند وفاته؟ أخطأت مسار مارسيل بروست الذي هز نظام السرد الذي بدا مستكيناً وثابتاً، في روايته: في البحث عن الزمن الضائع. ولم تنجح مطلقاً في تفضيل بونين المتواضع كتابة، على عبقرية نابوكوف صاحب لوليتا الخالدة، وإبداعيته. والقائمة طويلة. فلسطين ليست في النهاية إلا التعبير المختزل عن أزمة العصر بكامله، والغرب أيضاً، تجاه قيمه التي ابتدعها ودافع عنها باستماتة: قيمة الحق في الحياة والحرية والعيش الكريم. أشعر كأن هناك أزمة ضمير تأكل الغرب من الداخل على الرغم من توارث الأجيال وتكاثرها. فقد التبس برؤية ازدواجية متحكمة في كل تصرفاته، حتى الفكري منها: بين الرغبة في الموضوعية، وخوف إغضاب الآخر، وكأن على الآخر أن يكون راضياً أولاً قبل اتخاذ أي قرار! الغرب موجود داخل دائرة من الضيق وعسر التنفس الحر، تمنع جائزة نوبل من الخروج



من الديكوتوميا البغيضة، ونحت طريقاً جديداً أكثر جمالية وأكثر حرية. في محمود درويش كل خاصيات الذي يستحقها بامتياز، ولو أعطيتْ لألموس عوز لصفقنا، لأن الرجل كاتب كبير أولاً وأخيراً، وهذه الصفة وحدها كافية لأنها تتبطن قدراً عالياً من الإنسانية والسخاء.

ليست المرة الأولى التي يرشح فيها درويش. في مرة من المرات كنا في رحلة مع بعض بين عمان وباريس، سألته عن جدية ما يُحكى في الكواليس؟ ظل صامتاً للحظات قبل أن يقول مبتسماً: الدنيا كما ترى يا صديقي. ما زلنا نكتب ونسافر ونعيش كما نشتهي إلى حد بعيد، ولا شيء تغير في النظام. العكس هو الذي يفاجئ، أما والحال هكذا، فلا شيء يثير سؤال الدهشة. ثم صمت من جديد قبل أن يواصل وكأنه استدرك شيئاً كان قد نسيه: يجب أن لا نكذب على أنفسنا. نوبل، كما تعرف ذلك جيداً، جائزة عظيمة، وهي تعبير عن أن الإنسان تخطى حواجز الحدود القسرية التي تضعه على حواف يصنعها الآخرون لكي يصل إلى قلوب الناس. لكن بقدر ما هي عظيمة، فهي تحمل ضعفاً خانقاً في داخلها. خطأها أنها في الأغلب الأعم أنها مثل هملت، تستيقظ متأخرة دائماً، بعد فوات الأوان. تردد قليلاً ثم واصل بانفعال بدا ظاهراً على شفتيه وأصابعه وهزة رأسه، وحتى نبرات كلماته التي جاءت متلاحقة وسريعة وكأنه كان يريد أن يقول كل شيء في أقل وقت ممكن: صراحة.. لا أعتقد أنها معنية بنا كثيراً، وكل ما يحدث من ترشيحات هو من فعل كتاب وأشخاص لهم حساسية خاصة تجاه التوازنات، وربما بعض الإعجاب بما نقوم به، أو حتى تعاطفاً معنا ومع قضايانا، أو بسبب بعض الحياء من ظلم كبير لم تر فيه عين الفاعلين في نوبل إلا نجيب محفوظ، ثم أُغلقت بعده الأبواب بشكل شبه نهائي. لا يعقل. أعتقد صادقاً أن أمام الكاتب أشياء أبسط وأثمن يمكنه أن يفكر فيها: صحته مثلاً. قالها ضاحكاً (سفرته كانت من أجل إجراء بعض الفحوصات الطبية في باريس). قضاياه الإنسانية الكبيرة التي تستحق أن يتعب من أجل التفكير فيها، والعمل على تربية نفسه على الخير وعلى حقد أقل. لأننا في زمن يجيش بالأحقاد. أفيد للكاتب ولهذه الأرض التي تفقد كل يوم بعضاً من أنفاسها وحياتها، أن ينسى ما يقوله الآخرون عنه، وأن يكون فقط جديراً

بأرضه وعصره. ثم ضحك مضيفاً قبل أن يدفن عينيه في تأملات داخلية كان قلبه وحده يعرف سرها: ليكن يا واسيني. لنا الشعر والخير والمحبة، ولهم كل ما تبقى.

عذراً. لقد ثرثرت عليك كثيراً وتحدثت في موضوعات لا علاقة لها بشأن القلب. تمتلئ أحياناً فنترك أشواقنا فجأة للريح ولا نصادر حريتها.

أتركك حبيبتي الآن. لقد وصلت مترجمتي وسأعاود الاتصال بك.

لقد سقطت الأمطار طوال اليوم ولم تبرحي قلبي أبداً. كنت أراك في كل خطواتي تشدين على قلبي وروحي وذاكرتي بقوة. أفكر فيك بلا هوادة. أتمنى أن لا تكوني مريضة، وأن تكون ضحكتك على ما يرام. أنصحك أنا أيضاً أن لا تتأخري عن الطبيب والتحاليل. حكاية انتفاخ الرحم التي حدثتني عنها باستخفاف، تقلقني. قد لا يكون للأمر أية أهمية ولكن لا تتهاوني في الفحوصات.

ليلى الغالية. أجمل قدر في حياتي

في القلب شيء آخر، أخاف من أن أخرجه الآن دفعة واحدة، فأموت بفيض الشوق الذي لا سلطان لي عليه. اكتبيني حبيبتي بالشكل الذي تشتهين، وكما يروق لك. اجعلي مني نثاراً تملئين به كفك قبل أن تلثميه للمرة الأخيرة وتقذفي به لفراغات الريح العاصفة. امنحيني فسحة من النور، لكي ألتصق بالحياة إلى آخر نفس. فقط لأراك كل صباح وأقول لك صباح الخير، وأنت تمضين لعملك اليومي. مرري لمسة يدك الناعمة على وجهي لكي أشفى منك وأنسى أن في الدنيا مآل مخيف اسمه الموت. لك القلب والأشواق وأجمل ما تحمله الذاكرة. لكن لا تنسيني. فأنا أتنفس بك، وأعيش على وقعك، وربما بفضل وجودك في هذه الدنيا. لا يهم أبداً أن ذاكرتي متعبة ومثقلة بالخيبات والهزات الجميلة أيضاً. عليك فقط أن تظلي داخل هذا القلب، وعلى كل حوافه الهشة، لأنك وقعُه الدائم ودقاته الحية، والنور المشع دوماً في دهاليزه المعتمة المليئة بالهدير والغموض.

هل مازال لكلمة أحبك معنى أمام ما يخترقني الآن بقوة؟

أحبك إذن..

استوكهلم، ديسمبر ٢٠٠٨

-١-

يتسرب الصباح بهدوء وسكينة، وتتكشف أكثر، أشكال الأشياء المحيطة بي. المكتب بكلّ تفاصيله ودقائقه الصغيرة التي تلعب على سطحه، من أقلام ومسطرة أقيس بها حجم وطول الفراغ، ومحبرة قديمة، ومقص، وأجزاء صلبة من الورق، والمسدس الذي غاب تحت كومة الأوراق التي حركها الهواء البارد قبل قليل. الخزانات ذات الأحجام المختلفة التي يحتوي بعضها على ألبستي الحميمية التي لا أنزل إلا لأشم روائحها، وأتذكر بسرعة العطر الذي كنت أضعه يومها، ثم الأمكنة، الارتجافات التي جاءت بعد أول لمسة قبل أن أغرق في فراغ أبيض ناعم وحلو، مثل الشهد الصافي، ثم الجنون المصاحب لذلك. السرير الحديدي القديم الذي يشبه أسرة عسكرية يمكن طيها وجمعها بسرعة، كان مختبئاً في الزاوية المظلمة مخافة أن تُكشف أسراره. صندوق المال الثقيل الذي كان يضع فيه رياض ماله ومسدسه قبل أن يغيره بآخر أصلب وأحدث، وأنعم بحيث لا يُرى أبداً وهو يتخفى وراء لوحة فنية اختار رياض أن تكون عادية حتى لا تثير شبهة السارق. الزرابي التي غُيرت كلها وعوضت بالسجاد الفارسي الغالي. صالون من طراز لويس الرابع عشر، يعطي للانطباع كأننا لسنا في قبو واسع، ولكن في محل بيْع التحف الثمينة. ثم الأشياء الصغيرة كالكؤوس الجميلة التي صنفتها في خزانة قديمة وضعتها في الطرف الأيسر. المكتبة الدائرية التي تحتل الزاوية اليمنى من السكريبتوريوم. التحف الصغيرة التي كلما رأيت إحداها، تذكرت ليس فقط تفاصيل المدن التي بتنا في فنادقها وشعرنا للحظة أن العالم كله ملك لنا وحدنا فقط، ولكن أيضاً كل تفاصيل جنون السرير وهزات الروح.

النسمة الباردة التي انزلقت من فجوات الكوة، أيقظت الجسد قليلاً.

الصمت والسكينة وكأن العالم فارق الحياة فجأة.

كل شيء في مكانه. ما حصل من تغيرات في نظام الأشياء، كان بسيطاً. عندما نزعت بعض الأوراق التي كانت تغطي المسدس، انتبهت إلى أنه كان هذه المرة مصوباً تجاه الباب، وكأن هناك يداً تحركه في غفلة مني، أو تلعب به كما يحلو لها. الكمان اختفى في الزاوية الخلفية من المكتب، وطمرته

لا أشعر بالحاجة إلى النوم، ولكن التعب بدأ يقيد بعض حركاتي، ويثقل كثيراً من ردود فعلي تجاه كل ما يحيط بي.

يبدو أن كؤوس القهوة التي شربتها، لم تعد تجدي نفعاً الآن.

كنت بالفعل أحتاج إلى هذه النسمة البحرية المحملة بنداءات المدينة الفجرية التي توقظ فيّ أناشيد والدي وهو يفتح نافذة بيتنا القديم فقط ليضحك قليلاً، ويطمئنني بسخريته المعهودة بأن البحر لم يغير مكانه. كنت أقوم في الصباح الباكر على تلك النسمة وعزفه الذي يشبه النداءات التي كانت تأتي من عمق سحيق. مازلت حتى اللحظة أسمعها. كلما خلوت إلى نفسي. لم يترك لي سي ناصر إرثاً موسيقياً فقط، ولكن أنيناً عميقاً مصحوباً بخيبة ثقيلة لا أعتقد أن ظهري قادر على تحملها. ومع ذلك يستحق والدي أجمل ركن في قلبي. فقد ورثني جنونه الهادئ، ومنحني فرصة جميلة لأن أكون أنا، تماماً كما اشتهيت أن أكون.

تحسست المسدس مرة أخرى لسبب لا أعرفه، وكأني كنت أبحث عن شيء ما يتخفى وراء صمته ودورانه الدائم على سطح المكتب. كان دافئاً على غير العادة. شعرت فجأة بألفة غير طبيعية نحوه، أنا التي ربيت في بيتنا على كره كل ما له علاقة بالسلاح الأبيض أو الأسود. كان سي ناصر يقول لي دائماً: السلاح الناري غير كل القيم البشرية، وقلبها على رأسها. أفقد الإنسان الرجولة والكرامة، وساوى بين المقدام والجبان، وسيفقده ما تبقى من كبريائه.

أعتذر من قلب والدي الحزين، سي ناصر. لم يكن ذلك إحساسي أبداً وأنا أحشو المسدس بالرصاصات السبع. فقد شعرت بانتشاء كبير وبثقة لم أعهدها في نفسي.

«لا يا بابا... أنا امرأة كاملة... لن أخطئ هذه المرة هدفي.»

-٢-

حقي الطبيعي إذن، في أن أرفض وضعاً فُرض عليّ لدرجة أنه كبلني ومنعني من كل حركة. حبي الهبلي لواسيني جعلني أتغاضى عن حقي في وضع مريم في مكانها على الرغم من تماديها. كلما كلمته عنها، رنت في رأسي، بشكل مكرور إجابته: ليلي عمري... مجرد امرأة من ورق! أي ورق! أكاد أصرخ بأعلى صوتي: ورقك يقتلني. إنها تحرقني كل يوم قليلاً، ثم تقف في الزاوية تتأملني بسخريتها المعهودة وبراءتها المغلوطة. وصلت إلى درجة أني فكرت يوماً في حرق روايات واسيني كلها، لأنها لم تنتبه أبداً إلى أنها كانت تعطي الحياة لآلة مدمرة وساحقة اسمها مريم. كنت منكسرة وحزينة عندما جمعت مؤلفاته. راكمتها فوق بعضها البعض. كان عددها عشر روايات. وضعت من تحت: البوابة الزرقاء، ومن فوق: الليلة السابعة بعد الألف. لا تفسير لدي لهذا الترتيب الذي لم يكن منطقياً ولا تاريخياً. فتحت فوهة المدفأة الغازية التي كانت حرارتها تصلني حتى السجاد الفارسي الذي كنت أجلس عليه. عندما هممت أن أرمي بها في عمق اللهب، راودني إحساس غريب يشبه حالة المقدم على ارتكاب جريمة حرق نفسه. بقي الكتاب الأول معلقاً في يدي وأنا أبكي بحرقة، وكأن يداً غامضة ثبتته بقوة في الفراغ المحاذي للنار. بسرعة استدركت أمري، إذ بدوتُ لنفسي سخيفة، لا أختلف في الجوهر عن أي رقيب صغير، من الدرجة العاشرة. لم أبلغ ليلتها حتى سطوة آخر عضو صغير في محاكم التفتيش المقدس التي حدثني عنها واسيني كثيراً. يراهم مثل الجرذان في كل مكان. أتذكر كيف صودرت روايته مصرع أحلام مريم الوديعة، وكيف ضحك بشكل هستيري لم أره فيه من قبل، عندما طُلب منه أن يعوض اتحاد الطلبة لأنه لم يعد موجوداً، بالاتحاد الوطني للشبيبة الذي كان ينشط يومها. قال لي واسيني بمرارة: المشكل أن الرقيب متخلف بشكل مدقع. ثم كيف يمكننا أن نتصور تغيير شخصية نقابية معارضة، بشخصية تسير في ركب النظام، ووفق ما خطط لها سلفاً؟ الرقيب المسكين لا يعرف أن الاتحاد الطلابي خيار تاريخي، بينما اتحاد الشبيبة هو ملء فراغ سياسي استمر طويلاً. بعد سنوات، بالضبط في اليوم العالمي لحرية الرأي، صادر عمال مطبعة دحلب، الملتحين، روايته مرايا

الضرير، معفين بذلك الدولة من هذه المهمة الثقيلة. أتذكر ردة فعله عندما أبلغ أن الرواية قد طحنت بقاضمة الورق، في الوقت الذي كانت فيه الطبعة الفرنسية تباع في الأسواق الوطنية بلا أدنى رقيب! شيء من الخبل الذي يصعب تصديقه!

تذكرت كل الحكايات والتفاصيل التي دارت بيني وبين واسيني حول هذا الموضوع. بدت لي فكرة حرق الكتب شبيهة بعمل عبثي لا جدوى من ورائه. ربما سيعطي دفعاً إعلامياً أقوى لمريم، وهذا ما لم أكن أريده أبداً. تخيلت عناوين إعلامية كثيرة وغريبة: مريم تتعرض لعملية حرق من امرأة مريضة، تغار منها.. أو.. مريم ضحية لتصفية حساب قديمة.. أو.. ليلى تنتقم من شخصية ورقية وتحاول حرقها.. أو صديقة الكاتب واسيني تصاب بالجنون الأدبي.. أو.. زوجة عضو مرموق في الكارتيل الجديد ترتكب جريمة قتل غامضة..أو.. ليلى، العازفة المرموقة في الفرقة الفيلارمونية لأوبرا وهران تفقد عقلها بسبب امرأة غامضة..! خيالاتي الفنية، دفعتني إلى توقيف عملية حرق روايات واسيني، لأني بعملية حساب بسيطة أدركت أنها غير مجدية، وأني لن أضر مريم في شيء.

مشتركي مع واسيني يضعني دائماً على حافة التساؤل: كيف أكون أنا بكل استقلاليتي؟ وكيف أكونه بدون أن أمسه في جوهره؟ رهان كل امرأة عاقلة. ولا أدري، بعد كل هذا الهبل، إذا بقي لي شيء اسمه العقل. لكني، على يقين، أن من يلعنني في علنه إرضاء للمنظومة الأخلاقية، هو عبد كاذب لها، يدرك في سره جيداً، أنني لم أؤذ أحداً، ولا حتى نملة. أنا لم أقل إلا ما يملأ القلب. ليس قلبي وحده، ولكن قلب الكثير من النساء اللواتي قضين عمراً يبحثن عن مرادف سخي لخيباتهن وانكساراتهن. أكره مريم، ولكنها داخل منطقها الورقي الصعب، لا تهمها كثيراً مصائرنا الحياتية. الثمن في النهاية، كيفما كان، لن يكون باهظاً. أما أنا فالثمن أعيشه يومياً بقسوة وعزلة قاتلة. الغريب هو أني ومريم، نتشابه كقطرات دم العذراء المهدور، لأننا نغني خارج السرب، وخارج النظام المقيت، الذي يعسكر في دواخلنا المتعبة.

مجرد هزة عنيفة، ربما أدرك واسيني بعدها، قبل فوات الأوان، أني لم أكن

مجرد امرأة ورقية، وأني لست طيبة إلى الحد الذي تصوره وهو يعاشرني سراً وعلناً على مدار أكثر من عشرين سنة، ويكتبني، ويعيد صياغتي بكل الحذر الذي يتصف به طبيب مختص، أو صاحب مخبز. ولم أكن أبداً ملاكاً مفترضاً لا يعرف للخطأ طريقاً. امرأة، كلما تألمت، وضعت السكينة الساخنة بين أسنانها، وزمت فمها، ثم صرخت بكل قوة، حتى لا يسمع صوتها العابرون.

- «هذه هي أنا إذن، لا أكثر ولا أقل».

-٣-

لست مريم المشتهاة، وربما لم أعد حتى ليلى التي كان واسيني يعشقها عندما تقف على أدراج مدخل المدرج، وتسحب من على ظهرها كمانها، ثم تعزف جنون والدها بلا توقف. كثيراً ما نسيت نفسها، فتترك الدمع يخط وجهها الطفولي الطيب. ولا حتى ليلي الدلوعة كما كان والدي يشتهي أن يناديني قبل أن يسحبني نحوه، ويضعني على ركبته اليمنى، ثم يبدأ في تعليمي كيف أحرك أصابعي على خيوط الكمان، ومتى أضغط على القصبة، وكيف أحركها لاستخراج أنينه الداخلي. كان يقول لي دائماً:

« - حظك يا ليلي، أناملك طويلة وناعمة. تعطيك حرية كبيرة في الحركة».

كل شيء صامت من حولي، يحمل في عزلته طعم الخسارة.

لا أدري إذا ما كنت في حالة سوية، أم في حالة بداية خسران العقل بحيث انطفأ الكثير من الحواجز، ولكني على يقين أني صادقة مع قلبي. لقد أنهكته كثيراً بالتخفي وراء أغشية شفافة. لم تعد اليوم كافية لتجعلني أتحمل بصمت الميت، كل ما حدث، ويحدث لي.

حماقة من حماقات امرأة ورقية أو حقيقية، أو حتى ملتبسة، لم يعد الأمر يهم كثيراً. لا شيء سوى أنها أحبّتْ رجلاً حتى انتفتْ فيه بشغف. صمّمتْ، وبلا سابق إنذار، أن تخرج إلى النور بعد أن أنهكها الصمت والعزلة. ها هي ذي الآن تأتي، محملة بذاكرتها المثقلة، وبكل ما يمكن أن يتسبب في خراب

29
الإصدار ٢٩، أكتوبر ٢٠١٩

أكيد. هو يعرف جيداً أنها ليست المرة الأولى التي تخسره فيها وتستعيده بشطارتها المعهودة، أو يستعيدها في أكثر اللحظات يأساً واختناقاً. ولن تكون المرة الأخيرة أيضاً.

صحيح أن عزيز الطيب لم يعد موجوداً بيننا ليقرب الشقة ويرمم الكسر العميق، ولكن شيئاً من طفولته المسروقة، مازال قائماً في واسيني، وهذا يكفي لأن أطمئن إليه من عنف الهزات القادمة.

-٤-

وصلت إلى سقف التحمل.

كان يمكن أن تكون حياتي أجمل حظ في الدنيا، لولا ظل مريم. ولولا أنها توغلت في مسامات جلدي وأزاحتني بكتفيها العريضين وكأنها كانت تمارس لعبة خطيرة مع امرأة تكبرها سناً، ولم تعرف شيئاً عن أسرارها الخفية. كان يمكن أن أكون أجمل عشيقة في الدنيا لولا ظل الوردة، كما كانت تسمي نفسها كلما رأت جسدها وهو يتزحلق على المرايا، قبل أن يندفن في عمقها مختلطاً بدندنتها الناعمة:

«يا صانع الخوف والوحدة.
أنا مريم... أنا ظل الوردة.
عجينة من جنون كارمن، حماقات ليلى.
هبل ربيعة[١١٥] وتيه حده[١١٦].
أنا مريم... أنا ظل الوردة».

أشعر أحياناً بصعوبة المهمة، بل باستحالتها. لم أستطع أن أنزع الوردة من جذرها ورميها عل السطح، تحت شمس حارقة، وتركها هناك حتى الموت ذبولاً وانتفاء، فكيف أتمكن من سجن الظل الهارب، أو قتله؟ لهذا كانت غيبوبة واسيني الطويلة التي افترضت وجودها بقناعة صارمة، هي اجتهادي الأول للقيام بمهمتي:

كان عليّ أن أستغل الفرصة بشكل كامل وبلا تردد. على يقين أن ما أملكه اليوم من تصميم، قد ينتفي غداً عندما تتغير الشروط المحيطة.

لا أثق أبداً في الوقت، ولا في الزمن.

«غفوة واسيني الطويلة، هي لحظة صحوي القصيرة...»

* * *

هذه المرة أيضاً، سآخذك بعنادي

ليلى عمري،

الحبيبة الغالية

أنا في فينيسيا الإيطالية لمدة شهر، في منحة لكتابة سيرتي الذاتية. ركبتني عفريت تدوينها منذ خروجي من الغيبوبة. لم أشعر أبداً بهشاشة الحياة مثل هذه المرة. فجأة تفتت كل شيء بين يدي كفراشة حولتها نيران القنديل الزيتي إلى نثار يشبه الغبار الملون كثيراً.

الأيام هنا جميلة وليست أبداً متشابهة. كل التنقلات هنا تتم بواسطة المراكب والعبارات. التاكسي، سيارات الإسعاف، التجول، البريد، التنظيف وجمع الزبالة... لابد أنهم يخسرون دم قلوبهم للحفاظ على هذه المدينة حية.

لقد تعودتُ على اسم ليلى، أو ليلي، وكأن شيئاً آخر قدْ مات فيَّ. لا أدري ما هو، لأنني كلما حاولت الكتابة استيقظ في بشكله المبهم الذي لا أستطيع حياله أي شيء. شكراً على رسالتك. كنت سعيداً أن أسمع الأنين الذي فيك وأنصت إليه بقوة، بل أشد عليه بأسناني.

الكتابة أيتها الغالية هي حائطي الوحيد المتبقي، هي شهادتي الصادقة ضد عصر يتضاءل شيئاً فشيئاً لدرجة الانهيار والموت.

عرفت عندما كلمتني بالنقال، أنك كنتِ خارج البيت. لا تشغلي بالك بهذه التفاصيل، بيننا عمري قرابة ربع قرن من العشق والهبل، ولي كل الصدق لقول ما في القلب، وتحمل ما يضمره. فأنا أعرف أنه لا يريد أن يؤذي الآخرين. أعرف أيضاً أنك في حالة هي شبيهة بالخيبة التي تقود حتماً إلى الخوف من كل شيء، حتى من النفس. ليكن...

أيتها الحبيبة، نحن لا نحصل دائماً على ما نريد، العكس أحياناً هو الأقرب إلى الحقيقة. هكذا تخيل الله الدنيا، وهكذا بناها. دورة من المتناقضات التي لا تنتهي أبداً. يومٌ ننهض فيه بسعادة نُحسَد عليها، ويومٌ آخر نستيقظ منذ لحظته الأولى، على كوابيس لا تحصى.

ليلى، مآلي الجميل،

نتمادى في المقاومة الدائمة ضد كل الرياح التي تسير وفق ما لا نشتهي. نخسر جزءاً من العمر في الدوران لدرجة الدوخة. نستريح قليلاً، ثم نعود إلى التمادي في عجلة الريح. بعد زمن قاس وصعب، نكتشف فجأة، وأحياناً بصدفة الأقدار، أن كل ما فعلناه لم يكن إلا صورة مخفية لهزائمنا الداخلية أمام نظام يريد تشكيلنا مثلما يشتهي. نرفض يده وأصابعه وألوانه التي يفرضها علينا. وعندما نلتفت يميناً، ثم شمالاً، نكتشف أن الناس الذين كانوا معنا تخلوا بسرعة عنا، ربما في الوقت المناسب، وبدؤوا يدورون وفق مدارات الزمن. في عيونهم راحة، وعمرهم أطول!

نحاول أن ننسى لا لشيء معين، سوى لنتمكن من الاستمرار في الحياة.

عدت الآن فقط من فيلم جميل: غران طورينو[١١٧]، يتحدث عن التميز العنصري الذي ينشأ في داخل كل كائن مثل الحيوان القاتل والمتوحش. لا ندري مخاطره إلا عندما يضعنا في مواجهة أنفسنا وذاكرتنا المنكسرة. الفيلم أخرجه وأنتجه كلينت إيستوود[١١٨]، الذي عرف كيف يمحو، في زمن قصير، صورة راعي البقر التي التصقت به. توجه بذكاء خارق نحو حساسياتنا الدفينة، وهشاشتنا الإنسانية ولامس بأصابع ناعمة، كل ما يتخفى فينا من أشواق إنسانية وتوحش مضمر وجشع فالت، مثلما فعل في وان مليون دولار بيبي[١١٩]! هل تذكرينه؟ لقد رأيناه في أحد شوارع أمستردام، ليس بعيداً عن محطة القطار، عندما تركت كل شيء وراءك في بروكسيل وجئت راكضة وأنت تقولين: ليكن. لن أعيش كثيراً، وفي حاجة إليك. ثم أن بروكسيل التي أزور مسرحها لتنشيط سهرة موسيقية كلاسيكية، بمناسبة الأسبوع الثقافي الوطني الذي كانت الجزائر ضيفته، ليست بعيدة. لم أسألك حتى عن الكذبة التي اخترعتِها لكي تتمكني من مغادرة فرقتك! ومن سيعوضك؟

قلت لك فقط تعالي فأنا في منحة كتابة. أنتظرك. لم أصدق. ظننتها حماقة من حماقاتك. ثم ذهبت لاستقبالك ليلاً، في محطة القطار، وأنا غير مصدق. قلتِ وأنت تعانقينني: تروح مني فين؟ ثم انغمسنا في قبلة مثقلة بدين سابق من البعد والفقدان.

أحتاج أحياناً إلى أن أنسى كل شيء، حتى نفسي لأراني في مرآة الآخرين، وأخفف عما أنا فيه. بجانبي جاري، لا يجد ما يأكله! أو أنيا الروسية التي كان يحزنك وجودها معي. طالبتي ثم زميلتي في التدريس، التي شلت نصفياً بعد حادث سير. مشتاقة فقط أن تحس بنفسها أنها مالكة لجسدها، وأنها قادرة على الحركة، لا للتسوق، وارتياد المراقص والمسارح العالمية التي كانت تأسرها، والركض المجنون وراء وهم الحياة. فهذا حلم لم يعد ممكناً. أنيتا لم تعد تتجرأ على طلب ذلك. تتمنى فقط الذهاب نحو النافذة لرؤية شروق الشمس أو غيابها. هل تدرين ما معنى ذلك كله؟ إنه يصالحنا مع الحياة. وإذا لم يفعل ذلك، فهذا يعني أننا أغبياء ولا نستحق الحياة ولا السعادة.

أنا لا أحاول أن أخفف عليك، ولكنها رؤيتي للأشياء، في الحياة منذ فترة. تعمقت لدي أكثر، منذ خروجي من الغيبوبة. لا أفلح دائماً، ولكني أبذل جهوداً كبيرة بهذا الاتجاه، ولا أطلب من الحياة الشيء الكثير. وحياتك تكفيني الكتابة ونبض القلب لشخص أحبه، ويمنحني مبرراً إضافياً للحياة. لا تصدقين إذا قلت لك إن الكتابة منحتني أجمل الأشياء، الحب، السفر، النبل، التعرف على أناس في القارات الأربع، حب الناس. ولا يهم إذا كونت لي أعداء خلال حريتي، فهم غير مهمين في حياتي، وأجهد نفسي لأصل يوماً إلى قوة عدم الرد عليهم ولا اعتبارهم. الحياة أجمل حظ وأكبر اكتشاف. ربما كان الله مثل عالم يكتشف دواءه بالصدفة. هكذا كان بالنسبة لمكتشف المضادات الحيوية. هكذا كان أيضاً بالنسبة لنيوتن وهو يكتشف قانون الجاذبية. وهكذا كان بالنسبة لكالميت وغيران[130] وهما يكتشفان دواء السل بفعل السهو والنسيان والخطأ الصائب! لايزال الله تحت دهشة الضوء، لأن الحياة هي الضوء نفسه. أنت تعيشين فيه لأنك منه.

قد لا تكون محبتي لك كافية، ولا تدعي أنها تمنحك النور كله، ولكنها توقفك من حين لآخر على قبلة هاربة ومسروقة فقط لتقول لك: يا مجنونة قومي، اليوم جميل ومن العبث تضييعه كما كان يقول جاك بريفر عن يوم مشمس: جميل هذا اليوم، ومن العبث تسليمه لربّ العمل![129]. قبل أن أعرفك، وأنا في تيه الحرية، لو قيل لي إن امرأة حمقاء ستضعني على الحافة وتفتش قلبي عن آخره، ما كنت صدقت! لكن ذلك حدث، وأنا سعيد بكل مخاطر هذه الحافة، وأنا لا أدري لأي مسلك ستقودني، ربما نحو الموت! لكني غير نادم، بل غير سائل. لأني في أدق لحظة صغيرة من عمري، سأقول أشهد أني عشت ومنحت الحياة أيضاً لغيري. الباقي غير مهم. فلا خلود في الدنيا إلا لنثار الأجسام.

قبل سنوات، كنت أظن أن العائلة هي كل شي، لكني عندما وقفت على الحافة الأخيرة لم أر شيئاً آخر سوى عمر كان يفترض أن أملأه جنوناً ولم أفعل. الباقي أمنحه ما أستطيع، لكن حياتي ملكي. وربما مأساتي الكبيرة هي صراعي من أجل حريتي، أحياناً أتوصل إلى عيشها، وفي أحيان أخرى، أشعر بتعدّ قاس عليها، فلا أعرف ماذا أفعل، لكني أصل دائماً إلى إيجاد المسلك. لست من النوع الذي يستسلم وإلا لانتهيت منذ الطفولة الأولى.

كتبت عن طفولتي، وعن قسوة الفقر والحاجة، لا رغبة في ذلك، فقط لأدرك هول المسافة التي قطعها ذلك الطفل المهذب والصغير والملعون أيضاً وهو يظن أن الدنيا لها حدود اسمها القرية. يحدث معي أحياناً أن أقف في وسط أهم شارع في نيويورك، أو في لوس أنجلس، وحتى في باريس، أو في أمستردام، في باس- تير في الكاريبي، وتحت أمطارها الدافئة، أو وأنا أقطع بهو مطار طوكيو الذي لا ينتهي، أو وأنا أتعثر عبر حائط الصين، أو حتى وأنا في عمق صخور الربع الخالي، هل يعقل أن كل هذا يحدث لذلك الطفل الذي لم يخرج من قريته إلا بصعوبة، وكان يظن أن كل سكان المدن قتلة! وأنه سيسرق في أول لفة، تحت البناية العملاقة. لا يا عمري، الدنيا تمنحنا مزات لا نتصورها فيّ حياتنا، وحتى لو لم أكن أنا، كانت حماقتك الجميلة، وفيض حريتك يقودانك نحو شاب أجمل، وأهم وأفضل من ذلك التروبادور

التائه في مسالك الدنيا، ويمنحك الحياة التي تليق بك، ويمشي بك مسافة طويلة وجميلة نحو أجمل خفاياها.

ربما أشياء كثيرة تغيب عنك الآن. عن حياتي، وحتى عن جنوني الذي يشغلك. لا تخافي، فأنا أحبك، وكل كلمة قلتها لك، خرجت من قلبي. ويوم أشعر أن قلبي يكذب عليك، سأدفنه حياً حتى ولو استعطفني عن خطئه ليلة بكاملها. لا يهم أن تنتفضي ضدي لأني سرقت اسمك الأول. ولا يهم أن تكون مريم مصيدة كل النساء لأنهن كلهن يشبهنها، ولا تشبه واحدة منهن! المهم أن تشعري أن هناك رجلاً، في هذه الدنيا، يفكر فيك بلا هوادة. وأن هذا الرجل وضع بين يديك عمراً مشحوناً بالخوف وبذاكرة لا تشتهي إلا أن تعيش. الباقي ليس مهماً. هل تدرين الآن لماذا أنوي أن أكتب سيرتي مثلما أشتهيها؟ ببساطة لأني لا أريد أن أتركها بين يدي أي شخص آخر غيري. لا أحد يعرف متاهاتي الداخلية مثلي. يخيفني الكتبة. لقد رأيت وجوههم التي أخافتني يومها في المقهى، لأنها كانت وجوهاً لا أعرفها. وجوه شخوص عادوا من قبورهم، لا ليطلبوا مكاناً لهم بين الأحياء ولكن ليقتلوا كل من لا يشبههم. خرجت يومها من المقهى لأني خفت أن أتقيأ. عادتي هذه لا تعرفينها فيّ. عندما تصل الخيبة أقاصيها أتقيأ. وعندما أتقيأ تخرج مرارات كثيرة دفعة واحدة. خفت يومها أن أموت قهراً أمامك. ولكني قاومت لا لأرضي أحداً، ولكن لأبقى حياً فقط. ربما ارتكب الأنانيون أهم خطأ في حياتهم لأنهم نبهوني لأحقادهم الدفينة تحت ركام الضغائن، ولا ادري كيف ستكون العواقب. ولكن شيئاً فيّ اندثر للمرة الأخيرة، في ذلك المقهى، وربما بشكل معلن ونهائي. شيء مات فيّ ولا حل لدي.

على فكرة، وجدت عنواناً لسيرتي وأنا أعرف دلالته جيداً: عشتها كما اشتهتني! ما رأيك؟ أتحدث عن الحياة طبعاً وليس عن امرأة. كان يمكن أن يكون: عاشتني كما اشتهيتها ولكني في هذه الحياة سأكون رومانسياً كاذباً. فالحياة لم تمنح لي في طبق. فقد وصلت عداوتي تجاهها أحياناً حد التفكير في الانتحار. ولا حتى عشتها كما اشتهيتها. فهذه نرجسية تتجاوز قدراتي على التفكير. لا نعيش أبداً الحياة كما نريدها. لها نظامها الذي

يقهرنا أحياناً. كلما انغلقت سبلها أعود إلى هشاشتي الأولى، وأنصت إلى الطفل الذي فيّ. فهو لا يخذلني لأنه خارج كل الأطماع. وكلما انزلقت قليلاً عن الطريق «وتضببت» الرؤيا في عيني، أعادني إليها وهو ينبهني فقط بعينيه. لم أعد قادراً على فعل شيء أندم عليه بسرعة. لا العمر يسمح ولا الرغبة متوفرة. كلما انغلق المخ، استرشدت بالطفل الذي فيّ. عندما أتعب من الحياة، لن أيتمه، سأخذه معي. كنت طوال عمري مثل الفراشة، أركض بجنون نحو النور القاسي والقاتل. أخسر أحياناً جلدة الوجه التي أتركها ورائي ملتصقة بزجاج القنديل. شعر الحاجبين من كثرة تفرس قداسة النار. رؤوس الأصابع من فرط شهوة لمس ألسنة اللهب الأزرق. ولم تكن لدي نظارات واقية من النور المبهر والمعمي للأبصار! لم أكن ملاكاً أبداً، ولا حتى شيطاناً قادراً على شقاه. كنتُ فقط أنا. لا أكثر... ولا أقل. حريتي هي أكبر قيودي العنيفة وقد تقتلني يوماً. لقد حصلت عليها بمشقة. فلا أريد فقدانها بسهولة. أنت جزء مهم من هذه الحرية. من هنا أيضاً أزمتنا وجرحنا المشترك.

تنتابني أحياناً عقدة ذنب غريبة، فأشعر أني أعذبك بجنوني وحريتي. صدقاً أتمنى لك كل الراحة في الدنيا. لك في مايا، ميراثنا المدهش والسري. أستطيع اليوم أن أشهد أننا مررنا على هذه الدنيا بسرعة تشبه سرعة الصواريخ العابرة للقارات. كنا نريد أن نعيش كل شيء، في اللحظة نفسها، وأن لا نخسر ثانية واحدة من جنوننا. لهذا لم نجد وقتاً كافياً لنستمتع بالشكل الكافي. لكننا، على الرغم من ذلك، التهمنا كثيراً من الزمن الذي أعطى لحياتنا صدقها، ولأجسادنا فخر العيش الجميل. كبرنا ولكن جسدينا ظلا غضين كتفاح الحمقى. كلما أغمضت عيني، رأيت نفسينا قد تجاوزنا بالكاد العشرين. تخيلي! ربع قرن، بلا توقف، من الحب والعذاب الجميل. تخيليها للحظة أننا قضيناها في حياة زوجية ها... ها...!

لا تحزني عمري عليّ. لقد تجاوزت مرحلة الخطر، لأني بكل بساطة انتهيت وبدأت أتحلل وأتحول إلى نثار لي أحلام. كل الدنيا لا تكفيها. أحتاج إلى حياتينِ متوازيتين لكي أكمل رحلتي. أشعر أحياناً أنني بسرعتي هذه،

عشت أكثر من قرنين. ولهذا ألح عليك أن لا تتركي أبداً ما يعطي لحياتك معنى عميقاً: الموسيقى. اعزفي حبيبتي وحدك في الأوبرا، واسمعي صوتك، أحسن من التشكي والدخول في دائرة الموت مثل الآخرين. اخرجي كلما كان ذلك ممكناً، ولا ترهني حياتك بأحلام رجل وأوهامه، كيفما كان حتى ولو كنت أنا. لقد كنا عاشقين بلا ضجيج أبداً.

هل تعرفين شهوتي الكبيرة الآن ما هي؟ أن أجيء نحوك، وأهديك وردة، وأنام على صدرك قليلاً. ثم أدعوك لتنامي على صدري أيضاً. وأتركني أتمادى شيئاً فشيئاً نحو مطر جميل يخفت كلما لمست جسدك الحي، في شكل متواتر مع إغفاءتي ونومي. بعدها لن أطلب شيئاً آخر. أقبل الموت بصدر مفتوح على الدنيا.

أشهد الآن بعد كل هذا الزمن الهارب، أن وهران ختمت قصتنا بالشمع الأحمر. وصوتك العذب سكن الدم ولن يغادره أبداً.

ثرثرت عليك لأني كنت في حاجة لأن أُسمعكِ ما في قلبي وأنت قبالتي، قرب النافذة الزجاجية الواسعة المفتوحة على أحد أطول جسور فينيسيا تنظرين إليّ، تتأملين هذا الرجل الذي لا شيء سيقتله يوماً إلا شعلة لحظة التي يركض عبثاً وراءها.

لك عمري أصدق قبلة مسائية

مازلت هنا في هذه المدينة الساحرة، وأعرف جيداً أني خيبت ظنك هذه المرة أيضاً إذ فضلت السفر إلى فينيسيا بدل المجيء إلى حافتنا البحرية في الجزائر، لأني سأكون الغائب الأكبر على قلبك. ليكن. عذري الوحيد هو أني لا أريد أن أقهرك بسفرة مسروقة، ثم أعود راكضاً صوب فراغ كل يوم يزداد اتساعاً.

سيني الذي يعتذر لك مرة أخرى عن الثرثرة غير المفيدة.

فينيسيا، ١٤- ٠١- ٢٠٠٩.

لو فقط... تقتل مريم...

سيني الحبيب،

سعيدة من أجلك. قد يكون من المبكر جداً كتابة سيرة ذاتية. أمامك عمر آخر ستعيشه طويلاً، ولكني أدرك انشغالك القوي. ثم أن البقاء في فينيسيا كل هذه المدة سيخرجك من دوائر الخوف. أنا سعيدة لكل هذه الغبطة التي أعادتك إلى الحياة أكثر قوة، بدل أن ترميك في دهاليز الخوف والارتكان إلى الموت.

سأتركك لهدوئك في فينيسيا، ولا أريد أن أنغص عليك وأنت في مدينة ستعيدك إلى طفولتك ومائك. أشعر أنك سعيد ولم يدخلك ملل المدن، لأنك في مكان يخرج عن العادي.

صدقني حبيبي أني حزنت على ما حدث لأنيتا المسكينة، حتى أني بدوت لنفسي، في لحظة من اللحظات، في أقصى درجات القبح. الدنيا ظالمة وأتمنى أن تعذرني على كل حماقاتي تجاهها. غيرتي هي التي وضعتني في مسالك الجنون والكراهية. لا أدري لماذا علينا أن نفقد الناس لنعاود النظر إليهم بشكل آخر، أكثر حباً وتسامحاً؟ لا أعرف، ولكني حزينة على جمالها وجسدها المفتوح على أقاصي الجنون والحياة. أنا متأكدة من أنها ستجد نظاماً آخر لحياتها لا يفقدها رغبتها في أن تكون كما تشتهي.

حياتي تغيرت قليلاً، عليّ أن أنظر للأشياء المحيطة بي نظرة أخرى. كان عليّ أن أتخيلك في غيبوبة طويلة لأستطيع أن أفهم لماذا سرقت مني مريم كل حياتي؟ يبدو لي أني بدأت أنتصر عليها. فقد مرضتني حبيبي. وعلي أن أظل بعيدة عنك قليلاً لأقتنع أنك خرجت من حياتي دون أن تغادر قلبي، وأتمكن من تجاوز مريم. لقد قتلتني ومحتني، وكان علي أن أكون هكذا حتى ولو تألمت قليلاً. ولكني انفصلت عنها وأصبحت أراها، وأنظر إليها بشفقة.

قلت في نفسي أول ما فتحت هذه الحرب، إني يوم أتوصل إلى أن أطلق النار على مريم، سأعود إليك كما أريد. لا تسألني اليوم على ما أنا فاعلة. في رأسي شبكة عنكبوت. أحتاج إلى وقت كبير لأفكك كل خيوطها وعقدها.

سيدي حبيبي

ما زلت أعيش على توقيتك الصعب، والمستحيل أحياناً.

عندما دعيت، مثلك لم أرفض. أنا في صيف غرناطة الأندلسي مع فرقة إسبانية. الشباب الذين فيها رائعون. اشتهيت أن أخبرك لتأتي، ولكني فضلت أن أعود إلى أعماقي، كما قلت لك لأتمكن من تمزيق كل تلك الغشاوة التي أصبحت تؤذيني ولم أعد قادرة على تحملها، خصوصاً بعد مرضك. تخيل، في ثانية واحدة أحسست بنفسي لا شيء. لا أملك حتى حق قول ما يحق لأي إنسان أن يقوله. أن أزورك في مستشفاك كما يفعل جميع البشر! أن أقبلك بدون خشية من العسس المحيط! أن أمد رأسي وأتركك تمسد على شعري، وتفتش جسدي للحظة أخيرة! مثل المحكوم عليه بالإعدام كنت، مع وقف التنفيذ المؤقت، ليس له حتى حق الأمنية الأخيرة التي تمنح عادة للمحكومين قبل أن يعدموا.

هل لي أن أقول لك حبيبي، إني شعرت بنفسي فجأة أنّي لست أكثر من غيمة هاربة، وأنك لم تكن أكثر من سراب؟ قاس هذا الكلام، ولكنه أيضاً حقيقي.

هي أنا. امرأة لم تتعود على رؤيتها. هل تظن أني أرفض أن أمارس معك جنوننا المعتاد في مدينة بحرية ستقيم بها شهراً بكامله؟ لا حبيبي. لم آتي إلى فينيسيا لأني فضلت أن أكون وحيدة، وأتركك مع أشواقك. ربما استطعت استرجاع لزعر الحمصي الهارب منك، بسهولة أكثر. ربما التقيت بعزيز وهو يضحك من آخر نكتة قلتها له. ربما رأيت والدك الذي لم تشبع من وجهه قبل أن تسرقه التربة منك. ربما صادفت جدتك ونمت في حجرها على وقع حكاية مخطوطة جدك الأندلسي. ربما رأيت ماما ميزار وهي تداوي جرحها المفتوح بتربة القرية ونثار الحصاد... أريدك أن تجد في سكينتك المفقودة، وفي هدأتك الجميلة، كل ما سرقته الحياة منك في غفلة من نباهتك.

أنا أيضاً حبيبي، أعيش وضعاً نفسياً صعباً أعادني إلى نفسي منذ أن تصورت أني فقدتك. قلت لك في رسائل سابقة الإحساس الغريب الذي انتابني، وكيف "وجدت نفسي وحيدة؟ لا تستغرب أرجوك! حتى رياض لم يعد يبدو لي عدواً. مجرد ضحية من ضحايا جنوني. سأحرره أو سأتحرر منه، لأننا لم نعد نصلح لبعض. لقد غرق حتى الآذان في وحل الكارتيل. يتحدث عن القتل والانقلابات مثل الذي يتحدث عن أشياء طارئة في حياة أي إنسان عادي. المشكلة أنه يهددني بشكل غير مباشر بيونس ومايا. في قضية ابني لا تسامح أبداً. استطيع أن ارتكب جريمة الأمومة بلا تردد. لا أرى حياتي خارجهما. عليك أن تقبل مني هذا التحول الذي لم أعد أنا سيدته. إن الحرائق التي في داخلي تزداد كل يوم اتساعاً. شيء فيّ انكسر بقوة مثل البلور ولم يبق منه إلا فتات يسير من الصعب تجبيره. احتاج إلى قوة العزلة والانفصال عن كل شيء، لأتمكن من إيجاد توازن مقبول، لم أعد قادرة على تحقيقه.

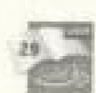
مريم ليست رهاناً فقط، ولكنها الحياة المسروقة نفسها.

قلتَ لي ذات مرة وأنت تسخر مني كعادتك:

- أي مريم يا مهبولة؟ كل مريمات الدنيا لا تساوين دمعة واحدة تنزل من عينيك. مريم ليست إلا استعارة للعجز المستشري في محيطنا. عجزنا، وجانبنا الخفي الذي نريده جميلاً، ولكن قوة طاغية تسحقه أمام أعيننا بدون أن نستطيع فعل أي شيء، في مجتمع ينام على أعظم الكذبات. لا حلّ لنا إلا الدخول في اللعبة والتحول إلى بهلوانات سخيفة، أو المقاومة حتى ولو كانت وسائلنا بدائية. مريم قناعنا ضد حياة ليست سهلة ووجوه قاتلة تنتظرنا في الجانب الخلفي من جنوننا. أنت النور الذي به أرى الدنيا.

ضحكت يومها، وأنا لا أعرف بمَ أجيبك، ولا كيف أريك صدقك. لكني أستطيع حبيبي اليوم أن أقول لك بلا أدنى تردد:

- لا يا عمري... لا. مريم كفّت عن أن تكون مجرد امرأة من ورق يمكن أن تحرقه متى نشاء. لقد أصبحت سلطة، وصرنا أنا وأنتَ أوراقاً في يديها.



تفعل ما تشاء بنا وبأسرارنا! تدخل كل البيوت والقلوب بلا استئذان! الجميع يعرفها! من يعرف ليلى القابعة في مكان ما من هذه الأرض؟ من يعرف أحزانها ونزقها؟ من يعرف أنها هي أصل الأشياء؟ امرأة الظل حبيبي، لا أكثر. أنت نفسك لا تستطيع أن تعلن عن حبك لها كما يفعل الجميع، وتقول إنها هي التي تعطي معنى جميلاً لحياتي... صحيح أنك تخاف عليَّ من قتلة الكارتيل، ولكنك تخاف أيضاً على نظامك الذي شيدته على مدار ربع قرن من المثابرة. معك حقك. استرح قليلاً عمري، اخرج من الأدب للحظة، وتوجه نحو الحياة فقط لتراني وتتأكد من أني لست مريم. أرى في مريم هذه الازدواجية الغريبة التي لا تطاق. إحساس غريب بدأ يتربى فيَّ عندما زرتك وأنت تحت رحمة الأنابيب التي تربطك بالحياة. كانوا خائفين على كل شيء فيك: قلبك، تنفسك، حركتك، صوتك! ولم يكن أحد يعلم أنك علقت حياتك كلها في انتظار امرأة ستأتيك من وهران، حاملة في يديها قرابين الحياة. لقد صليت من أجلك كثيراً وطلبت من الله أن ينتزع من أيام عمري ثلثها، نصفها، كلها، ويمنحها لك.

لا أدري ماذا أقول لك حبيبي؟ جرحك يتوغل فيَّ بعمق وبلا نهايات.

أشعر كأنه علينا أن نوقف كل هذا الوضع بواحد من الحلّين. إما أن نرمي كل شيء وراءنا ونركب سفينة تتجه بنا إلى آخر الدنيا، وهناك نقضي ما تبقى من العمر مع بعض، أو نختار الحل الأنسب والأقرب إلى العقل، ونخرج مريم من بيتنا ومن كتبنا ومن ذاكرتنا، ونعود إلى أنفسنا كما اشتهينا، نحرق الأقنعة ونواجه الأشياء بشجاعة حقيقية وليس بالاستعارات!

لقد استفادت مريم من جسدك، وعاشته داخل اللغة، بالمتعة التي اشتهتها وبالشكل الذي أرادته، وعشتُ معك اللحظة نفسها، ولكني بكل مآسي الاغتصاب المتكرر، الذي أدفع ثمنه كل مساء مع رياض أو مع أشباحك. أعطتك هي أيضاً طفلين، ولم تفعل أكثر مما فعلتْ، ولكنها ظلت داخل متعة الجمل والنعوت والاستعارات والبلاغة المدهشة، وظللت أنا داخل المتعة التي تتخفى وراءها جهنم وأسئلة الرعب. أقول أحياناً: ماذا لو يُجن رياض ويذهب نحو مركز التحاليل من أجل اختبار DNA مايا، ليرتاح من شكوكه؟

معه حق. يجب أن تذهب أمواله نحو ابنيه البيولوجيين. يحدثني أحياناً عن مشكلة توريث كل أمواله وعقاراته! عندما أقول له: يونس ومايا، يلتفت صوب بياض الحائط ولا يقول أية كلمة. أحياناً أقول لنفسي: لمَ الخوف من شيء مارسته بعيون مفتوحة؟ ليفعل الكارتيل ما يشاء. ربما حررني من ثقل كذبة لا أدري إذا كنت قادرة على الاستمرار فيها. هناك شيء غير عادل وضعته الطبيعة في طريقنا وحاصرتنا به. ولداك منك ومن زوجتك. ومن حقك أن تسعد بهما. لكن أنا... مايا ابنتنا ولا علاقة لها برياض سوى أنه زوج أمها! ربما حاسة الشم تشتغل فيه بقوة مثل حيوان بري، عندما يشعر فجأة أن الأبناء الذين يرضعهم، ليسوا له. لا يتوانى عن أكلهم أو تمزيقهم، كما تفعل القطط والنمور عادة. وحياتك أكل رأسه ورأس الكارتيل الذي ينتمي إليه، قبل أن يمسسهما بأذى.

حبيبي،

هل بردت شعلتنا؟

لا أعتقد، ولكن شيئاً انكسر أعطاني الإحساس بأنك سلمت أمرك للدنيا. لا طلب لي اليوم لكي نستمر إلا أن تحضر معي جنازة مريم، لكي نستطيع أن نستمر مع بعض، وأستطيع أنا أن أعيش بجانبك عالية الرأس وليس كسارقة. مريم التي خرجت من نطفة مجنونة منك. آن لها أن تخرج من حياتك، أن تذهب للمرة الأخيرة نحو أقرب متحف تنام فيه. ستقول لي للمرة المليون، إنها مجرد لغة. وأقول للمرة المليون أيضاً: لا. لا يا عمري بهذه اللغة، تمنحها فرصة الاستمرار بيننا. ستجد لذة لا تضاهى لتنام في سريرنا، وتعيش على صمتك وتواطئك غير المعلن معها، بقدر ما تمنح الحياة لها، تقتلني، لأنها تشبهني وليست أنا. تحسسني دوماً بحرية المرأة الورقية المطلقة، وبعقدة استحالة أن أكونها، بالتحليق بعيداً داخل ألوان السماء، وبقائي مسمرة على أديم أرض احترقت منذ قرون وأصبحتُ جزءاً صغيراً من رمادها.

هذه هي الحقيقة التي تنتابني الآن وأتماهى فيها، فلا تغضب مني حبيبي.



كما تلاحظ، لم أنس شيئاً من تفاصيلنا الحياتية. الذاكرة تتقد لحظة الخيبة والانكسار، وتنام مثلنا عندما نسكرها بنبيذ السعادة والأشواق الجميلة. في مرة من المرات قلت لي: اعزفي حبيبتي كل المقاطع التي تشتهين، ولكن اكتبي أيضاً، فأنتِ تملكين حاسة جميلة وعميقة للكتابة. اكتبي. صمتُ، لا لأني عاجزة عن الكتابة، فقد ابتليت بأبجديتك ولغتك منذ زمن بعيد، ولكني كنت أنتظر البركان العاصف الذي يعيدني إلى مجرى النهر. أشعر اليوم، بعد كل هذه القنابل الموقوتة التي تنفجر في داخلي الواحدة تلو الأخرى، أني بدأت أعود إلى مياهي الطبيعية. ها أنا ذي أكتب لك، في غيابك لكي أستطيع أن أكون.

أعتذر أني خسرت مواعيد كثيرة معك، وكان أهمها موعد فينيسيا. ليس مهما. أنا أحس أحياناً أني خسرت موعداً أهم من هذا كله: يوم صدقت أني مريم، فسلمت لها شأني. قبل أن تتمادى لتصبح هي السيدة بلا منازع في بيتي وفي محيطي، وأتحول أنا إلى مجرد امرأة مقتولة، تعيش في ظلال جنونها.

سيني الغالي.

امنحني حبيبي فقط فرصة قتل مريم فيك، لكي أستطيعَ أن أعيش معك بقية عمري، مثلما أحلم وبالشكل الذي تريده. ولا تسألني لماذا؟ الإجابة عندك، ولم تعد اليوم تهم كثيراً. لك الإجابات كلها، في ربع قرن من الخوف والصمت، والأقنعة الكثيرة التي أستطيع اليوم أن أفتح متحفاً خاصاً بها.

ربع قرن من الصبر والتناسي.

ربع قرن... «باسطا»[122] حبيبي... «باسطا».

حبيبتك التي لا تتوقف عن الإنصات إلى قلبك المتعب.

غرناطة، أواخر شتاء ٢٠٠٩

-١-

«باسطا عمري... باسطا... باسطا»

أخيراً تحولَ الجنون إلى حقيقة.

رتبت كل شيء قبل الخروج. كدت أنسى الغلاف الذي يحوي وثيقة مخبر التحاليل المقابل للبريد. عليَّ أن أعرف وضعية هذا الرحم الذي قالت عنه الطبيبة منتفخ بشكل غير عادي، وكأن كل معضلاتي اليومية الأخرى لم تكن كافية أبداً.

مسدسي الذي أصبح لمسه وحمله لا يزعجني أبداً، على الرغم من ثقله الواضح.

شعرت وأنا أرى كومة الأوراق المسحوبة، والمصورة، والمكتوبة، والرسائل، والصور، التي انتظمت في شكل كتاب، كأن عمرًا بكامله اختزل في لحظة مسروقة من الحياة. تحول كل الجنون الذي كان بداخلي في شكل حرائق، إلى شيء يشبه المدونة. مدونة امرأة الظل التي قادتها غيبوبة حبيبها، نحو رهافة في الحس، ورغبة فياضة لتفتيش داخلها بقسوة.

الشمس على عتبات التجلي النهائي.

وضعت المائتين والخمسين صفحة داخل الغلاف الكبير الذي أحضرته خصيصاً لهذا الغرض. تحسسته قليلاً، وزنته في يدي، ثم أغلقته بإحكام. كتبت اسم سفيان وعنوانه في متحف ستيدل، بفرانكفورت، حيث يعمل كخبير في الفن البصري، مع احتفاظه باشتغاله في مجال الكتاب كناشر ألماني – عربي يهتم بالترجمات أكثر. عنوان المتحف أضمن من عنوان دار النشر، كما أكد لي في آخر مكالمة.

K. Maa. Sofiane.
Stadel Museum.
Schaumainkai. 63. 60596. Frankfurt am Main.

نظرت إلى الساعة للمرة الأخيرة.

استغربت مرة أخرى من اصطفاف الأرقام نفسها ، في خط مستقيم. حالة



أصبحت تتكرر معي كثيراً. إنه وقت الحماقة الذي تحدث عنه الأجداد القدامى عندما تصطف الأشياء المتشابهة، وعندما تتقاطع كل الأرقام في خط واحد. فكرت أن أكتب رسالة أخيرة لواسيني أحدثه فيها عن هذه الصدفة ولكني تراجعت. استدركت في اللحظة نفسها أني انتهيت من كتاب، لم يكن في النهاية إلا رسالة طويلة. ثم أني، وللمرة الأولى، لم أر جدوى للكتابة له.

كان السكريبتوريوم هادئاً بعد كل هذه العاصفة النووية الداخلية التي عشتها. بدأت الأشكال كلها تظهر بوضوح كبير بعد أن تسربت شلالات النور من كل الجهات. ظهر الكمان كاملاً خلف الكمبيوتر، ولمع المسدس بقوة تحت الشعاع الفضي المتسرب من الكوة. فكرت في مريم لحظة، ثم تسللت يدي نحو المسدس للمرة الأخيرة.

لم أمنع نفسي من التشاؤم وأنا أرى أرقام الساعة مسطرة بهذا الشكل.

فجأة، أعادتني استقامة الأرقام، هذه المرة، إلى الرقم الأول الذي تلألأ في خط واضح، عندما جلست خلف الكمبيوتر، ورفعت رأسي لأول مرة صوب الساعة التي كان الزمن فيها يبدو مستكيناً وثابتاً.

لم أفهم وقتها دهشتي وتساؤلاتي. لم تكن الأرقام المنتظمة والمتشابهة، إلا عيد ميلادي الذي غاب عني فجأة، من شدة ارتباطي باللحظة القاسية التي كانت تخترقني. فأنا ولدت في اليوم الرابع من الشهر الرابع. كنت بالضبط، نصف واسيني بالمقياس التنجيمي والديني. فقد ولد هو في اليوم الثامن من الشهر الثامن.

نسيت أن حياتي شارفت بسرعة على نصف القرن، وانفتحت عيني بقوة على لحظة الخروج الصعب من دنيا لم تكن دائماً طيبة، وكما أشتهيها.

ولهذا عمري، اعذرني، باسطا... باسطا.

-٢-

- يا يما! أين كانت هذه البلية؟

وأنا أعبر بهو السكريبتوريوم الضيق، سمعت طنين الذبابة التي كانت تفسد عليَّ هدوئي. بحثت عنها بعيني، ولكني لم أرها. تحسست صوتها بصمت القبور، ولكني لم أسمع شيئاً من طنينها، وكأنها كانت تلعب معي لعبة القط والفأر.

رأيت نفسي في المرآة للمرة الأخيرة، قبل الخروج.

لم أختر ذلك عن سبق إصرار وترصد، ولكني وقفت وجهاً لوجه أمامها. تأملت وجهي طويلاً. كنت بدون أية مساحيق. أريد أن أراني قبل أن أخرج من السكريبتوريوم، مثلما أنا، لباسي البنفسجي الجميل. تذكرت مريم، المولعة بمرايا الآخرين. رتبت شعري، مسحت على وجهي، بالضغط عليه قليلاً لكي يسترجع حمرته الهاربة، ثم مسحت على عيني بهدوء لكي أنزع كل الثقل الذي نزل عليهما من قلة النوم. فجأة رأيت أن وجهي الذي بدا مرتبكاً، لم يكن يشبهني، أو على الأقل هكذا شعرت. كانت ملامحي غريبة، لا تستقر على قرار، تتحرك باستمرار كالموجات النيلية التي تتهادى مداً وجزراً، تغيب وتظهر كسحب هاربة، تتكسر وتتداخل. شعرت بدوار غريب، ربما كان التعب هو السبب. أغمضت عيني قليلاً، ثم فتحتهما، ولكن الوضع لم يتغير. كان وجهي خليطاً مني، ومن وجه امرأة مبهمة. امرأة من ضباب وألوان، اختلط فيها الأحمر بالأسود، والبنفسجي بالأزرق النيلي. لأول مرة أدرك أني لم أكن أعرف وجه مريم! لم أرها ولا مرة واحدة في حياتي! فجأة رأيت بعض ملامح واسيني تختلط بوجهي. كان متعباً هو أيضاً. ثم سمعت الذبابة الزرقاء المجنحة التي احتلت الخلفية. رأيتها تدخل في عمق المرآة. كانت كبيرة. ذبابة اللحم كما كانت تسميها جدتي، التي كلما التصقت بشيء، أفسدته. أكره أنواع الذباب لدي. لم أستطع أن أفصل بين الوجوه كلها، ولا حتى بين الأشكال التي تداخلت فيما بينها كلوحة زيتية عوّمت ألوانها في الماء كثيراً. أغمضت عيني مرة أخرى لأتفادى الدوار، لكني عندما فتحتهما، كانت الألوان والأشكال الغامضة لاتزال تتقاطع. من حين لآخر تنفصل عن

المرة الأولى في حياتي التي لم أفكر فيها إلا بنفسي.
لم أر إلا البياض الذي محا من مخيلتي كل شيء، حتى واسيني.

– ٤ –

في الخارج، كانت السماء زرقاء.

لمعت الشمس المغسولة التي أصبحت فضية بقوة. خرجت هذه المرة لأدافع عن حقي في المعصية والحياة وبعض الجنون. نصف ساعة قبل أن يفتح البريد لأبعث بالكتاب، وربع ساعة بالضبط قبل أن يفتح مركز التحاليل الطبية أبوابه لأستلم نتائج التحليلات الرحمية.

تدحرجت قليلاً حتى وصلت إلى مخبر التحاليل. كان قد بدأ يستقبل زبائنه. منذ أن اشترى أحد الخواص هذا المخبر الذي كان تابعاً للمستشفى، تغيرت أشياء كثيرة فيه، خصوصاً دقة المواعيد. أحسن.

كنت سعيدة أني لم أنتظر طويلاً. سلمتني الموظفة مظروف التحاليل، وهي تنصحني بضرورة زيارة طبيبي الخاص بأسرع ما يمكن. مثل هذه الأمراض لا تتحمل الانتظار، قالت بصوت يكاد لا يُسمع. سألتها بعفوية، وربما بغباء أيضاً:

– هل هناك ما يستوجب ذلك الآن؟

– في أقرب وقت ممكن. تعرفين أن الرحم مكان حساس.

وأنا في الشارع، استرددت أنفاسي من جديد.

– «واش عرّف عزرينها بما تقوله؟» مجرد ممرضة. تعطي لنفسها حق طبيبة مختصة؟ سأرى مع طبيبي بعدما أنتهي من البريد.

لم يكن لدي أي حلم آخر إلا وصول هذا الكتاب إلى البريد المسجل، ليذهب إلى فرنكفورت، ومنها إلى بيروت. كنت مستعدة لتحمل أسئلة عامل البريد وثقل دمه: ما هي المحتويات؟ لماذا أتعبتِ نفسك يا مدام؟ كل هذه الرسالة؟ ... فأجيبه بشكل آلي وغبي أيضاً، كما تعودت أن أفعل معه: مجرد أوراق

مرقونة على الكمبيوتر. مخطوطة إذا شئت. يرد وهو يكتم بصعوبة ردة فعله المعهودة: يا مدام لماذا تصرين على إتعاب نفسك دائماً؟ كان يمكن ...

– ٥ –

عندما دخلت إلى البريد، حصل بالضبط، ما توقعته. كنت على رأس الطابور.

– صباح الخير خويا. طرد من الأوراق المرقونة.
– صباح الخير يا مدام. كيف الأحوال؟
– الحمد لله.

ثم نظر إلى الطرد ملياً. قرأ العنوان بلغة ألمانية مضبوطة تماماً. فوجئت أنه كان يعرف اللغة الألمانية بامتياز.

K. Maa. Sofiane.
Stadel Museum.
Schaumainkai. 63. 60596. Frankfurt am Main.

– نسيتِ فقط أن تضعي كلمة Germany لأنك تظنين أن كل الجزائريين يعرفون أين تقع فرانكفورت!... قلتها لك وأعيدها عليك مرة أخرى، لماذا كل هذه المتاعب يا مادام؟ بإمكانك أن تبعثي بالمخطوطة مباشرة عن طريق الإنترنت والإيميل، بواسطة الملف المرفق Attach. Files، كما يفعل جميع البشر في زماننا. الإنترنت يوفر لك الراحة والوقت، ولا يكلفك شيئاً.

– المشكلة أني لست مثل جميع بشر زماننا.

- Vous plaisantez! En fichier attaché, un geste aussi simple, le courrier arrive au récépteur en un clin doeil.

- Je le sais bien. C'est juste un desir de ne pas ressembler aux autres qui penchent vers la vie facile, et d'etre soi-meme et de porter son propre parfum, sa propre touche. Je ne veux ressembler qu'à moi-meme. Jen ai assez, cher monsieur, de ceder mon identité et mon territoire [123].

المرة الأولى في حياتي التي لم أفكر فيها إلا بنفسي.
لم أر إلا البياض الذي محا من مخيلتي كل شيء، حتى واسيني.

-٤-

في الخارج، كانت السماء زرقاء.

لمعت الشمس المغسولة التي أصبحت فضية بقوة. خرجت هذه المرة لأدافع عن حقي في المعصية والحياة وبعض الجنون. نصف ساعة قبل أن يفتح البريد لأبعث بالكتاب، وربع ساعة بالضبط قبل أن يفتح مركز التحاليل الطبية أبوابه لأستلم نتائج التحليلات الرحمية.

تدحرجت قليلاً حتى وصلت إلى مخبر التحاليل. كان قد بدأ يستقبل زبائنه. منذ أن اشترى أحد الخواص هذا المخبر الذي كان تابعاً للمستشفى، تغيرت أشياء كثيرة فيه، خصوصاً دقة المواعيد. أحسن.

كنت سعيدة أني لم أنتظر طويلاً. سلمتني الموظفة مظروف التحاليل، وهي تنصحني بضرورة زيارة طبيبي الخاص بأسرع ما يمكن. مثل هذه الأمراض لا تتحمل الانتظار، قالت بصوت يكاد لا يُسمع. سألتها بعفوية، وربما بغباء أيضاً:

– هل هناك ما يستوجب ذلك الآن؟

– في أقرب وقت ممكن. تعرفين أن الرحم مكان حساس.

وأنا في الشارع، استرددت أنفاسي من جديد.

– «واش عرّف عزرينها بما تقوله؟». مجرد ممرضة. تعطي لنفسها حق طبيبة مختصة؟ سأرى مع طبيبي بعدما أنتهي من البريد.

لم يكن لدي أي حلم آخر إلا وصول هذا الكتاب إلى البريد المسجل، ليذهب إلى فرنكفورت، ومنها إلى بيروت. كنت مستعدة لتحمل أسئلة عامل البريد وثقل دمه: ما هي المحتويات؟ لماذا أتعبتِ نفسك يا مدام؟ كل هذه الرسالة؟ ... فأجيبه بشكل آلي وغبي أيضاً، كما تعودت أن أفعل معه: مجرد أوراق

مرقونة على الكمبيوتر. مخطوطة إذا شئت. يرد وهو يكتم بصعوبة ردة فعله المعهودة: يا مدام لماذا تصرين على إتعاب نفسك دائماً؟ كان يمكن ...

-٥-

عندما دخلت إلى البريد، حصل بالضبط، ما توقعته. كنت على رأس الطابور.

– صباح الخير خويا. طرد من الأوراق المرقونة.
– صباح الخير يا مدام. كيف الأحوال؟
– الحمد لله.

ثم نظر إلى الطرد ملياً. قرأ العنوان بلغة ألمانية مضبوطة تماماً. فوجئت أنه كان يعرف اللغة الألمانية بامتياز.

K. Maa. Sofiane.
Stadel Museum.
Schaumainkai. 63. 60596. Frankfurt am Main.

– نسيتِ فقط أن تضعي كلمة Germany لأنك تظنين أن كل الجزائريين يعرفون أين تقع فرانكفورت!... قلتها لك وأعيدها عليك مرة أخرى، لماذا كل هذه المتاعب يا مادام؟ بإمكانك أن تبعثي بالمخطوطة مباشرة عن طريق الإنترنت والإيميل، بواسطة الملف المرفق Attach. Files، كما يفعل جميع البشر في زماننا. الإنترنت يوفر لك الراحة والوقت، ولا يكلفك شيئاً.

– المشكلة أني لست مثل جميع بشر زماننا.

- Vous plaisantez! En fichier attaché, un geste aussi simple, le courrier arrive au récépteur en un clin doeil.

- Je le sais bien. C'est juste un desir de ne pas ressembler aux autres qui penchent vers la vie facile, et d'etre soi-meme et de porter son propre parfum, sa propre touche. Je ne veux ressembler qu'à moi-meme. Jen ai assez, cher monsieur, de ceder mon identité et mon territoire [123].

– ما دخلي بالهوية والأرض؟ كنت أريد فقط أريد تسهيل المهمة عليك، لا أكثر.

– يكثر خيرك، في نظرك، من أكون؟ ما هو اسمي؟

– مدام؟! الله يسامحك. أعرف القراءة والكتابة. لست أمياً، وإلا ما وُضعتُ في هذا المكان. حامل شهادة ماجستير، وأحضر دكتوراه في الاقتصاد السياسي. لكن بلادنا تعلمنا، ثم تفقس بطالين. أنا أيضاً سيطفح الكيل عليّ ذات يوم، وأترك كل شيء في مكانه بلا أدنى ندم، وأصبح مجرد رسالة يرميها أهلي في هذا البريد بالذات، أو يستلمونها منه.

– سألتك من أكون ولم تجبني؟

– تريدين أن تعرفي كل شيء! طيب. ليلى يا سيدتي، أو ليلي في لغة المقربين. عازفة الكمان بالفرقة الفيلارمونية الوطنية التي كسرها القتلة، وتعيدون بناءها بصعوبة مع فرق أجنبية. زوجة تاجر كبير، عابر للقارات مثل الصاروخ. يتاجر في كل شيء، حتى في أعضاء البشر، مثل بقية عناصر الكارتيل الذين يعبثون بخيرات هذه البلاد. ساهم بأكثر من مليار سنتيم لبناء مسجد الجزائر الأكبر، لا تقرباً من الله، ولكن ليرضى عليه أصحاب الشأن... اسمحي لي يا مدام... الحقيقية... أنت أفضل منه، «ما يستاهلكش». لا شيء يخبأ في هذه البلاد. أصبحنا عراة. أدخلي الإنترنت وسترين كوارثنا.

كم اشتهيت أن أسأله عن تهمة تهريب الأعضاء التي ألصقها بعناصر الكارتيل، التي أسمع عنها للمرة الأولى، لكنه حرمني من ذلك عندما قام بشكل فجائي من مكانه مغيراً لهجته وحديثه، وشوش في أذني لكي لا يسمعه أحد. طلب مني أن أضحك. أن أضحك ولو بلا سبب:

ضحكت لسبب غامض.

– اضحكي يا مدام، اضحكي أرجوك، حتى يظن الرقباء أني حكيت لك نكتة فقط لأسليك وأخفف عليك من متاعب الانتظار. اضحكي وإلا سيكون

أمري صعباً. كل الرقباء الذين يشتغلون هنا، هم في خدمة الكارتيل، بشكل أو بآخر.

ضحكت هذه المرة ببلادة.

كان الرقيب يقف وراءنا. يدور برأسه كالبومة، في كل الاتجاهات. عرفته من عينه اليمنى المقوسة، ورائحته التي تشبه رائحة الضباع.

ارتجت الأرض من تحتي قليلاً، ولكني تماسكت. ومع ذلك واصلت ضحكي. لم أضحك هذه المرة من قلبي، كما تعودت أن أفعل، ولكن من جهلي. انسحب الرقيب باتجاه طابور آخر. قلت للموظف الذي كان يعرف الكثير، على عكس ما بدا عليه:

– ومع ذلك يا سيدي، فأنا لست ليلى ولا حتى ليلي.

نظر إليّ كمن يواجه امرأة مجنونة. تغيرت فجأة كل ملامحه.

– أرأيت كيف تغير كل شيء فيك؟

لم يقل شيئاً. وزن الطرد. وضع ثلاثة طوابع عريضة عليه. ختمها. ثم رماه في صندوق كان على يمينه. لم أسمع إلا صوته المبحوح، يطلب الشخص التالي في الطابور، حتى بدون أن يرفع رأسه نحوي لاستلام النقود التي وضعتها أمامه.

– يا الله... اللي بعده...

لا أدري إذا ما كان قد خاف مني، أو خاف مما قاله. لم يكن الأمر مهماً في الحالتين. كنت جاهلة، وربما مهبولة. أحسست أن هذا الشاب المتيقظ، كان مشروع قنبلة موقوتة، قد تنفجر يوماً في هذا البريد المركزي نفسه.

خرجت بدون أن ألتفت ورائي.

نظرت إلى السماء التي خرجت شمسها من وراء دكنة الغيوم القوية. فجأة

شعرت بنفسي حرة. لا أحمل أي شيء، ولا حتى جسدي. فقد رميته في البريد هو أيضاً مع بقية الأوراق.

تذكرت فجأة مظروف مخبر التحاليل الوحمية، الذي لم أكلف نفسي حتى بفتحه.

جلست في زاوية الدرج، عند مدخل البريد، كأية سائحة متعبة. وضعت حقيبتي بين رجلي، ثم فتحت غلاف الرسالة بعصبية لم أفهمها، كأني كنت أريد أن أتخلص من شيء زائد فيَّ. كانت خلاصة تقرير. قرأتها. لم أفهم الأحرف، وعلامات الزائد والناقص، والإشارات المختلفة، وكثرة الأرقام والكسور، لكني فهمت نتيجة التقرير النهائية، لم يكن بها أي لبس أبداً:

Pap test (frottis vaginal) revelant des traces de cellules cancereuses au niveau du col de lutérus. Echographie transvaginale avec biopsie[124].

لم أرتبك، ولكن جسمي برد فجأة، وتجمدت كل حركتي. شعرت بالموت البطيء يبدأني من أصابع رجليَّ، ويصعد كالسهم القاتل حتى الرأس.

كانت المرة الوحيدة التي تمنيت فيها أن تزيحني مريم وتأخذ مكاني، كنت منحته لها بلا أدنى تردد.

لا أدري ما إذا كنت غاضبة على الأقدار أو على الله. انتابتني رغبة عنيفة وغير محسوبة، للالتفات نحو السماء والصراخ بأعلى صوتي ضدهما. شعرت فجأة، في لحظة الظلم القاسية والعبث العنيف، أني كنت بصدد كتاب آخر، لم أكن مهيأة له، ولا قادرة على إنجازه أبداً.

«ربما كان كتابي!

أو كتابك أيضاً. مرآتك الخفية!

- أو ربما لا هذا ولا ذاك... مجرد نثار عمر، يشبه الحياة قليلاً».

تأملت السماء التي غابت شمسها فجأة من جديد، ثم ضحكت بمرارة.

- ياااااااه! ما بقي للعمياء إلا الكحل!

استحضرت فجأة ثقافتي كلها، وما كنت أعرفه عن سرطان الرحم، وأشكاله المختلفة، بدون أن أقوم من مكاني. كنتُ كمن يسترجع محفوظة قديمة.

«... هو رابع أنواع السرطانات عند المرأة بعد سرطان الثدي، والقولون والرئتين. يمس سنوياً أكثر من ٤٠ ألف امرأة في بلادنا. ويداوى بطريقتين: العمليات الجراحية المباشرة، أي بالاستئصال. أو بالإشعاع الخارجي، ويمس فقط الأجزاء المريضة، أو بواسطة حقنة إشعاعية تدخل في عنق رحم المريضة لمدة ساعات أو أيام، في المستشفى»...

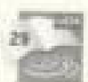
تضبب كل شيء في عيني، ومع ذلك بقيت متوازنة. تساءلت في خلوة العجز والخوف من الموت: هل هو انتقام مريم المسكونة بألف جني يقف في صفها؟ أم انتقام المرايا التي أظهرت لي ما لم أكن أريده؟

شعرت بالإنهاك الكبير ينزل على جسدي، ورغبة لا تقاوم للنوم.

-٦-

حاولت أن أقوم من مكاني. أحسست بجسمي ثقيلاً مثل كتلة رصاص.

عندما رفعت رأسي لأملأ عيني بالشمس التي ظهرت فجأة من وراء الغيوم الثقيلة، امتلأ أنفي بعطر قريب من ذاكرتي. حاولت أن أعرفه ولكني لم أستطع. ضغطت على خلاياي الدماغية لأستعيد اسمه، ولكن عبثاً. كل محاولاتي باءت بالفشل. استنشقت بقوة وتحسست مصدره. التفت لاشعورياً نحو كل الجهات. فجأة توقف نظري عند امرأة كانت تعطيني ظهرها. كانت تختفي بين امرأتين ورجل، لكن جزءاً من جسمها كان يظهر بكامله. استغربت. فيها شيء مني. كانت ترتدي شالي البنفسجي، وقبعتي الزرقاء، ومعطفي الإيطالي، وكوفيتي النيلية. بل كانت تحمل في يدها مطريتي



وحقيبتي اليدوية الشفافة. التفتت نحوي بنصف وجهها فقط، قبل أن تكشر ضاحكة ملء شدقيها. تأكدت هذه المرة من أنها هي. هي ولا أحد غيرها. مريم. مش معقول أبداً! خمس رصاصات متتالية ولم تمت؟ صرخت بصوت اختلط مع زعيق ضحكتها العالية قبل أن تنطفئ بين المرآتين والرجل، الذين غطوها عن بصري، لتنسحب نهائياً كالظل الهارب. لم أتحكم في حواسي التي انتفضت مجتمعة:

- **مريا!!!!!!!!!!م!! ألم تموتي؟؟ لقد قتلتك. فمن أين جئت؟؟؟**

كانت صرختي حادة مثل زعيقها الشيطاني، وطويلة.

حركاتي الغريبة أثارت انتباه الناس الذين كانوا يرتادون البريد جماعات، جماعات، ودَفعتْ بالشرطيين، السمين والرقيق، اللذين كانا بحرسان المكان، إلى الالتفات نحوي. خجلت من نفسي وخفت أن يعتبراني مجنونة. تقلصت في مكاني. ضحكتُ في أعماقي لأن سحنتيهما ذكرتاني بلوريل وهاردي[١٢٥].

فجأة، شعرت بنفسي صغيرة جداً، ومريضة، وهشة مثل الريشة.

- **«هي ظل، وأنا مجنونة.. سفري.. لن تفلت مني هذه المرة.»**

تمتمت وأنا أقوم من مكاني وأسحب لاشعورياً، مسدسي من حقيبتي اليدوية.

خيط العطر يملأ أنفي. تناسيت ثقل جسدي. نزلت بسرعة كبيرة الأدراج العالية التي بدت لي بلا نهاية. كانت عيناي مثبتتين في الفراغ، وفي سماء وشوارع ووجوه، بلا لون ولا حركة.

نسيت كل الأصوات التي كانت تتبعني أو تحيط بي، صرخات الناس... هسهسة الأحذية التي كانت تقتفي خطاي... حتى نداءات الشرطي السمين، التحذيرية:

- **توقفي يا مجنونة وإلا أطلقت النار عليك.. توقفي..**

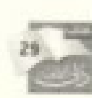
كان الصوت يتضخم ورائي مصحوباً بطنين الذبابة الزرقاء نفسها الذي عاد يتبعني. استغربت الأمر مرة أخرى، إذ إنه يفترض أن تكون ذبابة اللحم، قد قتلت. لم أعبأ بنداءات الشرطي السمين، التحذيرية. سمعت فقط شخير تعبه وهو يتنفس بصعوبة، وسمعت طلقة الرصاص الأولى. واصلت الركض وراء خيط العطر الذي ظل يسحبني نحوه. كان تصميمي مجنوناً ولهذا لم أعد أشعر بأي قلق. الطلقة الثانية، كانت جافة. شعرت بها في حلقي كرمال القفر الميت.

« لقد كنتُ طوال حياتي قوساً بين يدين قاسيتين. وكم من المرات شدتني هاتان اليدان الخفيتان وبالغتا في شدي حتى سمعت الطقطقة التي تنذر بالانكسار. وفي كل مرة أصرخ: فلينكسر.. »

لم يكن صوتي؟ لم أعرف المصدر.

صوت الكمان الذي يذبح في العمق يملأني. أغمض عيني على هذه الحافة الهارية. أرى امرأة تتمزق بين رغباتها وأحلامها الصغيرة والملونة، وبين حياتها الموغلة في عتمة الأرواح المحيطة بها، في وحشة الشوارع وفظاعة الإحساس بالوحدة... أشعر برغبة في البكاء: ذاك الأنين الجميل يعمق إحساسي بالفداحة..كم تراني خسرت طوال هذا الوقت الذي يمضي داخل الخوف والأسئلة التي تبقى معلقة على حواف القلب كالغصة؟

جريت أكثر وكأن الأمر لم يكن يعنيني. مسحت المكان بعيني الحذرتين، بدرجة قاربت المائة وثمانين درجة. عرفت أين هي بالضبط. كانت مريم تسلك الطريق المؤدي إلى واجهة البحر، قبل أن تنزل نحو الميناء القديم. ربما كانت تريد أن تستقل سفينة ما للهرب! لم يكن الشرطي السمين بعيداً عني. فقد شممت رائحة عرقه القوية، وشعرت حتى بظله يثقل جسدي المنهك. ثم طلقة ثالثة قريبة مني، جمدت دمي... ارتعش المسدس في يدي، وأصبح فجأة لا يساوي إلا ثقله. بدأت أتهادى. غمرني فجأة صفاء غريب مع قطرات



الدم الأولى التي نزفت من صدري، ولونت قميصي البنفسجي الجميل، ببقعة حمراء كانت تتسع أكثر فأكثر، كلما جريت.

«هل انتصرتُ؟ أم هزمتُ؟ الشيء الوحيد الذي أعرفه هو: أنني... لاأزال واقفاً على قدمي، مثخناً بالجراح، وكلها في صدري. لقد فعلت ما استطعت... وأكثر مما كنت أستطيع... أما وقد انتهت المعركة الآن، فإنني آتي لأضطجع إلى جانبك، ولأصبح تراباً[١٢٦]... ».

سمعت صوته مرة أخرى. الصوت والنبرة نفسهما. كان هذه المرة واضحاً كهذا اليوم الجميل. من هو؟ من قال هذه الجملة التي أدخلتني فجأة في دوار الموت؟ أعرفه ولكني نسيت.

أركض. أحاول أن لا أتوقف. أتشمم الأشياء كحيوان بري ضائع. أشعر بجسدي أخفّ من الريشة وهو يتسلل بين الناس ببطء شديد. كان تكاثرهم المتزايد يشبه جذوع وأغصان الأشجار الاستوائية التي سلكناها أنا وواسيني في جزيرة القديسات[١٢٧]. يأتيني صوت مسقط المياه الدافئة التي تخفينا وراءها ومارسنا هبلنا الجميل. في لمح البصر، انتابتني مايا وهي تستمتع برمال الكاريبي البيضاء ومياه جبل الكبريت[١٢٨] الدافئة. •

أحاول عبثاً أن أجد مسلكي للعبور نحو الجهة الأخرى. أطير في الفراغات اللدنة. فجأة شعرت بعيني تثقلان وتستسلمان لنوم لذيذ لم أعرفه منذ زمن بعيد. تملكني نوع من الدوار الساحر. وقبل أن تنطفئا على نور شمس انعكست بقوة على سطح البحر الأملس كمرآة، لمع في ذهني للمرة الأخيرة اسم صاحب الصوت الخفي، الإله الكريتي المجنون، الذي كنت أبحث عنه. تأكدت نهائياً من مصدر الصوت، من مسلك مريم، ومن نوع عطرها.

عطر أنثى السراب...

خريف ٢٠٠٩.